

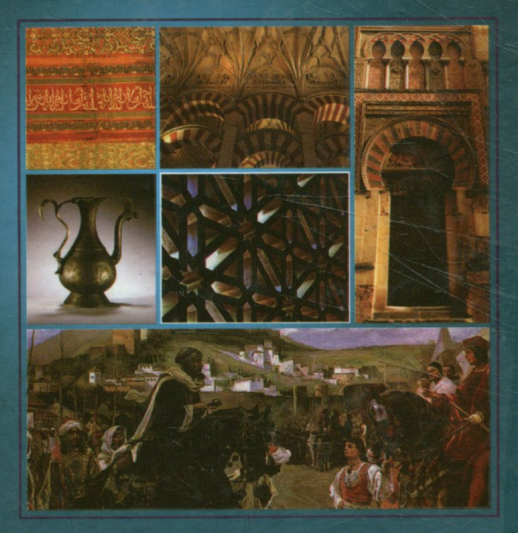
دار الكتاب الحديث

دار العيدروس للكتاب الحديث
موسوعة إسبانيا الإسلامية

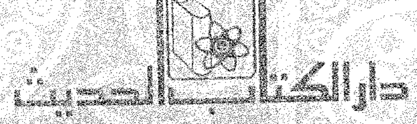
العصر الأندلسي

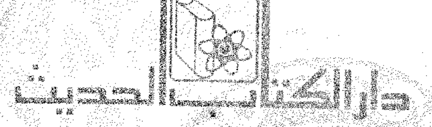
دول الطوائف

والأسر الحاكمة في الأندلس



البروفيسور/محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية - رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات


دار الكتاب الحديث

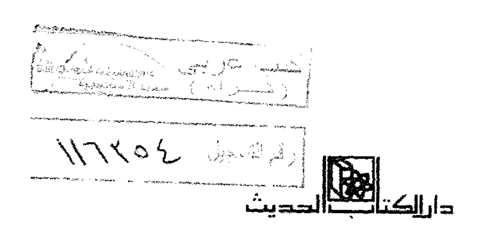

دار الكتاب الحديث

sharif mahmoud

دار العيدروس للكتاب الحديث
موسوعة أسبانيا الإسلامية

العصر الأندلسى
دول الطوائف
والأسر الحاكمة في الأندلس

البروفيسور / محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية -
رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات



العيدروس ، محمد حسن .

موسوعة أسبانيا الإسلامية/ محمد حسن العيدروس

. ـ ط 1. ـ القاهرة: دار الكتاب الحديث ، 2011

360 ص ؛ 24سم .

تدمك 2 449 350 977 978

1- الأندلس – تاريخ – ملوك الطوائف - موسوعات .

أ- العنوان.

953.071203

رقم الإيداع 21012 /2011

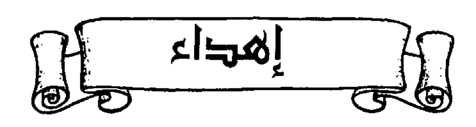


www.dkhbooks.com

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dk.hadith@yahoo.fr

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [التوبة]. ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) ﴾ [الحشر]. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (١١) ﴾ [الرعد]. ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (١٤٠) ﴾ [آل عمران]. ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد]. ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]. ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ (١٢٠) ﴾ [البقرة]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٤) ﴾ [النساء].



إلى كل من دافع عن أرض الإسلام والمسلمين في وجه الأعداء الطامعين والمحتلين لأراضيها... إلى الذين قاوموا وكافحوا وقدموا أرواحهم في سبيل الله وفي سبيل الإسلام والمسلمين ضد الاستعمار المسيحي البريطاني والفرنسي والإسباني والأمريكي. إلى الأتراك العثمانيين الذين أوقفوا الزحف المسيحي الصليبي لديار المسلمين أكثر من ستة قرون. وإلى الذين جاهدوا واستشهدوا وسقطوا جرحى دفاعًا عن كرامة الإسلام والمسلمين. وإلى كل من يدافع عن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس بكل الوسائل المتاحة سواء بالسلاح أو بالقلم أو بالدعوة الحسنة حاضراً ومستقبلاً.

وإهداء إلى والدي المرحوم السيد الشريف/

حسن أحمد علوي العيدروس

والذي علمني بأن كرامة الأمة الإسلامية والإسلام هي أغلى ما في الإنسان، وبدونها لا وجود للإنسان وللحياة الكريمة.

أطلب من الله سبحانه وتعالى أن يطيب ثراه

ويغمده الجنة إن شاء الله..

الفاتحة

إلى أرواح شهداء الإسلام والمسلمين الذين سقطوا دفاعًا عن الإسلام والمسلمين من عهد الدولة الإسلامية الأولى في عهد الرسول والخلافة الراشدة والأموية والعباسية والفاطمية والعثمانية حتى اليوم والغد وإلى يوم الدين،،

رسالة الإسلام والسلام

مقدمة

من أجل الحوار السليم والسلام بين المسلمين والمسيحيين في العالم والتعايش السلمي بين الأديان، وليعرف الأوروبيون والغربيون المسيحيون كيف كان لمسلمي صقلية وإسبانيا والدولة العثمانية روح التسامح وحرية التعبير وممارسة المذاهب الدينية لغير المسلمين في ظل الحكم الإسلامي، وكيف يعامل الأوروبيون الذين يدعون حقوق الإنسان وحرية الأديان للأقلية المسلمة في أوروبا؟ فكيف سبقهم المسلمون إلى ذلك قبل عدة قرون، في الوقت الذي تعاني الأقلية الإسلامية من اضهاد في ممارسة المعتقد الخاص بهم، وحرية اختيار الملابس وممارسة الشعائر الدينية. إلى كل المسلمين ليعرفوا، كيف كان أجدادهم بناة حضارة وقدموا للبشرية أروع النظم والحياة الإنسانية في أوروبا في العصور الوسطى، وكيف ساهموا في إثراء وتطور العالم الإنساني. أين هم الآن من ذلك؟! لماذا أصبحوا متلقين بعدما كانوا ملقنين؟ لأصبحوا يأخذون من كل شيء إيجابي وسلبي دون تمييز بعدما كانوا يعطوا أعظم القيم العليا الإنسانية والعلمية إلى العالم. وليعرف العالم المذابح ضد الإنسان والإنسانية والتطهير العرقي، وجرائم حرب الإبادة البشرية والإرهاب المنظم للدولة الذي ارتكبه المسيحيون في إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا والحروب الصليبية في سواحل سوريا ولبنان وفلسطين والرها وأنطاكية وبلغاريا والبوسنة وكوسوفو وصبرا وشاتيلا وجسر الباشا وتل الزعتر والشيشان وأبخازيا وجزيرة القرم والعراق وأفغانستان ضد المسلمين، وكيف عامل المسلمون المسيحيين في

إسبانيا وصقلية والدولة العثمانية، وكيف يعاملون في سوريا ومصر ولبنان وإندونيسيا ونيجيريا وغيرها من الدول الإسلامية. هناك فرق كبير بين التسامح لدى المسلمين والإسلام وغيرهم.

الحمد لله والصلاة والسلام على هادي البشرية من الضلال والشرك إلى الهدى والهداية سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد رسول الله والصلاة والسلام على آل بيته الطاهرين.

سادت حضارات ثم بادت، نشوء وارتقاء ثم السقوط، تلك هي الظاهرة التاريخية التي تتكرر في عالم الإنسان الذي يحاول فهمها أو يفهمها، وإن فهمها ينساها أو يتناساها، في حين أن أمة الإسلام هي أمة التوحيد الوحيدة في العالم منذ خلق البشرية حتى اليوم وإلى أن يرثها الله، ومنهجها القرآن الكريم والسنة النبوية إلى يوم الدين، من تعلق بها نجا ومن تركها سقط وضاع وانتهى. ومن هنا يرتبط تفوق الإسلام وسيادة وعالمية الأمة الإسلامية بمدى تمسكها وتعلقها بهذا المنهج وهذه الرسالة البشرية التي أنزلها الله على الأمة الإسلامية عن طريق رسوله محمد ﷺ. يرتبط تكالب الأمم المشركة بالله وأعداء الإسلام والمسلمين من الصليبيين المسيحيين بابتعاد المسلمين عن منهج الإسلام وتخليهم عن رسالة الجهاد والحفاظ على رسالة الإسلام وعقيدته وقيمه الإنسانية العالمية الخالدة وما مدى تطبيقه والحفاظ عليه. ومن هنا كان تفوق الحضارة الإسلامية في إسبانيا، وعندما ابتعد المسلمون عنها، ابتعد الله عنهم فسقطوا وانتهى ملكهم، وعندما طلب المسلمون العون والمساعدة من المشركين المسيحيين في إسبانيا ضد إخوانهم تركهم الله. وهذا ما أدى إلى ارتفاع قوة المسيحيين الصليبية بقيادة بابا الفاتيكان الذي أعلن الحرب الصليبية المسيحية على مسلمي إسبانيا قبل المشرق الإسلامي في سواحل الشام، وبذلك توافد آلاف المسيحيين من مختلف أنحاء أوروبا لقتل المسلمين في إسبانيا مما

أدى إلى سقوط آخر معاقلها في غرناطة ولم ينتهِ إلى هذه الحدود وإنما امتد إلى احتلال المغرب العربي حتى ليبيا.

هنا أرسل الله عباده المجاهدين من الأتراك العثمانيين الذين قاموا بطرد الصليبيين المسيحيين والحفاظ على المغرب العربي والمساعدة في إجلاء المسلمين من إسبانيا. ولا ننسى ما قام به المسيحيون من التطهير العرقي والمذابح الجماعية ضد المسلمين في إسبانيا وحرقهم وهم أحياء في احتفالات الإبادة الجماعية التي لم يشهد لها التاريخ البشري مثيل حتى قيام الأوروبيين المسيحيين الصرب بجرائم الإبادة البشرية والتطهير العرقي ضد المسلمين في البوسنة، أمام أنظار أوروبا والغرب المسيحي الذي يدعي الحضارة وحرية الإنسان، بل قام الجيش الهولندي من قوات حفظ السلام بمساعدة الصرب في جرائمهم.

وفي الختام آخر دعوانا أن الحمد لله، وأن الأرض يرثها لعباده الصالحين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آل بيته الطاهرين،،

البروفيسور الدكتور محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية

لمحة عن إسبانيا الإسلامية:

تطلق كلمة الأندلس على الأجزاء التي سيطر عليها المسلمون من شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال)، وظلت تطلق على ما في أيديهم حتى عندما انحصر وجودهم في مدينة غرناطة وحدها. وتعود كلمة «الأندلس» في أصولها إلى كلمة «الوندال»، وهي تعني مجموعة القبائل الجرمانية التي غزت «أيبيريا» في القرن الخامس الميلادي، وأقامت في طرفها الجنوبي الذي كان آنذاك باسم «أندلوسيا»، فلما فتح المسلمون هذه المناطق قيل لهم: إن هذه أرض «وندلس» فحوَّلها العرب إلى «أندلس»، وبقيت الكلمة مستخدمة حتى نهاية الحكم الإسلامي. ولا تزال كلمة «أندلوسيا» مستخدمة حتى اليوم في «الإسبانية»، وتطلق على ثماني محافظات في جنوب إسبانيا، هي: المرية، وغرناطة، وجيان، وقرطبة، ومالقة، وقادش، وولبة، وإشبيلية. وشبه الجزيرة الأيبيرية مخمسة الشكل، تصل مساحتها إلى 600 ألف كيلو متر مربع، تحتل إسبانيا ($5/6$) من هذه المساحة، وهي هضبة متوسطة الارتفاع، بها سلاسل جبلية كثيرة تشقها بالعرض، ويفصل بين كل سلسلة جبلية وأخرى وادٍ يجري فيه نهر بالعرض أيضًا، وتنبع معظم هذه الأنهار من وسط شبه الجزيرة، وتصب في المحيط الأطلسي. ويفصل أوروبا عن شبه الجزيرة سلسلة جبال تغلق الطريق إلى جنوبي فرنسا إلا من خلال ممرات، ومن هنا جاءت تسمية جبال البرت، أي جبال الأبواب[1].

هذه الجزيرة في آخر الإقليم الرابع إلى المغرب، هذا قول الرازي، وقال صاعد بن أحمد في تأليفه في طبقات الحكماء: معظم الأندلس في الإقليم

(1) عبد الله جمال الدين، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 5.

الخامس وجانب منها في الرابع كإشبيلية وكمالقة وقرطبة وغرناطة والمريّة مرسية. واسم الأندلس في اللغة اليونانية إشبانيا، والأندلس بقعة كريمة طيبة كثيرة الفواكه، والخيرات فيها دائمة، وبها المدن الكثيرة والقواعد العظيمة، وفيها معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق واللازورد والشب والتوتيا والزاج والطفل. والأندلس «إسبانيا» آخر المعمور في المغرب لأنها متصلة ببحر أقيانس الأعظم الذي لا عمارة وراءه، ويقال: إن أول من اختط الأندلس (إسبانيا) بنو طوبال بن يافث بن نوح، سكنوا الأندلس (إسبانيا) في أول الزمان، وملوكهم مائة وخمسون ملكًا، ويقال أن الأندلس (إسبانيا) خربت وأقفرت وانجلى عنها أهلها لمحل أصابهم فبقيت خالية مائة سنة، ثم وقع ببلاد المغرب العربي محل شديد ومجاعة عظيمة فرقت أهلها، فلما رأى ملك المغرب العربي ما وقع ببلاده، اتخذ مراكب وشحنها بالرجال، وقدم عليهم رجلا من المغرب العربي ووجههم، فرمى بهم البحر إلى حائط إفرنجة وهم يومئذ مجوس، فوجههم صاحب إفرنجة إلى الأندلس (إسبانيا). وقيل اسمها في القديم: إبارية؛ ثم سميت بعد ذلك: باطقة، ثم سميت: إشبانيا من اسم رجل ملكها في القديم كان اسمه إشبان، وقيل سميت بالإشبان الذين سكنوها في الأول من الزمان، وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها. وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة الأندلس لأنها على شكل مثلث وتضيق من ناحية شرق الأندلس حتى تكون بين البحر الشامي والبحر المظلم المحيط بالأندلس خمسة أيام، ورأسها العريض نحو من سبعة عشر يومًا، وهذا الرأس هو في أقصى المغرب في نهاية انتهاء المعمور من الأرض محصور في البحر المظلم، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم، ولا وقف منه بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وإظلامه، وتعاظم

موجه وكثرة أهواله، وتسلط دوابه وهيجان رياحه، حسبما يرد ذلك في موضعه اللائق به إن شاء الله تعالى، وبلاد الأندلس مثلث الشكل كما قلنا[1].

يحيط بالأندلس «إسبانيا» البحر من جميع جهاتها الثلاث، فجنوبيها يحيط به البحر الشامي، وجوفيها يحيط به البحر المظلم، وشماليها يحيط به بحر الأنقليشيين من الروم، وطول الأندلس من كنيسة الغراب التي على البحر المظلم إلى الجبل المسمى بهيكل الزهرة ألف ميل ومائة ميل، وعرضها ستمائة ميل. والأندلس «إسبانيا» أقاليم عدة ورساتيق جملة، وفي كل إقليم منها عدة مدن، والركن الواحد من أركانها الثلاثة هو الموضع الذي فيه صنم قادس بين المغرب والقبلة، والركن الثاني شرقي الأندلس بين مدينة نربونة ومدينة برذيل بإزاء جزيرتي ميورقة ومنورقة، والركن الثالث حيث ينعطف البحر من الجوف إلى المغرب حيث المنارة في الجبل الموفي على البحر، وفيه الصنم العالي المشبه بصنم قادس، وهو في البلد الطالع على بلد بريطانيا. والأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها، وفيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة، وكان من ملوكهم الذين أثروا الآثار بالأندلس هرقلش، وله الأثر في الصنم بجزيرة قادس، وصنم جليقية، والأثر في مدينة طركونة الذي لا نظير له. وفي غربي شنترين على مقدار خمسين ميلاً فيما بين أشبونة وشنترة، في جبل هناك كان حصنًا فيما مضى، يوجد الحجر اليهودي، وهو على شكل البلوط سواء، ومن خاصيته تفتيت الحصى التي تكون في المثانة والكلية ويقع في الأكحال، وفي جوفيّ بطليوس على قدر أربعين ميلاً معدن المهى. والأندلس «إسبانيا»

(1) د. سعد عبد الحميد زغلول، المغرب والأندلس، ص 246.

دار جهاد وموطن رباط، وقد أحاط بشرقيهـا وشماليها وبعض غربيها أصناف أهل الكفر، وروى عن عثمان رضى الله عنه أنه كتب إلى من انتدب إلى غزو إسبانيا: أما بعد فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل إسبانيا، وإنكم إن فتحتوها كنتم شركاء من يفتحها في الأخير والسلام. وعن كعب الأحبار أنه قال: يعبر البحـر إلى الأندلس أقـوام يفتحـونها يعـرفون بنورهـم يوم القيـامة. ودخل الأندلس رجل واحد من أصحاب النبي ﷺ، قال عبد الملك بن حبيب: اسمه المنذر الأفـريقي، وأنه يروى عنه ﷺ أنه قـال: من قال رضـيت بالله ربا إلى آخرها فأنا الـزعيم لآخذن بيده وأدخله الجنة! ودخلهـا من التابعين حنش بن عبد الله الصنعاني، وهو الذي أسس جامع سرقسطة وكان مع علي رضي الله عنه. انتـقل إلى مـصـر وقبـره بسـرقـسطة مـعروف، ومـنهم علي بن رباح اللخمي، وعمرو بن العـاص، وعلقمة بن عامر، وأبو عبـد الرحمن عبد الله الجبلي الأنصاري، وعياض بن عقبـة الفهري، وموسى بن نصير، يقال بكري ويقال لخـمي، ويقال أن نصيـراً من سبي عين التمـر وادعوا أنهم من بكر بن وائل، فصـار نصير وصيـفًا لعبد العـزيز ابن مروان وأعتقـه، فمن أجل هذا يختلف في نسـبه، وعقـد الوليد لموسى على المغـرب الأدنى - تونس - عام ٨٣ هـ، وكان مولد موسى عام 19 هـ في خلافة عمر رضي الله عنه، وكان معاوية رضي الله عنه قد جعل نصيراً أبا مـوسى على حرسه، فلم يقاتل معه عليّـا رضي الله عنه، فقـال له معـاوية رضي الله عنه: ما منعك مـن الخروج على علي ولم تكاف يدي عليك؟ فقـال: لم يمكنني أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكري منك، فـقال: ومن هو؟ قـال: الله عز وجل![1]. ومسافـة ما يملكه المسلمون من إسـبانيا ثلاثمائة فـرسخ طولا في ثمانين فرسخـا عرضًا،

---

(1) د. سعد عبد الحميد زغلول، نفس المرجع، ص 248.

والذي يملك منها النصارى مثل ما يملكه المسلمون أو نيفا، ثم حدث فيها من تغلب الثوار ما أضاع ثغورهم وأذهب أكثر بلادهم، ولم يبق من ذلك إلا الأقل وبها الجبال المشهورة والحمامات الكثيرة. (من كتاب صفة الأندلس عن الروض المعطار). وبذلك يطلق لفظ الأندلس على ما دخل في عالم الإسلام من شبه الجزيرة الإيبرية مهما كانت مساحته، فالمسلمون يطلقون لفظ الأندلس على شبه الجزيرة كله، الذي عرفناه عند الفتح، عندما دخل شبه الجزيرة كله في الإسلام. وعندما اقتصر الأندلس الإسلامي على مملكة غرناطة ظل المسلمون يطلقون على مملكة غرناطة اسم الأندلس. والأندلس يطلق على إسبانيا الإسلامية والبرتغال الإسلامية وهو مشتق من واندالوسيا Vandalucia وهو الاسم الذي أطلق على الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة جنوبي حوض نهر بيطي Betis (الوادي الكبير) Guadalquivir.

الثغور في إسبانيا الإسلامية:

وجدت في إسبانيا الإسلامية ثلاثة ثغور عبارة عن مناطق حدودية بينها وبين إسبانيا النصرانية، وهذه الثغور هي:

أ - الثغر الأعلى، وعاصمته سرقسطة ويواجه مملكة نبرّة.

ب - الثغر الأوسط وعاصمته مدينة «سالم» ثم «طليطلة»، ويواجه مملكتي قشتالة وليون.

جـ - الثغر الأدنى، بين نهري «دويرة» و«تاجة» وعاصمته طليطلة ثم قورية.

الغرب الأوروبي في عصر البعثة النبوية «أوائل القرن السابع عشر الميلادي»:

تقول الآية «28» من سورة سبأ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨)﴾، وهي تقرير صريح أن رسالة الإسلام للبشر أجمعين، الأمر الذي ينفي تمامًا ما يذهب إليه بعض المؤرخين والمستشرقين من أن محمداً ﷺ قد أرسل للعرب وحدهم، وأن فتوح الإسلام خارج الجزيرة العربية وقعت لأسباب اقتصادية وإثنوغرافية خارجة عن صلب الدعوة الإسلامية، وهذا هو الذي يجعل أولئك المؤرخين والمستشرقين يبدأون دراسة مقدمات التاريخ الإسلامي بدراسة أحوال جزيرة العرب قبل الإسلام، لأن رأيهم أن البداية في الجزيرة والنهاية ينبغي أن تكون فيها، مع أن فكرة عالمية الإسلام شائعة في كثير من سور القرآن الكريم في صور شتى من التعبير.

لهذا رأينا أن تكون البداية هي وضع تصور تاريخي لأحوال الغرب الأوروبي، في الوقت الذي بدأ فيه تاريخ الإسلام، وهو أوائل القرن السابع الميلادي. في أواخر القرن السادس وبداية السابع الميلادي بينما كانت كبريات جماعات الجرمان المهاجرة من شمال وشرق أوروبا قد استقرت في مواطنها الجديدة على أراضي الدولة الرومانية في الغرب، كانت قبائل الأنجلو سكسون قد استقرت في إنجلترا وهم الإنجليز، وكانت قبائل الفرنجة قد غلبت الكلت واستقرت في بلاد غالة، في حين انتقلت قبائل القوط الغربيين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية واختلطت بمن سبقهم إليها من السويف والآلان والوندال، وقامت هناك دولة القوط الغربيين، وعاصمتهم «طليطلة» واستقرت قبائل القوط الشرقيين «الأوستروجوث» في شبه الجزيرة الإيطالية واللومبارد في شمالها، وأقامت كل من هذه القبائل مملكة لها جرمانية الشكل لاتينية الحضارة. ومعظم هذه الممالك - فيما عدا الفرنجة والكلت الإيرلنديين -

كانت مسيحية على المذهب الاريوسي المخالف تمامًا للمذهب الكاثوليكي، الذي كانت تبشر به البابوية في روما، وفي عام 590 م أي بعد مولد محمد رسول الله ﷺ بعشرين سنة، تولى البابوية القس هلدبراند، الذي أخذ الاسم الكنسي جريجوري السابع، وبدأ صراع البابوية الديني الطويل مع كل المذاهب غير الكاثوليكية في أوروبا، وكذلك بدأ صراع الكنيسة الكاثوليكية مع الدول الجرمانية، وقد نجحت البابوية بفضل نشاط جماعات الرهبان العاملين في خدمتها في إدخال معظم الممالك الجرمانية في المذهب الكاثوليكي، وبخاصة ملكة القوط الغربيين «الفيزيجوت» في شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث كان الصراع بعد ذلك مع العرب.

إسبانيا بين الكاثوليكية والإسلام:

وجدير بالملاحظة هنا أن القوط الغربيين دخلوا إسبانيا واجتاحوا من كان قد دخلها قبلهم من الجرمان، وسادوا أهلها من الأيبيريين الرومان ابتداء من عام 410م أى أنهم سبقوا المسلمين إلى الدخول فيها بثلاثة قرون، ولم يتحول ملوك القوط إلى الكاثوليكية إلا عام 587 ميلادية أي قبل دخول المسلمين شبه الجزيرة بقرن وربع «124 سنة على وجه التحديد» وقبل ذلك كانوا في نظر الكنيسة هراطقة أو كفارًا خارجين على الدين، فالكاثوليكية ليست سابقة على الإسلام في شبه الجزيرة بزمن طويل، وطليطلة نفسها لم تصبح عاصمة شبه الجزيرة إلا عام 560 ميلادية، فهي لم تسبق قرطبة عاصمة لشبه الجزيرة إلا بقرنين ونصف من الزمن، وأول المجامع الدينية الكاثوليكية الكبيرة في شبه الجزيرة كان مجمع طليطلة الثالث عام 589م وإشبيلية لم تصبح مقر أسقفية كاثوليكية في إسبانيا إلا عام 599م، وهذه كلها تواريخ تجعلنا نعيد النظر في علاقة شبه الجزيرة بالمسيحية والإسلام، فإن الانطباع السائد هو أن المسلمين

اقتحموا شبه الجزيرة على بلد مسيحي كاثوليكي من زمن طويل، بل الحقيقة أن القوط أنفسهم لم يختلطوا بأهل البلاد ولا انصهروا في سكان الجزيرة انصهارًا تامًا حتى دخول المسلمين، ومن هذه الناحية كان العرب المسلمون أنجح من القوط، فبعد قرن ونصف من الزمان كان البلد عربي الطابع شرقي الحضارة، في حين أنه لم يكن قوطيًا، وهذه كلها حقائق تدعونا إلى إعادة النظر في وضع الإسلام، وعلاقة الحضارة العربية بتلك البلاد[1].

إسبانيا قبل الفتح الإسلامي:

يتميز الفتح العربي لإسبانيا - من بين كل الفتوحات التي قام بها العرب في نهاية القرن السابع الميلادي وأوائل الثامن بعيدًا عن البحر الأحمر والخليج العربي بالسرعة والجرأة والسهولة، فقد أتيح للمسلمين بموجبه الاستيلاء على أغنى أرض حلموا بها في نهاية مشوارهم تجاه غرب البحر الأبيض المتوسط. كما أن اقتحامهم غير المتوقع لشبه جزيرة أيبيريا - من أعمدة هرقل حتى حائط جبال البرانس - قد أثار دهشة وفزع العالم المسيحي الغربي، وتحير مؤرخو العصور الوسطى في تحديد الظروف التي هيأت له. وإلى يومنا هذا لا زال بعض المتخصصين يعتبرون كارثة استيلاء الإسلام على جزء، لا ينتسب لإفريقيا أو آسيا، بل من القارة الأوروبية ذاتها حدثًا غريبًا وظاهرة بعيدة عن المنطق الطبيعي للأشياء، ولذا يلجأون إلى وضعه تحت بند «المعجزة التاريخية». وبرغم كل هذا، لا يوجد مثال واحد في التاريخ يخبرنا بأن دولة منظمة قد تركت في استكانة أراضيها تُغتصب من قبل فصائل الفرسان الشجاعة، لو كانت تنعم بالصحة وهيكلها سليم معافى ولحكامها الهيبة

---

(1) الأطلس الإسلامي، ص 48.

والطاعة. فالفتوحات الكبرى قد صادفت دائمًا تحللا سياسيًا واجتماعيًا للأمم التي هبطت فوقها وهذا ما حدث بالفعل لإسبانيا القوطية. كان شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الفتح الإسلامي خاضعًا لسلطان القوط الغربيين، وكان هؤلاء من الشعوب الجرمانية التي انقضّت على الإمبراطورية الرومانية حينما تطرق إليها الضعف والاختلال في أوائل القرن الخامس الميلادي. وفي عام 409م اقتحمت هذه القبائل الجرمانية شبه جزيرة أيبيريا وتقاسمت مقاطعاتها التي كانت خاضعة لإمبراطورية روما، وكان هؤلاء القوط الغربيون (Visigodos) يتوزعون على مجموعات ثلاث: الشوبقات (Suevos) وكان نصيبهم الطرف الشمالي الغربي من شبه الجزيرة، وهو الذي يدعى جليقية (Galicia)، والألان (Alanos) وقد استقروا في المقاطعتين: الشرقية وهي المدعوة القرطاجنية (La Cartaginense) والغربية وكانت تدعى لجدانية (La Lusitania) (البرتغال)، والمجموعة الثالثة هي الوندال (Vándalos) وكان نصيبها المقاطعة الجنوبية المدعوة باطقة (La Bética). وفيما بين عامي 429م و435م هاجرت مجموعة من هؤلاء الوندال إلى مقاطعة أفريقية الرومانية (وهي التي تقابل اليوم تونس وشرقي الجزائر) طمعًا في خيراتها، فقد كانت - مثل مصر - تعد مخزن غلال روما، ولم يستطع الرومان لضعفهم صد هؤاء الغزاة، وظلت سلالة هؤلاء القوط في أفريقية حتى فتح العرب هذه البلاد، وحينما عرفوا أنهم قدموا إلى أفريقية من شبه جزيرة أيبيريا أطلقوا على هذه البلاد اسم تلك القبائل القوطية (Vándalos) محرفًا تحريفًا طفيفًا، ومن هنا أتى اسم «الأندلس» الذي أصبح يعني ما بأيدي المسلمين من أرض شبه الجزيرة. على أن الحكم لم يصف للقوط في شبه الجزيرة، فقد كانت الحروب والمنازعات مستمرة بينهم وبين جيرانهم الفرنجة (Los Francos)، كما أن أجزاء من جنوب

شبه الجزيرة كانت تحت حكم البيزنطيين. وقد شكّل القوط بحبه أرستقراطية حاكمة ضعيفة الصلة بأهل البلاد، فالوظائف الكبرى قاصرة عليهم والتزاوج بينهم وبين رعاياهم محظور، وفضلاً عن ذلك فقد كان هناك اختلاف ديني مذهبي، فأهل البلاد كانوا يعتنقون الكاثوليكية التي كانت تدين بطبيعتين للمسيح، في حين كان ملوكهم القوط على مذهب آريوس الذي يقول بالطبيعة الواحدة، وكان هذا المذهب يعد في نظر الشعب بدعة ضالة، كما وجدت في البلاد أقلية يهودية كانت تعاني أشد ضروب الاضطهاد. وهكذا كانت الانقسامات السياسية والدينية والاجتماعية تمزق وحدة البلاد حتى أواخر القرن السادس، ففي ظل الملك ليوفيجيلدو (Léovigido) (573م – 586م) بدأ محاولات التوحيد السياسي، إذ استطاع هذا الملك القضاء على مملكة الشويقات (Los Suevos) والاستيلاء على ما كان بأيدي البيزنطيين من مدن الجنوب، كما جرد حملة أخضع فيها البشكونس (Los Vascones) الذين كانوا دائمي الثورة في الشمال. ثم أتت محاولة التوحيد الديني في عهد ريكاردو (Recaredo) ابن الملك السابق (586م – 601م) إذ اعتنق الكاثوليكية ومنذ هذا التاريخ يصبح هذا المذهب هو الديانة الرسمية في مملكة القوط وساعد ذلك على التقريب بين ملوك القوط، ورعاياهم إلى حد ما، ولكن الفروق الطبقية والاجتماعية ظلت كما هي، وورث القوط عن الرومان نظام الرق، وكان نظامًا شديد القوة، وعلى هذا النحو أيضًا كانت جباية الضرائب، إذ إن الأرستقراطية القوطية كانت معفاة منها فبقيت تثقل كاهل الرعية[1].

---

(1) محمود مكي، تاريخ الأندلس السياسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، جـ، ص 57.

تعاقب ملوك القوط والبلاد في حالة شبه دائمة من الثورات والحروب الأهلية والمؤامرات التي كان يقوم بها النبلاء حتى انتخب وامبا (Vamba) ملكًا (672م - 680م) فصلحت أحوال البلاد بعض الشيء بعد أن قضى على معظم ما نشب من ثورات. ولكنه لم يلبث أن خلع عن العرش. وبعد فترة مليئة بالاضطرابات ولي العرش غيطشة (Witiza) (702م - 710م) وأراد أن يقر الوئام بين الأسر المتناحرة، فمنح لقب دوق (Duque) لخصمه اللدود لذريق (Rodrigo) بن تيودوفريدو (Teodofredo) الذي كان حفيدًا لأحد الملوك السابقين، وكانت أسرته طامعة في العرش. ولم يفلح صنيع غيطشة في استئلاف خصمه فلم تكد تدركه وفاته في عام 710م حتى وثب أنصار لذريق، وكان مقيمًا في قرطبة، فنادوا به ملكًا، ولكنه لم يهنأ بهذا الملك فقد قدر له أن يكون على يديه سقوط دولة القوط ودخول العرب الفاتحين، فيصبح بذلك آخر من حكم إسبانيا من القوطيين. إذا كان الحظ قد حالف المسلمين في عدم تكبدهم سوى القليل من المشقة وفي ضآلة الأخطار التي واجهوها من أجل الاستيلاء على شبه جزيرة أيبيريا، فمن قبيل المؤكد كذلك أن يُسر مهمتهم يرجع لضعف الملكية القوطية ولرد الفعل الخجول لمجمل سكانها. كان من الممكن التفكير في فشل محاولة العرب - أو على الأقل في جعلها أكثر صعوبة - لو لم تكن بوادر الضعف قد أمسكت بتلابيب مملكة طليطلة حتى أنهكتها في النهاية.

وبالرغم من الظلام التاريخي الذي يلف الثلاثين سنة الأخيرة من حكم القوط، إلا أنها تبدو في غاية الاضطراب والغموض. فهذه الفترة القصيرة التي استهلها اعتزال الملك «وامبا» (Wamba) عام 680م مليئة بشتى ألوان الفوضى: صدامات دموية بين الطامعين في العرش؛ تمرد المحافظات المختلفة؛

مؤامرات النبلاء ورجال الإكليروس من أجل زيادة مكاسبهم السياسية. وكلها مؤشرات لا لَبْس فيها على أن الأراضي الأيبيرية كانت في مطلع القرن الثامن فريسة سهلة لأي غاز سواء أتى من الشمال أو الجنوب.. وبما أن العرب - وكأنهم على موعد - كانوا متواجدين هناك على الشاطئ الآخر من المضيق فقد استولوا عليها دون جهد بعد إجهازهم على حكم القوط بضربة واحدة.
توجد عدة تواريخ تعتبر بمثابة معالم بارزة في حياة هذه المملكة خلال القرن السابع: في عام 580م استطاع الملك «ريكاريدو» (Recaredo) تحقيق وحدة إسبانيا الدينية بإحلال الكاثوليك محل الكنيسة الآريوسية الملغاة. ومع هذا، فالقضاء على الازدواجية الدينية، الذي أثار وقتها كثيرًا من الشغب، لم يشف الغليل لفترة طويلة لأنه أمدّ رجال الدين بالقوة وحولّهم إلى مشاركين في ممارسة السلطة. لقد أصبحوا، بالإضافة إلى النبلاء، يملون وجهات نظرهم وقراراتهم على الأمراء الحاكمين، وأصبحت اجتماعات المجامع الكنسية - التي كانت تعقد بصفة دورية في طليطلة - تضارع المجالس الملكية. كما توجد بؤرة أخرى للصراع لا تقل شؤمًا على حُسن سير دفة الأمور في المملكة ألا وهي المتمثلة في الأخذ (عام 633م) بمبدأ الاختيار لتعيين الملوك. لكن أغلبية هؤلاء.كان يخرج على النظام المعمول به بعد أن يصل إلى السلطة ويحاول تعيين أحد أبنائه أو أقاربه خليفة له. وبالرغم من هذا فقد كانت هناك شخصيات عظيمة ومنها شخصية الملك «ريثيسبنتو» (Recesvinto) الذي بقي حاكمًا فترة طويلة (653 - 672م)، ومن أهم ما يُنسب من يوم وضعها حتى قرون طويلة لاحقة. ثم أتى بعده أمير شجاع وإداري ماهر هو «وامبا» (Wamba) الذي استمر حكمه ثماني سنوات لكن الظروف أجبرته على التخلي عن العرش والاعتزال في أحد الأديرة. ويخلفه «إيربيخيو» (Ervigio)

الذي أخفق في الحصول على النتائج المرجوة من الاجتماع الثالث عشر للمجلس الطليطلي عام 683م. وبعده تولى «إخيكا» (Egica) السلطة عام 687م واحتفظ بها حتى مطلع القرن الثامن، وفي عهده اجتمع مجلس البلاط ثلاث مرات: في 688، 693، 694، وكان هدف الاجتماع الأول حلٌ مشكلة على السلطة بين العاهل وورثة سلفه. وخصص الثاني لمحاكمة المطران الطليطلي «سيسبرتو» (Sisberto) لتواطؤه في مؤامرة مع الجيش. أما الثالث فكان لمحاكمة اليهود الإسبان الذين اتصلوا بأبناء عمومتهم في المغرب العربي، ومن يومها لم يكفوا عن حضّ العرب على دخول شبه جزيرة أيبيريا. وفي تلك المحاكمة صدرت ضد اليهود عقوبات صارمة للغاية: حكم عليهم بالتحول إلى الرّق وبمصادرة ممتلكاتهم وبانتزاع أولادهم منهم عند إكمالهم السبع سنوات. ولم يستثن من هذه الأحاكم سوى يهود «سبتمانيا» (Septimania). وتجدر الإشارة - في هذا المقام - إلى أن الجاليات اليهودية في إسبانيا كانت مُطاردة من النظام القوطي منذ أمد بعيد، ولنا عودة للحديث عن الدور الذي لعبوه في الغزو الإسلامي وعن مساندتهم للمحتلين الجدد[1].

غيطشة (Witiza)، لذريق (Rodrigo):

أشرك «إخيكا» في عام 693م ابنه «غيطشة» معه، وبعد خمس سنوات أصبح «غيطشة» الحاكم الفعلي للبلاد حتى وفاة والده عام 702م. وظل يحكم بعد هذا التاريخ دون أن يكلف نفسه عناء الخضوع لمبدأ الاختيار الشرعي. وأثناء فترة حكمه عقد مجلسًا للبلاط لكن محاضره ضاعت ولم تصل إلينا. ولما كان متقدمًا في السن فقد عمل جاهدًا على توفير كافة الضمانات لانتقال

(1) ليفي بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية، ص 46.

السلطة بعده إلى ابنه المفضل «أخيلا» (Akhila) ومنها تعيينه واليًا على كل من «طرّكونة» (Tarragona) و«أربونة» (Narbona). وكما كان متوقعًا فإن هذه التدابير أثارت سخط وجهاء القوط، وأدت إلى تآمر البعض لكن جميع المؤامرات اكتشفت وعوقب مدبروها بشدة. وزادت موجة السخط بين النبلاء والطبقة العليا لرجال الكهنوت عندما عمل الملك بنصيحة مستشاره «سيندريدو» (Sinderedo) وخفف من صرامة القواعد التي تحكم حياة اليهود الإسبان. وبهذا الشكل، تأزمت الأمور من جديد في شبه الجزيرة بعد موت غيطشة نهاية عام 708 أو بداية 709م. فقد استمر ابنه «أخيلا» في مقر حكمه بالشمال وضرب عملة تحمل اسمه في «طركونة» و«أربونة» ولم يدر بخلده – وهو الوريث المفترض لوالده – الذهاب إلى طليطلة ليجلس على عرشها. وما زاد الطين بلّة أن والدته وأخويه «أولمندو» (Olmondo) و«أردابستو» (Ardabasto) وعمه المطران «أوپاس» (Oppas) وبقية إخوته تركوا العاصمة وفروا هاربين إلى «جليقية» (Galicia). وبمرور بعض الوقت اجتمعت جبهة المعارضة في طليطلة وقررت اختيار الدوق «لذريق» – الذي كان يقيم بقرطبة – لتولي شئون الحكم. وبعد أن تولى السلطة صيف 710م أرسل «أخيلا» جيشًا تحت قيادة معلمه «ركيسيندو» (Requesindo) لمحاربة ملك طليطلة الجديد، لكن الجيش هُزم وقتل قائده. ويقول البعض أن أبناء «غيطشة» بعد هزيمة قوات أخيهم فروا هاربين إلى شمال إفريقيا، لكن الرواية الأكثر احتمالاً تفيد بأنهم تصالحوا مع الملك الجديد وأصبحوا قوادًا في جيشه[1].

---

(1) ليفي بروفنسال، نفس المرجع، ص 46.

فتح المغرب العربي وموسى بن نصير اللخمي:

يعد فتح شبه جزيرة أيبيريا حدثًا من أعظم أحداث التاريخ في بداية ما يسمى بالعصور الوسطى، ففي هذه الرقعة من الأرض التي دعاها العرب إسبانيا قامت أول دولة عربية إسلامية في القارة الأوروبية، وهي دولة استمرت قائمة على مدى ثمانية قرون، واستطاع الأندلسيون أن يجعلوا من وطنهم واحدًا من أكثر بلاد الإسلام ازدهارًا، وأقاموا صرح حضارة امتزجت فيها عناصر أوروبية وإفريقية وآسيوية، وكانت لها شخصيتها المتميزة عن غيرها من حضارات البلاد الإسلامية، واستطاعت أن تصبح جسرًا عبرت خلاله الثقافة العربية إلى بلاد الغرب الأوروبي. وكان فتح العرب الأندلس امتدادًا طبيعيًا بعد أن تم لهم فتح المغرب العربي وكان العامل على آخر ما فتحه العرب من المغرب هو الذي اضطلع بمهمة فتح الأندلس. ولهذا فإن علينا أن نستعرض في إيجاز مراحل فتح المغرب العربي. كان العرب قد أتموا فتح مصر عام 21هـ/ 642م، ومنذ هذا التاريخ تصبح مصر قاعدة لكل الفتوح المتوجهة غربًا على طول سواحل المغرب العربي، وكانت هذه البلاد - شأنها كشأن مصر - خاضعة للإمبراطورية البيزنطية. وفي عامي 22هـ/ 643م و23هـ/ 644م يضطلع فاتح مصر عمرو ابن العاص بفتح برقة ثم طرابلس بعد قتال عنيف مع الروم البيزنطيين ومن تحالف معهم من البربر ومن تحالف معهم من العرب العاربة من البربر. فبعد أن استقرت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان توجه معاوية بن حديج السكوني في عام 45هـ/ 665م على رأس حملة واصلت التقدم العربي إلى المغرب الأدنى (تونس)، إلا أنه انسحب إلى مصر بعد أن أحرز انتصارات كبيرة. ثم ولي حكم المغرب الأدنى عقبة بن نافع مرتين قام في الأولى بإنشاء مدينة القيروان التي أصبحت قاعدة للامتداد

نحو الغرب، وفي الثانية قام بحملته الكبرى التي اخترق فيها جبال الأوراس، ووصل إلى طنجة على المحيط الأطلسي قبل أن ينحدر جنوبًا مخترقًا جبال الأطلس، ومتجهًا إلى جنوب المدينة المعروفة اليوم باسم أغادير على شاطئ المحيط. وفي طريق عودته من هذه الحملة أحاط بجيشه بربر العرب العاربة قبيلة أوربة جنوبي واحة بسكرة، فاستشهد هو وكل من معه في عام 63هـ/ 683م. وتبع ذلك أن احتل الزعيم البربري كسيلة مدينة القيروان. وشغلت الخلافة الأموية بالحرب مع عبد الله بن الزبير عن الاهتمام بشؤون المغرب العربي. فلما استقرت الخلافة لعبد الملك بن مروان بعث زهير بن قيس في عام 69هـ/ 688م لاسترداد المغرب الأدنى، ولكن الحرب انتهت بهزيمته ومقتله على أيدي البربر ومن تحالف معهم من الروم البيزنطيين. وعاد عبد الملك لتوجيه حملة بقيادة حسان بن النعمان الغساني، وفيما بين عامي 72هـ/ 690م و85هـ/ 704م استطاع حسان أن يستعيد المغرب الأدنى (تونس) ويتم فتح المغرب الأوسط.

وبعد عزل حسان بن النعمان عهد عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة - وكان عاملاً على مصر وإليه ولاية المغرب العربي كله - إلى موسى بن نصير اللخمي بولاية المغرب العربي وكان من خيرة العسكريين، فواصل تقدمه على طول الساحل حتى وصل إلى سجوما (قرب مدينة تطوان الحالية) ومكنه ذلك من الاستيلاء على طنجة، وهكذا وصل المسلمون ثانية إلى ساحل المحيط الأطلسي، وأقام ابنه مروان بن موسى عاملاً على طنجة وأرسل حملات إلى جنوب المغرب وصلت إلى سجلماسة (في منطقة تافيلالت على حدود الصحراء الكبرى). وعاد موسى بن نصير إلى القيروان بعد أن أتم فتح المغرب كله فيما بين سنتي (85هـ/ 704م و95هـ/ 714م)، ثم قام بتنظيم إدارته

فقسـمه إلى خمس ولايات: برقـة وكانت تابعة لمصر، والمغـرب الأدنى وتمتد من طرابلس إلى إقليم الزاب عنـد مجرى نهـر شلف (في شـرقي جمهـورية الجزائر الحالية) وتشمل تونس الحاليـة كلها تقريبًا، والمغرب الأوسط ويمتد من مجـرى شلف إلى مجرى نهر المولوية وعـاصمتـها مدينة تلمسـان، والمغرب الأقصى وهي ما يلي ذلك غربًا حـتى ساحل المحيط الأطلسي ثم جنوبًا حتى الصحراء، وهي ولاية السـوس، وعـاصمتها سجلماسـة. وعهد موسى بحكم هذه الولاية الجـديدة لموالاة طارق بن زياد، ثم نقله بعد ذلك إلى طـنجة[1]. وهكذا أتم موسى بن نصـير فتح المـغرب كله في نحو عـشر سنوات متـوجًا بذلك جهود من سبق من الفاتحين، واستقر الإسلام في تلك البلاد بين العرب العاربة من البربر الذين قـاوموا العرب من قبل مقـاومة شديدة. والدليل على ذلك أن طارق بن زياد الذي عـهد إليـه موسى بعـد ذلك بفتح إسـبانيـا كان بربري الأصل، ولكنه هو وكثـير من أبناء جنسه قد أسلمـوا وأصبح لهم دور كبـير في الجـهاد. وسنرى كـيف شاركوا الـعرب في فتح الأندلـس والتوسّع الإسلامي فـيما وراء جـبال البرتات، وكـيف أصبح الشـعب الأندلسي ثمرة لامتزاج هذين الجنسين بأهل البلاد.

تعتبر ولاية طارق بن زياد على طنجة (واستـقلاله) بقيادة الجيش العربي في المغرب الأقصى أجمل نتائج التطور الطبيـعي لعلاقة العرب بالبربر، علاقة المؤاخاة والحلف، التي بدأت تؤتي ثمـارها بتحالف كسيلـة مع أبي المهاجر ثم باستخدام أبناء الكاهنة في قيادة قوات حسان، وأخيرًا باستقلال طارق بالقيادة وقيامه بعد ذلك بأعظم عملية عـسكرية في المغرب، وهي فتح إسبانيا. ولقد

---

(1) محمود مكي، تاريخ الأندلس السياسي، الحـضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ص 56.

بلغ ذلك التطور ذروته تلك خــلال ثلاثة أجيــال كما يفــهم من نسب طارق. فهو وأبوه وجــده عبد الله يحملون أسماء عــربية أما جده لأبيه فــهو ولغو بن ورفجوم من بربر نفــزاوة. وإذا كان الفضل في فتح إسبــانيا ينسب إلى طارق فينبغي ألا ننسى افــضال موسى في توسيع دائرة نشاطه إلى مــا وراء البحر - فبدون ذلك النشاط البحري ما كــان من الممكن أن يتم فتح إسبانيا في غارات بعيدة المدى إلى صقلية وسردانية وجزر ميــورقة ومينورقة (البليار). ولقد مهد موسى لذلك بالاهتمام بعمــران مدينة تونس، وتوسيع دار الصناعة بها، وشق القناة التي توصل بين الميــناء (رادس) بين المدينة، على طول 12 (اثني عــشر) ميلا. وبفــضل تلك القناة أصبحت المدينة نفــسها مشتى للمــراكب تكنها من العواصف والأنواء. والمفهوم أن (حملة صــقلية) قامت من تونس، فإن الذي قام بها هو عياش بن أخيل الذي نزل على مدينة سرقــوسة «فغنمها وجميع ما بهــا، وقفــل سالمًا غــانمًا». وأمــا عن غزو ســردانيــة فــرغم أن الرواية تعطي اهتمامــها للمغانم الهــائلة التي تم الاستيلاء عليهــا فيها إلا أنها لــم تنته نهاية سعيدة. ويفهم من رواية ابن عــبد الحكم أن القيادة كانت إلى عطاء ابن رافع الهذيلي قائد أسطول مــصر الذي خرج من مدينة سوسة، وكان بصــحبته أبو عبــد الرحمن الحــبلي والتابع المشــهور حنش بن عــبد الله الصنعــاني. ونزل البحّارة العرب على عاصمة الجزيرة. أما عن تاريخ الغزوتين فالكُتّاب يضعون (غارة صقليــة) في ثنايا فتح المغرب، ثم هم يخلطون بين فتح إسبــانيا وغزوة سردانية مما دعا ابن الأثير إلى وضعها في أحداث عام 92هـ/ 711م. والأقرب إلى المنطق أن يكون غزو سردانية قد تم من القواعد البحرية المغربية وليس من إسبــانيا. فــفتح إسبــانيا كــان في بدايته، ولم يكن العــرب في عام 92هـ قد وصلوا إلى سواحله الشرقــية، وهذا ما تقول به الرواية المصرية كــما يذكر ابن

عبـد الحكم عن سعيـد ابن عفيـر. وبناء على ذلك يكون من المرجح أن تلك الغارات البحرية قد وقعت قبل فتح إسبانيا مباشرة، بل ويمكننا القول أنها التي شجعت على القيام بالمغامرة الكبرى فيما وراء بحر الزقاق[1].

الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا:

الحكايات المتعلقـة بفتح الأندلس والشائعـة في المصادر العربيـة ثم بعد ذلك في المدونات المسيـحية والقـصائد الملحميـة الإسبانيـة ترد هذا الفتح إلى قصة طالما استـهوت الأخيلة الشعبية، وهي اعـتداء الملك القوطي لذريق على ابنة جمـيلة لحاكم سبتة يـوليان كانت تعيش في قـصر لذريق بطليطلة، على عادة نبـلاء القوط الذين كانوا يبعـثون بأبنائهم وبناتهم لكي يتربوا في الـقصر الملكي. وتقول القصة أن هذه الابنة كتبت إلى أبيها بخبر اعتداء الملك عليها، فصمم انتقامًا لشرفه على إزالته من ملكه، وهكذا اتصل بطارق بن زياد حاكم طنجة ففاوضـه في أمر فتح إسبانيا مقدمًـا له كل معونة ممكنة. قد تكون هذه القصة صحيـحة وقد لا تكون، ولكنها لا تكفي وحدها لتفسـير الفتح العربي لإسبانيا، فـقد كان هذا الفتح امتدادًا طبـيعيًا لحركة الفـتح الزاحفة على طول سواحل البحر المتوسط من الشرق إلى الغـرب، وكان الاستيلاء على الساحل الأيبيري المواجـه للمغرب تأمينًا للفتوح الإسـلامية في شمال أفريقـية، وشعر البربر بعد إسلامهم أنهم مثل العـرب أصحاب رسالة دينية لا بد أن يجاهدوا في سبـيل نشرها. والواقع أن العـلاقات بين العـدوتين المتقابـلتين في حوض البحر المـتوسط الغربي كانت مـستمرة منذ فجـر التاريخ، وكلما شـعر حاكم إحدى العدوتين بقوته اتجه ببصره دائمًا إلى العدوة المواجهة. إن هذه السنوات الموافقة لأواخر القرن الأول الهجـري في ظل خلافة الوليد بن عبد الملك هي

---

(1) د. سعد عبد الحميد زغلول، نفس المرجع، ص 106.

التي شهدت أعظم اتساع للفتوح الإسلامية شرقًا وغربًا، ومن طريف الاتفاق أن السنوات هي التي شهدت فتح إسبانيا هي نفسها التي وصل فيها قتيبة بن سلم الباهلي إلى مشارف الصين بعد فتحه بلاد تركستان وتوغله في وسط آسيا، ووصل محمد بن القاسم الثقفي إلى حوض السند. الأمر الذي يجب أن نؤكده أن العرب فكروا في فتح إسبانيا، فقد خلصوا من المغرب الأقصى وأرادوا أن يستفيدوا من هذه الطاقات البشرية الكبرى التي توافرت لهم بعد هذا الفتح، وأن هذا التفكير لم يكن بتحريض من هؤلاء أو هؤلاء لأن العرب لم يكونوا بحاجة إلى أن يحرضهم أحد على الجهاد إنما الذي حدث في فتح إسبانيا حدث مثله في بلاد الشام والعراق ومصر من قبل، وهو محاولة العرب الاستفادة من الانقسامات الداخلية في البلاد ليضمنوا النصر لأنفسهم. الذي يهمنا هو أن فتح إسبانيا كان نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب. فمن جهة نلاحظ أن العلاقة وثيقة بين المغرب وإسبانيا من النواحي الطبيعية حتى أن الكتّاب العرب اعتبروا إسبانيا جناحًا غربيًا للمغرب، ومن جهة أخرى كان للأحداث التاريخية في كل من البلدين آثارها العميقة في الآخر منذ يام الفينيقيين وقرطاجنة وعلى أيام الوندال، واستمر هذا التأثير المتبادل على أيام العرب والإسلام، وحتى العصور الحديثة وإلى الآن. الذي ميز فتح إسبانيا عن غيره من الفتوح العربية حتى ذلك الوقت هو اشتراك المغاربة، أي أهل البلاد التي تم فتحها في التو واللحظة، إلى جانب العرب اشتراكًا إيجابيًا في هذا الفتح حتى ليمكن القول أنه وقع على كاهلهم وحدهم. وهذا عمل عظيم من غير شك، يشهد للعرب بالمجد والفخار إذ نجحوا في أداء رسالتهم - رسالة الإخاء والمساواة - فاكتسبوا إلى جانبهم أهل البلاد قلبًا وقالبًا، فأصبح البربر أشد حماسًا من العرب للعروبة والإسلام في تلك الفترة

الوجيـزة، فقـاموا إلى جـانب إخوانهم العـرب ينشرون الرسـالة في أوروبا، ويبذلون المهج والنفوس رخيـصة. في هذا السبيل يمتاز فتح العـرب إسبانيا - على عكس فتح المغرب - بالسـرعة والسهولة، حتى أذهل اندفـاعهم المفاجئ في شبه جزيرة أيبيريا، من المضيق إلى جـبال البرانس، العالم المسيحي الغربي مما جعل المشتغلـين بتاريخ أوروبا في العصور الوسطى يعتبـرون الغزوة العربية معجزة تاريخية. والحقيقة أن تفسـير فتح العرب لإسبانيا لا يختلف عن تفسير فتوحهم السابقة في المشرق وفي المغرب. فما كان يظن أن من عوامل الضعف في جانب العـرب من خفة تسليـحهم وقلة عتـادهم كان يمثل تفوقًـا فنيًا في النواحي العـسكرية، إذ كان يهيئ لهـم خفة الحـركة وما يسـمى في المصطلح الحديث الضـرب غير المباشـر الذي تمثله حرب العرب المعروفـة بالكر والفر، وذلك على عكس خـصومـهم المثـقلين بالحديد مما كـان يعـيق تحركـهم أثناء القـتال. هذا إذا تركنا جـانب المعنويات العـالية التي تمتع بهـا العرب بفـضل إيمانهم وثقتـهم برسالتـهم، وعدم معـرفتهـم بالطبقيـة التي كان يعـاني منها خصومهم. كان يليـان الذي تتحدث عنه قصص الفتح شخصيـة تاريخية بغير شك، وقد كان حاكـمًا لمدينة سبتة، ويبدو أنه كـان من حزب الملك القوطي غيطشة المعـادي للذريق، ومع أنه استطاع في البداية أن يحمي بلده بشـجاعة عندما حاصرها المسلمون، فإنه على ما يظهر اتفق مع أبناء غيطشة على التآمر من أجل خلع لذريق، ورأى أن يسـتعين بطارق بن زياد الذي مـرَّ بنا أنه كان عاملاً على طنجة لموسى بن نصير، ولعله كـان يعتقد أن المسلمين لو استجابوا له ونصـروه على عدوهم، فـإنهم سيكـتفـون بالغنائم ويعودون إلى المغـرب العربي، غير أن المسلمين كانوا يضمرون خطة أخرى.

تجمع المصادر العربية للفتح أن يليان توجه بنفسه إلى طنجة لمقابلة طارق ابن زياد، وعرض عليه أن يساعده في إدخاله إسبانيا، ولم يتردد طارق في الاتصال فورًا بموسى بن نصير، وكان مقيمًا في القيروان، فأبلغه ما كان من أمر يليان، فرحب موسى بما عرضه عليه يليان، فقد كان يطمع في المزيد من الفتح والجهاد. وعلى الرغم من تلهفه على انتهاز هذه الفرصة، ودخول الأندلس بمساعدة يوليان وأنصار غيطشة، فإنه لم يشأ أن يقحم المسلمين في مغامرة لا يعلم نتائجها إلا الله، فلم يكن قد وثق بعد بيوليان، ثم إنه كان يعمل على كسب رضا الخليفة الوليد بن عبد الملك عليه؛ وكانت فتوحات موسى في المغرب قد رفعت منزلته عند عبد الملك، ثم الوليد، فرأى موسى ضرورة إطلاع الخليفة على ما هو مقبل عليه، فكتب من فوره إلى الخليفة بفتوحاته في المغرب، وضمن رسالته ما ذكره يوليان من تذليل الأمور وتهوينها على المسلمين، ولكن الوليد تردد في الأمر، وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه في أراضي مجهولة، يفصل بينها وبين بلاد المسلمين بحر الزقاق، فكتب إلى موسى يأمره بأن يخوضها بالسرايا حتى يختبرها، وأمره بألا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال. وعمل موسى برأي الخليفة، واختار أحد كبار قواده اسمه طريف بن مالك المعافري، وقيل النخعي، ويكنى أبا زرعة، ويبدو أن طريف هذا كان عربي الأصل، وأنه كان قائدًا بارعًا في فنون الحرب والقتال، فجعله موسى على رأس سرية مؤلفة من خمسمائة مقاتل، منهم أربعمائة من المشاة ومائة من الفرسان، وأعدَّ لهم يوليان سفنه الأربع لعبور الزقاق، ونزل طريف بفرقته في جزيرة تعرف باسم لاس بالوماس Isla de las Palomas، تقع على مقربة من مدينة طريف الحالية التي سميت باسمه لنزوله فيها، وذلك في رمضان 91هـ (يولية 710م). من هذا

الموضع شن طريف ورجاله سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبي لإسبانيا، المقابل لساحل سبتة، فيما بين طريف والجزيرة الخضراء. وعاد طريف بفرقته سالمًا، يجر وراءه غنائم كثيرة، فأنس موسى إلى يليان، ووثق فيه، واطمأنت إليه نفسه، واشتد عزمه على فتح إسبانيا، وتلهف شوقًا إلى السير في هذه المغامرة[1]. ثم إنه استدعى مولاه طارقًا، وأمره على سبعة آلاف رجل جلهم من العرب العاربة البربر.

الدور الذي قام به العرب العاربة من البربر في فتح إسبانيا:

اختار موسى بن نصير على الحملة التي أعدها لفتح إسبانيا قائدًا من قواده المشهورين بحسن القيادة والبلاء، هو مولاه طارق بن زياد، ثم إنه كان من المنطقي أن يتولى قائد من أهل البلاد قيادة جيش كله من البربر، حتى يستميل موسى إليه قلوب الجند فلا يثوروا عليه، كما حدث في عهد عقبة وفي أيام حسان. ويبدو أن موسى كان يثق بطارق كل الثقة، بدليل أنه آثره في قيادة هذه الحملة الكبرى على أعظم قواده العرب أمثال طريف بن مالك، وعياش بن أخيل، وزرعة بن أبي مدرك، والمغيرة بن أبي بردة العذري. وكان موسى قد ولاه على طنجة، وهو منصب خطير لا يعطى إلا لذوي الثقة والكفاية. ومن الغريب أن يكون الجيش الذي أعده موسى للحملة مكونًا كله من البربر، باستثناء ثلاثمائة من العرب، وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الفتوح العربية يتولى فيها جيش بأكمله من المغلوبين فتح قُطر من الأقطار الكبرى كإسبانيا.

(1) د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص 184.

يدل هذا دلالة واضحة على أن بربر المغرب قد أسلموا، وحسن إسلامهم، وأصبحوا على هذا النحو يؤلفون القوة الكبرى التي اعتمد عليها موسى في فتح إسبانيا. وكان معظم أجناد هذه الحملة إلى إسبانيا من رهائن المصامدة. ويمكننا تفسير اعتماد موسى على البربر في هذه الحملة بأن البربر كانوا أكثر إلمامًا من العرب ببلاد إسبانيا، فالمغرب وإسبانيا يؤلفان وحدة جغرافية وتاريخية، وقديمًا عبر هانيبال المجاز إلى إسبانيا مع جيوشه البربرية.

كان طارق من بربر المغرب الأقصى، أسلم أبوه أيام عقبة بن نافع وحسن إسلامه وعمل طارق في خدمة الولاة المسلمين، وكان من أشد الضباط قربًا من موسى بن نصير؛ لأنه تخطى غيره من كبار العرب وعهد إليه قيادة أخطر عمل حربي في تاريخ التقدم العربي في حوض البحر الأبيض المتوسط. وما نعرف عن طارق قبل أن يوليه موسى القيادة على الحملة إلى الأندلس، أنه اشترك في مقاتلة البربر في ولاية زهير بن قيس على إسبانيا، فلما قتل زهير في برقة، نصب طارق أميرًا على برقة، غير أنه لم يلبث طويلاً في هذا المنصب، إذ اختاره موسى قائدًا في جيشه، فأبلى بلاء حسنًا في حروبه التي خاضها مع موسى، وظهرت لدى موسى سطوته الحربية ومهارته في قيادة الجيوش، فولاه على مقدمة جيوشه في المغرب. ويذكر عبيد الله بن صالح أن موسى جمع رهائن كتامة وزناتة وهوارة مع رهائن حسان وعدتهم اثني عشر ألف فارس، وولي عليهم طارق بن زياد، ورجع وترك معهم سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمون لهم القرآن وشرائع الإسلام. ويعتبر اختيار موسى لطارق على قيادة جيوشه مأثرة من مآثره العديدة، إذ أثبت بذلك درايته بالعناصر الصالحة في البربر واستخدامه لهم في قيادة جيشه. وهكذا أتيح لطارق بن زياد أن يتولى قيادة جيوش موسى، ويشترك معه في فتح بقية بلاد المغرب والسيطرة على حصون المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي.

ولم تكن هذه المحاولة العربية الأولى محاولة بغير هدف إنما كان العرب قد وضعوا لأنفسهم خطة عسكرية واضحة بدأوا ينفذونها خطوة خطوة. أُريد لهذه الحملة الأولى أن تحقق هدفًا أساسيًا لا ينجح الفتح إلا بدونه وهو إنشاء رأس جسر في الجانب الإسباني من مضيق جبل طارق يصبح قاعدة صالحة للتوغل في البلاد، ويستطيع المسلمون أن يدافعوا عنه إذا دهمهم العدو، كما يمكنهم من تأمين طرق مواصلاتهم مع ساحل المغرب العربي. وقد اتجهت جهود طارق إلى تحقيق هذا الهدف الأول، فقد تجمع المسلمون عند الجبل الذي عرف باسم جبل طارق وحصن المواقع تحصينًا طيبًا ثم بدئ في توسيع رأس الجسر بالاستيلاء على منطقة الجزيرة الخضراء المجاورة لجبل طارق، وأصبح المضيق كله في يد المسلمين، بل أصبح في استطاعتهم أن يدفعوا عنه كيد العدو، فقد صدوا إحدى غارات القوط على مواقعهم. كان طبيعيًا أن يتجه الفتح العربي إلى تحقيق المرحلة التالية من مراحل الفتح وأن ينصرف العرب من سياسة الدفاع إلى الهجوم، وأن يكون رأس الجسر هذا قاعدة صالحة للمضي بالغزو قدمًا. وقد وضح هذا الاتجاه عند المسلمين بعد أن أمنوا غارات العدو بعد أن وصلتهم الإمدادات في الوقت المناسب، فقد مكنوا الفاتحين من بدء العمليات العسكرية الناجحة فبدأ تحركهم الواضح صوب الشمال[1].

كان جيش طارق يتألف كما ذكرنا من سبعة آلاف مقاتل من البربر باستثناء ثلاثمائة من العرب، وعلى رأسهم رجال سيكون لهم شأن كبير فيما بعد، نخص بالذكر منهم عبد الملك بن أبي عامر المعافري، ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك، وعلقمة اللخمي. وأبحرت حملة طارق من ميناء

(1) د. حسين أحمد، حركة الفتوح الإسلامية، ص 30.

طنجة في 5 رجب 92هـ (إبريل 711م)، في السفن الأربع التي كانت ملكًا ليليان، ووضعها في خدمة العرب. ولا شك أن موسى استعان ببعض قطع من أسطوله الإسلامي الذي أنتجته دار الصناعة بتونس في جواز رجاله، واختلفت السفن بالرجال والخيل بين شاطئي الزقاق تنقل العسكر إلى «جبل على شط البحر منيع»، كان يعرف باسم جبل كالبي Calpe، أو «جبل طارق»، أو «جبل الفتح». ثم بعث طارق عبد الملك بن أبي عامر في فرقة سارت بحذاء الساحل شمالاً، فاستولت على قرية حصينة تعرف بقرطاجنة الجزيرة Carteya، وتقع جوفي خليج جبل طارق عند مصب نهير يسمى بوادي البحر، ثم زحف طارق غربًا، واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة، وأقام قاعدة لقواته في موضع يقابل الجزيرة الخضراء، أقيمت عليه هذه المدينة فيما بعد. وقد عهد طارق إلى يوليان ومن معه من الجند بمهمة حراسة هذه القاعدة، والدفاع عنها في حالة قيام القوط بأي هجوم. ووقع على لذريق خبر نزول المسلمين على الساحل الجنوبي للأندلس وقسوع الصاعقة، فانزعج لذلك، وكر راجعًا إلى عاصمته طليطلة، ومنها زحف في جموع كثيفة تقدر بنحو مائة ألف مقاتل، وقيل سبعين ألفًا، وقيل أربعين ألفًا. فلما علم طارق بذلك كتب إلى موسى يستمده، ويخبره أنه فتح الجزيرة الخضراء، وملك المجاز إلى الأندلس، واستولى على بعض أعمالها حتى البحيرة، وأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به، فأرسل إليه موسى مددًا من خمسة آلاف من المسلمين، كملت بهم عدة من معه اثني عشر ألفًا، أقوياء على المغانم، حرصًا على اللقاء، ومعهم يليان ورجاله، يدلون المسلمين على العورات، ويتجسسون الأخبار. ثم أقبلت جيوش لذريق حتى عسكرت غربي طريف، بالقرب من بحيرة خنده Janda، على طول نهير الرباط الذي يخترق

البحيرة ويصب في البحر، ويسميه العرب وادي لكة، تحريفًا للكلمة الإسبانية Lago أي البحيرة. والتقى الجيشان في يوم الأحد 28 من رمضان 92هـ (19 يولية 711م) أي بعد 83 يومًا من نزول المسلمين بجبل الفتح، في موضع على وادي برباط أو لكة، قرب مدينة شذونة. واستمرت المعركة عدة أيام وانتهت بهزيمة لذريق هزيمة ساحقة، بعد أن خذله ابنا غيطشة، ونكص عدد كبير من قواته. وأذرع المسلمون في فلول جيشه بالقتل، ولم يرفعوا عنهم السيف ثلاثة أيام. أما لذريق فقد غاب شخصه، فلم يعثر له أحد على أثر، ويبدو أنه فر في جملة الفارين، ليعيد تنظيم قواته من جديد. ويبدو أن طارق لم ينتزع النصر بسهولة، فقد قتل من رجاله ما يقرب من ثلاثة آلاف، استنادًا على ما ذكره المقري من أنه قسم الفيء على تسعة آلاف من المسلمين، وكان من بين القتلى شثبرت. وأحدث انتصار طارق في وادي لكة دويًا هائلاً، في المغرب والمشرق، الأمر الذي يعزز ما كنا نعتقده من أن حملة طارق كان يُنظر إليها على أنها مغامرة حربية مصيرها الفشل قبل النجاح، وإلا فما الداعي لتطاير أهل العدوة من البربر والعرب إلى الأندلس بعد انتصار المسلمين، وإقبالهم على الفتح بقلوب مجبورة[1]. وبهذا الانتصار انفتحت أبواب إسبانيا لطارق بن زياد، فمضى إلى الشمال قاصدًا العاصمة القوطية طليطلة (Toledo) وهي تبعد عن مكان معركة وادي لكة بأكثر من ستمائة كيلو متر في أرض وعرة كثيرة الجبال والمضايق، وبعث هو في طريقه سرية على رأسها رجل اسمه مغيث الرومي من أحفاد جَبلة بن الأيهم الغساني ففتح هذا قرطبة عاصمة المنطقة الجنوبية التي كان الرومان يدعونها باطقة (La Bética). وحاصر طارق طليطلة واستولى عليها بعد مقاومة عنيفة، وهرب كبار رجال القوط

(1) د. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 190.

والقساوسة من المدينة حاملين معهم ذخائرهم ومن بينها مذبح الكنيسة الكبرى الذي كان محلى بالذهب والجواهر، فتعقبهم طارق. وقرب قرية دعاها المسلمون بعد ذلك قلعة عبد السلام (واسمها اليوم "Alcalà de Henares") في الطريق إلى وادي الحجارة (Guadalajara) التقى بهم المسلمون فانتزعوا منهم ذلك المذبح الذي سماه المسلمون «مائدة سليمان» وكان يعد من أعظم غنائم الفتح. وكان الشتاء قد دخل، فعاد طارق إلى طليطلة وكتب إلى قائده موسى بن نصير بخبر الفتح العظيم، كما طلب إليه أن يمده بمزيد من القوات[1].

واندفعت جيوش طارق في أثر فلول القوط، تستولي على المدن، وتفتتح المعاقل، وكان جيشه قد تضخم بمن وفد إليه من أهل العدوة، بغية التماس الغنائم، أو الاستقرار في هذه البلاد الغنية، ففرق أجناده إلى بعوث جانبية ومضى هو إلى طليطلة، حيث احتشدت فلول القوط، فافتتحها في 93هـ دون مقاومة تذكر، وألفاها خالية. قد فر عنها سندرد رئيس الكنيسة الإسبانية إلى روما، كما فر عنها أهلها.

حملة موسى بن نصير اللخمي:

ثم كانت الحملة الثانية التي قام بها موسى بن نصير نفسه، استجابة لطلب طارق في معاونته على فتح بلاد الأندلس، وعبر موسى إلى الجزيرة الخضراء في عام 93هـ في جيش ضخم عدته ثمانية عشر ألفًا جلهم من العرب. الأوضاع التاريخية للمغرب والأندلس تصبح واحدة ابتداء من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فقد أصبح الجناح الغربي لعالم الإسلام كله في معركة مصير واحدة أمام الغرب

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 60.

الأوروبي الصاعد، وحتى في أيام المرينيين عندما توقف المغرب عن التدخل في شئون شبه الجزيرة الأندلسية بعد معركة «طريف» أو ريو سالادو استمر التحام المغرب والأندلس في مصير واحد، لأن إسبانيا والبرتغال أقبلتا تهاجمان سواحل المغرب، وفي عصر الهايسبورج - الذي يسمى في التاريخ الإسباني بعصر الأسرة النمساوية La Casa de Austria والذي بلغ ذروته في عصر شارل الخامس إمبراطور الهايسبورج وهو شارل الأول ملك إسبانيا وابنه فيليب الثاني - اتسع نطاق الصراع بين الإسلام والنصرانية فشمل سواحل المغرب جميعًا، ووصل حتى جزيرة جربة وطرابلس، وشاركت فيه الدولة العثمانية في عصرها الذهبي خلال القرن السادس عشر كله، وهو عصر سليم الأول وسليمان القانوني ثم سليم الثاني، وزاد التحام المغرب وشبه جزيرة أيبيريا خاصة وقد اتسع نطاق نشاط مجاهدي البحر المسلمين دفاعًا عن حدود بلادهم، وهو نشاط يسمى في تاريخ الغرب الأوروبي باسم القرصنة La Course وهو صراع بحري له منطقه ودوافعه، بل مبرراته التاريخية. وهذا كله جعلنا نضع خرائط كل الغرب الإسلامي في باب واحد بما في ذلك نشاط المسلمين في غالة، وهي فرنسا، في أوائل القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي، وفتح المسلمين لصقلية وما كان لهم فيها من تاريخ حتى نهاية تاريخها الإسلامي.

يختلف الكُتَّاب القدامى في أصل موسى بن نصير، إذ يقول البعض أنه من لخم، ويقول البعض أنه من بكر بن وائل من بني شيبان الكندي الحضرمي. شغل نصير والد موسى منصب قائد حرس معاوية وهو أمير على الشام، وكان له من قوة الشخصية وأصالة الرأي ما يسمح له بعدم إجابة كل رغبات معاوية حتى في وقت الأزمات الخطيرة. أما موسى فإنه كان قد شغل

في المشرق وظائف هامة آخرها وظيفة مستشار أخي الخليفة عبد الملك، وهو الشاب الصغير بشر بن مروان والي البصرة. ولقد ألقى عليه الخليفة مسئولية فساد إدارة أموال البصرة، وأراد عقابه فلجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان - إذ كان أثيرًا لديه - فتدخل من أجله لدى عبد الملك حتى عفا عنه، وأقام موسى في كنف عبد العزيز بالفسطاط. ولا نعرف ماذا كان نشاط موسى في مصر، ولكن الظاهر أن عبد العزيز بن مروان كان يلح في أن تؤول ولاية المغرب إلى ابن نصير، وأن فشل ولاة الخليفة في المغرب أمام ثورات البربر كان من الأسباب المواتية لكي يصر عبد العزيز على تقديم رجله. فابن عبد الحكم ينسب إلى عبد العزيز أنه قال لحسان عندما طلب منه أن يسحب مولاه تليدًا من برقة: «ما كنت لأفعل بعد إذ ضيعتها فاستولى عليها الروم». وهكذا نستطيع أن نقول أن موسى كان المرشح لولاية تونس المغرب العربي بعد وفاة حسان، والذي أيد الترشيح في ذلك الوقت هو والي مصر الجديد عبد الله بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد بن عبد الملك، فسيره الوليد إلى تونس. وصل موسى إلى القيروان، وتسلم مقاليد الأمور من أبي صالح مولى حسان ونائبه على إفريقية. ويقول ابن قتيبة أنه أساء إليه فأغرمه عشرة آلاف دينار، ووجهه إلى المشرق في الحديد. والظاهر أن موسى سار إلى المغرب وهو يرنو إلى تحقيق ما لم يستطع سابقوه أن يحققوا مثله. هذا ما يفهم مما يرويه ابن قتيبة وينقله ابن عذاري من أن موسى عندما وصل إلى إفريقية وصار على رأس الجيش ذبح عصفورًا وقع عليه ولطخ بدمه صدره من فوق ثيابه، ونتف ريشه وطرحه على نفسه، وقال هو الفتح ورب الكعبة. وأنه صعد المنبر وخطب الناس فقال: «إنما كان قبلي على إفريقية أحد رجلين مسالم يحب العافية... أو رجل ضعيف العقيدة قليل المعرفة وأيم الله لا أريم هذه القلاع والجبال

المتنعة حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعهـا ويفتحها على المسلمين». والحقيقة أن حسان وإن كان قـد مهد إفريقية والمغرب الأوسـط فإن المغرب الأقصى لم يكن قـد تمهد أمام العـرب، وهذا ما وقع علـى كاهل موسى. وبـدأ موسى أعماله بالقضاء على بقـايا جيوب المقاومة في المغرب العربي، فسيّـر كتيبة من 500 (خمسمـائة) فارس إلى قلعة زغوان (على مسيـرة يوم من القيروان) فتم فتحـها، ودخل إلى القيروان من سبـيها عشرة آلاف رأس. أمـا عن حملات موسى في المغرب الأوسط والأقصى فقد نجحت نجاحًا باهرًا، وكانت أشبه ما تكون بنزهات عـسكرية - كمـا يقـال. فالكُتّـاب لا يتكلمون إلا عن أعـداد خيـالية من السبي والأسـرى تصل في بعض المدن إلى 100 (مائة) ألف رأس وأكثـر. أما عن التواريخ فـغير ثابـتة أو مجـهولة إطلاقًا، وأمـا عن مواضع العمليـات العـسكرية فـغيـر أكيدة بالمـرة. والذي تتفق عليه الـنصوص هو أن موسى بن نصير قـام بثلاث عمليات عـسكرية كبرى، قـاد إحداها هو بنفسه، وقام بالاثنتين الأخريين ابناه عـبد الله (أكبر أبنائه) ومروان. وهنا ذكـر لعملية رابعة قام بهـا زرعة بن أبي مدرك. ويرجع الفضل إلى نص عُـبيد الله، الذي نشره بروفنسال، في توضيح الخطوات الرئيـسية لتلك الحملات التي كان هدفها المغرب الأقصى، والتي تذكـر بالحملة الكبرى التي قام بها عقـبة بن نافع قبل ذلك بعـشـرين سنة. وهناك ينبـغي أن نشـير إلى أنه من المحـتـمل أن يكون الكُـتَّاب قد خلطوا بين أعمال موسى بن نصـير وأعمال عقبة بن نافع، وأنهم نسبوا إلى عقبة بعض أعمال موسى. وبدأ موسى بأن أخضع قبائل البربر التي خرجت على الطاعة بعـد مسير حسان إلى المشـرق، وكذلك التي لم تكن قد خضعت بعـد للعرب. خرج موسى من إفريقيـة نحو المغرب الأوسط وولاية طنجة، فتبددت القـبائل أمامه نحو الغرب، فتتبعهـا عبر الـسوس الأدنى حتى

بلاد سجلماسة ووادي درعة. والظاهر أن القبائل التي استبد بها الخوف اختلطت ببعضها البعض خلال تلك المطاردة الرائعة. فبينما يذكر عبيد الله أن موسى وجد كتامة هناك (بدرعة)، وأنه قتل ملكهم كمامون، يضيف ابن عذاري الذي ينقل عن ابن قتيبة إلى كتامة قبائل هوارة وزناتة. وخضعت تلك القبائل لموسى الذي ولي عليهم رجلا منهم، وتركهم بعد أن استوثق منهم بأخذ الرهائن من أشرافهم وعاد بالسبي الكثير. ورجع موسى إلى المغرب الأوسط حيث لقي قبائل صنهاجة، وقتل ملكهم على وادي ملوية. وتبالغ الروايات في عظم النتائج التي حصل عليها موسى في حملته هذه، حتى قيل أن سبي مدينة سجوما (أوسكوما) الصغيرة - وهي من مدن قبيلة أوربة كان 100 (مائة) ألف مما أدهش الخليفة الوليد، فكتب إلى موسى: «ويحك أظنها إحدى كذباتك، فإن كنت صادقًا فهذا حشر الأمم». وتقول الرواية أن موسى أخذ من جديد بثأر عقبة في سجوما على يدي أولاد عقبة أنفسهم، وهم عياض، وعثمان، وأبو عبيدة، وموسى، الذين كانوا معه فقتلوا 600 (ستمائة) رجل من كبار أهل تلك المدينة. وكان من الطبيعي وقد حقق موسى ذلك النجاح الباهر أن يوسع دائرة نشاطه في بقية أنحاء المغرب. فسيّر ابنه مروان على رأس قوة من خمسة آلاف رجل إلى السوس الأقصى، كما سيّر قائده زرعة بن أبي مدرك إلى بربر مصمودة في أطلس العليا. ونجحت الحملتان فرجع مروان بسبي كثير كان مجالاً خصبًا لخيال الكُتّاب، أما زرعة فلم يلق حربًا من المصامدة الذين أعلنوا خضوعهم، وقدموا إليه رهائنهم كما قدمت غير مصمودة الرهائن. وكانت هذه هي المرة الثانية التي تطأ فيها الخيالة العربية أرض مصمودة بعد دخول عقبة. وتأكد انتشار الإسلام في بلاد المصامدة الذين دخلوا فيه طوعًا.

فتح طنجة:

وهكذا بعد أن تم لموسى إخضاع المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، من صحراء درعة إلى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة، تطلع موسى نحو طنجة التي كانت تخضع للأمير الرومي يليان (جوليان) منذ أيام عقبة. والمقصود بطنجة هنا هو الولاية، التي كانت في القديم تتسع لمسيرة شهر، وليس المدينة حتى أن الكُتَّاب عندما يتكلمون عن فتح طنجة يشيرون إلى فتح السوس الأدنى، وهي البلاد الواقعة خلف مدينة طنجة، حيث خضعت القبائل هناك، وولى عليهم موسى واليًا من قبله أحسن فيهم السيرة. ونجح موسى في انتزاع طنجة (المدينة) لأول مرة، وكان «بها من البربر بطون من البتر والبرانس ممن لم يكن دخل في الطاعة». ووضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط تتكون من 1700 (ألف وسبعمائة) رجل تحت قيادة ابنه مروان. والظاهر أن ظروف الرباط لم تكن ملائمة بالنسبة لمروان، فلم يلبث أن انصرف بعد أن «جهد هو وأصحابه» تاركًا القيادة من بعده إلى طارق بن زياد. والظاهر أن البربر أقبلوا على الرباط على الساحل الطنجي بحماس لا نظير له إذ لم تلبث قوات طارق أن بلغت 12 (اثني عشر) ألف رجل، هذا ولو أنه كان مَن بين هؤلاء البربر رهائن المصامدة، وغيرهم من رهائن بربر المغرب، مع بضعة عشر رجلاً من فقهاء العرب يعلمونهم قواعد الإسلام وأصول الشريعة. وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلا إقليم سبتة الذي بقي بيد يدي يليان، وانتشر الإسلام فيه، وذلك حوالي سنة 90هـ/ 708م وهو قريب من التاريخ الذي يجعل فيه بعض الكُتَّاب ولاية موسى للمغرب. وقرر موسى العودة إلى إفريقية بعد أن استعمل طارق بن زياد على طنجة، وفي الطريق إلى القيروان فتح موسى مدينة مجانة، على مسيرة 3 أيام من القيروان على

الحدود التونسية الجزائرية الحـالية، على يدي بشر بن فلان الذي أعطاها اسمه فأصبحت تسمى قلعة بشر.

طارق في تلمسان وعلاقته بيليان:

هكذا استقـر موسى بن نصير في القيروان، ولم يبق له في إفـريقية من ينازعه، بينما نائبه ومولاه طارق بن زياد فـي طنجة يتم تمهيد المغرب، ويتطلع إلى الأندلس. ولقـد لاحظ بعض الكُتَّاب - ولهم الحق في ذلـك - أنه كان من الغـريب أن يكون طارق في طنجة، الـتي تكاد تكون هي وسبـتة مـدينة واحدة ذات شـطرين على المجاز إلى الأندلس، بينمـا كانت سـبتـة بين يدي يليان. فرجـح البعض أن مستقـر طارق كان في شمال بلاد درعـة في المنطقة التي ستـبنى فيهـا سجلماسـة، وهي تفللت حاليًا «لأن سـلا وما وراءها من أرض فارس وطنجة وسبتة كانت للنصـارى». ولكن هذا الاحتمال منقوض من وجهين: أولهـما أنه يتعارض مع النصـوص التي تجمع على أن طارق بن زياد كان بطنجة أو بسـاحلها. وثانيهما أنه مـا كان العرب ليستقـروا في الصحراء الجنوبية القاحلة بعد أن كانت لهم الأقاليم الخصبة الساحلية في الشمال، وهذا ما وجههم فعلاً نحو الأندلس شـمالاً بدلا من الاتجاه نحو السنغال والسودان الغربي جنوبًا. وحقـيقة الأمر أن الكُتَّاب يـقصدون بطنجة الولاية الفسـيحة، وليس المدينة الصغـيرة. وإذا ما كانت ولاية طنجة تمتـد إلى مسيرة شهـر كما أشرنا. وإذا ما كانت مدينة سلا (حيث مـدينة الرباط الحالية) تعتبر داخلة في نطاقها من جهة الغرب، يكون امتـداد مدينة طنجة من جهة الشرق إلى حدود المغرب الأوسط ومدينة تلمسـان. وهذا ما تؤيده بعض روايات ابن عبد الحكم التي تقول أن يلـيان، عندما أرسل إلى طارق يحـثه على فـتح إسبانيـا، كان «طارق يومئـذ بتلمسـان، وموسى بالقيـروان». وهذا يعني أن تلمسـان كانت بالنسبة للمغـرب في ذلك الوقت قرينة للقيروان بالنسبـة للمغرب العربي، مما

يحمل على الظن بأن مدينة طنجة ذاتها دخلت في حوزة العرب مع مدينة سبتة وبقية أملاك يليان عندما تم التحالف بين هذا الأخير وبين طارق وموسى. ولا يمنع من ذلك ما يُفهم من رواية أخبار مجموعة من أن موسى بن نصير افتتح فعلاً طنجة، وأنه حاول فتح سبتة ولكنه وجد عند يليان عدة وقوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها فلم يطقهم فرجع عنهم إلى طنجة، وجعل يجنث ما حولهم بالمغاورة فلم يطقهم، فلو صح ذلك لكان من المغامرة أن يقيم طارق إلى جوار خصمه القوي الذي لا يطيقه.

أقام إذن طارق بتلمسان مع زوجته أم حكيم على حدود ولاية طنجة الشرقية كما يقول ابن عبد الحكم، واستمر في اتباع سياسة حسن الجوار التي اتبعها العرب إزاء يليان منذ أيام عقبة بن نافع، ولم يحاول أن ينتزع مدينة سبتة، ولو أن العرب استولوا على دواخلها. وأخذ طارق يراسل يليان ويلاطفه، واستجاب الأمير الرومي الذي كان يقف موقفًا دقيقًا بين القوط في الأندلس والعرب في المغرب لرغبة طارق، وتوثقت عرى الصداقة بينهما، فكانا يتبادلان الهدايا، وانتهى الأمر بأن أدى يليان خدمات حاسمة للعرب فكان العامل الفعال في فتح إسبانيا. أصبح المغرب منذ عام 86هـ ولاية مستقلة عن مصر. ونجح موسى بن نصير في افتتاح المغرب كله، ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها، وشدة تحصنها، واختلاف سفن القوط إليها بالميرة والإمدادات عن طريق البحر، فلم يتمكن من التغلب عليها. وكان يحكمها من قبل القوط الغربيين حاكم اسمه جوليان، ويسميه العرب يليان النصراني أو وليان أو إليان. وقد اختلفت المصادر العربية في شخصية يليان، فبعضها يذكر أنه قوطي وبعضها يزعم أنه رومي، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة. وأغلب الظن أن يليان كان حاكمًا عامًا من قبل الدولة البيزنطية على

ولاية مورطانية الطنجية، وكانت تابعة لمورطانية القيصرية، إحدى الولايات السبع الخاضعة للدولة البيزنطية، بدليل أنه كان يحكم سبتة وطنجة عندما قام عقبة بحملته الكبرى إلى السوس الأدنى، فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها، ولت سبتة وجهها شطر إسبانيا القوطية. تولى يليان شئون هذا الإقليم في سن مبكرة، وأقام طويلاً في أرض المغرب حتى توثق علاقته بمن جاوره من قبائل البربر، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له، حتى أصبح ملمًا بشئونهم، وأصبح يعد نفسه واحدًا منهم، لذلك اختلط الأمر على الناس فظنوه بربريًا، ومن هنا كان مرجع الرواية التي تنسبه إلى غمارة. أما علاقته بالدولة القوطية، فمرجعه أنه كان يتوجه بطلب المعونة إلى هذه الدولة، لبعد مدينته عن بيزنطة، واضطراب أحوال الدولة البيزنطية في هذه الفترة. وحدث إبان الفتح العربي للمغرب، في ولاية عقبة أن اغتصب لذريق Rodrigo، دوق باطقة وحاكمها بقرطبة عرش القوط بإسبانيا من أبناء غيطشة Witiza، وأثار ذلك نقمة أنصار غيطشة وأبنائه عليه، فهبوا ضد هذا المغتصب المتسور الذي انتزع الملك من البيت الشرعي لنفسه، وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد، ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس، واشتعلت نيران الثورات في طليطلة وغيرها، وتعذر على وقلة Achila أن يتوجه إلى العاصمة بعد وفاة أبيه غيطشة، واضطرت أمه، التي أرادت أن تضبط ملك أبيه، إلى الفرار هي وأخواه أرطباس Artavasdes والمند Olmundo، وعمه أبه Oppa أسقف إشبيلية، والتجأ الجميع إلى جليقية. وحاول وقلة أن يسترد عرشه، فأعد جيشًا بقيادة عمه ووصيه رخشندش Rechesindo، فأسرع لذريق بالسير على رأس جيش كثيف واشتبك مع جيش رخشندش، وهزمه في موقعة كبرى قتل فيها الوصي، وتفرق أتباعه.

ويغلب الظن أن وقلة فر إلى المغرب العربي بعد ذلك، وأقام عند يليان حاكم سبتة، وكان ما يزال على ولائه للملك غيطشة وأبنائه. أما لذريق فقد استبقى ولدي غيطشة الآخرين: وهما أرطباس والمند، إلى جواره، حتى يستوثق من إخلاصهما له، ويقضي بذلك على الثورات الموالية لبيت غيطشة. وأمعن لذريق في مطاردة أنصار وقلة بالأذى، ففروا من إسبانيا، والتمسوا سبل النجاة إلى أقصى الشمال، أو إلى سبتة، ولاذوا بحماية يليان الذي كان مخاصمًا للذريق. وبمساعدة يليان، نجح هؤلاء اللاجئون في الاتصال بالعرب، وحثوهم على فتح إسبانيا أملاً في استرداد العرش لأميرهم وقلة، اعتقادًا منهم أن العرب الطارقين لإسبانيا لمساعدتهم، لن يكونوا في حاجة إلى استيطانها بعد افتتاحهم لها، وأن مرادهم لا يعدوا ملء أيديهم من الغنائم، ثم يخرجوا عنها لأصحابها. ويعتقد سافدرا أن يليان كان يمت بصلة القرابة والنسب إلى أسرة غيطشة، وكان من الطبيعي لذلك السبب، أن ينضم إلى صفوف الخارجين على لذريق، ويفتح لهم أبواب مدينته، ويعمل على مساعدتهم لاسترداد ملكهم السليب، مستعينًا في ذلك بالعرب. ولكن يليان فيما يظهر، لم يشأ أن يعلن عدائه للذريق مرة واحدة، حتى لا ينقلب عليه، فتظاهر بولائه له حتى لا تنقطع إمدادات القوط عنه، وكان يضمر في قرارة نفسه الكيد له. ولكن حادثًا وقع في ذلك الوقت كان سببًا في انضمامه صراحة إلى جانب الثوار، وإقدامه على طلب العون من العرب، وتحريضهم على فتح إسبانيا. فقد زعموا أنه كانت له ابنة على حظ كبير من الجمال تدعى فلورندا، وكان قد بعثها منذ أيام غيطشة - شأنها في ذلك شأن غيرها من بنات الأمراء والنبلاء - إلى بلاط الملك بطليطلة للتأدب بآداب الملوك، فوقعت موقعًا حسنًا في عيني الملك، ويقال أنه استكرهها على نفسها،

فاحتـالت الفتاة على إبلاغ أبيهـا سرًا بما أصابها على يدي لذريق، فـتضاعف حقـده عليـه، وعزم على الانتـقام، ورأى ألا عـقوبة له إلا إذا أدخل عليـه العرب، فبـعث إلى طارق بن زياد الذي ولاه موسى أميرًا علـى طنجة قائلاً: «إني مُدخلك إسبانيا»[1].

في الوقت الذي خلف فـيه «الذريق» «غـيطشة» كـان العرب قـد ثبـتوا أقدامـهم في شمال المغـرب وانتهوا من احـتلال منطقتـه الوسطى. ولـم يقف حائلاً في وجـهة انطلاقـهم الشرس والعنيـد سوى المحيط الأطلـنطي. . كان بوسـعهم توجـيه الدفـة صـوب الجنوب وتجاوز جـبال الأطلس دون عـوائق لاحتلال الصحراء والبـلاد السوداء ومسـاحات صحراوية شاسـعة ألفوا مثلها، لكن أنظارهم - على خلاف المتـوقع - اتجهت إلى شبه جزيرة أيبـيريا، وكأنما استهوتهم الأراضي الخصبة وثراء المدن العـتيقة، ولذا كان من الضروري اتخاذ القرار بمهاجمـة إسبانيا. ومع هذا، فقرارهم لم يخل - بالـتأكيد - من بعض التردد ربما النفـور. فهناك عائق لـم يعتـادوا عليه قد جعلهم يمعنون التـفكير: الحاجـز البحري، بالرغم من قـصره، سيـفصل بينهم وبين قـواعد الانطلاق وسيجعل الاتصال بالمقـر الرئيسي للإمبراطورية العربية محفـوفًا أكثر بالمخاطر لاتساع هوة المسـافة. لم تكن المهمة سـهلة، ويغلب الظن بأن الملابسات التي أحاطت اتخاذ القرار وقتها كانت: الخوف من المجهول والثقة الزائدة بالنفس، إضافة إلى تأكيدات من معسكر الخصم بحـسن الاستقبال. ومن المحتمل أيضًا أن العرب لم يكن ليفكروا بهذه السـرعة مهـاجمة إسبانيا لو لم تحفزهم بعض الدعوات الداخلية ولو لم يؤازرهم البربر (رعاياهم الأفارقة الجدد الذين دخلوا الإسلام حديثًـا). فلم يكن قد استقـر بعد احتلالهم الحديـث للمغرب، ولم

(1) د. عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 181.

تسفر غاراتهم على بعض مراكز المغرب الأقصى عن نتائج حاسمة. من الصعب تحديد تاريخ مؤكد للمحاولات الأولى لأسلمة المغرب نظرًا لظاهرة المد والجزر التي صاحبت عمليات العرب العسكرية في المغرب العربي خلال الربع الأخير من القرن السابع ولردود أفعال البربر المستمرة. ومع هذا، يبدو أن عقبة بن نافع - في الفترة من 681 - 682م - قد توغل حتى طنجة، وشن منها غارات شجاعة على قلب المغرب ذاته حملته إلى «ولبلة» ثم إلى «وادي درعة» وتخوم الأطلس الكبير، وإلى السهول الواقعة بالقرب من الأطلنطي، لكن مرور عقبة الخاطف بتلك الأماكن لا يضمن ولاء الكتل البربرية من الوهلة الأولى ولا صدق تحولها إلى الإسلام. وكان كل القواد العرب الذين أرسلهم بعد ذلك الخلفاء الأمويون إلى المغرب العربي قمع حركات التمرد البربرية والقضاء على زعمائها وخاصة «كسيلة» و«الكاهنة». بعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان وتولية ابنه الوليد عام 705م تجدد العزم على إتمام فتح المغرب، وأسندت المهمة إلى موسى بن نصير. ومثل معظم قادة العرب العسكريين في تلك الفترة، فإن موسى بن نصير هذا (الذي احتفظ له المجد مع طارق بن زياد بشرف فتح إسبانيا) كان قائدًا حربيًا من الطراز الأول وسياسيًا بارعًا (ولنذكر بأنه اشتغل بالسياسة - قبل تعيينه حاكمًا على المغرب العربي - في الشرق تحت إمرة والي مصر في البداية ثم خليفة دمشق بعد ذلك). وحققت حملة موسى إلى المغرب نجاحًا منقطع النظير: فقد اتجه بجيشه أولاً إلى «سيشيلماسا» (Sichilmasa)، ثم إلى ضفاف نهر «مولوية» (Muluya)، بينما نجح أحد أبنائه في إخضاع بربر «المصمودة» في الأطلس الكبير. وأعاد موسى فتح «طنجة» لكنه أرجأ لبعض الوقت الاستيلاء على «سبتة» البيزنطية. ولكي يوطد فتوحاته أخذ رهائن من القبائل الخاضعة له

بغرض تـعليمهـم الدين الجديد ولتـحويلهم بعـد ذلك إلى دعاة مـتحـمسين للإسلام. وبعد أن تم له كل هذا، عاد إلى المغـرب العربي تاركًا على المغرب نوابًا عنه من العرب أو من البـربر الذين يدينون له بالولاء، ومن هؤلاء طارق ابن زياد الذي تولى حكم طنجة. ثارت أقاويل عديدة حول شـخصية «يليان» حاكم سـبتة الذي ارتبـط مع عقبـة بن نافع - منذ حملتـه الأولى - بمعاهدة تنص على التبـعية للقـائد العربي مع الاستمـرار أميرًا مـستقلاً على مـدينته. حاول بعض المؤرخين المعاصرين إثبات أنه كـان أحد وجهاء مملكة القوط، أو أنه كان زعـيمًا بربريًا مـسيحـيًا ينتـسب لقبيلة «غـمارة» (Gumara)، واسمه الأصلي يلبـان (بالباء). لكن الأكـثر احـتـمالاً أنه كـان واليًا بيـزنطيًا تابعًـا لإمبراطور القـسطنطينية ظل محتفـظًا لبضع سنوات بولايته على سبتـة كآخر معـقل بيزنطي في الأراضي الأفريقـية. ولم يكن بوسع هذا الوالي البـيزنطي التخلي عن علاقة حسن الجوار أو تبـادل المصالح ليس فقط مع شعوب البربر المحيطة به بل أيضًا مع كبار رجال الدولة القـوطية القريبة. ومن الطبيعي أيضًا أن يكون قد تعاطف مع ابن غيطشـة بعد أن سلبه لذريق ملكه، وأن يكون قد أوى إليه عـددًا غير قليل من الساخطين أو المغـضوب عليهم في شبـه جزيرة أيبيريـا. ولمعرفة البواعث التي حـدت بـ«يليان» التحالف مع المسلـمين لا مفر من الرجـوع إلى الحكايات التي أوردتهـا المصـادر العربيـة، علمًـا بأن الأدب المسيحي المتأخر قد فنّد منحاها الأسطوري. ومع هذا، لا نستطيع أن نمر مرور الكرام على تلك الأقاصـيص برغم ما يكتنفهـا من شكوك. وطبقًا للمـصادر العربية فإن الكونت يليان كانت له ابنة تدعى «إلكافا» أو «فلورندا» وأرسلها - تمشيًا مع تقاليد ذلك العصـر - إلى البلاط الملكي لكي تتربى تربية الأميرات. وذات يوم رآها الملك لذريق فأسره جمالهـا ولم يتورع عن سلب عفافها. ولما

علم يليان بالأمر ذهب على وجه السرعة إلى طليطلة، متجشمًا سوء الأحوال الجوية في هذا الفصل من السنة، وأعاد ابنته إلى إفريقية وأقسم برد الإهانة. وعلى هذا، فإن مسئولية الأحداث الجسام التي هبطت على إسبانيا منذ اليوم الأول لسقوطها في أيدي المسلمين لا بد وأن تتحملها - إلى الأبد - تلك الفتاة المسكينة التي تحولت إلى مادة خصبة لكل الأجناس الأدبية: فأقاصيص العصور المتأخرة - حتى مجموعة «الرومانث» - لا تمل من الحديث عن تلك الفتاة التي شاهدها لذريق وهي تستحم في نهر التاجة المار بطليطلة[1]. والحقيقة أن الغزوات الكبيرة كان يصاحبها دائمًا (انحلال) سياسي في البلاد المفتوحة، ولم تشذ إسبانيا القوطية عن هذه القاعدة فقبيل غزو العرب كانت الملكية القوطية قد اضمحلّت بسبب النزاعات السياسية والصراعات الدينية وسوء استغلال الطبقات الكادحة. فلقد امتلأت فترة الثلاثين سنة السابقة على الفتح العربي بالنزاعات من أجل الوصول إلى عرش طليطلة كما امتلأت بدسائس الأعيان من رجال الإقطاع وكذلك من رجال الدين الذين كانوا يسعون في أمور السياسة. وهكذا كانت كل الدلائل تشير إلى أن شبه جزيرة أيبيريا كان فريسة سهلة لمن يطمع في غزوها وذلك في الوقت الذي كان العرب قد انتهوا فيه من إتمام فتح المغرب الأقصى. والخطوط العريضة لتاريخ هذه الفترة تتمثل في تحقيق الوحدة الدينية في البلاد على يدي الملك ريكارد (Recared) وأصبحت الكاثوليكية هي الديانة الرسمية للدولة بعد أن انتصرت على المذهب الأريوسي. وعن الملك ريكارد يقول ابن الأثير: «وكان حسن السيرة فيجمع الأساقفة وغير سيرة أبيه، وسلم البلاد إليهم وكانوا نحو ثمانين أسقفًا، وكان تقيًا عفيفًا قد لبس ثياب الرهبان». ولكنه بعد قليل من ذلك

(1) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص 49.

عاد رجال الـدين إلى التدخل في شئون البـلاد وكذلك الأمر بالنسبـة للنبلاء الذين فرضوا أنفـسهم على الملوك واصطدموا بهم. والحقيقـة أنه كانت العادة قد جرت على أن تكون الملكية القوطية انتخابية ولكن الذين كانوا يصلون إلى العرش من الأمـراء كانوا يعملون على أن يخلفـهم أبناؤهم في الحكم مما كان يثير منافسيهم من النبلاء. ولم تمنع هذه الأحوال المضطربة من ظهور عدد من كبار الملوك مثل «رسـفنت Recesuinth» الذي عمل قانونًا مأخوذًا من القانون الروماني والعرف القوطي والذي ظل يعمل به لفترة طويلة بين نصارى إسبانيا الإسلامية. ويعتـبر الملك «وامبا Wamba» الذي خلف رسـفنت من الأمراء الذين عرفـوا بالنشاط وبحـسن تدبير الأمـور، ولو أنه ترك الحكم في ظروف غامضـة واعتكف في أحد الأديرة. أمـا الملك الذي خلفه وهو إرفج (Ervig) فقد عمل على تحديد امتـيازات الملكية. ولقد تميز حكم الملك «أجيكا Egica» (687 - 702م) بانعقاد ثلاثة مـجاميع دينية كان الهـدف الأول منها هو تسوية النزاع بين الملك وورثة سلفـه إرفج، أما الثـاني فقـد انعقـد بمحاكمـة مطران طليطلة «شسبيرت Sisberts» لمؤامرة كان يدبرها. أما المجمع الثالث فقد انعقد للحكم في مؤامرة اتهم بها اليهود، إذ نسب إليهم أنهم اتصلوا بإخوانهم يهود المغـرب من أجل تحريض العـرب على غزو إسـبانيـا. وكانت الأحكـام ضد اليهود قاسـية إذ أعلن استعبادهم ومصـادرة أموالهم وفصل أبناءهم عنهم منذ سن السـابعة.

غيطشة ولذريق:

أشرك في 693م أجيكا معه في الحكم ابنه غيطشة (Witiza)، ولم يكلف هذا الأخير نفـسه عناء التقدم للانتـخاب عند وفاة والده 702م، بل إنه عمل على تهـيئة ولاية العـهد لابنه أخـيل الذي كان شـابًا يافعًـا. وكان ذلك من

أسباب سخط النبلاء. الذين كان ينكل بهم مما زاد في الجفوة بين الملك من جهة وبين النبلاء ورجال الدين من جهة أخرى. وهكذا عندما توفي غيطشة حوالي 709م لم يستطع ابنه أخيل - الذي كان في ولايته في شمال البلاد - من العودة إلى طليطلة. بل إن أمه وأخويه «المند Olmondo» و«أرطباس Ar-dabast» اضطروا إلى الهرب من العاصمة والالتجاء إلى إقليم الجلاقة (غاليسيا). واختار خصومهم في طليطلة الدوق لذريق (رودريك) الذي كان حاكمًا لإقليم قرطبة للجلوس على العرش. وتمكن لذريق من توطيد مركزه فهزم الجيش الذي أرسله ضده أخيل. ومع أنه توجد رواية تقول أن إخوة أخيل لجأوا إلى المغرب ليحرضوا العرب على غزو بلادهم، فأغلب الظن أنهم تصالحوا مع الملك الجديد ودخلوا في خدمته. هذا ما تقول به الرواية العربية التي تصف المعركة التي دارت بين طارق بن زياد وبين لذريق إذ تجعل إخوة أخيل في جانب الملك لذريق رغم غدرهم به. وقصة الملك لذريق في المصادر العربية لها طابع أسطوري رغم أنها تحوي الكثير من الحقيقة. فهناك قصة البيت المغلق في طليطلة والذي فتحه لذريق ورأى فيه صورة العرب وهم على صهوة جيادهم. وهناك قصة اغتصابه لابنة الكونت يليان (Julien) التي كان أرسلها والدها إلى بلاطه لتتأدب أدبًا ملوكيًا فلم يحافظ عليها لذريق. وتقول الرواية العربية أن ذلك كان السبب في سخط يليان على القوط وعمله على الثأر بتحريض موسى بن نصير على فتح الأندلس. وتختلف الروايات العربية من تحديد شخصية يليان الذي كان حاكمًا لمدينة سبتة مما دعا إلى اختلاف الباحثين المحدثين تبعًا لذلك. فهو أمير قوطي في نظر البعض وهو أمير رومي في نظر غيرهم، كما رأى فريق ثالث أنه بربري الأصل. والحقيقة أنه يمكن القول أن يليان، بصفته حاكمًا لقلعة سبتة التي تعتبر آخر معاقل البيزنطيين في

سواحل المغــرب، كان قائدًا بيزنطيّــا، ولكنه بسبب دقة موقــفه في سبــتة كان على علاقات طيــبة بالبربر في داخل البلاد من أجل التجارة، كــما كان على علاقــات حــسنة مع ملك طليطلة الــقريب منه والظاهر أنه كــان قد انضم إلى جــانب أبناء الملك غــيطشة وأن ولايــته كــانت ملجــأ للســاخطين على الملك القوطي. في هذه الظروف السياسية، ودون إهمال قصة الثأر لشرف ابنته التي أحضــرها من بلاد طليطلة إلى سبتــة، سارع يليان بالذهاب إلى القــيروان في إفريقية حيث لقي موسى بن نصير وصوّر له سهولة فتح إسبانيا وأغراه بالمغانم الكبيرة التي سيعود بها المسلمون من هناك. ووافق موسى بن نصير شريطة أن يتعاون معه يليان بأن يبدأ باســتطلاع الساحل الإسباني. ورجع القائد البيزنطي إلى سبتة وأعد قوة صغــيرة نزل بها على ساحل الجزيرة الخضراء (Algeciras) في جنوب إسبانيا الإسلاميــة وعاد من هــذه الغــارة بالمغانم والأسرى، مما كان له أثره في تشجيع العرب على القيام بالمخــاطرة وعبور بحر الزقاق من ساحل المغرب العربي إلى الســاحل الإسباني.

هكذا اقتنع موسى بن نصــير بضعف المقاومة القوطية، وإمــكانية القيام بالفتح. ولما كان من الضروري أن يحصل على موافقة الخلافة في دمشق أولاً فإنه كتب إلى الوليد بن عبد الملك يستــأذنه في العبور واشترط الخليفة في رده أن يكتفي موسى بالقيام بغارات استكشافــية خشية «التغرير بالمسلمين في بحر شديد الأهوال». وعنــدما كتب إليــه موسى أنه ليس ببــحر متــسع، وإنما هو خليج يبين ما وراءه. كتب إليه الوليد: «اخــتبرها بالــسرايا وإن كان الأمر على ما حكيت». لم يكد يلــيان يرجع إلى سبتــة حتى شد الرحــال من جديد إلى المغرب في طريقه للقاء حاكمها موسى بن نصير. وفي اللقاء زين له الاستيلاء على إسبانيا (أيبيريا) حيث إنه لن يكلف المسلمين سوى القليل وسيعود عليهم

بالخير العميم. وقبل موسى عرض يليان التعاون معه، وكلفه بمهمة تفقد واستطلاع الشاطئ الإسباني. وبمجرد عودته إلى سبتة جهّز قوة بحرية صغيرة وأغار بها على خليج «الجزيرة الخضراء» (Algeciras) فأصاب الكثير من الغنائم والأسرى وقفل عائداً إلى مدينته. وقعت هذه الغارة التي بهرت مسلمي شمال المغرب، في أكتوبر أو نوفمبر عام 709م (90هـ). يقول المؤرخون العرب أن سخونة الأحداث أقنعت موسى بن نصير بإمكانية إعداد حملة ضد إسبانيا، لكن كان عليه الحصول على موافقة الخليفة. في المرة الأولى لم يعط الوليد بن عبد الملك التصريح الذي طُلب منه؛ وفي الثانية طلب من حاكمه على إفريقية الاقتصار على الاستكشاف بفصائل من الفرسان لاختبار صمود القوط وللتعرف على حقيقة الأوضاع السياسية للبلاد «حذار - أضاف الخليفة - من التغرير بالمسلمين في بحر شديد الأهوال».

في يولية عام 710م (رمضان 91هـ) وطأت أقدام أربعمائة مقاتل مسلم، منهم مائة من الفرسان، تحت إمرة البربري طريف بن مالك أرض شبه جزيرة أيبيريا. اجتازت القوة المضيق في أربع سفن زوّدهم بها الكونت يليان، ونزلت في بقعة عرفت فيما بعد برأس طريف (نسبة إلى قائد الحملة). ومن هناك قام المسلمون بشن عدة غارات ناجحة على شاطئ مضيق جبل طارق وعادوا محملين بالأسلاب والغنائم وخاصة بأسيرات إسبانيات فائقات الجمال. وبعد أن تلقى موسى بن نصير في مقره بالقيروان حصته من الغنائم وبها جملة من الفاتنات المسيحيات أمر بإعداد الحملة. وبالرغم من أن الإبرار الأول للكونت يليان لم يتم بناء على رغبة موسى بن نصير بل كان تلبية للنجدة التي طلبها الملك المخلوع «أخيلا» (Akhila) من الحاكم البيزنطي. ولم يكتف المؤرخ بهذا بل ذهب في افتراضه إلى ما هو أبعد حينما نوّه بإمكانية أن

يكون «أخيلا» والأمراء المشايعون له قد عقدوا اجتماعًا مع طارق بن زياد «حاكم طنجة» ليطلبوا منه العون؛ وهذا من قبيل تحميل النصوص ما لا تحتمل. لكن لا يوجد ما يمنعنا من الظن بأن ممثلي السلطة العربية في شمال المغرب قبل أن يحسموا أمرهم كانوا مرتبطين - بفضل المساعي الحميدة للكونت يليان - باتفاقيات مع أنصار «أخيلا»؛ وبدون هذه الاتفاقيات لا يمكن تفسير تواضع إمكانات الحملة ولا النجاح الساحق الذي حققته. وتولى قيادة الحملة حاكم طنجة طارق بن زياد الذي لم يتفق المؤرخون على تحديد أصله: فبينما نسبه البعض إلى البربر تحدث آخرون عن أصله الفارسي. ومن المرجح قيام الكونت يليان بمرافقة الحملة كمستشار سياسي للقائد المسلم. ومرة ثانية - بعد نقل طريق من قبل - سيقوم أسطول يليان الصغير بسفنه الأربع بشق عباب المضيق دون هوادة جيئة وذهابًا في نفس الوقت الذي شرع فيه ببناء معديات جديدة لنقل العون والمدد حينما تستدعى الضرورة. كانت الظروف مواتية لانشغال «لذريق» بصد هجوم معادٍ على إقليم «بنبلونة» (Pamplona) في شمال مملكته. وفي بداية فصل الربيع (شهر أبريل أو مايو 711م، الموافق رجب أو شعبان 92هـ) عبر طارق المضيق بصحبة طلائع الجيش المسلم وخندق في سفح جبل «كالبي» (Calpe) - جبل طارق، فيما بعد - لانتظار عبور بقية جنوده. وهكذا نزل طارق بن زياد أرض الأندلس على رأس قواته التي بلغت 12 (اثني عشر) ألف رجل جلهم من البربر. وحققت القوة الإسلامية نجاحًا باهرًا لم يسبق له مثيل، فضربت في قلب شبه جزيرة أيبيريا كما يضرب النصل الماضي في قالب من الزبد. ووصلت موسى بن نصير وهو في القيروان أنباء ذلك النجاح بعد أن كان وصله نصيبه في الخُمس من الأموال والسبايا من الإسبانيات الجميلات، فهرع في السنة التالية (93هـ/ 712م) بمن

كان معه من القوات العربية، وبصحبته عدد من المشاهير منهم مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك، والتابع المشهور حنش الصنعاني، وحبيب بن أبي عبيدة الفهري، واستخلف على القيروان ابنه عبد الله، وعبر المضيق إلى الأندلس ليتم فتحها أو ليكاد، إلى جانب طارق، في قرابة سنتين. لم تكن القوات التي جمعها طارق - عملا بتوجيهات موسى بن نصير - كثيرة العدد. وفي هذا الشأن يمكن أن تخامر الذهن فكرة تعمد المؤرخين العرب خفض تعداد الحملة لإبراز نتائجها بصورة جلية. لكن يجب الأخذ في الاعتبار بأن العرب في ذلك الوقت لم يكونوا مؤهلين بدرجة كافية لنقل جيش ضخم عن طريق البحر. على أية حال، فقد كان جيش طارق مؤلفًا من حوالي سبعة آلاف رجل معظمهم من البربر بالإضافة إلى عدد يسير من العرب الخلّص. وبمجرد اكتمال الجيش توجه صوب مدينة «كارتيا» (Carteya) قرطاجنة، الواقعة على خليج جبل طارق عند مصب جدول صغير يدعى «جوادار انكى» (Guadarranque). وانطلق بعد ذلك صوب الغرب، وفي مقابل جزيرة صغيرة أسس قاعدة حربية تحمي جيوشه في حالة الاضطرار إلى الانسحاب أو التقهقر (وعلى نفس مكان القاعدة ستظهر فيما بعد مدينة جديدة تحمل اسم «الجزيرة الخضراء» (Algeciras)، وتكفل الكونت يليان بمهمة الإشراف على هذا الاستحكام العسكري والدفاع عنه إذا لزم الأمر.

موقعة نهر بَرْباط (Barbate) وفتح طليطلة:

لم تتأخر الأخبار في الوصول إلى لذريق فعاد سريعًا إلى قرطبة حيث جمع ما لديه من قوات نظامية. وعندما علم طارق بهذه التحركات ارتبك بعض الشيء. استبعد - وقتها - فكرته السابقة بالسير قدمًا نحو العاصمة، وطلب تعزيزات من المغرب العربي، فأمده بخمسة آلاف أخرى من البربر،

بلغ مجموع قواته اثني عشر ألف محارب، دون حساب أتباع «أخيلا» الذين انضموا إليه. وبعد استشارة مجلسه العسكري - بما فيهم الكونت يليان - قرر طارق البقاء في إقليم «الجزيرة الخضراء» وانتظار غريمه القوطي. وهكذا سار بحذر تجاه غرب «رأس طريف» حتى وصل إلى بحيرة ضحلة موازية للساحل تسمى «خاندا» (Janda) يربطها بالبحر جدول صغير يدعى «نهر بَرْباط» ظهر جيش لذريق في إقليم «شذونة» (Medina Sidonia) بالقرب من الضفة اليمنى للجدول المذكور. علم طارق - عن طريق جواسيسه - باقتراب لذريق على رأس جيش قوامه مائة ألف رجل (من الواضح أن هذا الرقم مبالغ فيه)، وفي 19 يولية 711م (28 رمضان 92هـ) التقى الجمعان.

طبقًا للمصادر العربية فإن جناحي الجيش القوطي كانا تحت إمرة مؤيدي «أخيلا» - وربما تحت إمرة إخوة هذا الأمير -، وبمجرد أن بدأت المعركة ولّى قادة الجناحين مع جنودهم الأدبار، وحاول لذريق الثبات بقلب جيشه، لكنه لم يجد في النهاية بُدًا من التقهقر أمام ضغط المسلمين الذين تعقبوه وأنزلوا به خسائر فادحة. لقد حدد هذا النصر المباغت للمسلمين على ضفاف نهر بَرْباط أو (وادي لكة، طبقًا لتسمية المؤرخين العرب) مصير إسبانيا، واستطاع لذريق الفرار بأعجوبة من مطارديه الذين استولوا على عتاد جيشه وعادوا محملين بالأسلاب والغنائم إلى معسكرهم. أما عن تفاصيل الأحداث التي تلت المعركة فقد تضاربت فيها الأقوال حتى إن المصادر العربية لم تتفق على رأي. وبعد انتصار نهر برباط الكبير تفتحت أمام طارق بن زياد أبواب الأندلس على مصراعيها. ولو انصاع للأوامر التي تلقاها قبل رحيله وعاد بموجبها إلى إفريقية أو قبع في مكانه لإعلام أولي الأمر بما حدث وانتظار تعليماتهم الجديدة لكان قد ارتكب خطأ جسيمًا. لكن حماسه الحربي ونشوة النصر بددا

شكوكه ومـخاوفـه وجعـلاه - بالإضافة إلى تحـميس كل من الكونـت يليان وأنصار ابن غيطشة - يتخذ القـرار بالمضي قدمًا إلى الأمام. كان هدفه الأول قرطبة، على نهر الوادي الكبير؛ وللوصول إليـها كان عليه عبور نهر «شَنيل» (Genil) والاستيلاء بالقوة على مدينة إسْتِجَّة (Ecija) التي اعتصمت بها فلول القوط الهاربة. وبالقرب من هذه المدينة حقق طارق نصرًا جديدًا، وانضم إليه جمـع غفيـر من الساخطـين على النظام القوطي وممن فـضلوا التحـالف مع المنتصر على نير العبودية. ومن جهة أخـرى، فقد قدّم له يهود جنوب إسبانيا ما بوسعهم من عون.

وعلى ضوء ما استجد من ظروف فضل طارق السير بغالبية الجيش نحو طليطلة، وترك لعدد من قواده القوات اللازمة لدحر أية محاولة قوطية لعرقلة تقدمه. وفي هذه الأثناء قام المولى «مـغيث» بمهاجمة قرطبة والاستـيلاء عليها في أكتوبر 711م (مطلع عام 93هـ). وبالرغم مما يقوله بعض المحللين فإن فتح المسلمين للمـدن الواقعة أقـصى شرق الأندلس (مـثل غرناطة ومالـقة وإقليم مرسـية) لم يتم إلا بعد هذا التـاريخ بكثير. أما بالنسـبة لطليطلة - عاصـمة الملك لذريق - فـإنها لم تبـد أية مقـاومة، ووجـدها الغزاة شـبه خاليـة من السكان. فبـينما كان طارق يقـترب منها غـادرها على عجل أسقف الكنيـسة الإسبانية (سيندريدو) متجهًا إلى روما، وحذا حذوه في الفرار غالبية السكان. وفي الحاضرة القوطية - التي تعج بالكنائس والقصور - وضع طارق يده على ثروات لا حصر لها، وفي تقديرها ذهـب خيال المؤرخين العرب كل مذهب. ويبدو أن طارق لم يلبث طويلاً بطليطلة بل غـادرها وواصل تقدمه في الاتجاه الشمـالي الغربي حتى وصل إلى وادي الحـجارة (Guadlaljara) بعد اجـتيازه لسلسلة جبليـة لم يتحدد اسمهـا. لكن «سافدرا» يقول إنه لم يتـجاوز «قلعة

هنارس» (Alcala de Henares) وعاد لتسضية الشتاء في طليطلة. وفي حملة ثانية وصل إلى «أمايا» (Amaya) بمحافظة «برغش» (Burgos). يذكر المؤرخون أن موسى بن نصير بدلا من ابتهاجه بالنجاح الساحق الذي أحرزه طارق، وتهنئته على ما قدمه للإسلام من فتوحات، تملكه الحقد واستبد به الغضب، ولم لا! وهو يرى خيانة الحظ له - وهو القائد الذي لا يُشق له غبار - ومساعدته لمجرد معتوق مجهول الأصل من أتباعه، ومع هذا، فليس من الإنصاف في شيء الاعتقاد بأن الحقد وحده هو الذي دفع موسى للذهاب بنفسه إلى إسبانيا. يمكن الظن بأن طارق خاف - أو على الأقل، انزعج - من اتساع وهشاشة فتوحاته السريعة، ومن ثمّ فقد طلب من رئيسه إرسال مدد لتعزيز قواته ولتأمين المدن التي سقطت في يده. على أية حال، فقد وجد موسى بن نصير جيشًا قوامه 18000 رجل في انتظاره على ساحل المغرب العربي لمضيق جبل طارق. كان معظمهم هذه المرة من العرب: بينهم كثيرون من التابعين (ممثلي الأرستقراطية الجديدة) وزعماء قيسيون ويمنيون. اجتاز بهم موسى المضيق وألقى مراسيه في الجزيرة الخضراء في يونية 712م (رمضان 93هـ). وبدلاً من أن يتجه إلى طليطلة ليتحد هناك مع طارق فضّل العمل لحسابه الخاص. استولى أولاً على شَذونة (مدينة ابن السليم)، ثم اتجه نحو الشمال (جهة إشبيلية التي لم تكن قد فتحت بعد) ليحتل ثغري «قرمونة» (Carmona) و«قلعة جابر» (Alcala de Guadaira)، ليأتي الدور بعد ذلك على إشبيلية ذاتها. بالرغم من أن بعض المؤرخين يتحدث عن حصار لإشبيلية دام عدة أشهر إلا أن الأكثر احتمالاً أن المدينة لم تقاوم مقاومة شديدة لأن الحامية القوطية كانت قد تركتها وهربت صوب الشمال، في اتجاه «لبلة» (Niebla). بعد سقوط إشبيلية قرر موسى الاستيلاء على «ماردة» (Merida) التي تجمع

فيها حلفاء «لذريق» الأساسيون. فاقت مقاومة هذه المدينة توقعات المسلمين. ظل الثغر محاصرًا طيلة الشتاء التالي ولم يسقط إلا في 30 يونية عام 713م (1 شوال 94هـ). غنم منه موسى ثروات لا تحصى، ثم واصل تقدمه نحو طليطلة وأرسل إلى طارق ليكون في استقباله. وفي نفس الوقت أرسل ابنه عبد العزيز لإخماد التمرد الذي اندلع حديثًا بإشبيلية، وللاستيلاء - أيضًا - على «لبلة» باجة (Baja) و«أكشونبة» (Osonoba).

خرج طارق لاستقبال رئيسه والتقى به عند «طلبيرة» (الثغر الأوسط) (Talavera). ويذكر المؤرخون العرب أن اللقاء لم يكن وديًا ولا حميمًا؛ لأن موسى وبخه فيه وضربه بالسوط. وطبقًا لـ«ساقدرا» فإن موسى اتجه - بعد لقائه بطارق في طلبيرة - صوب جبل فرنسا (ومكانه الحالي محافظة شلمنقة Salamanca) لتعقب الملك المخلوع (لذريق) الذي احتمى به؛ وأسفرت المطاردة عن قتل آخر ملك قوطي في نهاية صيف 713م بالقرب من محلّة «سيجويلا دي لوس كورنيخوس» (Sigoyuela de Los Cornetamames) الواقعة شمال قرية «تمامس» (Tamames). وأغلب الظن أن موسى انطلق من طلبيرة إلى طليطلة، حيث سلمه طارق الكنوز الملكية ونفائس الكنائس التي غنمها، وطاب له المقام - في هالة ملك حقيقي - بحاضرة القوط القديمة. واستخدم الحاكم العربي دار سك العملة التي كانت تابعة لملوك القوط القدامى في سك عملة ذهبية نُقش على أحد وجهيها بحروف لاتينية «بسم الله، لا إله إلا الله»، وعلى الوجه الآخر نُقش: «ضُرِب في إسبانيا عام (مع ذكر العام الهجري وما يقابله بالميلادي)». ومن الأرجح أن موسى أمضى شتاء 713 - 714م في طليطلة، وأرسل خلاله كلا من علي بن رباح ومغيث (الذي فتح قرطبة) إلى خليفة المسلمين بدمشق ليطلعاه على نتائج الغزو. وعندما تحسن

الجو انطلق إلى سرقسطة ليفتحها عام 714م (لم يتمكن من تحديد اليوم والشهر)، وأبقى عليها التابعي «حنش الصنعاني» الذي أسس بها مسجداً كبيراً. ومن سرقسطة واصل موسى تقدمه نحو «لاردة» (الثغر الأعلى)، سالكًا الطريق الروماني الذي يربط عاصمة «رغون» (Aragon) ببرشلونة ويمتد بعد ذلك إلى «أربونة» (سبتمانيا) بحذاء البحر الأبيض. فهل كان يفكر في مدّ فتوحاته إلى الجانب الآخر من البرانس؟ على أية حال، فقد توقف المشروع لعودة رسوله مغيث حاملاً الأوامر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بضرورة مثول كل من موسى وطارق أمامه في دمشق ليطلعاه بنفسيهما على نتائج الحملات المتتالية. تمهل موسى في الرحيل إلى الشرق لأنه لم يرد ترك شبه جزيرة أيبيريا قبل توطيد فتحه لـ «كنتبريا» (Cantabria) والأقاليم المتاخمة لسلاسلها الجبلية (ومن بين هذه الأقاليم المنطقة التي ستسمى فيما بعد بقشتالة العتيقة). وهكذا، فبينما أعطى أوامره لطارق بمواصلة السير في الطريق الروماني الذي يمتد من سرقسطة باتجاه وادي نهر «إبْرُه» (Ebro) لينعطف بعد ذلك صوب «جليقية» (Galicia)، قام هو بالاستيلاء على المنطقة الواقعة جنوب سلاسل «كنتبريا» الجبلية. اتبع طارق خط سيره المحدد من قبل وخضع له «فرتون» (Fortun)، زعيم «رغون» الذي تحول إلى الإسلام ليحتفظ بثرواته وأملاكه. ثم واصل تقدمه إلى ثغر «أمايا» (Amaya) فاستولى عليه، ومن بعده على «ليون» (Leon) و«أَسْتُرْقه» (Astoraga). وفي هذه الأثناء سار موسى بحذاء الضفة اليمنى لنهر «إبْرُه» وغيَّر اتجاهه إلى «سورية» (Soria) والوادي الأعلى «لنهر الدويرة» (Elduero)؛ وبعد ذلك اتحدت قواته بقوات طارق ليتجها نحو الشمال - المنطقة الممتدة من «أشتوريش» (Asturias) إلى «أوبييدو» (Oviedo) و«خيخون» (Gijon) - الذي انسحب سكانه إلى مرتفعات

«قمة أوروبا» ليخندقوا فيها[1]. صعد موسى شمالاً نحو اشتوريش، حيث لجأ سكان الإقليم إلى الاعتصام بالجبال المعروفة بقمم أوروبا (Pices de Europe).

وفي حملة موسى البعيدة المدى هذه يقول ابن قتيبة: «لما جاوز سرقسطة اشتد ذلك على الناس، وقالوا: أين تذهب بنا حسبنا ما في أيدينا... وأخذ حنش الصنعاني بعنانه ثم قال: أيها الأمير إني سمعتك وأنت تذكر عقبة، وتقول: لقد غرر بنفسه وبمن معه، وما كان معه رجل رشيد وأنا رشيدك اليوم: أين تذهب تريد أن تخرج من الدنيا أو تلتمس أكثر وأعظم مما أعطاك الله».

عودة موسى اللخمي إلى دمشق:

لم يجد موسى بن نصير بدًا من الاستجابة لرغبة الخليفة في العودة إلى دمشق، فقفل بعد فتحه لبلاد جليقية عائدًا إلى إفريقية، في رفقة طارق، ورسولي الخليفة إليه، مارين في طريقهم بقرطبة، حيث أخرج موسى مغيثًا من بلاد قرطبة، ووهبه دارًا أخرى بغرب المدينة. ولعل ذلك كان سببًا في تحامل مغيث الرومي عليه. ثم مضى موسى إلى إشبيلية، وهناك استخلف ابنه عبد العزيز في ذي الحجة سنة 95هـ، بعد أن اختارها له عاصمة للأندلس. وعبر القائدان الزقاق إلى إفريقية، واستخلف موسى ابنه الأكبر عبد الله على إفريقية، وكان عبد الله قد وليها عوضًا عن أبيه عندما قاد حملته إلى الأندلس، إلى أن رحل أبوه منها متوجهًا إلى المشرق في 95هـ. وأنه اصطحب معه عند عودته إلى المشرق أولاده مروان وعبد الأعلى وعبد الملك[2]. ثم سار هو وولداه عبد الأعلى ومروان، وصحبهم طارق، ورسولا

---

(1) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص 55.

(2) د. السيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص 192.

الخليفـة، وبعض الأسرى من قواد القوط، ومـائة رجل من أشراف الناس من قريش والأنصـار وسائر العرب، نخص بالذكـر منهم: عياض بن عقـبة وأبو عبيدة وزرعة بن أبي مدرك، وسليـمان بن بحر، ومن البربر مائة رجل منهم: بنو كسيلة بن لمزم، وبنو يسدد ومزدانة ملك السوس، وملك ميورقة ومنورقة، ومن أولاد الكاهنة، ومائة مـن وجوه ملوك الروم الأندلسيين وعـشرون ملكًا من ملوك المدائن التي افتتحها بإفريقـية. وخرجوا معه بأصناف ما كان في كل بلد من طرفها، واستخلف بطرابلس رجلاً اسمه بكر بن عيسى القيسي، حتى انتهى إلى مصـر، فلم يبق بها فقيه ولا شـريف إلا وصله وأعطاه. ثم خرج من مصر متوجهًا إلى فلسطين، فـتلقاه آل روح بن زنباع. ونحروا له خمسين بعيرًا. ثم خرج وتـرك عندهم بعض أهله، وصغار ولده، وأعطى آل روح بن زنباع عطاء جزلا. وكان الوليد مريضًا، فكتب إلى موسى يأمره بالإسراع إليه ليدركه وهو على قيد الحياة، وفي نفس الوقت كتب سليمان ولي عهد الخليفة إلى موسى يأمره بالتأني في سيره رجـاء أن يصل بعد وفاة الوليد، فتكون كل غنائم المغرب والأندلس له، ولكن مـوسى استجاب لرغبة الخليـفة، وجد في سيره حتى قدم إلى دمشق، والوليد مـا يزال حيًا، فسلم له الأخماس والمغانم والتـحف والذخائر، ولم يطل العـهد بالـوليد، فلم يمكث إلا ثلاثة أيام بعـد قدوم موسى إليه، ثم توفي. وأفضت الخلافـة إلى سليمان، وكان يحقد على موسى لمخـالفتـه له، فصب عليه جـام غضـبه. فعـزله سليمـان عن عمله، وأقصاه، وحبسه، وأغرمه غرمًا عظيمًا. وذكر ابن عذاري أن سليمان أمر به، فـأوقف في يوم شديد الحـر في الشمس، وكـان مـوسى بادنًا، فلم يتحـمل حرارة الشمس فسـقط مغشيًا عليه، وإن سليمـان أغرمه ثلاثمائة ألف دينار، وأمر بتعذيبه، وعزم على قتله، فـاستجار بيزيد بن المهلب، وكانت له حظوة

عند سليمان، فاستوهبه منه. ويضيف ابن الأثير أن موسى احتاج أن يسأل العرب في معونته، كما تخلص سليمان بقتل واليه عبد العزيز والي إسبانيا وعبد الله والي المغرب الأقصى.

هذا الفاتح لم يلق من الخليفة سليمان بن عبد الملك إلا الجحود وقضى بقية عمره ذليلاً مغموراً ومات مغموماً، ويبدو أن طارقًا لقي نفس المصير المجهول، وقد كان موسى في الحقيقة من أعلام الإسلام، فتح للعرب فتوحًا تضعه في الصف الأول من رجالات الإسلام الأوائل، فهو واضع أساس ما أدركه المسلمون من سلطان وحضارة في غرب البحر الأبيض المتوسط، لأنه لو لم يفتح الأندلس لاستمر المغرب مهدداً بأفدح الأخطار. وكان تصرف سليمان بن عبد الملك إزاء الفاتحيْن العظيميْن أمراً مؤسفًا إذ أنه لم يعرف قدر هذين القائدين ولم يكافئهما بما كانا يستحقان، ولم يكن ذلك غريبًا منه إذ فعل مثل ذلك بفاتحي تركستان والهند: قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي. وعلي كل حال فإنه لم تمض على حملة الفتح الأولى غير ثلاث سنوات حتى أصبح شبه جزيرة أيبيريا الولاية الجديدة التي أضيفت إلى دولة الإسلام بعد اقتطاعها من قارة أوروبا المسيحية. ومنذ ذلك التاريخ استقر المسلمون في البلاد لا على أنهم غزاة قدموا للغنيمة ومن ثم فهم ينوون العودة إلى مواطنهم، وإنما على أهم نواة لمجتمع وليد، وفاتحة لعصر جديد تغير به وجه التاريخ. ولم تكن مسألة المال هي التي أودت وحدها بموسى بل شاركتها السياسة الجديدة للدولة التي صاحبت النقلة من عهد الوليد إلى عهد أخيه سليمان. فلقد أودت تلك السياسة بآخرين غير موسى من كبار رجال الدولة من أهل الحرب والسياسة. فطارق بن زياد انتهى هو الآخر في المشرق نهاية مغمورة، وقتيبة بن مسلم بطل فتوح «ما وراء النهر» راح هو الآخر ضحية

سخط سليمان، فتم اغتياله على أيدي رجاله الذين طالما قادهم إلى ميادين البطولة والظفر. وكذلك أبناء موسى بن نصير وهما والي إسبانيا عبد العزيز بن نصير ووالي المغرب العربي عبد الله بن نصير عن طريق أيدي رجالهم. هؤلاء الرجال أدوا للخلافة والإسلام خدمات جليلة، فوسعوا حدودها إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ولقوا في النهاية نكران الجميل أو جزاء سنمار. وإلى جانب مزاج الخليفة أو أهوائه الشخصية حاول البعض تفسير ذلك التغيير العنيف في سياسة الدولة عن طريق مسألة النزاع العصبي بين القبائل العربية، فرأوا أنه بعد أن كان الوليد يسير على سياسة محاباة الحجازية والاعتماد عليهم في أمور الحرب والإدارة، سار سليمان على سياسة عكسية فحابى اليمنية واستخدمهم وأنزل سخطه بخصومهم. ولكن هذه النظرية - مع صحتها إلى حد كبير - ليس فوق مستوى النقد: فطارق بن زياد كان من الموالي، وموسى بن نصير نفسه اختلف في أمره ورجح البعض أنه لخمي من أصل عربي يمني. وربما كان لموقف هؤلاء الفاتر أو العدائي من سليمان بن عبد الملك. وهو ولي للعهد، وعملهم من وراء الستار على تحريض الخليفة الوليد على أن يعهد بعض ولده بدلاً من أخيه أثره فيما أصابهم من سخط سليمان. وإلى جانب كل هذا نظن أن الخلافة استشعرت شيئًا من الخطر من وجود رجال ممن لهم مثل باع موسى بن نظير وقتيبة بن مسلم - ممن يذكرون بعمرو بن العاص وخالد بن الوليد - في أطراف الدولة البعيدة، خشية نزوعهم إلى الاستقلال أو محاولة التحرر من سلطان الخلافة. والظاهر أن هؤلاء القواد تصرفوا في تلك الأقطار النائية - ولهم الحق - بشيء من الحرية ينم عن الطموح والرغبة في الاستزادة من السلطان. فبعض الروايات تشير إلى أن فتح إسبانيا الإسلامية ما بين إلحاح موسى وتردد الوليد، تمامًا كما يقال

أن عمرو بن العاص دخل مصر دون موافقة عمر. ويتبين طموح موسى في فتوحه البعيدة في وادى الأبره وأعالي أراجون ذلك الطموح الذي كان يتعدى طاقة رجاله حتى احتج عليه حنش الصنعاني قائلاً: «أتريد أن تخرج من الدنيا أو تلتمس أكثر وأعظم مما أعطاك الله». وعندما سُئل موسى بن نصير لماذا لم يمكث في عزه وجاهه بعيدًا عن منال الخلافة، قال: «والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئًا، ولكن آثرت الله - عز وجل - ورسوله ولم أر الخروج عن الطاعة». والحقيقة أنه رغم أن موسى وقع في قبضة الخلافة وأصبح تحت رحمة خصومه، إلا أنه كان يمثل خطرًا شديدًا على سليمان. فلقد حضر موسى إلى الشام تاركًا بلاد المغرب وإسبانيا الإسلامية جميعًا تحت سلطان أبنائه: فقد كان عبد الله بن موسى في القيروان، وعبد الملك بن موسى في طنجة، وعبد العزيز بن موسى في إشبيلية. فكان على الخليفة أن يكون حذرًا في معاملة موسى، وفي العمل على استخلاص ولاياته الغربية من أيدي أبنائه عندما حرض أتباعه على قتلهم والتخلص منهم، مما يؤخذ على سليمان من نكرانه لجميل كبار قواد الدولة حتى عد ابن عذاري فعله مع موسى وبنيه من هفواته التي لم تزل تنقم عليه.

ولاة إسبانيا الإسلامية بعد موسى بن نصير:

جهود محمد بن يزيد (97-100هـ) وإسماعيل بن عبيد الله (100-101هـ) في نشر الإسلام:

لم يكن سليمان بن عبد الملك راضيًا عن تصرف موسى بن نصير بحكم المغرب وإسبانيا الإسلامية، ولعل ذلك كان من الأسباب التي أدت إلى استغنائه عن خدماته، فقد رأى سليمان في استئثار موسى بحكم المغرب وإسبانيا الإسلامية بواسطة ولديه عبد العزيز وعبد الله ميلاً إلى الخروج عن

الخلافة، وجنوحًا إلى الانشقاق عن الدولة. وعلى الرغم من ذلك فقد استبقى الخليفة سليمان عبد العزيز بن موسى على ولاية إسبانيا الإسلامية لمآثره العديدة، وجهوده المضنية في استكمال فتح البلاد، وتنظيم الدولة الإسبانية الإسلامية. أما بالنسبة لعبد الله بن موسى، فاستشار وزيره رجاء بن حيوة فيمن يصلح لولاية المغرب، وقال له: «أريد رجلاً له فضل في نفسه، أوليه المغرب العربي»، فاستمهله ابن حيوة أيامًا ليفكر ويبحث عن شخص تتوفر فيه هذه الصفة، ثم قدم عليه وقال له: «قد وجدت رجلاً له فضل. قال: من هو؟. قال: محمد بن يزيد مولى قريش. فقال: ادخله علي، فأدخله عليه، فقال سليمان: يا محمد بن يزيد، اتق الله وحده لا شريك له، وقم فيما وليتك بالحق والعدل، وقد وليتك المغرب العربي». ويذكر ابن عذاري أن محمدًا بن يزيد استقر بالمغرب العربي بأحسن سيرة وأعدلها، وكان سليمان قد أمره بالقبض على عبد الله بن موسى وتعذيبه ومصادرة أمواله وأموال بني موسى. وساد السلم والأمن بلاد المغرب في ولاية محمد بن يزيد، وفي خلال هذه الفترة السلمية القصيرة، التي نعم فيها البربر بالاطمئنان والعدل، قام محمد بن يزيد بفتح المناطق الداخلية من المغرب الأقصى، كما بعث السرايا إلى ثغور إفريقية والجزر المجاورة لها. وكان محمد بن يزيد يقسم ما يصيبه من غنائم على جنوده دون أن يحجز لنفسه شيئًا منها، فكان مثلاً طيبًا للوالي العادل النزيه. وقد كان لهذه السياسة الحكيمة أثرها العميق في كسب أفواج جديدة من البربر إلى الإسلام. فلما توفي سليمان بن عبد الملك 99هـ استعمل الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز تابعيًا جليلاً وإمامًا زاهدًا هو إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر دينار على المغرب العربي.

ولاية عبد العزيز بن موسى والاستقرار في إسبانيا الإسلامية:

كان موسى بن نصير قد ترك ابنه عبد العزيز واليًا على الأندلس، فقضى أيام ولايته في استكمال فتح شبه الجزيرة الأيبيرية، في شرقها وغربها، ففتح كورة تدمير (مرسية) صلحًا بعد أن استسلم ملكها، وقضى على جيوب المقاومة ولذا عده بعض المؤرخين ثالث فاتحي الأندلس، وكان معروفًا بالصلاح والتقوى والشجاعة والإقدام، بارعًا في تنظيم الحكومة وترتيب إدارتها، متبعًا سياسة الرفق والاعتدال والوفاء. لم تكن تركة الابن تتمثل فقط في استكمال فتح إسبانيا، بل كان لزامًا عليه أيضًا توطيد التواجد العربي في تلك الأقاليم التي خضعت للإسلام وبقيت فيها - بالرغم من سلبية غالبية السكان وخاصة في المناطق الزراعية - جيوب للمقاومة تهدد سلامة الغزو، وقد ساهم بشكل مؤثر في إنجاز هذه المهمة توافد مسلمين جدد قادمين من شمال أفريقيا للاستيطان في شبه الجزيرة. لم يحكم عبد العزيز سوى فترة قصيرة لأنه اغتيل بعد سنتين من رحيل والده. ببداية حكم عبد العزيز بن موسى بن نصير في 95هـ/ سبتمبر 714م يبدأ ما يعرف باسم عصر الولاة التابعين، أي الذين لم يكن لهم استقلال الفتح، إذ كانت قد بقيت مناطق واسعة لم يدخلها المسلمون، فوجّه عبد العزيز همه إلي السيطرة عليها، وكان من بينها المنطقة الغربية (البرتغال الحالية) فاستولى على بايرة (Evora) وشنترين (Santarem) وقلنبرية (Coimbra)، وجه حملات أخرى نحو الشرق لتستولي علي بنبلونة (Panplona)، وطركونة (Tarragona) وبرشلونة وجرندة «جيرونة» (Gerona) ثم ما يليها من أرض فرنسا مثل أربونة (Narbome)، كما اتجه من إشبيلية شرقًا فاستولى على مالقة (Málage) وإلبيرة (Elvira) ثم واصل مسيرته حتى المنطقة التي تعرف باسم تدمير (Tudmir) (وهي التي أصبحت قاعدتها

فيما بعد مدينة مرسية (Murcia) وكانت فيها إمارة شبه مستقلة يحكمها أمير قوطي يدعى "Teodomiro" وتسميه المصادر العربية تدمير بن عبدوش، ويبدو أن هذا الأمير كان من الحزم والدهاء بحيث أوهم المسلمين بأن لديه قوة كفيلة بمقاومتهم مما جعل عبد العزيز يؤثر أن يعقد معه صلحًا يعترف له فيه بسيادته على إمارته على أن يؤدي جزية سنوية مع بذل الأمان له ولأصحابه في نفوسهم وأموالهم وإطلاق الحرية لهم لممارسة شعائر دينهم وحماية كنائسهم. ويعد هذا العهد بين عبد العزيز وتدمير هو الوحيد الباقي لنا من معاهدات الصلح بين الفاتحين وأهل البلاد. وقد أصبح لإقليم تدمير به وضع متميز في الأندلس. عقد الحاكم المسلم صلحًا مع هذا الأمير القوطي ينص على بقائه على رأس إمارته مقابل اعترافه بالتبعية للدولة الإسلامية في الأندلس وتسديده للجزية وتسليمه سبعة ثغور منيعة، واحتفظ لنا بعض المؤرخين بنص هذا الاتفاق المبرم بين الطرفين. ونقدم فيما يلي النص الكامل هذه الاتفاقية الهامة التي تعتبر أول وثيقة دبلوماسية مدونة في تاريخ إسبانيا الإسلامي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتدمير ابن غَنْدَرِيسْ إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه وما بعث به أنبياءه ورسله وأن له ذمة الله عز وجل وذمة محمد ﷺ ألا يُقدم وألا يُؤخر لأحد من أصحابه بسوء، وأن لا يُسْبَوْن ولا يُفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم، ولا يقتلون، ولا تحرق كنائسهم ولا يكرهون على دينهم، وأن صلحهم على سبع مدائن: أوريُولة، ومُولَة، ولُورْقة، وبَلَنْتَلَة، ولقنْت، وإيهْ، وإلْش، وأنه لا يدع حفظ العهد، ولا يحل ما انعقد، ويصحح الذي فرضناه عليه وألزمناه أمره، ولا يكتمنا خبراً علمه، وأن عليه وعلى أصحابه غُرم الجزية، من ذلك على كل حر: دينار، وأربعة أمداء من قمح، وأربعة أمداء من شعير، وأربعة

أقساط خل، وقسطًا عسل، وقسط زيت، وعلى كل عبد نصف هذا. شهد على ذلك: عثمان بن عبيدة القرشي، وحبيب بن أبي عبيدة القرشي، وسعدان بن عبد الله الربعي، وسليمان بن قيس التجيبي، ويحيى ابن يعمر السهمي، وبشر بن قيس اللخمي، ويعيش بن عبد الله الأزدي، وأبو عاصم الهذلي، وكتب في رجب سنة أربع وتسعين». ويثير ذلك مشكلة تناولها المؤرخون والفقهاء هو ما فُتِح من الأندلس عنوة وما فُتِح صُلحًا، ذلك لأن في الفقه الإسلامي تفريقًا بين أوضاع المناطق التي تفتح بهذه الصورة أو تلك، وليس هذا موضع استقصاء الآراء المختلفة في هذا الموضع، على أنه يظهر أن أرض الأندلس قد اعتبر معظمها أرض صلح، وأن الذي فتح منها عنوة كان قليلاً جدًا. وأرض العنوة في الشريعة هي التي ينبغي أن تخمس، وأن يخرج الخمس من خراجها ويوزع على الفاتحين. أما أرض الصلح فهي التي تترك بأيدي أصحابها ويصالحهم المسلمون على أرضهم وشجرهم فقط دون سائر أموالهم، ومن هنا نرى أن الجنود الفاتحين قد استقروا في أكثر أرض الأندلس على أنها إقطاعات خالصة لهم. وطبقًا لما أورده بعض المؤرخين فإن عبد العزيز تزوج بأرملة الملك لذريق، التي تطلق عليها المصادر العربية «أيلة» بينما يسميها الإسبان «إيخيلونا» (Egilona)، وقد دخلت الإسلام بعد ذلك وكنيت بأم عاصم نسبة إلى الطفل (عاصم) الذي أنجبته من زوجها الجديد. وأقام معها عبد العزيز معظم فترة حكمه القصير في إشبيلية. ولم تدم إمارة عبد العزيز بن موسى إلا مدة قصيرة. فقد أدت كراهية الخليفة سليمان بن عبد الملك له ولأبيه ولأسرته أن دبر سليمان مقتله، فأوعز لبعض رجاله بأن يغتالوه في نفس تلك المدينة (مطلع رجب عام 97هـ، الموافق مارس 726م) وبأمر من الخليفة سليمان اغتال زياد بن عزرة البلوي عبد العزيز أثناء تأديته

للصلاة في كنيسة «سانتا روفينا» (Santa Ruvina) التي تحولت إلى مسجد. وقطعت رأس الحاكم وأُرسلت إلى دمشق. وبعد مرور عدة أشهر غامضة اجتمع عرب إسبانيا واتفقوا على إسناد مهمة الحكم لأيوب بن حبيب البلخي (ابن عمة عبد العزيز) - الذي يُنسب إليه إنشاء مدينة «قلعة أيوب» (Calatayud) في الثغر الأعلى - لحين ورود أمر الخليفة بتعيين من يراه خلفًا لعبد العزيز المقتول[1]. وبنجاح الفتح الإسلامي تنفس أهالي «الأندلس» نسيم الحرية، فقد رفعت عنهم المغارم والأعباء، وعرف الناس سياسة التسامح والإنصاف، وأمنوا على حياتهم وأموالهم وحرياتهم، وعاشوا حياة العدل والمساواة، وترك لهم حق اتباع قوانينهم والخضوع لقضائهم، ولم يظلم أحد بسبب دينه أو عقيدته، ولم يفرض الإسلام عليهم فرضًا، ومن أسلم عن طواعية ودون إكراه، فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن بقي على دينه لم يكلف بأكثر من الجزية. مقابل حمايته والدفاع عنه وتأمين حقوقه[2].

ولاة الأندلس على عهد خلفاء الأمويين بدمشق (97-138هـ/ 716-758م):

تعتبر فترة الأربعين عامًا التي تبدأ بمقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير والتي تنتهي بقيام الأسرة الأموية من جديد في شبه الجزيرة الأيبيرية من الفترات الغامضة المضطربة في تاريخ إسبانيا المسلمة. هذه الفترة تميزت بوجه خاص بالنزاع التقليدي بين العصبيات العربية، ذلك النزاع الذي كان من عوامل الضعف الكبرى في الدولة العربية بالمشرق، كان له صداه في شمال

---

(1) د. محمود مكى، المرجع السابق، ص 67.

(2) الأطلس الإسلامي، ص 12.

إفريقية وإسبانيا. وإلى جانب هذا النزاع العصبي بين العرب قام في الجزيرة صراع عنيف بين هؤلاء جميعًا من جهة وبين البربر. وعوامل الضعف الداخلي لم تمنع الإمارة الإسلامية الجديدة من متابعة الجهاد وتوجيه الحملات فيما وراء جبال البرانس من أرض فرنسا وهي (La Gaule) الأرض الكبيرة. وفي أثنائها تم توزيع جند العرب والبربر على مختلف جهات الجزيرة، هذا ولو أنه لم يمكن الاستيطان في المناطق الشمالية الغربية التي اعتصمت بها عناصر المقاومة الوطنية التي ستكوّن بعد قليل نواة الدول المسيحية الإسبانية التي ستأخذ على عاتقها إعادة غزو الجزيرة (La Reconquisra). وفي هذه الفترة اختيرت قرطبة لتكون عاصمة للولاية الجديدة، وبدأ في إعمارها لتصبح فيما بعد، وخاصة في القرن العاشر الميلادي، أعظم مدينة في الغرب على الإطلاق. تتابع الولاة في إسبانيا الإسلامية عقب اغتيال عبد العزيز بن موسى بن نصير بشكل غريب: فمنذ دخول طارق حتى وصول عبد الرحمن الداخل الأموي 138هـ/ 758م ولي الأندلس أكثر من 20 واليًا، لم يقض إلا واحد منهم أكثر من 5 سنوات في الإمارة (هو عنبسة بن سحيم الكلبي 103 - 107هـ). هذا في الوقت الذي لم تزد إمارة البعض الآخرين عن 6 أشهر. وهؤلاء الولاة لم يكونوا في الحقيقة إلا ممثلين أو نواب لوالي القيروان (والي المغرب أو إفريقية) الذي كان يعينهم بفضل التماس أهل الأندلس، عندما لا يطمئنون إلى واليهم. هذا ولو أن بعضهم ولي عن طريق اختيار سلفه، كما أن آخرين ولوا عن طريق الخليفة أو عن طريق انتخاب أهل البلاد أو اختيار الجند (نظرًا لبعد الولاية واضطراب الأمور فيها).

وكانت سياسة الوالي الجديد واضحة في العادة: فالموقف كان يتطلب العمل على استقرار الفتوح ومتابعة إقرار النظام. وحسب طول المدة التي كان

يمكثها الوالي يتناسب نشاطه العسكري والحملات التي يقوم بها. هذه الحملات انتهت بافتتاح الأقاليم القليلة التي لم تكن قد أخضعت من شبه الجزيرة، وقمع الثورات البسيطة التي قام بها الإسبان، وقادت العرب إلى مسافات بعيدة فيما وراء البرانس، أي في الأرض الكبيرة (أرض فرنسا Le Gaule)[1]. ومن الواضح أن السبب في هذا التغيير السريع للولاة كان يرجع إلى خوف الخلفاء من أن يستقل الوالي بالحكم إذا استقر طويلاً في الحكم، ولا سيما أن البعد الشاسع عن مركز الخلافة لم يكن يسمح بسيطرة الخليفة السريعة على الأمور، وكان الوالي يعين أحيانًا من قبل الخليفة مباشرة وأحيانًا من قبل العامل على مصر أو العامل على إفريقية، وأحيانًا ثالثة كان أهل البلاد ينتخبون واليهم من بينهم.

أيوب بن حبيب البلخي:

آل أمر الأندلس إلى «أيوب بن حبيب البلخي» ابن أخت «موسى بن نصير»، وهو من العرب الذين اشتركوا في فتح هذه البلاد، ثم استقروا بها، ورأوا أنهم أولى من غيرهم بحكم الأندلس، ولم تزد ولاية «أيوب» على ستة أشهر لم يفعل فيها شيئًا يذكر سوى نقله العاصمة من «إشبيلية» إلى «قرطبة» لأن موقعها أوسط وأقرب إلى منازل جماعات العرب في الشرق، والجنوب، والجنوب الشرقي.

الحر بن عبد الرحمن الثقفي:

لم تجر الأمور على النحو الذي أراده «أيوب»؛ إذ قام والي إفريقية الذي تتبعه «الأندلس» بتعيين «الحر بن عبد الرحمن» واليًا عليها، ودام حكمه سنتين

(1) د. سعد عبد الحميد زغلول، نفس المرجع، ص 127.

وثمانية أشهر، بدأت في (ذي الحجة 98هـ - يوليو 717م)، واستطاع خلالها أن يقمع المنازعات التي كانت بين العرب والبربر، ويصلح الجيش، وينظم الإدارة، ويوطد الأمن. وينسب إلى «الحر» إقامته دار الإمارة في «قرطبة» في مواجهة «قنطرة الوادي»، وكانت من قبل مقرًا للحاكم القوطي، فاعتنى بها «الحر» وسمى القصر والأرض الواسعة أمامه على ضفة النهر «بلاط الحر». وبعد أن تولى «عمر بن عبد العزيز» الخلافة عزل «الحر» عن ولاية «الأندلس»، لاضطراب النظام في آخر عهده.

السمح بن مالك الخولاني:

كانت «الأندلس» تابعة لإفريقية من الناحية الإدارية، فلما ولي «عمر بن عبد العزيز» جعلها تابعة للخلافة مباشرة لأهميتها واتساعها، وأقام عليها «السمح بن مالك الخولاني» (100هـ - 719م)، غير أن تبعية «الأندلس» لإفريقية عادت مرة أخرى في عهد «يزيد بن عبد الملك». ويعد «السمح» من خيرة ولاة «الأندلس»، فضلاً وصلاحًا وكفاءةً وقدرةً؛ حيث نظم شئون البلاد، وأعاد بناء القنطرة التي كانت مقامة على الوادي الكبير، وكانت قد تهدَّمت ولم يعد الناس يستطيعون العبور إلا في السفن، وكان العرب في أمسِّ الحاجة إلى قنطرة متينة يستطيعون العبور إليها من الجنوب إلى عاصمتهم الجديدة، كما أعاد الاستقرار إلى البلاد لحسن سياسته، وحمله الناس على طريق الحق، ورفقته بهم.

لم يكن «السمح بن مالك» كفئًا من الناحية الإدارية فحسب، بل كان أيضًا قائدًا عسكريًا ممتازًا قام بحملة شاملة، اخترقت «جبال ألبرت» من الشرق، وسيطر على عدد من القواعد هناك، واستولى على «سبتمانيا» وأقام حكومة إسلامية بها في هذا الوقت المبكر، واتخذ من «أربونة» قاعدة للجهاد

وراء «البرت»، وقد استشهد في معركة مع النصارى عند «تولوز» في يوم عرفة من (102هـ - 721م)، فتولى القيادة «عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي»، وأقر واليًا للأندلس حتى يأتي الحاكم الجديد.

عنبسة بن سحيم الكلبي:

قدم إلى الأندلس في (صفر سنة 103هـ - 722م)، وكان كالسمح بن مالك صالحًا قويًا، فأنفق وقته في تنظيم الإدارة، وضبط النواحي، وإصلاح الجيش، وإعداده لغزوات جديدة، وقد عبر «عنبسة» بجيوشه «جبال البرت»، وتمكن من بسط سلطان المسلمين في شرقي جنوب فرنسا، وفي أثناء عودته داهمته جموع من الفرنجة، فأصيب في المعركة، ثم توفي (107هـ - 725م). وبعد «عنبسة» توالى على «الأندلس» سبعة من الولاة، تفاقمت خلالها المشكلات، وازدادت الاضطرابات، وانتشر الخلل والخلاف بين الزعماء ورجال القبائل في «الأندلس»، وتجددت المنازعات بين العرب البلدانيين (وهم العرب الذين طال بهم المقام والعمل في إفريقية حتى سموا بالبلدانيين)، والشاميين، وهاجم الأعداء القواعد الإسلامية[1]. شهدت الفترة القصيرة من 726 إلى 732م تعاقب ستة حكام، لم يتجاوز السنتين منهم سوى الأول والأخير، وهم كما يلي على الترتيب:

يحيى بن مسلمة الكلبي (من 726 إلى 728م - 107 / 110هـ)؛ حذيفة ابن الأحوص القيسي (728م - 110هـ)؛ عثمان الخثعمي (من 728 إلى 729م - 110/111هـ)؛ الهيثم بن عُفَير الكناني (من 729 إلى 730م - 111هـ)؛ محمد بن عبد الله الأشجعي (730م - نهاية 111هـ ومطلع 112هـ)؛ وأخيرًا،

(1) د. عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 14.

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، الذي استشهد في معركة «بلاط الشهداء» في أكتوبر 732م (رمضان 114هـ). وهذه المجموعة من الحكام لم تقدم أنشطة ذات قيمة على المستوى الداخلي لإسبانيا المسلمة. وكما لاحظنا فإن اثنين منهم كلبيان (عنبسة، يحيى بن سلامة)، كما يوجد قيسيان على الأقل (حذيفة، الهيثم)؛ ولقد نكل الهيثم باليمنيين في إسبانيا مما أدى إلى مقتل عدد كبير من العشيرة الكلبية، ونتيجة لذلك قام الخليفة هشام بعزله ومعاقبته عقابًا مهينًا[1].

عبد الرحمن الغافقي:

ظلت الأمور تجري على هذا النحو المضطرب حتى عُيِّن «الغافقي» واليًا على الأندلس من قبل والي «إفريقية»، في (صفر 112هـ - مارس/ إبريل 730م) لتبدأ فترة ولايته الثانية، وقد أيد الخليفة هشام بن عبد الملك ذلك الاختيار. وكان «الغافقي» من كبار رجالات الأندلس عدلاً وصلاحًا، وقدرة وكفاءة، نظَّم شئون البلاد، وأصلح نظم الحكم والإدارة، وعين أصحاب الكفاءات في المناصب المختلفة، وقمع الظلم، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم، وفرض ضرائب عادلة وعني بتنظيم الجيش وإصلاحه، وأنشأ فرقًا من العرب والبربر، وحصن القواعد والثغور الإسلامية، وجمع أعظم جيش سيره المسلمون إلى فرنسا.

موقعة بلاد الشهداء:

في أوائل (114هـ - 732م) سار «الغافقي» بجيوشه نحو الشمال وعبر جبال «ألبرت» من طريق «بنبلونة» ودخل فرنسا؛ وكان مقتل «الغافقي» خسارة

---

(1) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص 67.

فادحة للمسلمين، وضربة شديدة لمشاريع الخلافة في الغرب؛ إذ أخفقت آخر محاولة بذلتها لفتح العالم الغربي.

عبد الملك بن قطن الفهري:

تولى «عبد الملك بن قطن الفهري» بعد استشهاد «الغافقي»، فعبر إلى الأندلس في جيش من جند إفريقية في أواخر (114هـ - 732م) وسار إلى «أراجون» وهزم الثائرين في عدة مواقع، ثم عبر جبال البرت إلى بلاد «البشكنس» (115هـ - 733م)، وكانت أشد المقاطعات الجبلية مراسًا وأكثرها انتفاضًا وثورة، فشتت جندها وألجأهم إلى طلب الصلح، ثم اضطر بعد ذلك إلى أن يرتد إلى الجنوب دون أن يتوغل كثيرًا في أرض العدو، لقلة ما معه من الجند، ثم سخط عليه الزعماء، ودب خلاف بين القبائل، وأدى ذلك إلى عزله.

عقبة بن الحجاج السلولي:

تولى (116هـ - 734م) بعد «عبد الملك بن قطن» وكان رجلاً عظيمًا مثل «الغافقي»، فنشر العدل ورد المظالم، وأنشأ المساجد ودور العلم ونظم الجيش، وتوغل في أراضي «جليقية» شمالي الأندلس، واهتم بتحصين جميع المواقع الإسلامية، ومنح عناية خاصة لثغر «أربنة» واتخذه قاعدة للجهاد، وأمد رجاله بالجند والذخيرة. وكان يخرج للغزو كل عام على مدار خمس سنوات في الجنوب والشمال الشرقي من فرنسا، حتى أصبح نهر «الرون» رباط المسلمين ومعقل فتوحاتهم بعد أن كان الفرنج قد استردوا ما في أيدي المسلمين، وقد استشهد «عقبة» في معركة مع الأعداء (121هـ - 739م)، فكان خاتمة الولاة المجاهدين وراء ألبرت.

عبد الملك بن قطن:

أقام عـرب إسبانيا الإسـلامية «عـبد الملك بن قطن» واليًا عليـهم للمرة الثانية، فكـان عهده بداية عهد من الفتن والاضطـرابات والحروب الأهلية؛ إذ اشتعلت ثورة البربر بسبب تعصب العرب لبني جنسهم وتعاليهم على غيرهم، وكان معظم هؤلاء من «القيسـية» الذين يرون أن الدولة الأموية دولتهم، على حين كان العرب البلدانيـون ومعظمهم من «اليمنية» بعـيدين عن هذه النزعة. وقام البربر في «الأندلس» أثناء ثورتهم بإخراج العرب من المناطق التي شكلت أغلبية بربرية، وبخاصة «جليقية» ومناطق نهر تاجة وغيرها، وظن «عبد الملك بن قطن» وهو كبير البلدانيين أن الثورة موجـهة ضد الشاميين، ثم ما لبث أن تبين أنها موجـهة إلى العرب جميـعًا، وأن البربر يسيـرون في جيوش ثلاثة: واحد منها متجه إلى «طليطلة»، والثاني نحو «قرطبة»، والثالث نحو «الجزيرة الخضـراء». وفي تلك الأثناء كـان «بلج بن بشر القـشيـري» أحد قـادة والي المغرب مـحاصرًا في «سبـتة» مع عشرة آلاف من جنده من قـبل البربر الذين ثاروا في إفـريقـيـة ضـد العـرب، تلك الثـورة التي انـتقلت أصـداؤها إلى الأندلس، فثار البربر هناك ضد العرب. وقد استغاث هؤلاء المحاصرون بوالي إسبانيا الإسلامية «عبـد الملك بن قطن» وطلبوا منه أن يسمح لهم بالعبور إليه لمعاونته في القضاء على ثورة البربر، فاستجاب على مضض وطلب من «بلج» أن يعود بمن معه إلى المغرب العـربي متى صلحت الأحوال. وقد حقق هؤلاء مع «عبـد الملك» انتصارات على البربر في شـذونة، وقرطبة، ثم في مـعركة حاسمة قرب طليطلة عند وادي سليط قرب الجزيرة الخضراء في أوائل (124هـ - 742م)، وأخذ العـرب الشامـيون يطاردون البـربر، فتـركوا أراضيـهم في الوسط والشمـال الغربي، وعادوا إلـى المغرب العربي في هجـرات جماعـية

تركت آثارًا سيئة على مستقبل المسلمين في إسبانيا الإسلامية. وكان من نتيجة تلك الهجرات أن تركت الأراضي شمالي نهر تاجة خالية من المسلمين تقريبًا، فامتد إليها نفوذ نصارى الشمال، فساحوا فيها، ولم يمر وقت طويل حتى أصبحت تلك الأراضي نصرانية، وخسر المسلمون بذلك ربع شبه الجزيرة، نتيجة انقسامهم وبغض بعضهم بعضًا. رفض «بلج» العودة إلى المغرب حسب الاتفاق، وقام بعزل «عبد الملك» وزعم أنه الوالي الرسمي بتأييد من اليمانية، وانقسمت إسبانيا الإسلامية إلى معسكر للشاميين يضم مائتي ألف، وآخر للعرب البلدانيين ضم مائة ألف، ونشبت معارك قُتل فيها «بلج» ومع ذلك انتصر الشاميون، وولوا على الأندلس «ثعلبة بن سلامة العاملي» في (شوال 124هـ - أغسطس 742م)، فحاول أن يعيد الأمن والاستقرار، لكن الحكومة كانت قد ضعف سلطانها، وانقسمت البلاد إلى عدة مناطق نفوذ، واشتعلت الحرب من جديد، ولم ينقذ الموقف إلا قدوم الوالي الجديد.

أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي:

أرسله والي المغرب العربي فقدم إلى إسبانيا الإسلامية في (رجب 125هـ - مايو 743م)، وبدأ ولايته بتأمين العرب البلدانيين والبربر على ممتلكاتهم ومصالحهم، وحال بين الشاميين وبين إيذائهم، وعمل على القضاء على المنازعات القبلية بين السكان، ورأى بعد نصيحة ذوي الرأي أن يفرق الشاميين في مناطق لا يوجد فيها بلدانيون أو يمنيون، ويستقر كل فريق منهم بناحية ويأخذ ثلث خراج الأرض مقابل أن يقدموا عددًا عينًا من الجند، كلما طلبت السلطات منهم ذلك، كما تتبع الزعماء الخارجين وسلك معهم سبيل الحزم، وكان عادلاً فرضي عنه الجميع[1]. غير أن «أبا الخطار» ما لبث أن

(1) د. عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 17.

تخلى عن السياسة الحكيمة، ومال إلى قومه من اليمنية وتنكر للمُضرية، فعادت المعارك بينه وبين خصومه من جديد، وقتل بعضهم بعضًا، وانفضت عنه جنده، وعمت الفوضى البلاد إلى أن تولى الفهري.

يوسف بن عبد الرحمن الفهري:

تولى الأندلس (129هـ - 747م) دون مصادقة من المغرب العربي أو من دمشق التي كانت قد بدأت فترة من الضعف فلم تتمكن الخلافة من الإشراف على الولايات، واستقلت الأندلس بشئونها. استقل «يوسف» بولاية الأندلس نحو عشرة أعوام، واتفق مع «الصميل ابن حاتم» زعيم المضرية على أن يتداولا السلطة فيما بينهما، لكن الأمور لم تستقر، وتجدد النزاع بين المضرية واليمنية، ولم تستقر الأوضاع ليوسف إلا بعد مقتل زعيم اليمنية (130هـ - 748م). وقد حاول «يوسف» إصلاح الدولة، فنظم شئونها المالية، وقسم البلاد إلى خمس ولايات إدارية على نحو ما كانت عليه زمن القوط، كما عني بتنظيم الجيش وإصلاحه، والقضاء على خصومه، وشغلت الخلافة بمشاكلها عن الأندلس. ثم ظهر في شمال البلاد رجل يدعى «عامر بن عمرو بن وهب العبدري»، وبدأ يراسل الخليفة العباسي «أبا جعفر المنصور»، وعين نفسه واليًا على إسبانيا الإسلامية، وأصبح الشمال في قبضته، وخرج عن سلطان «يوسف» الذي توجه إلى «سرقسطة»، وحاصرها بشدة (137هـ - 754م) حتى استسلم «عامر»، ثم اتجه «يوسف» بعد ذلك إلى «طليطلة». وفي طليطلة جاء رسول من قرطبة بخبر مؤداه أن فتىً من بني أمية يدعى «عبد الرحمن بن معاوية» قد نزل في ثغر المنكب في إسبانيا الإسلامية، واجتمع حوله أشياع بني أمية في «كورة غرناطة»، وأن دعوته انتشرت بسرعة في الجنوب، وقد ذاع هذا الخبر في جند يوسف فأحدث فزعًا واضطرابًا، وتفرق

عنه جنده، فاضطر هو و«الصميل» بالعودة بمن معهما متوجهين إلى قرطبة؛ لمواجهة هذا الخطر الداهم، وكان ذلك عام (138هـ - 755م). وأثناء هذه الفتن استولى الفرنج على جميع القواعد الإسلامية في الشمال ما عدا «أربونة» أمنع قلاع المسلمين فيما وراء جبال ألبرت، وقد قاوم المسلمون بها، وصبروا على مدار أربعة أعوام، ولم تستسلم إلا بعد خيانة القوط بها، وقد دخلها الفرنج، وخربوا مساجدها ومعاهدها ودورها (142هـ - 759م)، وبذلك انتهى الوجود الإسلامي فيما وراء جبال ألبرت بعد أن استمر هناك ما يقرب من نصف قرن، وقد حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه قوى الإسلام في شبه الجزيرة مشغولة بمحاربة بعضها البعض.

الحملات الإسلامية إلى بلاد الغال (فرنسا حاليا) خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي:

شهدت الفترة القصيرة من فتح إسبانيا إلى تأسيس إمارة قرطبة المستقلة عددًا من الحملات التي قام بها حكام إسبانيا العرب في بلاد الغال (فرنسا). ولسوء الحظ لا توجد سوى وثيقة واحدة - مختصرة - عن هذه الحملات، ولم يأت بعدها اكتشاف جديد يؤكد فحواها أو يستكمله، ولهذا السبب لم تتبع «مذكرة» «رينورد» (Reinaud) القديمة، التي نشرت منذ أكثر من قرن، أية أعمال أو أبحاث تتناول محاولات غزو فرنسا من جانب المسلمين خلال القرن الثامن الميلادي. من المعروف أن الحدود الشمالية لمملكة إسبانيا خلال عهد القوط لم تكن تنتهي عند سلسلة جبال البرانس بل كانت تمتد - منذ بداية القرن الخامس - إلى الجانب الآخر لتلك السلسلة لتصل إلى «النجدوك» (Languedoc)، «روسيون» (Rosellon)؛ وشمال غرب هذا الإقليم الأخير تقع سبتمانيا (Septimania) أو «جوتيا» (Gotia). وكل هذه المناطق طافت بها

الجيوش العربية بعد دخولها إسبانيا بوقت قصير. وطبقًا للمؤرخ العربي ابن حيان فإن كتائب من القوات الغازية توغلت - بأمر من طارق بن زياد في بلاد الغال (بلاد الفرنجة)، ووصلت - بعد الاستيلاء على برشلونة و«أربونة» - إلى صخرة «أبِنْيون» (Avinon) ثم إلى حصن «ليون» (Lyon) (أو «لودهون»). لكن «كارلو» (Karllo) («شارل مارتل» - Carlos Martel، فيما بعد) استطاع صد زحف القوات العربية واضطرها للارتداد إلى«أربونة» (Narbona) حيث أحكم عليها الحصار[1].

في الوقت الذي كانت فيه بلاد الأندلس تغلي بالجزازات والعصبيات والفتن والحروب، كان الزحف الإسلامي يبدو كأنه لا يريد أن يعترف بحدود طبيعية إنما يريد المضي إلى غايته ليس في زحف منظم، إنما في اندفاعات أقرب إلى الفروسية منها إلى شيء آخر بقصد التوسع إلى أقصى حد ممكن. كانت بداية هذه الجهود في عهد موسى بن نصير الذي رأيناه يتجه صوب الشمال ليعبر نهر أبيرو منحدرًا إلى الشمال الغربي ليغزو بلاد الباسك، ثم ما كان من اتجاهه نحو الشمال وإخضاعه رؤساء جليقية وأساقفتها، وكان يريد أن يمضي إلى أقصى غاية لولا أن رسول الوليد بن عبد الملك أدركه هناك وأمره بالعودة إلى دمشق. وتوقف هذا الاتجاه قليلاً في عهد عبد العزيز بن موسى الذي كان يهمه قبل كل شيء أن يتم السيادة الإسلامية على شرق إسبانيا بمصالحة تدمير وخضوعه للنفوذ الإسلامي. ثم بدأ الولاة العرب في إسبانيا يتدافعون صوب الشمال في حركات متلاحقة حتى أن أغلب رجال الأندلس في هذا العصر تزعموا حركة الجهاد، وكانت لهم في هذا الميدان سيرا بطولية، وأغلبهم إما جاهد فوفق، أو لقي حتفه شهيدًا في هذه الملحمة

---

(1) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص 70.

الإسلامية الكبرى. ونتيجة لهـذه الغارة قام الفرنجة بإحكام تحصيناتهم في كل وادي «رودنة» (Rodano). يتـحدث المؤرخـون العرب بعـد ذلك عن سقـوط برشلونة و«جـيرُندة» (Geronda) و«أربونة» في أيدي المسلمين أثناء حكم عـبد العزيز بن موسى بن نصـير. أما السمح بن مالك الخولاني فـقد ذهب بمجرد توليه السلطة عام 719م (100هـ) على رأس حملة إلى إقليم «أربونة» واستولى (أو استرد) على عاصمته، واتجه بعدها إلى «طولوشة» (Tolosa).

يبدو أن هذه الرغبة لم تتحقق إلا في ولاية السمح بن مالك الخولاني، فقـد بلغ به الزحف مدينة طولون، وقد لقـيه دوق أكويتـانيا في موقعة عنيـفة على مقربة من هذه المـدينة، وقد استشهـد السمح عام 102هـ واستشـهد معه كثير من المسلمين، وعادت فلولـهم إلى بلاد الأندلس مرة أخرى. وقد أصبح اختراق البرانس هدف كل من أتى بعد السمح بن مالك، فلم تكد أمور عنبسة بن سحيم تستـقر في البلاد حتى عاود الغزو واتجـه إلى حيث وقف السـمح، حيث لم تكد تمضي أربع سنوات حـتى قرر عنبسة بن سحـيم الكلبي (خليفة السمح) العودة إلى غزو غاليا من جديد. بدأ بتوطيد فتوحات سلفه في إقليم «أربونة» فعبر نهر الجـارون، ثم أخذ «قرقشونة» (Carcasona) بعدما حاصرها وأجبر أهلها على التسليم عنوة، وبعـدها اقتحم «نيمة» (Nimes) فاستسلمت دون مـقاومـة، ولضمـان عدم تمردها أخـذ عـدداً من الرهائن وأرسلهم إلى برشلونة. صـعـد عنبسـة بعـد ذلك مع الـرون حـتى السـاؤن ودخل إقليم «بورجونيا» (Borgonia)، ثم عاد بمن معه من الجند مـحملين بالغنائم بعد أن توغلوا في قلب فرنسـا، وغزوا حوض الرون كله حتى نهر اللوار وأصـبحوا على مسافة قصيرة من السين ثم «أوتان» (Autun) التي نهبها بالكامل - طبقًا لحوليات دير «مـويساك» - في 22 أغسـطس 725م، واستطاع العرب في تلك

الحملة الوصول إلى «لوكسيل» (Luxeuil) قبل عودتهم المظفرة إلى شبه جزيرة أيبيريا. والأمـر الذين يستحق الالتفات حقًـا هو هذا الاتجاه الجديد إلى إقليم الرون والتوغـل معه صـوب الشمـال والعدول عن اختـراق الجارون ودوقـية أكويتـانيا. . يبدو أن هذا الاتجـاه لم يكن مجـرد رغبة في مـواصلة فتح وفق خطة مرسومة بقدر ما كان نتيجة للرغبة في الثأر والانتقام.

ذلك أن الكونت أودو صاحب أكويتانيـا هو الذي تصدى للمسلمين من قـبل وأوقع بالسمح بـن مالك وصـحبـه عند طولون، ويعلل المؤرخـون هذا الصـدام بين أودو والسمح بن مـالك إلى ما كـان من صداقـة بين أودو هذا، وبين أحد الثوار من زعماء البربر الذين فروا إلى هذه البلاد في زحمة الصراع العنيف بين البربر والعرب، وأن السمح لم يكن يريد الـفتح بقدر ما كان يريد أن يؤدب هذا المغربي الثائر وحليـفه أودو، ولكنه لقي حتفه كـما قلنا. وكان عنبسة أحـرص الناس على الثأر لما نال المسلمين فاسـتولى على قرقشـونة كما ذكرنا، ويبـدو أن الدوق قد أخافـته هجمـات المسلمين فاتجـه إلى محالفـتهم والولاء لهم، وقد سـاعدهم في عـبور نهر الرون والاتجـاه صوب الشـمال. وتركهم يتوغلون لا يهاجمـهم من الخلفـ إنما يحمي مؤخرتهم، لم يكن أودو قد صادق العرب حبًا فيهم، إنما خوفًا من ملوك الفرنجة، فلم يكن على وفاق مع شـارل مارتل. الذي كـان يطمع في بلاده الغنية الواسـعة. . وكـانت بين الرجلين عداوة وخصومة. وقد كان معظم الأشراف الإقطاعيين في بلاد الغال يخافـون شارل ويكرهونه ويودون القضاء عـليه. ولعل هذا هو الذي دفع إلى معاونة عنبـسة، وربما كان هذا الحلف هو السبب فيمـا وفق إليه المسلمون من انتصارات فاقت ما كان منتظرًا. على كل حـال لم يستطع عنبسة إدراك إسبانيا الإسلامـية بعد هذه الغـزوة الكبرى فقد دهمـته في طريق العودة جـموع من

الفـرنج ومـات في الطريق متأثـرًا بجراحـه في عـام 107هـ - 725م. وقد أصبحت لهذه الحملات المتـتابعة قاعـدة كبرى على عادة العـرب دائمًا وهي مدينة نربونة في أقصى الشمـال الشرقي وكانت عاصمة إقليم سبتمـانيا استقر فيـها المسلمون واتخذوهـا قاعدة عسكرية لهم، ولـعل ما مكنهم من ذلك أن سبتمانيا تمتد في شمـال البرانس بحذاء ساحل فرنسا الجنوبي إلى أن تتصل بما يعرف اليوم بالريفيرا الإيطالية.

كانت نربونة ثغرًا للمسلمين يقضون فيها معظم أيامهم للجهاد والرباط، تختزن فيـها المؤن وتحـشد الجـيوش ويخـرج منها الغـزاة.. وكانت الـفرق الإسلاميـة المشتركة في عمليات الـغزو إذا خرجت من بلاد الأندلس سلكت أحد طريقين: في أقصى الشرق أي فيما بين نهاية الجبال وسواحل البحر وهو الطريق التقليدي القديم المؤدي من أوروبا إلى إسبانيا، والثاني في ممرات ضيقة على مقربة من الساحل الغربي وهو ساحل خليج بسكاي[1].

الغافقي ومعركة «التور» بواتيه - بلاط الشهداء - رمضان 114هـ - أكتوبر 732م:

عاود المد الإسـلامي مسيره بقـوة دافقة كـبيـرة على يد عبـد الرحمن الغافقي أقدر قائد عرفته الأندلس في عصر الولاة.. كان جنديًا أندلسيًا قضى أحسن أيامـه عاملاً في جـيوش المسلمين فـيما وراء البـرانس، كان من ذلك الجيل من سكان الربط والحصون الذين يقاربون السلف الأول في صدق الرغبة في الجهاد وعمق الإيمان، وقد اتفقت المراجع العـربية واللاتينية على شجاعته النادرة ومقدرته الحربية. وقد جمع عبد الرحمن جنده في أريـونة في مستهل

(1) د. حسين أحمد، المرجع السابق، ص 35.

عام 114هـ - 732م وكان معه نحو من سبعين ألف مقاتل كلهم من البربر واليمانية. ولو كان - عبد الرحمن قد زحف إلى حيث وقف عنبسة وصعد مع الرون متجهًا إلى الرين لكان لغزواته شأن آخر فقد استنفد جهده كله في مهاجمة أكويتانيا ومحاربة الكونت أودو وصديقه المغربي الثائر.

فكانت هذه غلطة العمر، فقد انصرف أودو إلى استصراخ ملك الفرنجة وبذلك توحدت قوى النصرانية في غالة، ورحب شارل مارتل بالفرصة التي تمكنه من بسط نفوذه على أكويتانيا وتحقيق أطماعه القديمة، وكان حريصًا على أن تجتمع قوى النصرانية كلها لمواجهة الخطر الإسلامي الذي وضح منذ أيام عنبسة. استنفر شارل المقاتلة من إقليم الرين فأتوه مسرعين، هذا فضلاً عن ما أثاره هجوم عبد الرحمن على الكونت أودو وحليفه المغربي من العداء الكامن بين البربر والعرب في وقت كان يتحتم فيه أن تتحد القوى الإسلامية في جهد مشترك. وكان الفرنجة في عنفوان قوتهم ومهارتهم، وكانوا قد خرجوا من نصر إلى نصر، هزموا بقايا الرومان والسكسون وغيرهم من جموع الجرمان، وكان شارل مارتل سياسيًا قادرًا ومحاربًا ماهرًا استطاع أن يجمع الناس حوله بالقوة تارة وبالسياسة تارة أخرى. وكان المعسكر الإسلامي تفصله مسافات شاسعة عن القواعد الأصلية، ولم يكن باستطاعته أن يعتمد على نجدات سريعة في ساعة الخطر. هذا إلى ما كان بين العرب والبربر من أسباب الخصومة، وهنالك أمر آخر كان يقلل من فرص النصر وهو الغنائم التي جمعها الغزاة المسلمون وحملوها معهم حتى نهر اللوار، وكان الجنود في الحقيقة أحرص على الغنائم منهم على النصر. ويحدد ليفي بروفنسال مكان هذه الموقعة بأنها على مقربة من طريق روماني يصل شاتلرو Chatellerault ببواتييه على مسافة نحو عشرين كيلو مترًا من المدينة الأخيرة، وهو الموضع

الذي يسمى اليوم Maussius La Bataill، وقد هزم المسلمون في هذه المعركة وقتل الغافقي.

كان النشاط الإسلامي من العمق بحيث لم يكن يتوقف بسبب إخفاق عبد الرحمن فلم يكن الجهاد يقترن بشخص أو يتوقف بسبب هزيمة مهما كان وقعها. غير أن الزحف الإسلامي قد عدلت وجهته فقد عدل عن الانصراف إلى الطريق الشمالي عبر أكويتانيا؛ وذلك بالاتجاه دائمًا إلى الشرق إلى نهر الرون، وقد استطاع العرب أن يستولوا لمدد متفاوتة على مدن آرل وافنيون، كما امتد نشاطهم إلى شمال إيطاليا وسويسرا وسيطروا على إقليم بروفانس وشاطئ الريفيرا إلى أن قُدِر لهذه الحركة الكبرى أن تفتر، وذلك لأسباب كثيرة منها أن الفتن القبلية في الأندلس قد شغلت الناس عن متابعة أخبار الغزاة عبر البرانس وإمدادهم بالمؤن والرجال وتركت بقاياهم تلقى مصيرها المحتوم، هذا في الوقت الذي كانت فيه مملكة الفرنجة يعلو نجمها في فرنسا وفي أوروبا بأسرها وتسير من ظفر إلى ظفر[1]. وُضِعَت معركة بلاط الشهداء بين معارك التاريخ العالمي الفاصلة، واختلف الكُتّاب في تقييمها منهم رأي (مثل جيبون) أنه لو انتصر العرب في هذه المعركة لتغير تاريخ أوروبا تمامًا فربما كان الإسلام انتشر في أرجائها، وربما كان المؤذن يؤذن الآن من أعلى برج كتدرائية نوتردام في باريس، ومن أعلى كتدرائية سان بول في لندن. ولو أن الرأي استقر مؤخرًا، استنادًا إلى مسار الأحداث في فرنسا، إلى أنه لو كان قد تم للعرب النصر في بلاط الشهداء لاكتفوا بما كانوا حصلوا عليه من المغانم ولعادوا مرة أخرى إلى قواعدهم في جنوب فرنسا أو في إسبانيا. بمعنى أن الحملة التي قادها عبد الرحمن الغافقي لم تكن بأكثر من غارة عادية من غارات العرب، ولو أنها كانت أبعدها مدى[2].

---

(1) د. حسين أحمد، المرجع السابق، ص 38.

(2) د. سعد عبد الحميد زغلول، نفس المرجع، ص 144.

وبالرغم من قلة المعلومات الواردة (في الحوليات العربية أو اللاتينية) عن المعركة إلا أنها تتفق في تحديد تاريخها: أكتوبر 732م (رمضان 114هـ). وبعد قيامنا بالمقارنة - حسب التقويم الجريجوري - بين بداية شهر رمضان وما يوافقه من الشهر الميلادي، نستطيع القول بأن اليوم الذي حدثت فيه المواجهة الحربية يقع ما بين 25، 31 أكتوبر لعام 732م. قام «شارل مارتل» - بعد الانتصار المدوي على القوات العربية - بتثبيت «يودو» أو (إودس) في منصبه على مقاطعة «أكيتانيا»، وعهد إلى دوق طولوشة (تولوز) بمهمة الدفاع عن حدود مملكة الفرنجة مع المسلمين والتصدي لهجماتهم المحتملة.

هل فهم العرب بأنهم من الآن فصاعداً سيواجهون مقاومة منظمة على الجانب الآخر من البرانس؟

ما نعرفه هو أنهم لم يترددوا خلال السنوات التالية في شن حملات جديدة، وأن المدونات التاريخية الإسلامية تتحدث عن أنشطة عسكرية في بلاد الغال. وقد كانت مرارة هذه الهزيمة سبباً في فتور روح الجهاد وإن لم تخمد تماماً، وكانت لا تزال في أيدي المسلمين أراض واسعة في منطقة بروفنس (Provence). فنجد في مدونة «مويساك» (Moissac) التاريخية أن هناك هجوم جديد قام به حاكم «أربونة» (يوسف بن عبد الرحمن) عام 734م (أي بعد مرور عامين على موقعة «بواتييه») في وادي «الرون» حيث اجتاز هذا النهر واستولى على «آرل» (arles) دون قتال، ثم على «سان ريمي» (Saint - Remy) (في بروفانس)، ثم على صخرة «أبنيون»، وتوغل بعد ذلك في وادي «دورانس» (Durance). ومكث المسلمون في «بروفانس» ما يقرب من الأربعة أعوام قبل عودتهم إلى القواعد التي انطلقوا منها. وجاء انسحابهم إثر تدخل جديد لشارل مارتل الذي قام على رأس جيش يتألف من فرنجة و«بورجونيين»

باسترداد «أبنيــون» والتقدم لحصار استـحكامات المسلمين في «أربونة». عندما علم حاكم إسبانيا وقتها (عقـبة بن الحجاج) بنبأ حصار شارل مارتل لأربونة، أرسل جيشًا لفك الحـصار المضروب حولها. توجه عقـبة بن الحجاج السلولي على رأس حملة جديدة استـولى بها على فالانس (Valenne) وخرّب المناطق المحيطة بفيين (Vienne) وأعاد فتـح إقليم بورجونيا كله واستـولى على ليون (Lyon) من جديد. ولكن الملك الفرنجي شارل مارتل عاد للتصدي للمسلمين فحاصر أبنيون (Avignon) وانتزعها منهم، وأنزل به الهزيمة على شاطئ جدول صغـير جنوب «أربونة» يسـمى «بيرّي» (Berre) قبل أن يلقى القـائد الفرنسي حتفه في هـوْر «سيجو» (Sigeau). أما بالنسـبة لأربونة نفسـها فقـد قاومت وانتصرت. وبعـد موت عقبـة بن الحجاج في 123هـ/ يناير 741م آلت قيادة المسلمين في غالة إلى عبـد الرحمن بن علقمة اللخمي، وكان قـائدًا شجاعًا، غير أن عـصبيته اليـمنية حملته على المسـير إلى قرطبة للاشـتراك في الحرب الدائرة بين القـيسيـة واليمنيـة مما ترتب عليه بعـد ذلك تخلص كبـريات مدن سبتـمانيا (Septimanie) من الحكم الإسلامي. وحـاول بيبن الثاني (Pepin II) ابن شارل مارتـل انتزاع أربونة من أيدي المسلمين فحاصـرها ولكنه أخفق في ذلك وبقيت أربونة ثغرًا للمسلمين في بلاد الغـال حتى نهاية عصر الولاة. إلا أن الصلات انقطعت بينها وبين القواعد الإسـلامية في الأندلس. وحاول عبد الرحمـن الداخل إنجادها ولكن الحـملة التي وجهـها هزمت في ممرات جـبال البرتات 140هـ/ 758م وفي السـنة التالية سقطـت في أيدي الغاليين والفرنجة. وانتهى الأمر بانحسـار العرب عما وراء جبال البرتات[1].

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 67.

ولم تستمـر سيطرة الإسلام الإسبـاني على ثغوره في أرض «سبتـمانيا» سوى وقت قصير لأن «ببينو البريبي» (Pipino El Breve) - ابن شارل مارتل الذي نجح في انقلابه ضد سلالة «ميـروبنخيا» (أو الميروفنجية) (Merovingia) المالكة - استردها جميعها عام 751م (113هـ). وقد كان لسقوط هذه الثغور - قبل سنوات قليلة من تأسيس إمـارة قرطبة الأموية - صدى عمـيقًا في العالم المسيـحي وفي الغرب الإسلامي، على حد سـواء. فقد كانت - من جـهة - بمثابة تحذير لإسبانيا الإسلامية من التفكيـر ثانية في مدّ أطماعها التوسعية إلى الجانب الآخر من البرانس؛ كما كـانت - من جهة أخرى - بمثابة درس تعلم منه الغـاليون أن الحراسـة المستـمرة لحدودهم يمكن أن تدرأ الخـطر الإسلامي عنهم. وإن كثـيرًا من المسلمين الذين شاركـوا في تلك الحملات قـد بقوا في أرض «غاليـا» بعد رحيل رفقـائهم في السلاح وارتدوا عن الإسلام واعـتنقوا الدين المسـيحي. ومن هنا تكونت بعض الجـاليات ذات الأصل «الإسـلامي» وخاصة في «أوبرينا» (Auverina) وفي جبال الألب البـروفانسية. وسـيحدث نفس الشيء - بعد قرنين من الزمان - مع مسلمي حصن «فراكسينيه» (جنوب فرنسا). لقـد آثرنا الإشارة إلى تلك النظريات دون الخوض فيهـا لأنها تعالج أمرًا مظنونًا يفتقر إلى الوثائق المباشرة والصريحة[1]. وكان لملوك الفرنجة هدف محدد يسعون إلى بلوغه وهو طرد المسلمين من قـاعدتهم في سبتمانيا ونربونة وإلقائهم خلف البـرانس، فقد أدركوا أهمـية هذه القاعدة في وضع عـمليات الغزو الإسـلامية، لذلك هاجـمها شـارل مارتل أكثـر من مرة وشدد عليـها الحصـار فلم يفز بطائل، ثم عـاود ببين القصيـر الهجوم عـلى أربونة بعد أن

(1) ليفي بروفنسـال، المرجع السابق، ص 74.

انتقل إليه تاج الميروفينج عام 133 / 134هـ، وقد حاصرها بعض الوقت فاستعصت عليه. وقد استمرت هذه القاعدة تقاوم دون أن تتلقى عونًا حتى قيض لها أن تستسلم آخر الأمر 141هـ - 759م، وبعد أن سقطت أربونة انحسر المد الإسلامي إلى خلف جبال البرانس. وشعرت الإمارات النصرانية في إسبانيا بالطمأنينة وأمنت ظهرها فاستدارت بوجهها نحو الجنوب تقاوم العرب وتعمل على استرداد الأرض المفقودة. هذه الجهود التي استمرت أربعين سنة ولم تحقق غايتها وانتهت نهاية طبيعية فقد كانت جبال البرانس من أعنف العقبات بين أوروبا وإسبانيا أخفق جميع الفاتحين في التغلب عليها. هذا إلى ما كان من نمو دولة الفرنجة وتوطدها بعد النصر الذي انتزعته من العرب وأصبحت حجر عثرة في سبيل أي زحف عربي، بل سرعان ما انتزعت زمام المبادأة من العرب واستردت كل ما استولى عليه في أوروبا، بل أرادت أن تغزو المسلمين في عقر دارهم في حملة شارلمان المشهورة. هذا الإخفاق كان عظيم الأثر في تاريخ فرنسا وإسبانيا وفي تاريخ الحضارة الإسلامية في إسبانيا، فقد تهيأت الفرصة لدولة الفرنجة بعد انتصار شارل مارتل لتسترد أنفاسها ولتعيش وتقوى، ويكفي أن يقال إنها عاشت آمنة في بلادها نحوًا من ثلاثمائة سنة، وأهم من هذا أن انتصار الفرنجة على هذا النحو أفضى إلى حماية ظهر المقاومة القوطية التي كانت قد اعتصمت بالمقاطعات الغربية، وهم لم يحتفظوا برمقهم فحسب بل سيسرعون في استرداد أجزاء من مملكتهم القديمة واضطر العرب إلى الاعتراف باستقلال هذه المقاطعات فتركوا للمسيحية جليقية وليون وقشتالة ومقاطعات غسقونية، ومن هذه البلاد النائية تمت المقاومة المسيحية وأخذت تستغل انقسام المجتمع الإسلامي وتناحر العرب والبربر. وكانت هزيمة العرب للبربر عاملاً حاسمًا في تاريخ النضال المسيحي؛

فقد أخذ البربر يعودون إلى إفريقية ويخلون الأقاليم الشمالية لتحتلها الإمارات المسيحية كما رأينا[1].

أوديسية غزاة البحر المسلمين في فراكسينتوم عند مصب الرون:

النصف الأول من القرن الهجري الثالث/ النصف الأول من القرن التاسع الميلادي:

ومن مظاهر سيادة المسلمين في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن الثالث الهجري قيام جماعة من غزاة البحر المسلمين بالنزول في دلتا نهر الرون المعروفة باسم كمارج Camargue وإنشاؤهم قاعدة عسكرية وقيامهم بشن الغارات منها في فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا. ومن مواضع الضعف في النشاط البحري الإسلامي أنه لم يكن منظمًا ولا منسقًا، وأن الدول لم تهتم الاهتمام الكافي بالاستفادة من الملكات البحرية عند أهل سواحلها، ولم تعرف كيف ترعى التجارة والتجار أو تشجعهم أو تؤيدهم ليتوسعوا في نشاطهم التجاري عبر البحار، كما كانت البلاد الأوروبية قد بدأت تفعل في ذلك الحين، ولهذه الحقائق نتيجتان واضحتان فيما يتمثل بالنشاط البحري الإسلامي بصفة عامة: **الأولى**: أن ذلك النشاط لم يكن مستمرًا ولا سائرًا على سياسة مرسومة، وإنما سار حسب الظروف وحسب المقادير، فلم يؤتِ - رغم ضخامته - نتيجة إيجابية ثابتة، وإلى هذا يرجع السبب في فقدان المسلمين سيادتهم على البحر المتوسط ابتداء من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي رغم توفر أسباب هذه السيادة لهم. **الثانية**: أن هذا النشاط لم يؤد إلى نمو مطرد في فنون البحر عند المسلمين كما حدث عند الغربيين، فعلى الرغم من أن المسلمين ملكوا كل وسائل التقدم البحري من

---

(1) د. حسين أحمد، المرجع السابق، ص 38.

فنون إنشاء السفن وتقدمهم في علوم البحار فإنهم لم يستطيعوا السير إلى الأمام بنشاطهم البحري، فظلت سفنهم ومعلوماتهم البحرية دائمًا في نفس المستوى رغم نبوغ الكثيرين من ملاحيهم. ومن الأمثلة البارزة على انعدام التنسيق والتوجيه في النشاط البحري الإسلامي في البحر المتوسط مغامرة الغزاة البحريين الذين أنشأوا لأنفسهم قاعدة للغزو عند منابع الروم[1].

غزو إسلامي لجنوب فرنسا حتى جبال الألب:

وفيما بين عامي 278 و281هـ/ 891 و894م تمكنت جماعة من غزاة البحر المسلمين من مسلمي إسبانيا وربما بعض المغاربة - في ظروف غير معروفة لنا - من النزول في خليج سان تروبيز Saint Tropez على شاطئ بروفانس في جنوبي فرنسا وتحصنوا في جبل فراكستوم Fraxintum المطل على الخليج، وهذا هو الموضع المعروف اليوم باسم قارد فرينيه Garde Freinet ثم لحقت بهم جماعة أخرى وتضخم العدد، ومضت هذه الجماعة تغير على نواحي كونتية فريجوس Conté de Fejus، وكما أحرق النورمان مساجد إشبيلية والجزيرة الخضراء نجد أن غزاة البحر المسلمين هؤلاء صعدوا مع نهر الرون وأغاروا على ما وصلوا إليه ونشروا الخوف في مقاطعتي فالنتان Valentin وفيين Vienne ثم امتد مجال نشاطهم في السنوات الأولى من القرن العاشر فوصلوا إلى سفوح جبال الألب، وملكوا نواحي ممرات الجبال إلى روما، وثقلت وطأتهم على ناحيتي إمبوردان Embrurdan وجريزفان Graisivan ثم تشجعوا فدخلوا الوديان الإيطالية وتوغلوا في بيدمونت حتى أكوي Acqui وأستي Aste. وبينما كانت قاعدتهم الرئيسية في فراكسينتوم كانت فرق طيارة منهم تخرج وتغير على ما تستطيع ثم تعود. ثم نشأت لهم

---

(1) الأطلس الإسلامي، ص 290.

قواعد فرعية في مخـارم جبال الألب. وحاول أهل هذه النواحي بتأييد الدولة الفرنجية التصـدي لهم فلم يستطيعوا، وفي 328هـ/ 939م أوغلت فرق الغزاة حتى بلغت سان جالن Saint Gallen في قلب سويسرا الحالية، وفي 332هـ/ 943م توجهت ضدهم حملة جردها هوجو ملك إيطاليا ورومانوس ليكابينوس إمبراطور بيزنطة فلم توفق، وظلوا في قاعدتهم في فراكسينتوم حتى أخرجهم منها أوتو الأول إمبراطور الدولة الرومـانية المقدسة 361هـ/ 972م. ومع ذلك فلم تكن تلك نهـايتهم، بل نجدهم يتـفرقون بعـد ذلك، ويعتـصـم كل فريق منهم في ناحـية من جـبال الألب ليـواصل نشاطه، حـتى اختفـوا وذابوا في السكان مع الزمن، وإلى يومنـا هذا ما زالت وديان كـثيـرة في جبـال الألب الجنوبية وفي نواحي الجـريزون (جراوبنْدِون Graubuenden في سويسـرا تحمل أسـماء مـثل سـرازيني Sarraseni وموري Mauri نسـبة إلى أولئك الغـزاة المغامـرين. وكل أخبـار هذه الجماعـة - وغيـرها أقل منها أهميـة - وصلتنا تفاريق في المدونات النصرانية دون أن يعلم بأمـرها مؤرخ عربي أو مـسلم، بل لم تكن الدول الإسلاميـة القائمة تعرف عن أمرها شيئًـا، وإنما هي أقباس من النشاط الإسـلامي الغزير الذي عجزت حكومـات هذه العصور عن احتـوائها والإفادة منهـا في عمل إيجـابي منظم. ولكن أخبار هـذه الجماعـة وما رأينا وسنرى من نشـاط الغـزو الإسلامي الذي عمّ الـبحـر المتـوسط كله في تلك العصور يؤكد الحـقيقة التي ذكرناها من أن سلطان المـسلمين سـاد أمواج البحر المتوسط وسـواحله كلها في خلال القـرنين الثالث والرابع الهجـريين/ التاسع والعاشر الميلاديين[1].

---

(1) الأطلس الإسـلامي، ص 290.

استبداد الحكام العرب وثورة البربر في المغرب ورد الفعل في إسبانيا الإسلامية 122هـ/ 740م:

بعد عبد الرحمن الغافقي ولي الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري، ثم خلفه في آخر 116هـ/ 734م عقبة بن الحجاج السلولي الذي عينه زعيمه (كان مولى له) عبيد الله بن الحجاب القيسي والي مصر إفريقية وكان ابن الحجاب قد أوصى نوابه في المغرب بمعاملة أهل البلاد دون رعاية. وفعلاً قام عاملاه بطنجة والسوس بتنفيذ هذه الوصية، بل وغالوا فيها فطلبوا إلى البربر ممن اعتنقوا الإسلام دفع الجزية، وبالغوا في إهانتهم فسبوا بناتهم (أخذوهن كضريبة)، وغالى عماله في تطبيق أوامره لدرجة أنهم فرضوا الجزية على جميع أفراد البربر ولم تكن تُحَصَّل في البداية إلا ممن لم يدخل منهم الإسلام، كما أجبروهم على تسليم فتيانهم وفتياتهم الجميلات لينضموا لحريم خليفة دمشق. وكان ذلك بمثابة إشعال لهيب العداوة والحقد الدفين. وكان خروج أحد نائبي ابن الحجاب للقيام بحملة في صقلية بداية لاندلاع ثورة عارمة بالمغرب الأقصى، اشترك فيها قبائل غمارة ومكناسة وبرغواطة ومطغرة ونصبوا أحدهم وهو ميسرة قائداً للثورة (ميسرة الحقير لأنه كان سقاء بالقيروان) وتقدموا نحو طنجة واستولوا عليها 122هـ/ 740م. وكانت هذه السياسة بمثابة النفخ في جذوة تحت الرماد، فبمجرد أن ترك أحد عمال ابن الحجاب موقعه للاشتراك في الحملة المتجهة إلى صقلية اندلع التمرد العام في المغرب الأقصى. أسلم البربر قياد حركتهم لواحد منهم يدعى «ميسرة»، وساروا معه للاستيلاء على طنجة عام 740م (122هـ). لم يكن عصيان «ميسرة» ومن معه استجابة لدوافع سياسية بحتة، بل كان نتيجة للدعاية الإيجابية التي حظيت بها دعوة دينية قادمة من الشرق وجد فيها البربر ما

يشبع غريزة الديمقراطية فيهم. إنها نوع من «البروتستنتية» الإسلامية التي تنشد المساواة وعدم التفرقة بين أحد من أنصارها، ويسمى أصحابها بالخوارج. إن الخوارج لا يعترفون بحق عليّ وذريته أو معاوية وسلالته في الإمامة، ولا يقرون بالتحكيم الذي جرى بعد موقعة «صفين» عام 657م، ويرون أن من حق كل مسلم - ما لم تشب دينه وخلقه شائبة - التطلع لرئاسة المجتمع الإسلامي. كما طالبوا بالمساواة بين جميع المسلمين في الدين بغض النظر عن معتقداتهم السابقة. وصادفت دعوة الخوارج هوى في نفوس بربر شمال أفريقيا إذ وصلت إليهم في الوقت الذي تمادى فيه المحتلون في إساءة معاملتهم. لم يفكر البربر في التبرؤ من عقيدتهم الإسلامية، لكن ساءهم تصرفات العرب باسم الدين والتي تتناقض مع روح ونصوص تعاليمه الأولى التي لقنها لهم الفاتحون عند وصولوهم. وبالرغم من النجاح الذي لاقته دعوة الخوارج بين مجتمع شمال أفريقيا البربري وعظيم أثرها الذي انعكس على قيام إمارات مستقلة ومزدهرة في هذا الركن من العالم الإسلامي إلا أنها لم تصادف نفس الحظ على أرض إسبانيا التي تعج بالبربر الذين توافدوا تباعًا للاستقرار فيها. ولم تكن ثورة ميسرة التي اتخذت شكلاً خطيرًا في الجانب الآخر من المضيق ثورة سياسية فقط إذ كان لها شكلها الديني. فقد قامت الثورة بعد دعاية قوية قام بها الخوارج في المغرب. ووجد البربر في المذهب الخارجي الذي يدعو إلى المساواة التامة بين جميع المسلمين مهما اختلفت أجناسهم وإلى الرجوع بالإسلام إلى نقائه الأول وجد العرب العاربة من البربر فيه رابطة معنوية قوية بينهم ضد العرب الذين أساءوا السيرة فيهم. كما أنها تضع حدًا لتصرفات العرب الدينية التي لا تنسجم مع تعاليم الإسلام. وبذلك اتخذوه وسيلة لتغطية مقاومتهم وتحقيق أمانيهم الوطنية. هذا المذهب

الانفصالي الذي لاقى نجاحًا كبيرًا في المغرب، وأخرج إمارات خارجية مستقلة عاشت لفترة طويلة من الوقت (مثل مملكة الرستميين بتاهرت، والمدراريين بسجلماسة)، لم يلق أي نجاح في الأرض الإسبانية رغم وجود جماعات عديدة من البربر الذين استقروا هناك. وعندما علم والي المغرب العربي باستيلاء البربر على طنجة أمر نائبه في إسبانيا الإسلامية وهو عقبة بن الحجاج بالنزول بقواته على الساحل الأفريقي واستخلاص المدينة. واضطر عقبة إلى المسير بنفسه، وقتل البربر قتلاً ذريعًا ولكنه لم ينجح في إخماد الثورة. أما عن ميسرة فإنه لقي حتفه على أيدي أتباعه الذين أنكروا سيرته بعد ذلك بقليل وولوا أمرهم آخر هو خالد بن حميد الزناتي. وفي أول 123هـ/ 740م أنزل خالد الزناتي وبربرة الخوارج بالعرب هزيمة دامية قرب وادي شلف، هذه الواقعة عرفت بوقعة الأشراف. وعندما بلغت أنباء هذه الكارثة إسبانيا ترتب عليها رد فعل شديد، إذ ثار أهل إسبانيا الإسلامية على أميرهم عقبة بن الحجاج فعزلوه، وولوا مكانه عبد الملك بن قطن الذي استولى على السلطة بقرطبة. كان ابن قطن من أهل المدينة الذين يكرهون أهل الشام منذ موقعة الحرّة الشهيرة 63هـ/ 683م التي فتك فيها الأمويون بأهل مدينة النبي (على عهد يزيد بن معاوية) وهكذا كان ينظر بعين الارتياح إلى الصعوبات التي يواجهها ممثلو الخليفة الأموي في المغرب. ولكن ابن قطن كان يعمل دون اهتمام بأمر العرب العاربة من البربر، وهؤلاء لم يكونوا راضين عن تصرفات العرب إزاءهم بالجزيرة، فقد تركوا الأراضي الطيبة في إسبانيا للعرب، واكتفوا بالمناطق الجبلية، فكان من الطبيعي أن يتلقوا أنباء متاعب العرب وانتصارات العرب العاربة من البربر بالمغرب العربي بفرح شديد. كما كان من الطبيعي أيضًا أن يفكروا بدورهم في زعزعة سلطان العرب بإسبانيا. وفعلاً

قامت الثورة في شمال غرب إسبانيا في الجلاقة (جليقية - غاليسيا) على السفوح الجنوبية لجبال الكانتابر (امتداد البرانس الغربية)، وتقدم البربر نحو الجنوب يقتلون العرب ويفاجئونهم على طول الطريق. ولما تأزم الموقف حاول عبد الملك بن قطن مواجهته باستنفار العرب من سكان الأقاليم البحرية من الجزيرة (الجنوبية) وتجمعهم بقرطبة. ولكن هذا الجيش انهزم بسرعة أمام الثوار من البربر. ساد القلق دمشق بالنسبة لمجريات الأمور بالمغرب، وأقسم الخليفة هشام أن يرسل الحشود المناسبة من الرجال لقمع الثورة. فسارت حملة قوامها 30 ألف رجل منهم 10 آلاف فارس من أهل الشام وعلى رأسها كلثوم بن عياض القشيري، ويصحبه على المقدمة ابن أخيه بلج بن بشر القشيري. وازدادت الحملة - حسب أوامر الخليفة - عدة وعددًا عندما مرت بمصر وأسرعت الحملة ووصلت إلى المغرب. ولكن يظهر أن ذلك الجيش الكثيف لم يكن حسن القيادة، دون شك، وأنه كان قليل التنظيم إذ انهزم هزيمة منكرة في آخر 123هـ (أواخر 741م) في شمال مراكش على ضفاف وادي سبو (نهر فاس) ولقى كلثوم حتفه في الموقعة. (وسيتطلب الأمر فيما بعد إرسال حملة ثانية تكسر البربر انكسارًا تامًا في موقعتين ثانيتهما تسمى وقعة الأصنام بمكان ليس بعيدًا عن القيروان، قتل فيها من البربر 180 ألفًا حسب ما تقول الرواية، وشبهت بغزوة بدر من ناحية كونها معركة فاصلة)[1].

دخول جند الشام وعلى رأسهم بلج إلى إسبانيا:

عندما انهزم الجيش العربي الكثيف على وادي سبو انفصلت مقدمته وعلى رأسها بلج بن بشر عن بقية القوات. ولما تابعها البربر وألحوا عليها دون هوادة لجأت إلى الاعتصام بقلعة سبتة الحصينة، وانتهى الأمر بأن حوصرت تمامًا وانقطعت عما خلفها من البلاد. وكان بلج أحد شجعان أهل الشام معتز

(1) د. سعد عبد الحميد زغلول، المرجع السابق، ص 130.

بعصبية القيسية، وكانت القوات التي يقودها والتي بلغت حوالي 7 آلاف فارس مؤلفة من مختلف كور الشام العسكرية (جند) مثل: دمشق والأردن وفلسطين وحمص وقنسرين، كما كانت تضم جندًا من مصر. ورغم أنه كان يعز كثيرًا على مثل هذا الأرستقراطي القيسي أن يلجأ إلى عربي ليس من عصبيته إلا أن بلج بن بشر الذي كان محصورًا حصرًا شديدًا في شبه جزيرة سبتة، قرر آخر الأمر أن يقاوض والي إسبانيا الإسلامية عبد الملك بن قطن وأن يطلب إليه السماح له بالعبور إلى الأندلس مع رجاله المحاصرين. بل وطلب إلى جانب ذلك إرسال الطعام والمراكب اللازمة لدلك. ولم يستمع عبد الله بن قطن العجوز (90 سنة) إلى النداء، ورأى أن يترك ذلك العدو القيسي لمصيره بل لقد عاتب بشدة بعض العرب الذين أشفقوا على المحاصرين بسبتة. ولكن عبد الملك تنبه بعد ذلك إلى خطورة ثورة البربر في إسبانيا الإسلامية، وأنها ربما أودت بها أيضًا فرأى - سواء رضى أو لم يرض - أن يتغلب على حقده، وأن يقبل المدد الذي يعرضه عليه فرسان بلج بعبورهم إلى الجزيرة. وفعلاً أجاب ابن قطن طلب الزعيم الشامي. وتم الاتفاق واتخذت الشروط والاحتياطات من كلا الجانبين: وكان العهد أن يغادر بلج وجنده إسبانيا بمجرد قمع ثورة البربر وحدد ذلك بسنة بلج، ودفع لذلك بالرهائن. أما عن عبد الملك فإنه ضمن جهته للشاميين أن يعودوا معًا عند رحيلهم إلى شمال أفريقيا، وألا يعودوا جماعات متفرقة، وأن يكون إنزالهم على الشاطئ المغربي بحيث تكون البلاد خلفهم واقعة تحت سلطان العرب فعلاً (وهكذا دخلوا الأندلس جياعًا عرايا فشبعوا ولبسوا، كما تقول النصوص). وكان لتدخل بلج وجنوده الشاميين نتائجه الحاسمة. ففي الوقت الذي جلوا فيه عن سبتة ووصلوا إلى ساحل الجزيرة الخضراء كان البربر في جليقية وماردة وقورية

وطلبيرة، وغيرها من الأماكن قد اختاروا لهم إمامًا ونظموا أنفسهم في ثلاثة طوابير: كان على الأول أن يحاصر طليطلة، وكان على الثاني أن يسير لمهاجمة قرطبة مباشرة، أما عن الثالث فكان عليه أن يتجه نحو الجزيرة الخضراء للاستيلاء على الأسطول، وعبور المضيق للقضاء على الشاميين بسبتة والعودة بأعداد كبيرة من البربر إلى إسبانيا الإسلامية. وكان ذلك الطابور الأخير قد تقدم حتى شذونة (Medina - Sidonia) فوجب على بلج أن يعالجه بسرعة، وفعلاً اتجه بمجرد وصوله مع بعض جند إسبانيا الإسلامية نحو شذونة، وهزم أول تجمعات البربر هناك بعد ذلك تمكن من تشتيت الجماعة الثانية من الثوار، ولكن ببعض الصعوبة في منطقة قرطبة. ولم تبق إلا أكبر التجمعات التي كانت تحاصر طليطلة منذ حوالي شهر. هذه القوة تقدمت لملاقاة العرب وحدثت الوقعة على ضفاف وادي سليط (Guazalete) أحد فروع نهر تاجة، وانتهت بانهزام البربر هزيمة تامة. وطارد المنتصرون الثوار في أنحاء الجزيرة مطاردة الحيوانات الضارية، وغنم الشاميون - فقراء الأمس - غنائم عظيمة في هذه الانتصارات الثلاثة المتتابعة، وأصبح لهم الخيول والرقيق والكساء. هكذا قضي على ثورة البربر في أراضي إسبانيا الإسلامية، ومنذ ذلك الحين انصرف تفكير عبد الملك بن قطن إلى إجلاء هذه القوات الخطيرة إلى ساحل المغرب العربي، وفعلاً طلب إلى بلج العودة إلى المغرب. وكان من الطبيعي ألا يستجيب بلج وأصحابه إلى ذلك وألا يرضوا عن ترك البلد العظيم الذي أثروا فيه، كما أن إلحاح ابن قطن كان يثير فيهم ذكريات الحصر والإملاق والخوف بسبتة. وثار الجدل بين الطرفين وظهرت الضغائن والأحقاد القديمة. وخلال ذلك ظهر سوء نية ابن قطن. فبدلاً من أن يظهر بمظهر الرجل الذي يحافظ على تعهداته بدأ يفسر شروط الاتفاقية بأسوأ طريقة

بالنسبة لأهل الشام. وعندما أراد أن يحملهم ببساطة إلى سبتة ثاروا به، وفاجأوا في الحال حامية قرطبة وطردوا عبد الملك بن قطن من قصر الإمارة وأجلسوا مكانه زعيمهم بلج في أول ذي القعدة 124هـ/ سبتمبر 742م. وبوصول بلج إلى كرسي الإمارة كان من المتوقع أن ينتهج سياسة محاباة القيسية وزاد من تعصب الشاميين ضد أعدائهم من الحزب المدني أو البلديين أن الرهائن الذين كانوا بالجزيرة الخضراء وصلوا إلى قرطبة يشكون سوء المعاملة التي لقوها هناك، من حرمان من الطعام والماء حتى مات رجل من أشرافهم. وألقوا تبعة ذلك على عبد الملك بن قطن وطلبوا القصاص فيه. وحاول بلج تهدئتهم وعدم التعرض لابن قطن واعتذر لهم عنه بكبر سن الرجل، وبأنه قرشي ولكنه لم يستطع كبح جماحهم لاسيما عندما اتهموه (اليمنيون) بأنه يحمي عدوهم الذي هو مضري (معدي) مثله. عندئذ اضطر بلج إلى أن يرتكب خطأ كبيراً بتعذيب ابن قطن وقتله، إذ أعقب ذلك أن ابنا هذا الأخير، وهما أمية وقطن اللذان كانا قد فرا إلى شمال البلاد نظما حركة ثورية ضد الشاميين، وذلك بعد أن ضمنوا مساعدة والي نربونة العربي، وهو عبد الرحمن بن علقمة اللخمي، وكذلك أحد أعداء بلج، وهو عبد الرحمن ابن حبيب، الذي كان يطمع في الاستقلال بإمارة إسبانيا. ونجح المتآمرون في جمع عدد كبير من العرب أعداء الشاميين من أهل البلد، كما ضموا إلى صفوفهم عدداً كبيراً من البربر الذين لم يغفروا لبلج الهزائم المنكرة التي ألحقها بهم عقب وصوله إلى إسبانيا الإسلامية مباشرة.. والتقى الطرفان بعد ذلك بقليل في شوال 124هـ (أغسطس 742م) في أكوة برطورة Aqua Portora على بعد عدة مراحل من شمال قرطبة. وانهزم المتحالفون رغم جسارة والي نربونة الذي جرح جرحًا قاتلاً. وعاد الشاميون إلى قرطبة يحملون زعيمهم المحتضر الذي سيموت بعد أيام قليلة. كانت انتصارات أهل الشام تحمل معنى تفوق

القيسيــة في إسبانيا الإسلامية، إذ خلف بلج أحــد قواده وهو ثعلبة بن سلمه العايلي (يمني) الذي كان الخليفة هشــام قد عينه ليخلف بلج على رأس الجيش الشامــي إذا تطلبت الظروف ذلك. ولم يكن ذلك في صالح الحــزب المدني، فبينما كــان بلج يحاول كبح جماح أصحابه أطلق ثــعلبة العنان لحقده وثأره. ولم تكن البــداية في صالحه، فــعندما خــرج للقاء العــرب من المدنيين الذين تجمعوا مع البربر في منطقة ماردة في أعداد كثيفة غلب على أمره واضطر إلى الاعتصام بالمدينة (ماردة) ولكن انتهى الأمر بأن وصلته الإمدادات من قرطبة، وتمكن فعلاً من القــضاء على أعدائه، وعاد إلى قرطبة يصــحبه ألوف الأسرى والسبي الذين بيعوا مناقصة تحقيرًا لهم وسخرية منهم. ولكن كان هناك بعض العرب الذين لم يفقدوا تعقلهم بعد، فــاستاءوا من تصرفات الوالي الشامي - إذ كان الأسير يباع مــبادلة بكلب أو جدي - واتصلوا بوالي المغرب حنظلة بن صفوان الكلبي، وطلبــوا إليه أن يعين آخرًا مكان ثعلبة. وفعــلاً حدث ما لم يكن يتوقعه ثعلبة والشاميون، إذ وصل إلى إسبانيا الإسلامية (125هـ/ 743م) والي جديد هو أبو الخطــار الحسام بن ضرار الــكلبي، وهو دمشقي من خــيار أهل الشــام. ولما كان أبو الخطار من أعــيان الشــام قبل الشــاميــون الائــتمار بأوامره، كما وجد فيه البلديون منقذهم وفرحوا بمقدمه.

فرض الوالي الجديد شخصيتــه على الجميع، وكان أول ما قام به هو أن رد على أسرى ماردة المهــينين حريتهم. وبفضل سياســته الكريمة العاقلة تمكن من إقرار النظام فــعفا عن المتــآمرين الذين كانوا قــد تجمعــوا في أكوة برطورة (Aqua Portoa) من حــزب ابن عبــد الملك بن قطن عــدا عــدد من الزعمــاء المشاغبين مثل عبد الرحمن بن حــبيب الذي عبر إلى الساحل الأفريقي والذي سيكون له شأن مذكــور فيما بعد، وكذلك ثعلبــة الذي طُلب إليه الرحيل إلى

المغـرب. وكذلك لاحظ أبو الخـطار أن وجود جند الشـام بقـرطبة كـان من أسباب الاضطراب، فرأى أنه من حسن السيـاسة أن يقترح عليهم أن يخرجوا عن العاصـمة، ويستقـروا في إقطاعات يستفـيدون منها، في مقـابل أن يلبوا الدعوة عند الاسـتنفار (التـعبئـة) في حالة إذا ما دعت الضـرورة. ويُقال أن أرطباس بن غـيطشة (Ardabase ابن Witiza) الذي كان رئيـسًا لجمـاعة أهل الذمة في ذلك الحين والذي كان عليه أن يجمع الجزية منهم هو الذي نصح أبا الخطار باتخـاذ هذا الإجـراء. ولم يكن أمـام أصـحاب بلج إلا قـبـول هذا العرض، إذ إنهم كانوا معتادين على مثل هذا النظام في بلادهم. وهكذا طبق في إسبانيا النظام الذي كان معمولاً به في الشام، إذ عملت تقسيمات عسكرية إقطاعية في نفس الوقت سميت جند وأجناد والتي ربما أُخذت عن نظام الكور البـيزنطيـة (كـان على الجند أن يأخذوا ثلث المحـصـول الذي كانت تأخـذه الدولة). وحسـب هذا التقسيم استـقرت الفرقة (جند) المصرية التي ربما كانت أكثرها عددًا في منطقة الغرب (Algarve) (في أقاليم باجة وأكشنبة Ocsonoba جنوب البرتغـال حاليًا) وفي منطقـة تدمير (إقليم مـرسية - حيث كـانت قد انتهت إمـارة تدمير المحمـية) واستقر جـند حمص في منطقة إشبـيلية ولبلة، وجند فلسطين في منطقتي شذونة والجـزيرة الخضراء، وجند الأردن في منطقة رية Reiyo (مالقـة)، وجند دمشق في إقليم البـيرة Ebira (غرناطة)، وأخـيرًا جند قنسرين في منطقة جيان Jaén (ونزل أهل الشام في هذه الكور).

اعتـدال أبي الخطار في إمارته لم يطل كثيـرًا، إذ تغلبت نزعته الكلبـية على تعقله السياسـي. فبينما كان يحكم في مسألة رجلين احـدهما معدي أي من العصبـية المنافسة لعصـبيته، والآخر كلـبي عالج الأمر بتحيـز جعله محل اتهام الزعـيم القيسي الصـميل بن حاتم الكلابي (قـبيلة كلاب قـيسية، غـير

كلبي). والصـميل هذا كـان قـد دخل الأندلـس بعـد بلج وكـان من جند قنسرين، ولم يكن - من غير شك - قـد وصل إلى إقليم جيان الذي عهد به إليه. ابتدأ أمر الصميل الذي عرف بشجاعته وكرمه يظهر في الأندلس ودانت له القيسيـة حتى أصبح المحرك لسياسة الحكومـة. وسيقوم هذا الرجل لمدة 10 سنوات فيما بـعد بدور مهم عند دخول عبد الرحمـن الأموي وتأسيس إمارة إسبانيا الإسـلامية الأموية على يديه. كان نفوذ العميل من أسـباب حقد أبي الخطار عليـه. فكان تدخله في أمـر الحكم الجائر الذي صـدر ضد أحـد أبناء عصبيته سببًـا في ثورة الوالي الكلبي، الذي طرد الصميل نفسـه طردة مهينة دون أية رعاية. وكان ذلك نذير حرب لا هوادة فـيها بين أبي الخطار والزعيم القيسي. ورأى الصميل أن قلة عدد القيسية في الجزيرة لن تسمح لهم بالتغلب على أنصار أبي الخطار من الكلبية ولهذا السـبب رأى بمهارته رغم أنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب أن يكتسـب إلى جانبه من كان بالأندلس من عـرب قبيلتي لخم وجذام، وهما يمنين الأصل، وكان هؤلاء عديدين نسبيًا بإسبانيا، كما أن علاقـاتهم بالكلبيين كانـت قد فترت بـعض الشيء. وجعل الصـميل أنصاره يوافقـون على هذا الإجراء الذي سيقـوي من صفوفـهم، ثم ذهب بعد ذلك لزيارة مدن منطقة قرطبـة باحثًا عن أنصار له. فاكتـب أسـتجة رغم أن زعيم القيسية فيها كان يحسد الصميل على مركزه. وخرج من أستجة، (إلى مورور أي مورون) وعـقد حلفًـا مع الزعيم الجـذامي ثوابة بن سلامـة ورأى أنه من حسن السياسة أن يعهـد إليه بالقيادة (قال يكون له الاسم ولنا الخط). واندلع لهيب الفتنة في إسبـانيا الإسلامية بعد تجمع الـثوار في منطقة شذونة (رجب 127هـ/ إبريل 745م) ثم التقوا بعد ذلك بأبي الخطـار الذي سار لقتالهم على ضفاف الـGuadalete (نهر شـذونة). وقاتل أصحاب أبي الخطار من اليـمنية

بتـراخ نظرًا لوجـود لخم وجذام من بني جـلدتهم في جانـب الصمـيل، بل وانتهت المعـركة بأن انهزمـوا وتبعهم أبو الخطار ومـن معه من الكلبـية ولكنه طورد وأخِـذ أسيـرًا. . وترتب على ذلك أن دخل ثوابة بن سلامـة قرطـبة، وأعلن نفسه أميرًا على إسبـانيا الإسلامية (حق الأقوى). إلا أن أبا الخطار لم يمكث في الأسر طويلاً إذ عمل أصحابه على إخراجه من السجن ثم حاول أن يلم شمل أتبـاعه حوله ولكنه لم ينجح في التغلب على أعـدائه الذين خلعوه من إمارته. ولـم يستمر ثوابة في ولايته إلا سنة واحدة تقريبًا إذ مات في أول 129هـ (سبـتمـبر – أكـتوبر 746م) وكان مـوته نذيرًا بقيام منازعـات داخلية جديدة، قال عنها صاحب أخـبار مجموعة ص 59: «هي الفتنة العظمى التي بهـا يخاف بوار الإسـلام بالأندلس إلا أن يحـفظه الله». إذ تطلع بعـده إلى الولاية زعيمـان هما عمرو بن ثوابة (ابن الوالي المتوفي) وزعـيم جذامي آخر اسمه يحيى بن حريث (من أهل الأردن). أمـا عن الصميل الذي كان حريصًا على أن يبتعـد عن التطلع إلى لقب الوالي رغم أنه كان يباشـر السلطة فعلاً، فإنه رأى أن يـنحي كلا منهـما، وعمـل على اختيـار شخص ثالـث، عريق النسب كبـير السن (57 سنة)، معـروف بشدة ورعه ألا وهو يوسف بن عـبد الرحمن الفهـري، وهو من سلالة البطل العربي الشهير عـقبة بن نافع (وذلك بعد أن أرضى يحـيى بن حريث فتـركت له كورة ريّة). وتم انتـخاب يوسـف واليًا لإسبانيا في ربيع الثاني من 129هـ/ أول 747م)[1].

يوسف الفهري آخر الولاة (129 - 138هـ/ 747 - 756م) ونشاط الصميل:

طريقة انتـخاب يوسف تظهـر إلى أي حد أصبـحت الصلة بين إسبـانيا الإسلامية ومركز الخلافة بالمشـرق العربي صورية فهذه الصلة التي كانت مائعة

(1) د. سعد عبد الحميد زغلول، المرجع السابق، ص 136.

دائمًا - كما رأينا - أصبحت الآن شبه منقطعة، ولم يكن في استطاعة الخلفاء بدمشق الذين يكافحون الثورة العباسية أن يقوموا بعمل مجد للربط بين الولاية المتطرفة والشام. ولما كان الصميل هو الذي دبر انتخاب يوسف أصبح مستشاره الذي يدبر كل شئونه أو بمعنى آخر أصبح الحاكم الفعلي للبلاد. وأحس الصميل بقوته وانتهج - كما كان متوقعًا منذ البداية - سياسة محاباة القيسية وبوجه عام المعديين على حساب الكلبيين وغيرهم من اليمنية، واتخذ الوالي - يوسف - ستارًا لتنفيذ أهدافه. وبدأت تلك السياسة بخلع يحيى بن حريث الذي كان قد طالب بالإمارة لنفسه وأعطى كورة رية Reiyo من حكم هذه الولاية دون سابق إنذار (ربما لكراهيته لأهل الشام عامة). ولم يسكت يحيى على هذه المعاملة السيئة، فثار وعرض معونته على أبي الخطار الذي كان يعتبر نفسه الوالي الشرعي، ووضع تحت رايته الكلبيين من أهل الجزيرة. والظاهر أن الوئام لم يكن تامًا بين الحليفين اليمنيين إذ أن يحيى طالب بالإمارة لنفسه بل وربما اعترفت له اليمنية بذلك. وفي هذه الظروف زحفت اليمنية نحو قرطبة، وعبر يوسف والصميل النهر والتقى العسكران بقرية شقندة (Secunda) قرب أبواب قرطبة (القبلية) على الضفة اليسرى للوادي الكبير (ستصبح فيما بعد داخل أسوار قرطبة وأحد أرباضها). ودار بين الطرفين قتال شديد تقصفت فيه الرماح وتماسك خلاله المقاتلة بالأيدي، وحثى بعضهم أثناءه التراب على بعض، وأخيرًا استدعى الصميل أهل السوق بقرطبة فقرر هؤلاء مصير المعركة التي انتهت بانهزام اليمنية، وأسر أبي الخطار ويحيى بن حريث وقتلا في التو واللحظة (130هـ/ 747م). وكان انتصار شقندة سببًا في تقوية سلطان وهيبة يوسف الفهري ولهذا السبب ظن أنه يمكنه التحرر من نوع الوصاية التي فرضها عليه الصميل والتي كانت تثقل كاهله.

وهكذا عـرض عليه ولاية سـرقـسطة وأفـهمـه أنه يمكنه أن يحكمـها حكمًـا مسـتقلاً، وعلى عكس ما كـان ينتظر وافق الصميـل موافقة حـسنة على أمر يوسف المقنـع وسـار إلى ولايتـه (132هـ/ 750م)، في الوقت الذي كـانت مجـاعة مفزعـة قد بدأت تخيم على شـمال إسبـانيا لمدة 5 سنوات، انقطعت أثناءها رحلات البريد (لموت رجـاله). وبذل الوالي الجديد وأنفق الأموال في سبيل إغاثة الجائعين، بل ونسي تحيزه وتحزبه لعـصبيته، ولم يفرق بين قيسيين ويمنيين عند توزيع الطعام والنقود التي بذلها من أمـواله الخاصة. هذه المجاعة كانت شؤمًا وخرابًا على المناطق الشمالـية لشبه الجزيرة، إذ عندما يأس البربر القاطنون في تلك الجـهات من وجود القـوت اضطروا إلى الهجرة جمـاعات نحو الجنوب متجهين شطر المغرب (وكان ذلك مما سهل على الوطنيين الإسبان في غاليـسيـا الظهور من مكانهم والاستيلاء على كـثير من هذه المناطق وتنظيم حركة إعادة الغـزو المسيحية الريكونكيسـتا). بعد سنتين أو ثلاث سنوات من الهدوء وهي الفـترة التي تتفق مع فـترة المجاعة التي سـببهـا الجفاف المسـتمر بإسبانيا الإسلامية، اشتعلت الخصومات والأحقاد من جديد. فاليمنيون وكانوا يؤلفون غالبية العرب في جزيرة إسبانيا الإسلامية لم يقبلوا بقلوب راضية ذلك التفوق السياسي الـذي اكتسبته القيسيـة. وفي نفس الوقت بدأ الأرستقراطيين من القرشـيين ينظرون بعدم الرضـا إلى استيـلاء يوسف الفهـري (الذي كان قرشيًا ولكن في ضواحي مكة) الذي اعـتبروه أقل منهم منزلة. وتم التحالف بين الحزبين وتقرر خلع والي إسبانيا الإسلامية ومناصرة الصميل. وفعلاً التقى زعيمان من القرشيين هما عامر بن عمرو - الذي كان يعلم أن العباسيين كانوا يستولون على الشام وأن سلطان الأمويين انتهى تقـريبًا - والحبحاب بن رواحة في منطقة سرقسطة (أسافل أراجون) وطلبـا العون من اليمنية والبربر في هذه

الجهـات. وكان على المتحـالفين من اليمن والبـربر الذهاب لحصار الصـميل بسرقسطة بعد أن هزموا الخيل التي أرسلها ضدهم. ولـم يلبث موقف الصميل أن أصبح حـرجًا فطلب النـجدة من قرطبـة. ولم يكن لدى يوسف الفـهري رجال ليـمد بهم الصمـيل ولكن القيسـيين لم يتأخروا في جـمع المتطوعة من جنوب شبه الجزيرة (منطقة إسبانيا الإسلامية) ثم ساروا إلى طليطلة حيث لقوا مـعـونة آخـرين من المعـدين. وفي خـلال 137هـ (755م) تمكنوا من إنقـاذ الصميل. وفي صـفوف هذا الجيش الذي أنقذ والي سرقـسطة كان هناك عدد من الموالي الأمويين. وكان هؤلاء مبعوثـين قد أرسلوا بهدف إجراء محادثات مع الزعيم القـيسي من أجل عبور سـيدهم عبـد الرحمن بن معاوية، الأمـير المرواني، إلى إسبانيا الإسـلامية. وعبد الرحمن هو الذي سـيقيم ملك أسرته المنهار في الشام بإسبانيا الإسلامية من جديد.

تقويم عام لعصر الولاة:

على الرغم من السلبـيـات الكثـيرة لفـترة حكـم الولاة وأهمهـا الفتن والحروب الأهلية التي نسبت بين الطوائف المختلفة فإنها لا تخلو من إيجابيات مهـمة أبرزها التقدم السـريع للإسلام بين جمـاهير شعب شبـه الجزيرة، ومع الإسلام انشرت اللغة العربية التي سرعان ما أصبحت لغة الثقافة والحضارة لا بالنسبـة للمسلمين فـحسب، بل وللمسـيحـيين أيضًا. ومنها تحـسن أحوال الشعب إلى حد بعـيد، فقد انتهج المسلمـون سياسة متسـامحة فيها كـثير من الرفق بأهل البلاد ورفع المظالم التي كـانوا يعانونها في ظل القوط، فـقد كان المسلمون يحسنون مـعاملة الرعية ويخـتلطون بها ولا يترفعون عليـها. وأعان هذا على سرعة تشكل الشعب الجديد الذي اتخذت به حياة شبه الجزيرة مـسارًا تاريخيًا آخر كامل الاختلاف.

* * *

الدولة الأموية الإسبانية

138 - 422هـ / 756 - 1031م

138هـ/ 756م	عبد الرحمن الأول [الداخل].
172هـ/ 788م	هشام الأول.
180هـ/ 796م	الحكم الأول.
206هـ/ 822م	عبد الرحمن الثاني المتوسط.
238هـ/ 852م	محمد الأول.
273هـ/ 886م	المنذر.
275هـ/ 888م	عبد الله.
300هـ/ 912م	عبد الرحمن الثالث الناصر.
350هـ/ 961م	الحكم الثاني المستنصر.
366هـ/ 976م	هشام الثاني المؤيد، للمرة الأولى.
399هـ/ 1009م	محمد الثاني المهدي، للمرة الأولى.
400هـ/ 1009م	سليمان المستعين، للمرة الأولى.
400هـ/ 1010م	محمد الثاني، للمرة الثانية.
400هـ/ 1010م	هشام الثاني، للمرة الثانية.
403هـ/ 1013م	سليمان، للمرة الثانية.
407هـ/ 1016م	علي الناصر الحمودي.

408هـ/ 1018م عبد الرحمن الرابع المرتضي.

408هـ/ 1018م القاسم المأمون الحمودي، للمرة الأولى.

412هـ/ 1021م يحيى المعتلي الحمودي، للمرة الأولى.

413هـ/ 1022م القاسم الحمودي، للمرة الثانية.

414هـ/ 1023م عبد الرحمن الخامس المستظهر.

414هـ/ 1024م محمد الثالث المستكفي.

416هـ/ 1025م يحيى الحمودي، للمرة الثانية.

418-422هـ/ 1027-1031م هشام الثالث المعتبر.

* * *

على الرغم من المقدرة السياسية والإدارية التي تميز بها كثير من خلفاء بني أمية ومن الفتوح الجليلة التي أحرزوها، إذ بلغت دولة الإسلام أقصى اتساع لها في أيامهم، فإن خلافتهم كانت قصيرة العمر لم تتجاوز قرنًا من الزمان (40هـ/ 661م - 131هـ/ 750م). وكان لذلك أسباب عديدة منها المعارضة الشديدة التي قوبلت بها دولتهم من جانب الأحزاب السياسية - المذهبية التي أشعلت الثورات ضدهم في كل مكان: الشيعة الذين يرون الخلافة حقًا لآل البيت والذين كانت دعاياتهم المثيرة لمشاعر الكراهية ضد خلفاء بني أمية تملأ العالم الإسلامي مستغلة ما وقع فيه الأمويون من أخطاء جسيمة، ومنها قتل الحسين بن علي سبط الرسول ﷺ في كربلاء 61هـ/ 681م والتنكيل بكثير من آل البيت، والخوارج الذين عارضوا الأمويين بالقوة المسلحة وشنوا الحرب عليهم في بقاع كثيرة من أرض إيران حتى المغرب الأقصى، وحزب عبد الله بن الزبير الذي كادت ثورته في الحجاز تقضي على دولة بني أمية لولا شجاعة عبد الملك بن مروان ورباطة جأشه ودهاؤه السياسي. وكانت عصبية الأمويين للجنس العربي مثيرة لـ«الموالي» أي الذين اعتنقوا الإسلام من الأجناس الأخرى، ولهذا فقد سارعوا ولا سيما ذوو الأصل الفارسي إلى الانضمام لحركات المعارضة، وأدت السياسة التي جرى عليها خلفاء بني أمية من التضريب بين القبائل العربية إلى إثارة العصبيات والحزازات بين هذه القبائل مما أدى في النهاية إلى تفكك المجتمع وتمزق وحدته. كل ذلك، بالإضافة إلى الجهود الحربية التي اقتضتها الفتوح الكثيرة في عهدهم، مما أدى إلى إثقال خزانة الدولة، فاضطر الخلفاء وعمالهم إلى فرض مزيد من الضرائب الباهظة وأخذ الناس بالعسف في جبايتها، وأدى ذلك إلى مزيد من كراهية الشعب لهم. وكانت أقوى حركات المعارضة

للأمويين هي الدعوة إلى إمام من آل بيت الرسول ﷺ وهي دعوة جمعت بين الشيعة وأنصار بني العباس بن عبد المطلب، وقد اعتمدت على تنظيم سري قوي نشر دعاياته في شرق الدولة الإسلامية (العراق وإيران وخراسان). وازدادت هذه الحركة قوة في عهد مروان بن محمد حيث تحولت الدعوة السرية إلى مجابهة صريحة تزعمها عدد من القواد الأكفاء مثل أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني. وخاض مروان بن محمد حروبًا متصلة ضد الثوار الذين كانوا يدعون للإمام العباسي. ومع أنه أبدى بسالة عظيمة في القتال فإنه هُزم في النهاية وقتل في الفيوم في عام 132هـ/ 750م وهو يحاول الفرار إلى المغرب العربي. وبموته تقوضت الدولة الأموية. وأعلن أبو العباس السفاح نفسه أول خلفاء بني العباس، ومنذ تلك اللحظة شرع العباسيون في إيقاع انتقامهم الرهيب بفلول البيت الأموي، فتعقبوا الأحياء، بل ونبشوا قبور الموتى، واشتد الطلب على من بقي من نسلهم في كل مكان[1]. عرضنا لأحوال المسلمين في إسبانيا في السنوات القليلة السابقة على عام 756م، لم تنجح حركات التوسع الإسلامي خارج جبال البرانس ولم يستطع الولاة العرب أن يوفروا للمجتمع الإسلامي الحماية الكافية من العدوان الفرنجي المتزايد بعد انتصارهم في بلاط الشهداء.

فقد أخذت دولة الفرنجة تزداد وضوحًا في الحياة السياسية في غرب أوروبا، كما لم تتحقق للمجتمع الإسلامي في الأندلس الوحدة القومية المطلوبة بسبب الصراع في داخل طوائف العرب والصدام بين العرب والبربر.

وكان المتأمل في أحوال البلاد في آخر عصر الولاة يكاد يقطع بأن الإسلام لن يعمر طويلاً خصوصًا إذا قام الفرنجة بجهد مشترك بالتعاون مع

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 69.

الإمارات النصرانيـة في شبه الجزيرة والاستفادة من الفـتن والانقسامات. وأنه إذا قدر للحياة الإسـلامية في البلاد أن تعاود سيرها الطـبيعي فلا بد من بعث جديد يعطي البـلاد الوحدة المنشودة ويوفر للإسـلام الاستقرار ويمد فـي عمر الحضارة العـربية. وكان واضحًـا أن البعث الجديد لا يمكن أن ينبع من البـيئة نفسـها لأن الولاة الحجازية لا يسـتطيعون أن يوحدوا البـلاد تحت رايتهم ولا يمكن أن يقوم اليمانية بتحـقيق مثل هذا الغرض، ولا يمكن أن يأتي البعث من القوات المغـربية المقـهورة التي تتـرك ديارها في الشمـال وتتجه نـحو الجنوب باستمرار ليعبر بعضـها المضيق إلى المغرب. وقد أتى البعث الجديد من خارج البيئة الأندلسية فـعلاً فقد حققه أمير أموي مغامـر هو عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) الذي استـطاع في نحو 33 عامًـا من الجهاد المتصل أن يوفـر للبلاد وحدتها القـومية، وأن يتغلب على خصومـه جميعًا وأن يكـسر شـوكة العرب والبربر وأن يضـع أساس الإمارة الأمـوية وأن ينهي عصر الـولاة ليبدأ عـصر الإمـارة، وأن يضع للأمويين من بعـده معـالم سيـاسيـة داخلية وخـارجيـة ويستـهدي بهـا خلفاؤه إلى أن تسـقط دولتهم. وأعـتقد أن مـن حق مؤسـس الدولة علينا أن نعرف به وأن نعـرض للظروف التي أتاحت له أن يحقق ذلك النجاح والسياسة التي مكنته من تحقـيقه. ومؤسـس الدولة هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشـام بن عبد الملك. نجحت ثورة أبي مسلم الخراسـاني واستولى العبـاسيون على إيران والعراق، ودخلوا بلاد الشـام وقتلوا مروان بن مـحمد آخر الخلفاء الأمويـين في مصر عام 132هـ. ولـم يكتف العبـاسيون بالقـضاء على بني أمية بل تعقبوا أفراد البيت الأموي في كل مكان بالقتل حتى لا تقوم للأمويين قائمة.

كشف العباسيون عن مخبأ عبد الرحمن ولكنه نجا بنفسه هربًا إلى فلسطين حيث لحق به مولاه بدر الذي أخلص له كل الإخلاص ورافقه في جميع خطواته حتى تحقق له النجاح. ومن فلسطين وجه عبد الرحمن ومولاه بدر وجهته صوب المغرب، ويعلل المؤرخون هذا الاتجاه بأن أمه من بربر المغرب الأقصى من قبيلة نفزة وأنه أراد أن يعتصم بأخواله ويلوذ بهم. ولكن هذه الحقيقة ليست كافية لتبرير اتجاههما صوب المغرب، فقد يستطيع الولاة العباسيون أن يوقعوا به قبل أن ينتهي به المطاف إلى أخواله في طنجة في أقصى المغرب. وأعتقد أن عبد الرحمن كان يعرف أن في مصر ولاء لبني أمية لم يخفف من حدته ذهاب سلطان الأمويين وكان يستطيع أن يعول على حماية أنصار الأمويين لينجو من العباسيين. وقد استطاع أن يعبر مصر دون أن يكشف أمره وكان يعرف أنه في تونس يحكم عبد الرحمن بن حبيب الفهري حكمًا يكاد أن يكون مستقلاً عن نفوذ العباسيين وأنه قد يعبر تونس آمنًا من العباسيين، هذا إلى أن المغرب الأقصى في هذه الآونة قد خرج على نفوذ العرب وكان يغلي بالثورة ومن يدري فقد تتيح له الأيام أن لا يعيش بقية أيامه مغمورًا طريدًا فقد يجد له عبر هذه الثورات والفتن طريقًا إلى قوة وجاه ونفوذ[1].

(1) عبد الرحمن الداخل منشئ الإمارة القوطية بقرطبة

(138 - 172هـ / 755 - 788م):

بداية عبد الرحمن بن معاوية ونجاته من مطاردة العباسيين قصصية من الطراز المثير. كان عبد الرحمن يبلغ في ذلك الوقت حوالي العشرين عامًا إذ

(1) د. حسين أحمد، المرجع السابق، ص 84.

أنه وُلِد في قرية من ضــواحي دمشق 113هـ (731م) وكان أبوه قد توفي على عهد هشــام. أما عن أمه فكانت بربرية الأصل من قبــيلة نفزة بالمغرب، وربما كان ذلك من الأسباب التي شجعت الشاب على التطلع إلى المغرب هذا، ولو أن المغرب - بسبب تطرفه ومــيوله الانفصالية سيجــتذب معظم الخارجين على الخلافة من خوارج وعلويين. نجا يحيى وعــبد الرحمن من مذبحة أبي فطرس التي دبرها العباسيون ولكن عرف العــباسيون المكان الذي لجأ إليه وقبض على يحيى وقُتِل، وسلم عبد الرحمن بمحض الصــدفة (إذ كان قد خرج للصيد). بعد ذلك تمكن عبد الرحمن من الهرب مع أخــتيه (أم الأصبغ وأمة الرحمن) وأخ آخر أصغر منه وابنه الطفل (4 سنوات) سليمان. والتقى الجميع في قرية منعزلة قريبــة من الفرات، وأقاموا إقــامة مؤقتة انتظارًا للــرحيل إلى المغرب، ظانين أنه لن يكتشف مخبأهم هذا بســهولة. ولكن الجند العباسي كان يبحث عنهم بعناد وإصرار وذات يوم روع اللاجئون بوصول الأعلام السوداء - أعلام العباسيين - ولم يجد عبد الرحمن وأخوه الصغير مخرجًا سوى إلقاء نفسيهما إلى الفرات في محاولة أخــيرة يائسة للإفلات من موت محــقق بعبور النهر. ولم يتمكن أخــوه الشاب من متابعة الــسباحة فوقع بين أيدي الجنــد العباسي الذين قتلوه أمام ناظري عبد الرحمن الذي كان قد وصل إلى الضفة الأخرى. وهنا يبدأ الدور الخطير الذي ســيقوم به بدر مولى عبد الرحــمن الذي سيظهر لسيده من الإخلاص ما لا مزيد عليه. وسنرى فيما بعد وجود خدام مخلصين يدبرون شــئــون أولئك الذين يــأتون إلى المغــرب (من مــخــاطرين أو أمــراء مخلوعين) باحــثين عن تكوين دول في المغرب (من أدارسة وفاطمــيين). كان عبد الرحــمن قد طلب إلى أخته أن ترسل في أثره مولاه بدرًا، وفــعلاً جمع هذا الأخير بعض ما تبقى من ثروة سيــده من أحجار كريمة ونقود ولحق بسيده

بفلسطين وكان يصحبه خادم آخر هو سليم مولى إحدى أختيه (الذي سيعود إلى الشام فيما بعد). واتجه الثلاثة نحو إفريقية والمغرب حيث لم يكن سلطان العباسيين معترفًا به هناك، وحيث كان قد التجأ عدد من الأمويين. وفعلاً وصلوا إلى المغرب العربي سالمين (وكانوا قد تعمدوا ألا يسيروا بسرعة).
وكان يمكن للأمير الأموي أن يعيش في أمان وطمأنينة إذا كان هدفه هو الخلود إلى الهدوء والراحة. وهذا ما لم يكن في نيته. إذ تقول الرواية أن عم أبيه مسلمة (أخو هشام) كان قد تنبأ له بملك ومستقبل باهر والظاهر أنه اعتقد في صحة هذه النبوءة وطمع في تحقيقها. في هذا الوقت كان حكم ولاية إفريقية قد آل إلى حكم رجل كنا قد رأيناه في إسبانيا، من قبل، يحاول ولكن دون نجاح أن يصبح أميرها (اشترك في موقعة أكوة برطورة ضد بلج والذي خرج من الأندلس أو طرد بأمر أبي الخطار) ذلك هو عبد الرحمن بن حبيب الفهري قريب يوسف والي إسبانيا الإسلامية. كان عبد الرحمن الفهري أسعد حظًا بالمغرب العربي منه بإسبانيا الإسلامية، وكان يريد الاستفادة من الانقلاب الذي أتى بالعباسيين استفادة شخصية وتكوين إمارة وراثية لأسرته. فلم يعترف بالعباسيين وكذلك لم ينظر بعين الرضا إلى الأمراء الأمويين الذين لجأوا إلى ولايته، وتقول الرواية أن عبد الرحمن بن معاوية كان على وشك أن يذهب ضحية انتقام الفهري لولا أنه حذر من سوء نية الوالي ورأى أن من المستحيل الابتعاد عن هذه البلاد (المغرب العربي) فطلب إلى بعض قبائل البربر الالتجاء لديهم وطالب بحقوق القربى والخئولة. ومضت أربع سنوات أو خمس والأمير الأموي تائه من قبيلة إلى قبيلة ومن مدينة إلى مدينة يعيش عيشة تعسة لا يعرف منتهاها حتى كاد ييأس من تحقيق نبوءة ملكه لولا تشجيع مولاه بدر الذي منَّاه بأيام مستقبلة سعيدة. ولا يعرف على وجه

التحقيق خط سير الأمير عبد الرحمن بشمال أفريقيا خلال هذه الفترة فحسب بعض الكُتّاب نجا عبد الرحمن إلى برقة (في ليبيا الحالية) حيث أقام بعض الوقت قبل أن يسير إلى المغرب الأوسط، وهناك أقام بعض الوقت في تاهرت (Tiaret) أو في قرية من قرى الإقليم (إذ ستنشأ الإمارة الرستمية الخارجية فيما بعد على يدي عبد الرحمن بن رستم 161هـ (777 - 778م). ولكن وجود الأمير الشاب المغامر كان يقلق ضيوفه باستمرار فهو يتوجه بعد ذلك نحو الغرب، ويلجأ إلى قبائل مكناسة (بين وادي ماوية ومنطقة تازا) ولكن لن يلبث هؤلاء أن يدفعوه عنهم، فينتهي به المطاف إلى السواحل المراكشية للبحر المتوسط (غير بعيدة عن مدينة نكور) قريبًا من سبتة، وذلك عند قبائل نفزة أخواله. والظاهر أنه حتى ذلك الحين وقبل أن يصل إلى أرض نفزة كان كل تفكيره في المغرب، ولكن لما أعيته الحيل وفشل في تدبيره رأى ألا داعي لإضاعة الوقت وتجديد المحاولات، ووجه أنظاره إلى ما وراء الزقاق إلى بلاد الأندلس القريبة. وشجع الأمير على ذلك وجود عدد كبير من موالي الأمويين بالجزيرة. وكان عدد هؤلاء حوالي 400 أو 500 فارس من الجند الشامي أتوا مع بلج وأقاموا - حسب بلادهم الأصلية بالشام وهي دمشق وقنسرين - بإقليمي البيرة وجيان. وكان من الطبيعي أن تبدأ المحاولة بالاتصال بهؤلاء الموالي، وجس نبضهم ثم وعدهم بالمكافآت الجزيلة نظير مساعداتهم إذا تمكن الأمير المرواني من إقرار ملكه في إسبانيا. وقام بدر بمهمة إقناع هؤلاء الموالي بالعمل على تحقيق أهداف سيده وإبلاغهم مسألة عبد الرحمن. وفعلاً عبر المضيق في نهاية 136هـ (يونية 754م) وبدأ الاتصال بزعيمي الموالي من جند دمشق وهما عبد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد. ورأى هذان أن يناقشا الأمر مع زعيم موالي جند قنسرين وهو يحيى بن بخت. وأظهر الثلاثة

استعدادهم لخدمة مولاهم ورأوا أن يمهدوا الأمر بالاتصال بالصميل - زعيم الأندلس السياسي في ذلك الحين - وكان لأمويي الشام أياديهم البيضاء عليه وعلى أسرته. ولقد رأينا كيف كان الزعيم القيسي (الصميل) يشغل منصب والي مدينة سرقسطة وكيف أنه كان محاصرًا داخل المدينة التي أحاط بها الكلبية والبربر. ولهذا السبب سار بدر مع بعثة من موالي الأمويين ضمن القوات القيسية التي ذهبت لمساعدة الصميل. وبعد أن فك الحصار، وعندما سنحت الفرصة، اتصلوا بالزعيم القيسي وأخبروه بوجود عبد الرحمن بالمغرب، وسألوه رأيه في رغبة الأمير الأموي في العبور إلى إسبانيا، وما يمكن أن يقدر للمحاولة من نجاح أو فشل. واستقبل الصميل بعثة الوالي استقبالاً طيبًا ولكنه تحفظ في رده (أرجأ الرد) وستنقضي أشهر قبل أن يُعرف رأيه بصراحة. خلال هذه الأثناء عاد الصميل إلى قرطبة ثم رجع إلى سرقسطة وبصحبته يوسف الفهري، وذلك للقضاء على الثوار. وفي الطريق من قرطبة إلى طليطلة التقى الموالي الأمويون بالصميل، وكانت إجابته لهم مرضية للغاية، ولكنه عاد وغيّر رأيه. والظاهر أنه عندما فكر في الأمر وجد أنه من المصلحة له أن تكون البلاد خاضعة لحكم رجل ضعيف مثل يوسف بدلاً من أن تقع تحت حكم أمير أموي قوي- قد يقضي على حرية زعماء القبائل العربية، ويذهب بما لهم من سلطان ونفوذ. فتراجع عما كان قد وعد به من المساعدة بل وأعلن أنه سيجرد أول سيف ضد هذا الأمير إذا ما كان يطمع في سيادة الأندلس. وسبّب ذلك لمحدثيه انزعاجًا شديدًا ولكنهم لم ييأسوا ففكروا بسرعة ورأوا أنه يمكن الاستعانة بالحزب المناهض لحزب القيسية (الحجازي) أي باليمنيين الذين كانوا يفكرون في التحرر من سلطان القيسية والثأر لهزيمة شقندة (130هـ/ 747م).

تلقى اليمنيون عـرض الموالي بحماس شديد. ولما كـان يوسف الفهري والصمـيل بعيـدين في حملتـهما شـمالاً (بأراجون) رأوا أن الفـرصة مـواتية فاشتروا مـركبًا وزودوه بالمعدات اللازمة (بنقـود كان قد أعطاها إياهم يوسف الفهري)، وأرسلوا 12 (اثني عشر) رسولاً تحت رئاسة تمام بـن علقمة الثقفي ويصحـبتهم بدر المخلـص، وعبروا لاسـتصحـاب الأمير من سـاحل المغرب العربي. وكان معهم 500 دينار أعطوا الأمير بعـضها، ودفعوا الـبعض للبربر حتى يتركوا الأمـير يغادر أراضيهم. واستقبل عبـد الرحمن بن معاوية (الذي كان قـد انتقل من أرض نفـزة إلى أرض مغـيلة) المركب بفرح شـديد. واتجه المركب من جديد نحو الشاطئ الإسبـاني يحمل الأمير المرواني الذي نزل إلى شاطئ الأندلس في أول ربيع الأول 138هـ/ 14 إبريل 755م (في مرفأ المنكب Almunecar). ولما وصل إلى أقـصى المغرب لجـأ إلى قبـيلة أخواله نفـزة في مدينة نكور الـساحلية، فـبسطوا عليه حـمايتهـم قرب طنجة، وكـان شاطئ إسبانيا الإسلامية على مرمى البـصر منه يدفعه إلى مزيد من التساؤل عن هذه البلاد وأحـوالها وتترامى إليـه فى ملجئه ذاك أخـبار هذا القطر، أخبـار مدنه الآمنة وسهوله الخضـراء وحياته المريحة وأخبار فتـنه وثوراته ومشاكله، وكان يدرك أن أمر الإسـلام في هذه البلاد إلى اضمحـلال وأن المسلمين فيها أكـثر حاجة إلى الوحدة من أي مكان آخر، فقد كـانوا أكثر إحساسًا بالخطر الكامن وراء حدودهم الشمالية، وكـان لديه إحـساس غامض بأنه قد يشق له في هذه الفوضى طريقًا إلى النجاح الذي ينشده. وكان يؤمن بأنه لا يستطيع أن يحقق أهدافه إلا إذا التف حوله عصبية قـوية تسنده وتعينه على تحقيق أمانيه، لذلك اتجه إلى مـوالي الأمويين وكانوا قـد انتشروا في إسبـانيا الإسلامـية وتكاثرت أعدادهم، وكانوا في خـلال سنوات الفوضى التي عرضنا لهـا قد تركزوا في

ناحيتي جيان والبيرة، ولم تكن أعدادهم كثيرة جداً ولكنهم كانوا ذوي نفوذ وخبرة بالملك والإدارة وكان دون عرب إسبانيا الإسلامية كلهم يتوقون إلى الاستقرار. وأعتقد أن ثمة اتصالات مبدئية تمت بين عبد الرحمن وبين موالي بني أمية، وأن مولاه بدر اعتماداً على هذه الاتصالات السابقة، فقد عبر إلى إسبانيا الإسلامية في آخر 136هـ واتصل مباشرة برئيس جند دمشق عبيد الله ابن عثمان وعبد الله بن خالد وانضم إليهم يحيى بن بخت رئيس جند قنسرين. ولا ندري حقيقة ما دار بين هؤلاء الزعماء فقد رحبوا بمقدم عبد الرحمن إلى البلاد على أية صورة، لا ندري هل على أنه مجرد لاجئ يلتمس الحياة والمقام أستبعد هذا؛ لأن عبد الرحمن كان في إمكانه أن يدخل البلاد لاجئًا، وأن يعيش في سلام شأنه شأن أي عربي، وإني أعتقد أن موالي بني أمية قد أدركوا أن أميرًا أمويًا له ما لعبد الرحمن من الصفات قد يستطيع أن يوفر لهم الوحدة التي افتقدت. وقد اتفق أمرهم على أن يسكبوا ولاء القيسية الحجازية في البلاد، وقد كان عبد الرحمن قرشيًا لا يجد القيسية الحجازية غضاضة في الالتفاف حوله، فبعثوا رسلهم إلى الصميل بن حاتم زعيم القيسية وكان في الشمال محاصرًا لسرقسطة، ويبدو أن هذا الزعيم القيسي وافق على دخول عبد-الرحمن إلى إسبانيا الإسلامية وتأييد قضيته، بل عرض أن يزوجه ابنة يوسف الفهري عامل إسبانيا. وارتد الرسل من عنده وفي نفوسهم أمل، ولكنه تدبر أمره وخشي مغبة ما وافق عليه، وأسرع إلى رسل موالي بني أمية حتى أدركهم في الطريق وقال لهم أنه قد عدل عن رأيه ولكنه لا يسمح بدخول هذا الشاب إلى البلاد.

ومعنى هذا أن عبد الرحمن وأنصاره من موالي الأمويين فقدوا السند الذي توهموا الاعتماد عليه، وأن القيسية ليست هي العصبية التي يعتمد

عليها. ولم يكن من المعقـول أن يرضى ولاة إسبانيا الإسلامية القـيسية الذين استطعموا النفوذ والسلطان أن ينازعهم في السلطان أحد. فليتجه عبد الرحمن وأنصاره إلى جهة أخرى، فكروا في اليمـانية وكانوا مغلوبين على أمرهم منذ انهزامهم في موقعة أقوة وطورة وشقندة وكـانوا ينتظرون فرصة مواتية ليدركوا ثأرهم ويستعـيدوا شيئًا من سلطانهم في الماضـي ويخلصوا البلاد من يوسف الفهري وصاحبه الصمـيل. وقد ندب أنصار عبد الرحمن رجلا منهم هو تمام بن علقـمـة الثـقـفي ليكسب ودهم ويضـمن ولاءهم، فـمـا زال يتـردد بين جماعاتهم حتى ضـمن تأييدهم لدعوة الأمير، وضمن عبد الرحـمن العصبية المنشودة: تأييد موالـي بني أمية واليمانية وقد انضم إلى الـدعوة نفر من البربر وكـانوا موتورين من الـعرب على العـمـوم، ولكنهم يؤثرون اليـمانيـة على القيـسية. هذا التأثير الـكبير هو الذي دفع عبـد الرحمن إلى أن يتخذ مـوقفًا إيجابيًا وعـجل بالعبور إلى إسبانيا الإسـلامية (في ربيع 138هـ - 756م) وقد نزل في ميناء إسباني صغير هو مـيناء المنكب ومنه سار إلى لوشة حيث استقر عند عبيد الله بن عثمان ثم انتقل إلى بلدة طرش، وهناك تجمع أنصاره من يمن وبربر وموالي بني أمية وبدأوا يزحفون إلى قرطبة. وعاد الصميل زعيم القيسية مسرعًا من سـرقسطة وجمع أنصاره وسارع مع يوسف الفهري مـتجهين نحو الجنوب على الضـفة الشرقـية للوادي الكبـير، في حين احـتل عبـد الرحمن إشبيلية في شوال 138هـ وتلقى ولاء من فيها من المسلمين. وسار على الضفة الغربيـة للنهر في الطريق إلى قـرطبة وارتد الصمـيل ويوسف نحو العاصـمة وأصبحا مع عبد الرحمن في سباق أيهما يصل أولاً!

ويمكننا أن نتصور مبلغ فرح الأمـير المرواني وكذلك فرح زعيمي الموالي عبيد الله وابن خالد. ودعاه الأخيـر إلى أن يقيم في بيته في مدينة الفنتين بين

أرشذونة والبيرة، وبعـد ذلك بقليل غيّر عبد الرحمن مقـامه فذهب إلى قلعة طرّش في بيت عبيد الله (أبعد قليلاً نـحو الغرب). ويرجع الفضل إلى كتاب «أخبار مجموعة» في إمدادنا بمعلومات تفصيلية طريفة عن الحوادث التالية من مبـاحثات مع والي الأندلس والصـميل ثم الحرب ضـدهما والاستـيلاء على قرطبة ثم إسبانيا الإسلامية. . هذه الرواية تقول بأن يوسفَ «الوالي» والصميل سارا في طريقهما من طليطلة (حيث توقف يوسف بعض الوقت انتظارًا لعودة الموالي) إلى أراجـون للقضـاء على الثوار من اليـمنية والبـربر، ولكن هؤلاء عندما وجدوا جيش يوسف تفرقوا واستسلموا خاصعين. في هذا الوقت قلد البشكنس (الباسك) الإسبان في غاليسيا، وبدأوا يهاجمون الأراضي الإسلامية في منطقة بنبلونة، فـأرسل الوالي فريقًا من جيشـه لمعاقبتـهم ورد هجومهم. بعد ذلك عيَّن يوسف ابنه عبد الرحمن واليًا لمنطقة الثغر هذه (سرقسطة) وعاد في طريقه إلى قرطبة. وفي الطريق أتته الأنباء بفشل حملته ضد الباسك، كما أتت الأخبار من قـرطبة بوصول عبـد الرحمن بن معاوية إلى إسـبانيا ونزوله بطرش عند زعيم الجند الأموي بمنطقة البيرة، وبأن قائد البيرة فشل في القبض على اللاجئ وأن أهل المنطقـة تمكنوا من دفع جنده بسهـولة. وطلب يوسف النصح إلى الصمـيل الذي أشار عليه بالمسـير في التو واللحظة لملاقاة الأمـير المرواني قبل أن يسـتفحل أمره. ولكـن خبر وصول حـفيد الخليفـة هشام إلى إسبانيا كان له أثر غريـب في نفوس الجند الذين أرهقهم طول المسير، والذين أشفقوا من القيام بحملتين دفعة واحدة، وترتب على ذلك أن هجر كثير منهم مواقعهـم وعادوا إلى بلادهم، كما انضم غيرهم إلى عـبد الرحمن، ولم يبق إلا القليل في صفوف الوالي.

ورغم ذلك حاول يوسف بتحريض الصميل - المسير إلى عبد الرحمن في جبال مالقة ولكن سوء الأحوال الجوية وكراهية الجند لحملة الشتاء هذه اضطرته إلى العودة إلى قرطبة، وهناك حاول البدء بالسياسة والدخول في مفاوضات مع الأمير الأموي، خاصة وأن الشائعات أتت تقول بأن عبد الرحمن لم يأت إلى إسبانيا الإسلامية بحثًا عن الملك والإمارة إنما أتى لاجئًا. وأرسل يوسف بعثة إلى طرش لهذا الغرض. كان على هذه السفارة أن تخبر الأمير المرواني بأن يوسف يقدر علو حسبه ونسبه وأنه يود أن يكون على علاقة طيبة به وأنه يعرض عليه الهدايا من الثياب والخيل والعبيد والمال وأن يزوجه بإحدى بناته في نظير أن يمتنع الأمير عن أي نشاط سياسي، وأن يتنازل عن أطماعه في الإمارة وألا يطالب إلا بأرض الخليفة هشام، جده ووصل رسل يوسف إلى طرش ووجدوا المدينة والقلعة تعج بالجند من الموالي الأمويين إلى اليمنيين من كورة دمشق والأردن وقنسرين الذين هرعوا إلى جانب الأموي. وربما كانت شروط يوسف السخية سببًا في ميل أنصار عبد الرحمن إلى قبولها، ولكن حدث أن فشلت محاولة الصلح هذه (ربما لحادث شخصي)، ومنذ نهاية شتاء 138هـ (756م) بدأت الأعمال العدائية والحرب. كان الشتاء قاسيًا في هذا العام ولا بد من انتظار تحسن الأحوال الجوية لبدء القتال، وكان في ذلك فسحة من الوقت لكي يكاتب المولى عبيد الله بن عثمان الذي كان يدير شئون عبد الرحمن زعماء العرب والبربر، ويدعوهم إلى مناهضة يوسف، ولكي يجمع قوات جديدة. ونجح في ذلك بسبب حماس اليمنية (الذين يرغبون في الثأر لوقعة شقندة) وكذلك عدد كبير من بربر إسبانيا الإسلامية الذين انضموا لدعوته. هذا، إلى جانب انضمام عدد من الحجازية إلى صفوفه تحت قيادة بعض الزعماء المناهضين للصميل ولا

سيما تمام بن علقمة. وعندما رأى عبد الرحمن أن مركزه في طرش بعيد تحرك مغـربًا ونزل في منطقة رية، وكانت هذه إقطاعـًا للجند الأردني فانضم هؤلاء إلى حركته، وعـندما مرّ بعاصمة منطقـتهم أرشذونة في أوائل الربيع نادوا به أميـرًا عليهم، وبايعـوه على الطاعة. ومن أرشـذونة رحل عبـد الرحمن إلى شذونة حيث جند فلـسطين ثم وصل إلى منطقة إشبيليـة حيث جند حمص. ودخل إشبيلية وفي صحبته عـدد من زعماء اليمنية بالمنطقة في شوال 138هـ/ مارس 756م وبايعه أهل المـدينة. في هذا الوقت رأى يوسف أن يسيـر لملاقاة خصمـه وفعلاً خرج من قـرطبة في اتجاه إشبـيلية محاذيًا الوادي الكبـير على طول الضفة اليمنـى للنهر. ولما بلغ عبد الرحمن هذا النبأ ترك إشـبيلية وسار في الاتجاه المضاد بحـذاء الضفة اليسـرى للنهر على أمل مفاجـأة قرطبة وهي خالية من الجند واعتمادًا على مساعدة مـوالي الأمويين واليمنية المقيمين فيها. وبعد قليل وجـد كل من الجيشين نفـسه أمام الآخـر يفصلهمـا النهر الذي لم يكن من الســهل خوضه في ذلك الحين (شـهر مايو). وحـاول عبـد الرحمن خداع يـوسف ولكن هذا تنبه إلى مناورة خـصمـه فعـاد في طريق قرطـبة. وحاول كل من الجيشين الوصول إلى العاصمة قبل الآخر، ولكن يوسف كان سريعًا في سيره، فتقدم عبد الرحمن دون عجلة وانتهى الأمر بتوقفه في مكان يـسمى المصـارة قرب أبواب العـاصمة، وتواجـه الجيشـان لا يفصلهمـا سوى الوادي الكبير. وكان جيش عبد الرحمن في حالة سيئة من الحرمان، وحرّض عبد الرحمن زعـماء اليمنية من أتباعه على القتال وذكـرهم بموقعة مرج راهط في الشام 65 هـ (التي حدثت يوم جمعة كان عيدًا)، وبفضل مناورة خادعة - إذ أرسل رسلاً إلى يوسف الفهري وتظاهر بقبول شروطه السابقة التي عرضها في طرش - جـعل جنده يعبـرون النهـر ليلاً، كـما أرسل له يوسف الطعـام

لجنده. وفي صبيحة اليوم التالي 10 من ذي الحجة (عيد الأضحى)/ 15 مايو 756م تلاقى الجيشان. ولم يتأخر انتصار عبد الرحمن وأتباعه من اليمنية إذ تمكن فرسان عبد الرحمن من هزيمة ميمنة وقلب جيش يوسف والصميل اللذين لجأ إلى الفرار بعد أن فقد كل منهما أحد أبنائه في المعركة. وهكذا ثأر اليمنية لهزيمة شقندة بفضل «مرج راهط» الجديدة هذه، كما يقول بروفنسال: واستولوا على غنائم عظيمة، بينما دخل عبد الرحمن قرطبة واستحوذ على قصر الإمارة، واحترم حريم يوسف فوضعه تحت حمايته، كما أوقف نهب المدينة الذي بدأه أتباعه. وتملك الغضب اليمنية الذين كانوا يريدون نهب قرطبة وبدأوا يتكلمون سرًا عن اغتيال الأمير. وحذر عبد الرحمن في الوقت المناسب واتخذ بسرعة من الإجراءات ما أعاد إلى هؤلاء الجند صوابهم، وأحاط نفسه بالحرس من الموالي. بعد ذلك أخذ عبد الرحمن بيعة أهل العاصمة وأعلن نفسه أميرًا على إسبانيا الإسلامية من أعلى منبر مسجد قرطبة، ووعدهم بأن يكون أميرًا متزنًا. في هذا الوقت لم يكن عبد الرحمن قد تجاوز السادسة والعشرين من عمره. ولما كان التاريخ السياسي العام لإسبانيا الإسلامية هو قصة الصراع بين إسبانيا النصرانية بشتى وحداتها السياسية وإسبانيا الإسلامية، فقد عُنيت هنا ببيان تطور إسبانيا الإسلامية قدر ما عُنيت بتتبع تطور إسبانيا النصرانية. ولهذا فقد بينت هنا اتساع إسبانيا النصرانية وتطور الجماعة القوطية التي هربت إلى شمال الجبال الكتبرية La Cordillera Contabrica وإنشاءها إمارة برياسة بلايو Pelayo 104هـ/ 722م، وهذه الإمارة هي التي يقال إنها انتصرت على قوة إسلامية أرسلها عليها والي إسبانيا الإسلامية الهيثم بن عبيد الكناني 112هـ/ 730م عند موضع يسمى صخرة كافادونجا Cavadonga وتلك هي المعركة التي يُقال إنها تعين ميلاد

إسبـانيا النصرانيـة قرب بلدة Cangas de Onis الحاليـة، إلى الشرق من أبيط Oviedo في أشتريس Asturias، وإلى شرق كانجاس قامت إمارة نصرانية قديمة عليها رئيس بلقب دوق يسمى بطرس Petrus أنجب ولدًا يسمى ألفونسو تزوج ابنة بلاي، ومن هذا الزواج نشأت مـلكة أشتريس شمـالي الجبال الكنتـبرية، التي ضمت أيضًـا بلاد جليقـية Galicia في أواخر عـصر الولاة، وانسـحب المسلمون من شمال غرب شبه الجزيرة فـيما يعرف اليوم بأرض ليون، فأخذت مملكة أشتـريس تمتد إلى الجنوب في اتجـاه نهر دويرو Duero. وفي عهد أول كبار ملوكها وهو ألفونسو الأول 139هـ - 757م عمرت مدينة ليون واتخذتها عاصمة، وأصبحت تسمى مملكة ليون، وعـمرت بلادًا كثيرة من جليقية. وقد توفي ألفونسو الأول بعـد قيام إمارة إسبـانيا الإسلامية على يد عـبد الرحمن الداخل بسنة واحـدة. وكـان عبـد الرحـمن الداخل قد ثـبت حدود إمـارته القرطبيـة عند نهر المنيو El-Manio. أما في الشرق فقد سـحب عبد الرحمن القوة الإسلامية من بنبلونة، وجعل قاعدته الشمالية طرسونة Tarazona، وفي أيامه دخل شـارلمان إسبانيـا وحاول الاسـتيلاء على حـوض نهر الإبرو الذي يعـرف عند المسلمين باسم الثغـر الأعلى La Frontera Superior ولكنه فشل واضطر إلى التراجع 163هـ/ 779م. وفي أثناء عبوره جـبال البرت Lod Pir-eneos عن طريق باب الشـزري الذي يسمى عند الإسـبان Roncesvalls وعند الفرنسيين Roncevaux هجم بعض المسلمين والبشكونس على مـؤخرة جيش شارلمان وأوقعوا بهـا وقتلوا قائدها Herdoland أو رولاند Roland وقد خلدت في الأدب الفـرنسي باسم أنشودة رولان، ولكن شـارلمان ثبت قـواعد الثـغر الإسباني La Marca Hispanica التي عرفت فيما بعد باسم قطلونية Cataluna وقاعدتها برشلونة وتمتـد مع الساحل الغربي حتى بلاد غالة. وفيـما بين الثغر

الإسباني (قطلونية) وساحل بسكاية في خوانق جبال ألبرت قامت إمارات نصرانية صغيرة وكبيرة، امتدت على سفوح الجبال من الشمال والجنوب، ثم اقتصر أمرها على الجبال وما يقع جنوبها بعد ذلك وأصبحت أجزاء من إسبانيا النصرانية. وسنتحدث عنها عندما يصير لها كيان سياسي ظاهر. ولكن لا بد أن نشير هنا إلى حادث له أهمية في ذلك الركن الشمالي الغربي في شبه الجزيرة، وهو أنه في 169هـ/ 785م أي قبل وفاة عبد الرحمن الداخل بثلاث سنوات احتل الفرنجة جرندة Gerona وقام لويس التقي Louis le Pieux باحتلال برشلونة وأصبح الثغر الإسباني جزءًا من مملكة الفرنجة داخلاً في شمال غربي الأندلس الإسلامي، وفي 201هـ/ 816م، قام أنيجو أريستا In-ego Arista صاحب بنبلونة بالاستقلال عن الفرنجة، وقامت مملكة نبرة Na-varra وعاصمتها بنبلونة، وتشمل بلاد البشكونس.

إسبانيا الإسلامية خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وامتداد مملكة أشتريس أيام ألفونسو الثالث 866هـ - 910م:

وهنا نحن نمر بتطور الإسبانيتين الإسلامية والنصرانية حتى عصر ألفونسو الثالث ملك ليون الذي توفى قبل ولاية عبد الرحمن الناصر بسنتين (300هـ/ 912م) فقد كانت إسبانيا الإسلامية تتطور وتقوى خلال عصر الإمارة، منذ قيام الإمارة القرطبية على يد عبد الرحمن الداخل حتى إعلان عبد الرحمن الثالث خلافته وتلقبه بالناصر (138 - 300هـ/ 756 - 912م)، وفي نفس الوقت كانت مملكة ليون تنمو أيضًا وتعمر المنطقة الخالية بين بلاد الإسلام والنصرانية من هذه الناحية وتمتد جنوبًا. أما ناحية الشمال الغربي وفي منطقة الثغر الأعلى الإسلامي، فقد ازدهرت مدن سرقسطة Zaragoza وتطيلة Tudela ووشقة Huesca ولاردة Lerida وهي أكبر بلاد ذلك الثغر.

وارتدت بلاد الإسلام حتى شملت قلهرة Calagorris - Calahhorra وأصبحت الحرب سجالاً بين الجانبين. وفي ناحية الغرب قام أردون الأول Ordono I ملك ليون بتعمير ليون وتحويلها إلى مدينة عامرة، ثم جاء ألفونسو الثالث Al-fonso III (866 – 910م) وهو أقوى وأجرأ ملك إسباني إلى ذلك الحين، فانتهز فرصة الفتنة الأندلسية – التي بدأت في أواخر أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن (4 ربيع الأول 238 – 29 صفر 273هـ/ 24 سبتمبر 852م أوائل أغسطس 886م) واستمرت إلى أوائل حكم عبد الرحمن الثالث، وبلغت أوجها في أيام الأميرين المنذر ثم عبد الله – وهاجم إسبانيا الإسلامية من حدوده الشمالية الغربية، فعبر نهر الدويرو وهاجم بطليموس Badagoz وماردة Merida وأنزل ببطليموس مذبحة بشعة. وتصدى له قواد الإمارة وعلى رأسهم أبو العباس أحمد بن أبي عبده، وأوقفوه عند حده حتى تمكن عبد الرحمن الثالث ابن محمد بن عبد الله من القضاء على ثورة عمر بن حفصون والقضاء على بقية الثوار وإعادة وحدة الأندلس الإسلامي، ثم تصدى بحزم لمملكة ليون فوقف تقدمها وحصن المنطقة الواقعة بين شمالي حوض الدويرو، وأعاد إنشاء الحصون الممتدة شمالي طليطلة وقاعدتها مجريط، ومن أهم حصونه غُرماج San Esteban de Gormaz ووخشمة Osma. وفي أيام عبد الرحمن الناصر ثبتت أقدام كونتية قشتالة وقاعدتها بُرغش. وأخذت تمتد وتقوى وتبعتها مدن آبلة Avila وشقوبية، وعرفت المنطقة النصرانية الجديدة باسم قشتالة القديمة Castilla la Vieja وفى 350هـ/ 961م استقل فرناند جنذالث Fernand Gonzalez منشئ هذه الكونتية وأصبحت وحدة سياسية قائمة بذاتها[1].

---

(1) د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 196.

لُقب «عبـد الرحمن بن معـاوية» بعبد الـرحمن الداخل؛ لأنه أول من دخل الأندلس من بني أميـة حاكمًا. ولـم يكن عمر «عبـد الرحمن الداخل» حين حقق هذا الإنجاز يتجاوز السادسـة والعشرين من عمره، لكنه كان رجل المواقف، شحـذت همتـه الخطوب والمحن، وأعدته لحيـاة النضال والمغـامرة، فقضى بقية عمره اثنين وثلاثين عامًا في كفاح مستمر، لا ينتهي من معركة إلا ليخوض أخـرى، ولا يقمع ثورة إلا تلتها ثورة، ولم تبق بـالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه، ولا قبيلة إلا نازعته في الرياسة، فكانت الأندلس طوال عهـده بركانًـا يشتـعل بنيران الحـرب والثورة والمؤامـرات، لكنه صمـد لتلك الخطوب جميعًا، واستطاع بما أوتي من حزم وحسن سياسة وبعد الهمة والجلد والإقدام أن يغالب تلك الأخطار والقوى وأن يقبض على زمام الأمور بإسبانيا بيده القـوية. وقد تصور اليـمنيون أن من حـقهم ما دامـوا قد ناصروا «عـبد الرحـمن» أن يفعلوا مـا يشاؤون، فـينشـروا الفوضى ويسـتولوا على أمـوال الناس، ويغرقوا البلاد في مستنقع العصبـيات القبلية كما كان الحال من قبل، لكن عبد الرحمن أثبت أنه لا يفرق بين شامي أو بلدي، أو بين بربري ويمني، فجـميـعهم يضـمهم وطن واحـد، وعليهم أن يخـضعوا لـسلطان العاصـمة المركزية. غير أن تلك السياسـة لـم تعجب اليمنيين، وعدوها لونًا من الجحود والنكران فثـاروا عليه، لكنه تمكن مـن القضاء عليـهم في الجزيرة الخـضراء، وإشبيلية، وطليطلـة، وباجة، معتمدًا على حشـود البربر وأهل البلاد وأعوان بني أمية. ولعل من أخطر الثورات التي واجهت عبد الرحمن ثورة «العلاء بن مغيث الحضرمي»، من وجوه باجة ومن ذوي الرئاسة بها، وكان قد كاتب «أبا جعفر المنصور» الخليفة العباسي، واسـتصدر منه سجلاً بولاية إسبانيا، وجمع حـوله جندًا عظيمًـا، ورفع العلم الأسـود شعـار العـباسـيين سنة (146هـ/ 763م)، فاشتعـلت باجة بنيران الثورة، وتحالفت «شذونة» مع الثـائر، فخرج

عبد الرحمن من قرطبة ولجأ إلى الدفاع أولاً، فلما ضعف خصمه تحول إلى الهجوم، ونشبت معارك هزم فيها العلاء وتشتت جنده، وقتل الآلاف بما فيهم العلاء نفسه، وحمل عبد الرحمن رءوس الزعماء والقادة وبعث بها إلى القيروان، ووضع رأس العلاء في سفط ومعه اللواء الأسود، وسجل المنصور بتوليته، وحمله بعض ثقاة التجار إلى مكة، وكان المنصور يحج، وألقي هذا أمام سرادقه، فلما حمل إليه قال: «ما في هذا الشيطان مطمح، فالحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر». وقنع عبد الرحمن بلقب الأمير ولم يدع لنفسه بالخلافة حتى لا يستفز الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور الذي اعتبر نفسه وارثًا لجميع الأقطار الإسلامية. وهكذا فقد كانت إسبانيا الإسلامية أول قطر يعلن استقلاله وانفصاله عن الخلافة منذ هذا التاريخ. وشرع عبد الرحمن في تنظيم الدولة محاولاً تجنب ما وقع فيه أسلافه الخلفاء في المشرق، فرأى أن العصبيات العرقية والقبلية هي السبب الأول لما كان يعم البلاد من الفوضى، فأعلن منذ البداية أنه لن يعترف بهذه العصبيات، وأنه سيقيم العدل والمساواة بين الجميع، ولم يقع هذا الإعلان موقع الرضا من نفوس الكثيرين من الزعماء الذين تعودوا أن يقدموا مصالحهم الخاصة على كل شيء، ومن هنا تكررت الثورات في إسبانيا الإسلامية من قبل عملاء الخلافة العباسيين، ويوسف الفهري والصميل اللذين عمدا إلى نكث العهود بعد أن أمنهما، وزعماء اليمنية الذين كانوا يدلون بنصرتهم له، وزعماء البربر وغيرهم، ولكن عبد الرحمن قضى على كل هذه الثورات في صرامة بالغة لم يكن هناك بد منها، وكان عبد الرحمن على جانب كبير من المقدرة الإدارية كما أنه كان يحسن اختيار رجال دولته فاعتمد على عدد من زعماء الموالي أثبتوا كفاءة سياسية وإدارية عظيمة وأصبحت بيوتهم عمدا للدولة الأموية حتى النهاية مثل

بني مغيث الرومي، وبني أبي عبيدة، وبني بخت، وبني خالد، وبني عثمان، وبني شهيد. وعامل أهل الذمة معاملة حسنة، وهكذا استطاع أن ينشر العدل بين الرعية وأن يعيد النظام إلى بلد طالما مزقته الفتن والفوضى. ولم يكن على عبد الرحمن أن يواجه مشاكل الجنوب فقط بل شمالي الأندلس أيضًا، فقد ثار عليه «سليمان بن يقظان» والي «برشلونة» و«الحسين ابن يحيى» والي «سرقسطة»؛ مستغلين طبيعة بلادهم الجبلية وانشغال عبد الرحمن بحركات الثائرين في الجنوب، ثم استفحل خطرهم بعد انتصارهما على جيش أرسله عبد الرحمن. ولم يكتف الثائران بذلك بل قدما على رأس وفد إلى «شارلمان الأكبر» إمبراطور الدولة الفرنجية، وكان في ولاية «سكونيا» شمالي ألمانيا حاليًا، واقترحا عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية، وتعهدا بمعاونته ضد عبد الرحمن، وأن يعمل جميعهم على خلعه، وتسليم البلاد إلى شارلمان والخضوع له. وقد رحب شارلمان بهذا العرض واجتاز جبال ألبرت، والتقى بحلفائه على نهر الإيرو عند سرقسطة، لكن حاكم سرقسطة عدل عن موقفه في آخر لحظة، ورفض تسليم مدينته لشارلمان، وحصّنها فتمكنت من رد هجماته عليها، وكذلك فعل والي برشلونة، واضطر «شارلمان» أن يرتد إلى بلاده بسبب ثورات قامت عليه عام (161هـ/ 778م)، وهكذا شاءت العناية الإلهية أن يبوأ عاهل الفرنج بالفشل بعد أن اختلف معه هؤلاء الخارجون على عبد الرحمن، وانقلبوا إلى مقاومته[1]. وعندما كان شارلمان راجعًا إلى بلاده، وحينما توسط ممر رنشفالة (Roncesvalls) في جبال البرتات انقضَّ عليه البشكونس أيضًا، وتحالف المسلمون والبشكونس للإيقاع بمؤخرة الجيش الإفرنجي فمزقوها. وفي الوقت الذي كانت تجرى فيه هذه الحوادث في

---

(1) د. عبد الله جمال الدين، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 22.

الشمـــال، كان عبد الرحمـــن في الجنوب يحارب الثائرين عليه، فـقضى على ثورة مؤيدة للعباسيين في «مرسـية»، وقمع ثورات أخرى في غرناطة وطليطلة والجزيرة الخضـراء، ثم توجه إلى سرقسطة في جيش ضخم وعـقد صلحًا مع الثائرين بها، ثـم عاد إليها مرة أخـرى فحاصرها وضربهـا بالمنجنيق، ثم اتجه إلى الشمال الـشرقي واخترق بلاد البشـنكس، ففرض عليهـا الجزية، ثم عاد مظفرًا إلى قرطبة (167هـ/ 783م) وبعدها عقد صداقـة مع شارلمان استمرت بقية حياته، ثم قاد حملة سنة (168هـ/ 784م) إلى طليطلة، حيث هزم زعيم الفهـرية هناك بعد معـارك شديدة وقتـال في أكثر من مـوقع. ولما شعر عـبد الرحمن بهـدوء نسبي، استدعى بنـي أمية من المشرق، فـأقبل إليه كثـيرون، استعـان بهم في تحمل بعض المسئوليـات، لكنه فوجئ بأن من بينهم من ينقم عليه، ويقيم ضده المؤامرات، فاضطر إلى أن يعتمد على المخلصين من موالي بني أمـية ومن انضم إليــه من أهل البلاد، بالإضـافة إلى قـوة من الصقـالبة اشتـراهم صغـارًا من بلاد النصارى ورباهم تربيـة إسلامـية، وأنشأهـم تنشأة عـسكرية، وأصبح هؤلاء عنصرًا أساسيًا من عناصر القـوة الـسياسية في إسبانيا الإسلامية. وتُوفي عـبد الرحمن في (10 من جمادى الآخرة 172هـ/ 16 من أكتوبر 788م) بعد حياة طويلة قضاها في كفـاح متواصل، ومواجهة للصعاب والأهوال، وأقام ملكًا ودولة فوق بركان يضطرم بالثورات والمؤامرات، وأثبت أنه بطل فريد من أبطال التـاريخ، لا يجود الزمان بمثله كثيـرًا، فتى شريدًا بلا أنصار وأعــوان يفر من الموت الذي تعـرضت له أسرته، لكنه يسـتغل ظروف الأندلس فيقودها بكثيـر من الدهاء والحزم والعزيمة والذكاء، ويقيم دولة على أسس إدارية وسياسيــة ومالية ثابتة. ويزيد من قيمــة ما قام به أن من حكمهم تعودوا عـلى الفوضى والأنانيـة، وتقديم المصـالح الشخـصية على المـصالح

القومية، ولم يكن باستطاعة عبد الرحمن إلا أن يعامل هؤلاء ما يستحقون من شدة وقسوة، لكنه أصبح في أخريات أيامه شديد الاستبداد، لا يقبل المناقشة من أحد حتى مولاه «بدر» غضب عليه، وأقصاه بعد طول خدمة.

أفضل ما تميز به؛ عقله المرتب وأسلوبه المنظم، فقد كان يدرس مشاكله، ويتلقى أخبار الثورات بجنان ثابت، ثم يرسم خطته للقضاء عليها، ويصفه ابن حيان أمير مؤرخي إسبانيا بقوله:

«كان راجح العقل، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم.. متصل الحركة لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعًا، مقدامًا»[1]. لم يكن هناك نظام لولاية العهد، وكان اختيار ولي العهد يترك للأمير، وأنشأ عبد الرحمن منصب الحجابة، وأحاط نفسه بمجموعة من الأعوان يساعدونه في القيام بمهام الحكم بدلاً من الوزراء، وقد اختارهم في أول الأمر من بين أعوانه الذين استقبلوه وقاتلوا معه، فكانت حكومته عربية شكلاً وروحًا، ثم مال إلى البربر والموالي بعد أن استراب في العرب وشك في ولائهم له، لثوراتهم المتعددة عليه. وقد منح الجيش عناية خاصة، فجنَّد مائة ألف عدا حرسه البالغ أربعين ألفًا من العرب والموالي والرقيق، كما عني بالبحرية في أخريات حياته، وأنشأ عدة قواعد لبناء السفن. عني «عبد الرحمن الداخل» عناية فائقة بالإنشاء والتعمير في قرطبة على الرغم من كثرة مشاغله، فحصَّن العاصمة وزينها بالحدائق، وأنشأ منية الرصافة وقصرها العظيم في الشمال الغربي على بعد 4 كم من قرطبة، وقد أحاطها بالحدائق الزاهرة، وأطلق عليها الرصافة، تخليدًا لذكرى الرصافة التي أنشأها جده «هشام بن عبد الملك» بالشام، وكان هذا القصر

---

(1) د. عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 23.

يطل من ناحية الجنوب على الحقول التي تفصله عن قرطبة، ويطل من الشمال على أرض واسعة تسمى «فحص السرادق»، وقد اتخذ عبد الرحمن من ميدانها الفسيح منازل لجنده وقواده، ومكانًا يتدرب فيه الجنود بصورة مستمرة ومنتظمة.

كما بدأ عبد الرحمن (150هـ/ 767م) في إنشاء سور قرطبة الكبير الذي استمر العمل فيه أعوامًا، كما أنشأ مساجد محلية كثيرة في قرطبة وغيرها، وعلى رأسها المسجد الأموي الجامع، الذي بدأ في إنشائه (170هـ/ 786م)، وجلب إليه الأعمدة الفخمة، والرخام المنقوش بالذهب واللازورد؛ وبلغ ما أنفقه عليه 100 ألف دينار، ثم زاد خلفاؤه من بعده في هذا العمل، حتى أصبح أعظم مساجد إسبانيا. ويقع هذا المسجد في الجهة المقابلة لقصر الإمارة، وبينهما مساحة واسعة استغلها عبد الرحمن في إنشاء قصر خاص لنفسه، وعدد من القصور الصغيرة لآل بيته، أحاطها بالحدائق الغناء، وبسور يدور حولها، وقد امتدت هذه القصور حتى وصلت إلى ضفة نهر الوادي الكبير، فبنى عبد الرحمن قصور الإدارة ناحية النهر، وفتح بابًا في الشارع بين النهر والسور سمي «بباب السدة»، فتح للجمهور، ويفضي إلى المكاتب الحكومية، وإلى جانب باب السدة خُصصت مواقع الكُتَّاب الذين يعاونون الناس في كتابة شكاواهم وطلباتهم، والذين يشبهون من نسميهم اليوم بالكُتَّاب العموميين. ومن منشآت عبد الرحمن التي بناها في قرطبة، «دار السكة» لضرب النقود على النحو الذي كانت تضرب عليه نقود بني أمية في المشرق من حيث الوزن والنقش[1].

* * *

(1) د. عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 24.

(2) هشام الأول بن عبد الرحمن المعروف بالرضى

(172 - 180هـ/ 788 - 796م):

خلف «هشام» أباه «عبد الرحــمن» على حكم الأندلس الذي اختاره لا لأنه أكبر أبنائه، بل لما توســمه فيه من المزايا الخاصــة، وقد أبدى «هشام» لينًا وورعًا، وحــسن سياسة، وبصــرًا بالأمور، فجـذب الناس إليه بإقامـته للحق وتحريه للعــدل، ومعاقبتـه للولاة المقصرين. ولم يعكر صــفو أيام «هشام» إلا اشتــعال بعض الثورات، منهــا: الثورة التي قام بهــا أخواه «سليمان» و«عــبد الملك»، وانتهت بالصلح (174هـ/ 790م) على أن يقيما بعــدوة المغرب، كما قاد حملة على نصــارى الشمال الذين أغاروا على البــلاد، فنجح في القضاء عليــهم (175هـ/ 791م) ثم تكررت حــمــلاته علــيــهم، حــتى قــضى على محــاولاتهم التي استهدفــت التوسع جنوبًا. وأهم ما يتــميز به عهــد «هشام» ذيوع مذهــب الإمام «مالك بن أنس»، وحــلوله محل مذهــب الأوزاعي إمام أهل الشام الذي اتبعه الأندلسيون، وكان الإمام مــالك معاصرًا لهشام بن عبد الرحــمن، كثــير الثناء عليــه، وقد وفــد بعض مــسلمي إسبــانيا إلى المشــرق وتتلمذوا على الإمام مالك، أمثال: الــغازي بن قيــس، وزياد بن عبد الرحمن المعروف بشــيطون، وغيرهمــا، فلما عادوا إلى إسبــانيا الإسلامــية رحب بهــم هشــام، وسمــح لهم بتدريــس مذهب «مــالك»، وأخــذ القــضاة يصــدرون أحكامهم بناءً عليه، واتخذ منهم هشــام كبار قضاته ومستشريه، وشيــئًا فشيئًا أصبح المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للدولة. وحرصت الإمارة الإسبانية على جعل اللغة العــربية لغة الدواوين الرسميــة، ولغة الدرس والتعليم، ولم تكن تقبل إلا مــا هو عربي، وكان ذلك اتجــاهًا عامًا سار عليــه الأمويون في حياتهم وتبعهم الناس في ذلك، وبلغ من اهتمام هشام بالعربية أن جعلها لغة

نصارى إسبانيا الإسلامية ويهودها، وترجم إليها الكتاب المقدس ونصوص الصلوات وساعد ذلك كله على التحول إلى الإسلام، وانتشار اللغة العربية وأصبحت الأندلس مركزًا من أهم مراكز الحضارة العربية. ويكاد يجمع المؤرخون على أن «هشام» كان رقيقًا تقيًا، صارمًا في الحق، محبًا للجهاد، أنفق كثيرًا من الأموال في فداء الأسرى، كما كان شغوفًا بالإصلاح والتعمير، فأتم بناء مسجد قرطبة الجامع، وأنشأ مساجد أخرى، وزين «قرطبة» بكثير من الحدائق والمباني، وجدَّد قنطرة قرطبة التي بناها «السمح بن مالك»، ونظَّم وسائل الري، وجلب إلى إسبانيا الإسلامية الأشجار والبذور. وكان هشام يحب مجالس العلم والأدب، وبخاصة مجالس الفقه والحديث، فقرَّب إليه الفقهاء والعلماء، وبوأهم أهم المناصب، خلافًا لما كان عليه زمن والده، وقد ترتب على ذلك نتائج سياسية واجتماعية ظهرت فيما بعد.

* * *

(3) الحكم الأول بن هشام المعروف بالربضي

(180 - 206هـ/ 796 - 821م):

بدأ الحكم عهده بالجهاد ضد لبشكنس (نافارا)، لكنه اضطر إلى تركه لمواجهة الثورات التي اشتعلت ضده في الثغر الأعلى سنة (181هـ/ 797م)، وكان عمَّاه «سليمان» و«عبد الله» قد أتيا إليها سرًا واتصلا بملك الفرنج وطلبا مساعدتهما، ولما علم «الحكم» سار بجيوشه إلى الشمال، فاضطر الفرنج إلى الانسحاب، فأحكم سيطرته على هذه المناطق، وفي هذه الآونة حاول عماه الإغارة على قرطبة، فعاد الحكم وهزمهما، وقتل «سليمان»، على حين فرَّ «عبد الله» إلى «بلنسية» والتزم الهدوء طوال فترة الحكم. وفي (185هـ/ 801م) سير «شارلمان»، جيشًا لغزو «برشلونة»، وكان الحكم مشغولاً بمطاردة

الخارجين عليه، فلم يتمكن من نجدة المدينة، فسقطت بعد كفاح مشرف، وقد استقل حكام القوط بهذه المنطقة عن الفرنج بعد فترة وأنشأوا إمارة «قطلونية» النصرانية، التي اتحدت مع مملكة أراجون، وتمكنا من غزو الجانب الشرقي من مملكة الإسلام في الأندلس، وخسر المسلمون بذلك حصنًا منيعًا، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى بعد أن كانت قد تجاوزت جبال البرت. ولم تهدأ العواصف والثورات ضد الحكم، فاكتشف في (189هـ/ 805م) مؤامرة للإطاحة به، لكنه أحيط علمًا بما يدبره خصومه فقضى عليه، وأعدم (72) منهم في صورة بالغة القسوة، مما أثار غضب أهل قرطبة وحنقهم عليه، كما قضى على الثورات المتكررة التي قام بها أهالي طليطلة، مستخدمًا أسلوب القتل والاغتيال، حتى إن واليه على طليطلة أعدّ وليمة دعا إليها كبار زعماء طليطلة، ثم أعدمهم، وألقى جثثهم في حفرة خلف القصر (191هـ/ 807م)، وفي تلك الأثناء غزا الفرنج الثغر الأعلى وحاصروا مدينة «طرطوشة» لكن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم، وإنقاذ المدينة المحاصرة (193هـ/ 809م)، كما توالت حملات النصارى على أطراف الثغر الأدنى والمنطقة التي بين نهري دويرة والتاجة لبعدها عن قرطبة، وضعف وسائل الدفاع عنها، وعانى المسلمون كثيرًا في تلك المناطق من جراء تلك الغزوات، ولما بلغت الأنباء مسامع «الحكم بن هشام» خرج بنفسه (194هـ/ 810م) على رأس جيشه، وهزم النصارى في عدة مواقع وأسر وغنم غنائم كثيرة، كما أرسل في العام التالي جيشًا إلى الثغر الأعلى، غزا «قطلونية»، وهاجم برشلونة، وانتهى الأمر بصلح دام حتى وفاة «شارلمان» (198هـ/ 814م)، ثم كانت آخر غزوات الحكم (200هـ/ 815م) إلى جليقية حيث توغل المسلمون فيها، ونشبت بينهم وبين النصارى مواقع حربية، انتهت بهزيمة النصارى وارتدادهم إلى الداخل.

وفي أواخر عهد الحكم اشتعلت في «قرطبة» ثورة عنيفة سميت ثورة الربض، بسبب كراهية «المولّدين» للحاكم، وبغضهم له لصرامته وقسوته، واتهامهم له بممارسة اللهو والشراب، والمبالغة في فرض الضرائب، وقد تأجج لهيب الثورة في الربض الجنوبي المسمى «شقندة» بصفة خاصة يوم (13 من رمضان 202هـ/ 25 من مارس 818م) وتوجه الثوار إلى القصر، وتأهب الحكم ورجاله لردِّهم، وقد نجحوا في ذلك، ثم ما لبث أن شقت قوات الحكم طريقها إلى النهر، وعبرته إلى الضاحية الأخرى موطن الثائرين وأضرمت النيران في جوانبها، فأسرع الثوار إلى دورهم، لإطفاء النيران وإنقاذ الأهل والعشيرة. وفي هذه اللحظة أحاط الجنود بالثوار، وأوسعوهم قتلاً ومطاردة ونهبوا دورهم، واستمرت هذه المأساة ثلاثة أيام، فرَّ خلالها إلى طليطلة من استطاع، ثم نودى بالأمان بعد أن هدأت الفتنة، ثم أصدر الحكم قرارًا بهدم دور الثوار ولا سيما فى الضاحية التي شهدت ميلاد الثورة، فتم محوها تمامًا، ثم أمر بإخراج الثائرين من قرطبة، فتفرقوا في الثغور، وعبر بعضهم إلى العدوة الأخرى بالمغرب، وهاجر بعضهم إلى طليطلة وشمالي غربي الأندلس. كما ركب نحو (15) ألفًا منهم سفنًا رست بهم في ميناء الإسكندرية، حيث أقاموا فيها، غير أن والي مصر «عبد الله بن طاهر» أجبرهم على الرحيل، فتوجهوا إلى جزيرة «كريت» وفتحوها (212هـ/ 827م) وأسسوا بها دولة زاهرة، بقيت هناك إلى أن استولى عليها البيزنطيون (350هـ/ 961م). وعلى الرغم من نجاح «الحكم» في القضاء على هذه الحركة الثائرة، فإن أهل «قرطبة» تضاعفت كراهيتهم له، وزاد من نفورهم منه ما فرض عليهم من ضرائب. مرض الحكم بعد ذلك، وأخذ البيعة لولي عهده في حياته، وأبدى أسفه لما وقع منه لأهل الربض، ثم مات في (26 من ذي

الحجة 206هـ/ 22 من مايو 822م) بعد أن لُقِّب بالربضي، نسبة إلى ما قام به من أعمال شنيعة في منطقة الربض الجنوبي.

ولم يكن الحكم الربضي كأبيه محبًا للعلم والفقهاء، فتراجعت مكانتهم في زمنه وآثر عليهم حضور مجالس الإماء والشعراء، وانصرف إلى حياة اللهو والصيد. ويُعد الحكم أول من أظهر هيبة الملك بإسبانيا الإسلامية وفخامته، ورتَّب للبلاد نظمه ورسومه، واستكثر من الموالي، فظهر «الصقالبة» بكثرة في بلاطه، وأسند إليهم معظم شئون الحكم والحرس الخاص، ووصل بهم إلى مراتب القيادة والرياسة، كما كانت له شُرطة قوية وعيون على الناس. وضمَّت حكومته شخصيات بارزة في تاريخ إسبانيا الإسلامية، منهم: «ابن مغيث» الذي تولى حجابته، واستحدث منصبًا يهتم بشئون أهل الذمة، سمَّى شاغله بالقومس أو «القمط». وعلى الرغم من اشتعال الفتن والثورات في عهد الحكم، فقد ازدهرت العلوم والآداب ونبغ عدد كبير من الكُتَّاب والشعراء والعلماء، منهم «عباس بن ناصح الثقفي»، وابنه «عبد الوهاب»، و«أبو القاسم عباس بن فرناس»، و«يحيى الغزال»[1].

(4) عبد الرحمن (الثاني) بن الحكم (206هـ/ 822م - 838هـ/ 852م):

كان عبد الرحمن بن الحكم على النقيض من أبيه الحكم دمث الخلق محبًا للتقرب من الرعية ميالاً إلى الراحة والدعة ولكن بغير إهمال لشؤون الدولة. ويعد عهده من أزهر عهود الإمارة وأكثرها استقرارًا ومنجزات، وذلك بفضل ما أوتيه من قدرة إدارية وتنظيمية كبيرة، ولعل من أهم مبتكراته نظام الوزارة وترتيبه نظم الدولة، وهو نظام يختلف عما كان سائدًا لدى الدولة العباسية إذ كان في إسبانيا الإسلامية نظام شورى يعتمد على ما يمكن

---

(1) د. عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 27.

أن يسمى قيادة جماعية يحسن فيها توزيع الاختصاصات بحسب الكفاءات، فكان هناك وزير للخزانة (أي المالية) ووزير للأمن يدعى صاحب المدينة (وهو يشبه وزير الداخلية) ووزير للحرب يدعى الوزير القائد، ووزير للمنشآت والعمران يدعى «صاحب الأشغال»، وكان لهؤلاء مكان يجتمعون فيه يدعى «بيت الوزارة» ولهم رئيس يدعى «الحاجب»، ويجتمع هؤلاء الوزراء فيتداولون في أمور الدولة، ويتخذون قراراتهم التي يعرضونها على الأمير لإقرارها. وكان لهؤلاء من حرية الرأي ما يستطيعون به الاعتراض حتى على قرار الأمير نفسه، فهو نظام ديمقراطي إلى حد بعيد. وقد أحسن عبد الرحمن اختيار هؤلاء الوزراء، وكان أغلبهم من بيوت موالي بني أمية ممن عرفوا بإخلاصهم للدولة وتفانيهم في خدمتها، وعرف الكثيرون منهم بكفاءة إدارية عظيمة، وكانوا يدربون أبناءهم على العمل، ولهذا فقد توارثت أسر هؤلاء الوزراء وظائفهم، ونذكر منهم بني شهيد وبني أبي عبيدة وبني بخت وبني أمية وبني فطيس وبني بسيل وكلهم قدموا للدولة الأموية عشرات من أكفأ الرجال وأقدرهم. كذلك نظمت خطة القضاء وما يتصل بها من وظائف، فكان هناك «قاضي الجماعة» وهو قاضي العاصمة قرطبة وله إشراف على قضاة الكور؛ وكان هناك «صاحب المواريث» وهو المشرف على توزيع المواريث و«صاحب السوق» (ويقابل المحتسب في المشرق) وهو يشرف على الأسواق وعلى مراقبة الأسعار ومعاقبة المحتكرين والمطففين وكان لهذه الخطط ولا سيما خطة القضاء استقلال كبير، وما أكثر ما سمعنا عن قضاة نفذ حكمهم حتى على الأمراء أنفسهم. وكان يحيط بالقاضي عدد من الفقهاء الذين يدعون «المشاورين» لا يبت القاضي في أمر إلا بعد الاستئناس بآرائهم. هذا النظام الفريد الذي يقرب إلى حد بعيد من نظم الدول الديمقراطية الحديثة كفل للأمة كثيراً من الأمان والاستقرار والعدالة، مما جعل الرعية تقبل على أعمالها وأوجه نشاطها

على نحو سرعـان ما أوتى ثمراته من التقـدم السريع والرقي الواضح. ولعل الأندلس بلغت في ذلك ما لم تبلغه دولة إسلامية أخرى.

كان عبـد الرحمن رجل حضارة بمعنى الكلمة، وكـان يبلغه ما وصلت إليه بغداد حاضرة بني العباس من الرقي والعمران على عهد الرشيد والمأمون. فكان يود أن تصبح قرطبة هي بغـداد الغرب، وأن يكون هو مأمون دولة بني أمية، وكان الأمراء قـبله هم ورعيتهم يتجنبون العراق وفـارس مركز الحضارة العباسية إذ كانت لديهم مخاوفهم من تدخل خصومهم بني العباس في شؤون بلادهم. ولهذا فقـد كان الأندلسيون - وولاؤهم لبني أميـة - إذا أدوا فريضة الحج زاروا دمشق والفسطـاط وأمثالهما، أمـا في عهد عبد الرحـمن فقد زال الخطر. ولم يعد العباسيون يفكرون في بث عـملائهم لتعكير صفو الأندلس، ولقد رأى الأمـير الأمـوي أن يستفـيد بقـدر ما يسـتطيع من ثمرات حـضارة العباسـيين وثقافتهم الـراقية، ولهذا فإنـه رحب بالمغني علي بن نافع المعروف بزرياب تلميذ إسحـاق الموصلي باعتباره سفيـرًا لأعلى نماذج الحضارة. وكان زرياب جديراً بالمكانة التي احـتلها في بلاط عبد الرحـمن، إذ لم يكن مجرد مُوسيـقيّ ومغن بارع، بل كا ممثلاً لرقـة الحضارة العباسـية ورقيهـا وتقاليدها ورسومها وآدابها في كل شيء: في طريقة الزي وفي آداب الموائد وفي أوضاع ما نسميه الآن «بالبروتوكول» و«الإتيكيت» بـل حتى في طريقة تصفيف الشعر بالنسـبة للرجـال والنساء. وفـي ميـدان عمله اسـتطاع زرياب أن يكوّن أول مدرسة غنائية مـوسيقية بفضل تلاميذه مـن المغنين والقيان، بل إنه طوّر العود الشرقي فـأضاف وترًا خامسًـا وجدد في ضروب الإيقاعـات والألحان. فكان على درجة عـالية من الثـقافـة فجلب معـه مدارًا عظيـمًا من الشعـر الغنائي والنوادر والأخبـار التي يتداولها الندماء. واهتم عـبد الرحمن بالاستـفادة من النهضة العلمية ببغداد فبـعث بشاعره عباس بن ناصح الثقفي إلى العراق لكي

يجلب له كتب «علوم الأوائل» أي الرياضيات والفلك والطب وما إليها، ورحل إلى بغداد سفيره وشاعره يحيى بن الحكم الغزالي وأدخل إلى الأندلس مذهب الشعراء المحدثين من أمثال أبي نواس وأبي العتاهية، كما وفد على العراق كثير من طلبة اللغة والنحو والتفسير وعادوا إلى بلادهم محملين بزادٍ ثقافي وفير في هذه العلوم.

اهتم عبد الرحمن بالعمران والمنشآت فقام بتوسيع المسجد الجامع بقرطبة ورفع سقفه، وابتكر مهندسوه في المسجد تلك الأقواس المزدوجة التي تعد من روائع مبتكرات العمارة الأندلسية، كما أنشأ عددًا كبيرًا من المساجد الفخمة في شتى حواضر إسبانيا الإسلامية. على أن أيام عبد الرحمن الأوسط لم تصفُ له تمامًا، فقد شبّت في بعض مدن الأندلس ثورات متعددة: في طليطلة، وفي الثغر الأعلى وفي الجزيرة الخضراء، وشهدت منطقة تدمير فتنة تجددت بين القيسية واليمنية واستمرت سبع سنوات ولكنها أخمدت 214هـ/ 829م، وعلى أثر ذلك أنشأ عبد الرحمن هناك حاضرة جديدة أصبحت عاصمة الإقليم هي مرسية وانتفض سكان جزيرة ميورقة (Mallorca) ومنورقة (Minorca). وكانوا على عهد من المسلمين منذ أول الفتح، فكان لهم وضع متميز يتمتعون بمقتضاه بما يشبه الحكم الذاتي، فلما انتفضوا سيّر لهم أسطولاً فتح بلادهم وأصبح جزءًا من أرض إسبانيا الإسلامية. وجرد عبد الرحمن حملات عديدة ضد نصارى الشمال، ففي عام 208هـ/ 823م غزا قائده عبد الكريم بن مغيث ألبة والقلاع، وفي 219هـ/ 825م غزا ألبة أيضًا عمه عبيد الله بن عبد الله البلنسي، وتوغل القائد العباس ابن عبد الله القرشي في أرض جليقية، وفي السنة التالية هاجم عبيد الله البلنسي أيضًا أرض جليقية، ووصلت قواته إلى ضفاف نهر مِينيو (Rio Mino) ثم توجهت إلى القلاع

أيضًا. وفي 225هـ/ 840م قاد عبد الرحمن بنفسه حملة إلى جليقية. وفي السنة التالية يبعث الأمير بابنه المطرف والوزير عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني فيهاجمان منطقة برشلونة.

لم يلبث ملك أشتوريش أن توفي 842م وخلفه ابنه رذمير (Ramiro) (842م - 850م)، ولكن الأمور لم تتغير إذ تكررت حملات عبد الرحمن على المملكة المسيحية. وفي حملة سنة 846م التي قادها محمد بن الأمير عبد الرحمن حوصرت مدينة ليون (León) وقذفت بالمنجنيق مما أثار ذعر السكان ففروا هاربين من المدينة واقتحمها محمد فأحرقها وهدم أسوارها. على أن أخطر ما وقع في أيام عبد الرحمن الأوسط هو مهاجمة الأردمانيين أو المجوس كما سماهم المسلمون (Los Normandos) لسواحل الأندلس في سنة 229هـ/ 844م. وكان «رجال الشمال» هؤلاء من سكان البلاد الإسكندنافية فقد أغراهم ما تتمتع به إسبانيا الإسلامية من غنى وحضارة، فقاموا على عادتهم في مهاجمة السواحل الأوروبية بمباغتة ميناء الأشبونة (Lisboa) بمراكبهم الخفيفة، وأسرع عامل المدينة وهب بن عبد الله بن حزم بطلب النجدة من الأمير، ولكن هؤلاء انحدروا بمراكبهم إلى قادس (Cádiz) فاحتلوها ثم توغلوا في مصب الوادي الكبير إلى إشبيلية فأحرقوا مسجدها الجامع ونهبوا المدينة، وأسرع عبد الرحمن بإرسال قوات إلى المدينة بقياد نصر الخصي وعبد الرحمن بن رستم. واستطاع هذان القائدان التصدي بشجاعة للقراصنة النورمانديين وأوقعا بهم هزيمة منكرة في قرية طبلاطة (Tablada) جنوبي إشبيلية. وقد أدت هذه الأحداث إلى أن يوجه عبد الرحمن عنايته إلى إنشاء أسطول قوي يحرس سواحل بلاده فاتخذ دور صناعة من موانئ إسبانيا الإسلامية: الأشبونة، وإشبيلية وبلنسية والجزيرة الخضراء، ولم يمض وقت

طويل حتى كان لديه أسطولان قويان في المحيط الأطلسي وفي البحر المتوسط، كما عمل على إنشاء أربطة ومراكز حراسة. ولم يرَ المير بأسًا في معالجة الأمر بالطرق الدبلوماسية، فأرسل إلى بلاد ملك النورمانديين سفارة على رأسها شاعره يحيى الغزال فعقد معهم هدنة أو صلحًا في خبر مشهور، ثم عهد الأمير للغزال أيضًا بسفارة أخرى إلى ملك بيزنطة توفلس (Theo-phile)، ووصل الغزال إلى القسطنطينية وأدى سفارته التي ترتب عليها في ما يبدو عقد معاهدة صداقة بين قرطبة وبيزنطة[1].

(5) محمد (الأول) بن عبد الرحمن (238هـ/ 852م - 273هـ/ 886م):

خلف الأمير عبد الرحمن بن الحكم لابنه محمد بلدًا قويًا مستقرًا وافر الموارد ينعم بقسم لا بأس به من السلام، وكان ذلك بفضل عدد من رجال دولته ووزرائه الذين أثبتوا كفاءتهم وحسن إدارتهم للأمور وعلى رأسهم حاجبه عيسى بن شهيد، فلما ولي محمد أبقى وزراء أبيه وحاجبه ابن شهيد حتى وفاته ثم اختار للحجابة بعده عيسى بن الحسن بن أبي عَبْدة الذي كان لا يقل عن سابقيه كفاءة، غير أنه ركن بعد ذلك إلى وزيره هاشم بن عبد العزيز وكان أقل قدرة ممن سبقوه. يتصف بالكبرياء والصلف والحقد وحسد ذوي الكفاية، وهو بغير شك السبب في إفساد كثير من أمور دولة محمد وتردي أحوالها، ولا سيما في الشطر الثاني من إمارته. مع ذلك فقد حكم هذا الأمير قرابة ربع قرن كانت أحوال البلاد خلالها جارية على الاستقامة. هذا وإن لم تنقطع الثورات في مختلف الأقاليم. وظاهرة الثورات وحركات التمرد كانت مما اتسمت به الأندلس، وهي ترجع لأسباب منها تعدد الأصول العرقية بين عرب وموال ومولّدين وبربر «العرب العاربة»، ووجود أقلية مسحية تتمثل

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 78.

في المستعربين الذين استعربوا ثقافة ولغة إلا أن وعيهم وشعورهم باختلافهم الديني قد ازداد منذ أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وهيجه عدد من رجال الكنيسة حملوا الكثيرين منهم على تحدي المجتمع الأندلسي المسلم، وسبب آخر لهذه الثورات هو ما تولد لدى كل طوائف الأندلس منذ الفتح من شعور بالعزة والأنفة مما جعلهم يرون في الانصياع للطاعة لونًا من المذلة والخنوع، وعامل ثالث قوّى فيهم هذه النزعة هي طبيعة إسبانيا الإسلامية الجغرافية، فشبه الجزيرة بلد مترامي الأطراف أغلب أراضيه جبال شديدة الوعورة تجعل من العسير على أية سلطة مركزية السيطرة عليه سيطرة كاملة، ولهذا فما أكثر ما رأينا من ثوار يعتصمون بحصونهم المنيعة ويظلون خالعين للطاعة عشرات السنين دون أن تستطيع استنزالهم أو إخضاعهم أية قوة عسكرية. وقد كان من أول ما واجهه الأمير محمد هو الثورة التي نشبت في أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط في أوساط المستعربين المسيحيين، وكان رجال الكنيسة قد هالهم ما رأوه من تأثر رعيتهم المسيحيين بالثقافة الإسلامية، واصطناعهم لعادات المسلمين، وقد اشتهرت كلمات البارو القرطبي (Alvaro de Córdoba) التي يندد فيها بأصحاب ملّته لإهمالهم الالتزام بأحكام دينهم وتشبعهم بثقافة المسلمين حتى إنهم نسوا اللغة اللاتينية وأصبحوا يجيدون العربية نثرًا ونظمًا، فقد اعتبر ذلك تهديدًا ينذر باحتمال اعتناق الكثيرين منهم للإسلام، وقد كان ذلك هو ما حدث كثيرًا بالفعل، ولهذا فقد انتدب عدد من رجال الكنيسة لإثارة المشاعر الدينية للمسيحيين وإغرائهم بتحدى المجتمع الإسلامي والتهجم على الإسلام والتصريح بسبّ نبيه ﷺ. ونذكر من هؤلاء المثيرين للفتنة القسيين سامسون (Samson) وإيولوخيو القرطبي (San Eu-logio) وتلميذه البارو، وكان على الدولة أن تعاقب هؤلاء المتعرضين بالسب

للإسلام بما تقضي به الشريعة من عقوبات قد تصل إلى الإعدام، وبالفعل وقعت هذه العقوبة على قسيس يدعى برفكتو (Perfecto) (رمضان - شوال 236هـ/ إبريل 850م) وتابعه آخرون اعتبرتهم الكنيسة شهداء. وعمل عبد الرحمن الأوسط على معالجة الموقف بحكمة مستعينًا بالمعتدلين من رجال الدين، ودعا هؤلاء إخوانهم إلى تجنب استفزاز المسلمين والعودة إلى التعايش معهم. وواصل الأمير محمد هذه السياسة المعتدلة، ولهذا فإنه لم تمض سنوات على حكمه حتى هدأت وعاد المستعربون إلى التعايش مع المسلمين.

وواجه محمد أيضًا مواصلة أهل طليطلة لتمردهم، فتوجه إليهم بنفسه على رأس حملة كبيرة في 250هـ/ 854م، واستنجد الطليطليون بملك أشتوريش أردون بن رذمير (Ordono I) فأمدهم بجيش كبير على رأسه أحد ثقاته، والتقى الفريقان في وادي سليط (Azalete) في جنوب غربي طليطلة، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للثوار وحلفائهم من مملكة أشتوريش. وفي 245هـ/ 859م عاد الطليطليون للتمرد، فتوجه إليهم محمد من جديد وحاصرهم ثم أمر بهدم قنطرتهم التي كانت تقوم على نهر تاجة (El Tajo) فسقط في أيديهم وطلبوا الأمان ولم يعودوا للتمرد حتى نهاية عهد الأمير محمد. كذلك كان عليه أن يواجه موسى بن موسى بن قسي الذي كان متقلبًا بين الطاعة والعصيان في منطقة الثغر الأعلى (La Marca Superior) أي سرقسطة وما حولها، وكان يتصرف كملك مستقل في أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط، وفي 245هـ/ 860م ثار نزاع بينه وبين صهره (زوج ابنته) إزراق بن منتيل (Izraq b. Muntill) صاحب وادي الحجارة، وكان هو وأسرته يدينون دائمًا بالولاء لأمراء قرطبة، فأصيب في قتاله معه بجرح أدى إلى وفاته في السنة نفسها، واستقبل الأمير محمد خبر موته بارتياح، غير أن أبناءه لبا

(Lope) وإسماعيل وفرتون (Fortún) سلكوا طريق أبيهم في التقلب بين الطاعة والعصيان، ووجه إليهم محمد حملات عديدة كسرت من شوكتهم، فضعف أمرهم في أواخر أيامه. ولا شك أن أخطر ثورة واجهها الأمير محمد هي ثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي (El Gallego) في المنطقة الغربية (التي تقابل اليوم محافظة «Extremadura» في إسبانيا) والبرتغال. وكان قد بدأ تمرده في بلدة ماردة فقبض عليه 254هـ/ 868م، وأرسل إلى قرطبة مع غيره من الثوار، وجرت العادة بأن يعامل هؤلاء معاملة طيبة استئلافًا لقلوبهم، غير أن هاشم ابن عبد العزيز وزير الأمير محمد بتعاليه وسوء تصرفه أهانه وأساء معاملته، ففر من معتقله في 261هـ/ 875م وعاد إلى إعلان الثورة واعتصم بحصن ألنخي (Catillo de Alanje) (على بعد 20 كيلو مترًا إلى جنوب ماردة) والتف به مولّدو هذه الناحية ولحق بابن مروان زعيم آخر هو سعدون السرنباقي المقيم في مدينة في البرتغال (وهي اليوم «O`Porto»)، فخرج إليهم الأمير محمد بنفسه وحاصرهم حصارًا شديدًا حتى طلب ابن مروان الأمان، فقبل منه الأمير بعد أن أخذ منه رهائن. وتوجه ابن مروان إلى بطليوس (Badajoz) فعمرها وسكنها مع أصحابه. ولكنه عاد للثورة في السنة التالية 262هـ/ 876م فوجه الأمير محمد إليه حملة بقيادة هاشم بن عبد العزيز، والتقى الفريقان في موضع كركر (Alburquerque)، فدارت معركة شديدة انتهت بهزيمة جيش الأمير محمد وأسر هاشم. ولما كان ابن مروان على عهد مع ألفونسو ملك أشتوريش وليون الملقب بالعظيم (Al-fonso III. et Magno) (الذي حكم بين سني 866م و909م) فإ ابن مروان رأى أن يسلم أسيره هاشمًا إلى الملك المسيحي، فحمل إلى بلاطه في أبيط، وظل في أسره سنتين إلى أن استنقذه الأمير محمد بعد دفع فدية ثقيلة. وظل ابن

مروان شاذًا عن الطاعة، بل إنه اشترك مع الملك المسيحي في حملته التي خرب فيها حصن دوبل (Adobales) (إلى الجنوب من بطليوس) في (263هـ/ 877م)، على أنه بعد ذلك ندم على محالفته للملك الأشتوري وطلب الأمان وظل مخلدًا للهدوء في أواخر أيام الأمير محمد حتى توفي في أيام الأمير عبد الله بن محمد 276هـ/ 890م. وفي عهد الأمير محمد بدأت تتحدد ملامح إمارة مسيحية جديدة هي إمارة نَبَّرة (Nabarra) وعاصمتها هي بنبلونة وكانت أول أسرة تحكمها هي أسرة بني ينّق (Inigo) الذين كثيرًا ما ارتبطوا برباط المصاهرة مع جيرانهم بني قِسيٍّ أصحاب الثغر الأعلى. على أن هذه الإمارة لم تعن خطرًا كبيرًا بالنسبة للأندلس الإسلامية آنذاك.

رأينا في علاقات الأمير محمد بمملكة أشتوريش كيف اشتدت في أيامه قوة هذه المملكة المسيحية حتى أصبحت خطرًا كبيرًا على المسلمين، ولا سيما منذ ولي حكمها أذفونش بن أردون (ألفونسو الثالث الملقب بالعظيم) فقد حكم هذا الملك على مدى ثلاث وأربعين سنة استطاع خلالها أن يستولي على الشريط الواسع بين حوضي الدويرة والتاجة ويعمره بكثير من المستعربين المسيحيين القادمين من الأندلس، ولهذا فقد نقل عاصمة ملكه من أبيط في أقصى الشمال إلى ليون، وقد أشرنا إلى حملته التي اخترق فيها الأندلس واستولى على حصن دوبل جنوبي ماردة، وتدل هذه الحملة وبقاء وزير الأمير محمد في أسره لمدة عامين على مدى ما أصاب الأوضاع من تغير، فقد أصبح بوسع تلك المملكة المسيحية أن تنازل الأندلس منازلة الند للند، وهو ما لم تشهده من قبل. وهذا التطور هو الذي حمل الأمير محمدًا على أن يهتم بالخطوط الدفاعية لبلاده إزاء هذا الخطر المتزايد، فإذا بنا نراه يبني سلسلة من المدن الحصينة تخترق الهضبة الوسطى (La Meseta Central) لتأمين حدود

الأندلس مثل مجريط (مدريد Madrid) وطلمنكة (Talamanca) وقنالش (Canales) وولموش (Olmos) وقلعة خليفة (Calalifa) (وهذه المدن الحصينة تقع في المنطقة التي ستدعى بعد ذلك الثغر الأوسط (La Marca Media) في ما بين (وادي الحجارة وطليطلة) إلى جانب اهتمامه بتحصين الثغرين الأعلى (سرقسطة وما حولها) والأدنى (ماردة وما يليها حتى سواحل المحيط الأطلسي)[1]. وكانت للأمير محمد سياسة خارجية تقوم على إنشاء علاقات ودية حتى مع الأعداء التقليديين إلى جانب علاقته الطيبة مع بني رستم أصحاب تاهرت (Tiaret) وبني مدرار أصحاب سجلماسة في المغرب الأقصى وسعى لكسب صداقة الأغالبة في أفريقيا، كما اتصلت سفارات بينه وبين ملك الإفرنج قارله بن بيبن المعروف بالأصلع (Charles Le Chauve). وكان محمد مشجعًا للثقافة وحرية الفكر كما يبدو في موقفه من الفقيه المُحَدِّث بقي بن مخلد (ت 276هـ/ 889م) الذي قدم بعد رحلته إلى المشرق بمجموعات من الأحاديث وبرسالة الإمام الشافعي فثار عليه الفقهاء المالكيون وأثاروا العامة عليه وكادوا يفتكون به لولا حماية الأمير وتشجيعه له على نشر علمه. وفي عهده نبغ علماء مرموقون مثل عباس بن فرناس (ت 274هـ/ 887م): الحكيم المخترع المنجم الموسيقي الشاعر صاحب أول محاولة للطيران.

(6، 7) المنذر وعبد الله بن محمد (273هـ/ 886م - 300هـ/ 912م):

حكم الأمير المنذر بن محمد الأندلسي لمدة عامين وخلفه أخوه عبد الله الذي امتدت إمارته خمسة وعشرين عامًا. وأهم ما يسجل خلال هذه الفترة هو أن الأوضاع التي ساءت في أواخر أيام محمد تفاقمت تفاقمًا خطيرًا خلال إمرة ابنيه، وكان مصدر الخطأ هو أن سياسة المرونة التي كانت سائدة أيام

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 81.

الأمير عـبد الرحمن قد استبـدلت في عهد محمد - بسـبب قصر نظر وزيره هاشم بن عبد العزيـز - بسياسة عنيفة ترمي إلى فرض سلـطة قرطبة المركزية بالقـوة على سائر أنحـاء الأندلس، ومن ناحيـة أخرى أدى المجـهود الحـربي الكبير الذي بذل ضد الثوار في الداخل ولصد الحمـلات المسيحية الموجهة من الخـارج إلى نقص موارد الـدولة فاضطرت إلى زيادة الـضرائب وأخـذ الناس بالعسف في جبـايتها، فتزايدت حـركات التمرد والعصيـان، ورأى المتمردون عجـز سلطة الإمارة عن وضع حـد للفوضى الناجمـة عن ذلك، فأصـبحت طوائفهم المنتـمية إلى أصول عـرقية مختلفـة تسوي نزاعاتها في مـا بينها دون اعتبار لـسلطة الإمارة، وهكذا لم تعد حكومة قرطبة تواجـه ثورات وحركات عصيان فقط، بل أيضًا سلسلة من الحروب الأهلية بين الرعية نفسها.

وكانت أخطر حركـات التمرد وأطولها عمرًا هي التي قـام بها عمر بن حفـصـون زعيم المولدين في منطقـة مالقة وجـبال رندة (Serrania de Ronda) وقد بدأت ثورته في 265هـ/ 879م واستمـرت حتى وفاته 305هـ/ 918م أي على مـدى نحـو أربعين عـامًـا. واعـتـصم في أول أمـره بقلعـة بريشـتـر (Barbastro). وفي 270هـ/ 883م قاد الوزير هاشم بن عبد العزيز حملة انتهى فيها إلى حصـار بريشتر فصالح ابن حفصـون، بل إنه أنزله من قلعته وحمله معه إلى قرطبـة حيث عمل في جيش الإمارة واشترك في الغـزوة التى وجهها الأمير محمد إلى ألبة وأبدى فيهـا شجاعة ملحوظة، غير أنه نزع إلى الخلاف مرة أخرى بسبب سـوء معاملة هاشم ورجاله له، فإذا به يفر من قـرطبة كما فعل ابن مروان الجليـقي من قبل، ويعود إلى بريشتر حـيث يلتف به أصحابه من المولدين ويشنون حـربًا تشبه حـرب العصابات يقطـعون فيـها الطريق إلى قرطـبة، وتكررت حـملات المنذر لإخـماد ثورة ابن حـفصـون ولكن بغيـر جدوى، بل إنه فقد حـياته وهو يحاصر بريشتر إثر مرض أصـابه وكان يرافقه

في الحملة أخوه عبد الله الذي اضطر إلى رفع الحصار ليعود بجثة أخيه إلى قرطبة. وفي عهد عبد الله اتسع نطاق ثورة ابن حفصون واعتبره المولدون في سائر أنحاء إسبانيا الإسلامية، وفي 277هـ/ 890م استولى ابن حفصون على قلعة بلاي (Poley) (التي تدعى اليوم أجيلار (Aguilar) على بعد 50 كيلو متراً إلى الجنوب الغربي من قرطبة وبلغت به الجرأة أن أصبح يكرر غاراته على السهول المحيطة بالعاصمة والمدعوة بالقنبانية (La Campina). غير أن الأمير عبد الله لم يلبث أن ألحق بابن حفصون هزيمة ساحقة بفضل اثنين من أكفأ قواده هما عبد الملك بن عبد الله بن أمية وعبيد الله بن أبي عبدة، فاستولى جيش الإمارة على قلعة بلاي 278هـ/ 891م. وفي 286هـ/ 899م، أعلن ابن حفصون ارتداده عن الإسلام واعتناقه النصرانية، وكان ذلك مما أفقده كثيراً من أنصاره المسلمين، ومنذ ذلك التاريخ تقلص سلطان ابن حفصون بالتدريج وإن ظل شوكة في جسم الإمارة حتى وفاة عبد الله. وانتشرت الثورات وحركات التمرد في بقية أنحاء إسبانيا الإسلامية، ففي منطقة البيرة نشبت الفتنة بين المولدين والعرب الذين تزعمهم سوار بن حمدون ثم الفارس الشاعر سعيد بن جودي، وكان هؤلاء يتذبذبون بين العصيان على الأمير عبد الله والطاعة له. وفي إشبيلية نشبت فتنة أخرى بين المولدين والعرب، وكانت أسرتان عربيتان تتقاسمان السلطة في هذه المدينة: بنو خلدون (وهم أسلاف المؤرخ الكبير ابن خلدون) وبنو حجاج. وكان للعرب الغلبة في هذا الصراع ولكن إبراهيم بن الحجاج حوّل إشبيلية ومنطقتها إلى إمارة شبه مستقلة. ويستولى كثير من الثوار الصغار من زعماء المولدين على مدن عديدة يتحولون فيها إلى أمراء شبه مستقلين: عبيد الله بن أمية بن الشالية في شمنتان (Somontin) (في منطقة جيان Jaén)، وسعيد بن مستنة

في باغة (Priego)، وخير بن شاكر في شوذر (Jódar)، وسعيد بن هذيل في المنتلون (Monleón) قرب جيان، وديسم بن إسحاق في مرسية ولورقة، وعبد الملك بن أبي الجـواد في باجة وميـرتلة (Mértola) (في البرتغـال)، وبكر بن يحيى في شنتـمرية الغرب (وهي اليـوم مدينة «Faro» في جنوب البرتغال). ويستولي ثوار البربر عـلى ما في أيديهم من مدن ومنهم بنو ذي النون (الذين أصـبح منهم ملوك طليطلة في عـصـر الطوائف). وهم ينحـدرون من قبـيلة هوارة البـربرية، فـقـد حكم هؤلاء مـدن أقليش (Uclés) ووبذة (Huete) في منطقـة قونكة (Cuenca)، ويستـقل ببعض القلاع فـي الجنوب والغرب بعض صغار الثوار. أما الثغور فلم تكن أحـوالها خيراً من ذلك: ففي الثغر الأعلى ظل أبناء موسى بن موسى القَسَوي يتوزعون مدن الثغر، ولكن أمرهم ضعف بسبب نزاعاتهم فيما بينهم، ثم لظهـور أسرة عربية منافسة لهم هم بنو تُجِيب الذين ستـصبح لهم بعـد ذلك الغلبة على سـرقسطة وإقليمـها. وفي الثـغور الغربيـة في منطقتي مـاردة وبطليوس ومـا حولهمـا تتقاسم السـلطة أسر من المولدين والبربر، وتجدر بنا الإشارة إلى ثورة قام بهـا أحد أفراد البيت الأموي هو أحمد بن معاوية المعروف بابن القط المهدي. أعلن دعوة غريبة تبدو متأثرة بالدعايات الشيعية، وتنادي بالجـهاد في سبيل الإسلام، وكان الزعيم الروحي لهذه الدعوة شخصية شبه أسطورية، يدعى أبا علي السراج، وقد استطاع ابن القط وداعيه السراج استهـواء آلاف من البربر سكان فحص البلوط (في شمال غربي قرطبة). وجبل البرانس (أو المعدن Sierra de Almadén) من قبائل نفزة وكتامة المقـيمين في حوض وادي آنة (Rio Guadiana). ولم تكن ثورة هؤلاء موجهة ضد إمـارة قرطبة، بل كان هدفها الجهاد ضد المسيـحيين، فتوجه ابن القط ومعه داعيه أبو علي السراج على رأس ستين ألفًا من أتباعهما إلى مدينة

سمورة (Zamora) على ضفاف نهر الدويرة التي كان ألفونسو الثالث قد جدد بناءها في 280هـ/ 893م في توسعه نحو الجنوب. ولدى أسوار سمورة دارت معركة عنيفة في رجب 288هـ/ يولية 901م انتهت بمقتل ابن القط المهدي وهزيمة أصحابه هزيمة ساحقة. كل هذه الأحداث تصور تفكك الإمارة في أيام عبد الله بن محمد مما كان يهدد الدولة الأموية كلها بالانهيار، لولا مثابرة الأمير عبد الله وتمسكه بالشرعية، ثم بفضل عدد من قواده الذين أثبتوا شجاعتهم الفائقة وتمرسهم بفنون الحرب وولاءهم العظيم مثل أبي العباس أحمد بن أبي عبدة وابن أخيه عبيد الله بن محمد وبدر بن أحمد. ولعل خير ما قام به الأمير عبد الله هو أنه عين لولاية عهده حفيده عبد الرحمن بن محمد، وكان أبوه محمد قد قتل في مأساة محزنة ذلك أن محمداً كان هو ولي العهد ولكن أخاه المطرف حسده على ذلك فقتله في آخر 278هـ/ 891م، وتغاضى الأمير عن جريمة المطرف ولكنه عاد إلى ارتكاب جريمة أخرى إذ قتل القائد عبد الملك بن أمية وهما متوجهان إلى إشبيلية وذلك في 282هـ/ 895م، ولم يغفر الأمير عبد الله هذه الجريمة فأمر بقتله. ويبدو أن حب الأمير لابنه الأول محمد هو الذي جعله يفرغ حنانه على حفيده اليتيم عبد الرحمن فيكفله ويؤهله لتولي الإمارة بعده[1].

(8) عبد الرحمن (الثالث) الناصر (300 - 350هـ/ 912 - 961م):

والغريب أن عبد الرحمن حينما ولي الإمارة بعد موت جده في أول ربيع الأول 299هـ/ 16 أكتوبر سنة 912م لم يلق معارضة من أهل بيته مع أن سنه كانت لا تجاوز الحادية والعشرين مع وجود كثير من أعمامه والكبار من أسرته. وقد ورث تركة مثقلة وإمارة مزقتها الفتن والثورات وخزانة تكاد تكون خالية. ومع ذلك فقد باشر الأمير الشاب دولته في حزم وذكاء نادرين، وكان

منذ البداية عازمًا على أن يعيد للإمـارة وحدتها. وبدأ في مطلع عهده باتخاذ الإجراءات الكفيلة بذلك، ولم يكد عام 300هـ/ 912م تنتهي حتى كان قد استولى على إستجة (Ecija) أقرب المدن المتمردة إلى قرطبة، ثم تلا ذلك إخضاع حصون جيان وإلبيرة ومالقة، وفي السنة التالية أخذ في الاستيلاء على حصون ابن حفصون حول معقله في بريشتر، وعادت إشبيلية إلى الطاعة. ولم يلبث زعيم ثورة المولدين أن توفي أنفه في ربيع الأول 305هـ/ سبتمبر 917م، فكان ذلك إيذانًا بقرب انتهاء ثورته، إذ إن أبناءه لم يستطيعوا مواصلة الثورة طويلاً. ولم تأت 928م حتى استولى أحد قواد عبد الرحمن على بريشتر آخر معاقل بني حفصون. أما أخبار الثوار في الجنوب فقد تساقطوا واحدًا في إثر الآخر، وفي الوقت نفسه وجه عبد الرحمن حملاته لإخضاع ثوار المناطق الشرقية والغربية، سواء بالقوة المسلحة أو بالطرق السلمية وفيما بين عامي (317هـ/ 929م و320هـ/ 932م) تم إخضاع الثغور، فعادت للطاعة طليطلة وبطليوس وكل منطقة الثغر الأعلى.

ولم تشغل هذه الجهود عبد الرحمن عن حماية حدوده مع إسبانيا المسيحية. وكان ملك أشتوريش وليون أردون الثاني الذي ولي العرش 914م قد قام بحملة مدمرة على مدينة يابرة (Evora) (في البرتغال الآن) ثم عاد في 302هـ/ 915م لمهاجمة حصن الحنش، فوجه عبد الرحمن حملة انتقامية بقيادة أبي العباس بن أبي عبدة، فاقتحمت مملكة ليون واستولت على بعض الحصون. وفي 306هـ/ 918م عادت جيوش عبد الرحمن إلى مهاجمة ليون وأوقعت بالملك أردون هزيمة قاسية. وفي 308هـ/ 920م قاد الأمير الأموي بنفسه حملة اقتحمت مملكة ليون وخربت كثيرًا من حصونها ثم واصلت

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 84.

طريقهـا إلى مملكة نبرة (Navarra) التي كان ملكهـا شانجة الأول بن غرسـية (Sancho (I) Garcés) قد هاجم الثغـر الأعلى، فألحقت بشانجـة وبحلفائه من أهل ليون هـزيمة منكرة تعرف بوقـعة «Valdejuquera» وفي المصادر العـربية بغزوة مويش. وفي 312هـ/ 924م قاد عـبد الرحمن بنفـسه الحملة المعـروفة باسم «غزوة بنبلونة» وفـيها اقتحم أرض نبرة وهزم المـلك شانجة هزيمة منكرة ودخل عاصمـة ملكه بنبلونة وخرب أسوارها. وأوقعت هذه الحـملات الذعر في نفوس أهل ليون ونبرة ولم يعودوا للتعرض لثغور المسلمين طوال السنوات السبع التالية. وهكذا استطاع عبد الرحمن في نحو خمس عشرة سنة أن يعيد للدولة وحدتهـا بعد تمزق استـمر نحو ثلاثين سنة وللإمـارة هيبتهـا سواء في عيون الرعـية في الداخل أو الممالك المسيحيـة المجاورة في الخارج. وفي تلك الأثناء كانت الأنـباء ترد بتدهور الخـلافة العـباسيـة في بغداد بعـد أن أصبح الخلفـاء ألاعيـب في أيدي الوزراء وقادة الجـيش ونسـاء القـصر، وصـارت سلطتـهم شكلاً يخلو من المضمـون، كمـا سبق ولاية عـبد الرحمـن بثلاث سنوات إعلان خـلافة بني عبيـد الفاطميين في القـيروان إذ استطاع عبـيد الله المهدي أن يطيح بدولة بني الأغلب. وقد شكلت هذه الخطوة الخلافـة الشيعية الأولى في الإسلام. وعلى أثر ذلك قرر عـبد الرحمن أن يعلن نفسـه خليفة وأميرًا للمـؤمنين ودخلت إسبانيا الإسـلامية بذلك فترة جـديدة من تاريخها. والواقع أن وجود إمارة أموية في شبه جزيرة كـهذه - حيث الظروف الجغرافية التي تحول دون بسط سيطرة مركزية كاملـة وبالتالي حكمها على نحو حازم - يعتـبر في حد ذاته إنجـازًا رائعًا. وقد كـانت هذه الإمارة قائمـة على مدينتي إشـبيليـة وقرطبـة، إلا أن قبـضة الأمـراء على الأقـاليم المتطرفة كـانت أقل إحكامًا. ومع أن نسـبة لا بأس بها من الروم الإسبان قـد دخلت في الإسلام

(المولدون)، فإن عددًا لا يستهان به منهم قد ظل على مسيحيته (المستعربون)، وظلوا يتطلعون دومًا إلى الشمال المسيحي يستلهمون منه التأييد المعنوي والديني. وكانت مدينة طليطلة - التي اتخذها القوط الغربيون عاصمة لهم، فضلاً عن كونها المركز الكنسي لإسبانيا - تمثل بصورة خاصة أحد مراكز التمرد والعصيان على الوجود الإسلامي. وكان بين المسلمين كثير من الأمراء المحليين ممّن مكنتهم قوتهم العسكرية - كحكام للأطراف - من أن يتمتعوا بوضع مستقل عن العاصمة قرطبة. وقد ساد هؤلاء الأمراء بصورة خاصة في وادي «أيبرو» الواقع في المنطقة الشمالية من شبه جزيرة أيبيريا، وهي المنطقة التي حملت فيما بعد اسم «أراجون» و«قطالونيا». ومن هذه الفئة من الأمراء «بنو تجيب» في سرقسطة و«بنو قسي» في تطيلة. وفي أعقاب القرن التاسع، كان هنالك مركزان من مراكز التمرد الذي استمر لفترة طويلة ضد الحكومة المركزية - تزعم أحدهما ابن مروان الجليقي في المنطقة الواقعة حول بلدة بطليوس، أما الآخر فقد تزعمه «ابن حفصون» في جبال غرناطة. وعلى الرغم من عوامل الإضعاف هذه، وعلى الرغم أيضًا من مواصلة ممالك الشمال المسيحية الصغيرة تحقيق استقلالها يومًا بعد آخر، فإن أمويي إسبانيا الإسلامية قد جعلوا من قرطبة مركزًا مرموقًا من مراكز التجارة والصناعة، كما جعلوا منها مركزًا من مراكز الثقافة والعلم العربيين، ولم يكن يفوقها في هذه المنزلة سوى مدينتي القاهرة وبغداد. وهيمن على حكم إسبانيا الإسلامية إبان القرن العاشر واحد من أعظم حكام الأسرة هو عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر، فقد دام حكمه خمسين عامًا (300 - 350هـ/ 912 - 961م). وفي عهده اتخذت السلطة هيئة جديدة من الأبهة، فأضحت مراسيم البلاط أكثر إتقانًا واتساعًا. ولعله كان يحاكي في هذا ملوك بيزنطة، كما قابل اتخاذ أعدائه الفاطميين لقب الخلافة، بأن اتخذ لنفسه لقبي الخليفة وأمير

المؤمنين. وبهذا قفز على المبدأ الذي يأخذ بنظرية الشرعية القائلة بعدم جواز تعدد الخلافة أو تجزئتها. أما قوة الجيش في عهده، فكان قوامها المجندون الجدد من البربر، فضلاً عن الفرق المحاربة الذين جلبهم من شتى أصقاع أوروبا المسيحية (كالصقالبة). وقد مكنه هذا الجيش من إخضاع المناطق الشمالية المسيحية، واتخاذ سياسة مناهضة للفاطميين الذين ظهروا في المغرب العربي[1].

عصر الخلافة (316هـ/ 929م - 422هـ/ 1031م):

امتد حكم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله على مدى نصف قرن هجري كامل (300 - 350هـ/ 912 - 961م) وينقسم عهده إلى قسمين: السنوات الست عشرة الأولى التي كانت نهاية عصر الإمارة المستقلة، ثم ما بقي من سنوات حكمه التي مرت في ظل عهد جديد هو عهد الخلافة. وقد رأينا كيف استطاع هذا الأمير الشاب أن يعيد إلى مملكته وحدتها السياسية وأن يحمي حدودها من الأعداء وأن يجعل لها هيبة في نفوس الجميع. وقد استبشرت به رعيته، ورأت فيه البطل المخلص لها مما كانوا يعانونه من الفتن والفوضى والخراب. ونحن بالفعل نجد فيه شخصية فذة باعتباره رجل دولة من الطراز الأول.

لعل أول ما شجع عبد الرحمن على إعلان نفسه خليفة هو ظهور خلافة شيعية لأول مرة على مسرح التاريخ في المغرب العربي. وكان هذا تحديًا لعالم أهل السنة الذي كانت الخلافة العباسية تمثله حتى ذلك الوقت، غير أن الخلافة العباسية كانت قد تدهورت أحوالها إلى درجة مأساوية، ولم يبق للخليفة من مظاهر السلطة إلا الخطبة باسمه في ولايات الدولة وضرب

(1) بوزود، الأسر الحاكمة في الدول الإسلامية، ص 34.

السكة باسمه. وهنا رأى عبد الرحمن بن محمد نفسه بعد أن حول إسبانيا الإسلامية إلى قوة كبرى أنه الجدير بالحديث باسم أهل السنة إزاء تحدي الشيعة العبيديين الذين كانوا مكروهين من رعيتهم في إفريقية وفي سائر بلاد المغرب، فقد كانت الأغلبية الساحقة من المغاربة - مثل أهل إسبانيا الإسلامية - متمسكين بمذهب السلف، وعلى مذهب الإمام مالك بصفة خاصة. وكان إعلان عبد الرحمن نفسه خليفة وأميرًا للمؤمنين في منشور مشهور صدر في ذي الحجة 316هـ/ أوائل كانون الثاني/ يناير 929م وخطب له على منابر المساجد في إسبانيا الإسلامية ابتداءً من يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة 316هـ/ 16 يناير 929م وتلقب من ألقاب الخلافة بالناصر لدين الله. وامتد عصر الخلافة في إسبانيا الإسلامية قرنًا كاملاً حتى 422هـ/ 1031م، على أنه ينتظم ثلاث فترات هي: الخلافة الفعلية التي باشر الخلفاء فيها السلطة كاملة وتمتد عبر ما بقي من حكم عبد الرحمن، ثم خلافة ابنه الحكم المستنصر (350هـ/ 961م - 366هـ/ 976م)، وفترة الحجابة العامرية (366هـ/ 976م - 399هـ/ 1008م)، وفترة الفتنة البربرية (399هـ/ 1008م - 422هـ/ 1031م).

المرحلة الأولى: خلافة الناصر:

كان على عبد الرحمن الناصر بعدّ أن اتخذ لقب الخلافة أن يوطد مكانته في نظر شعبه بصفته حامي سيادة الإسلام، ولذا فقد استمر في مواجهة الممالك المسيحية في الشمال.

وكانت مملكة ليون هي أقوى هذه الممالك، ولكن الحظ أسعده بموت ملكها الجريء أردون الثاني في سنة 924م، وبالحرب الأهلية التي نشبت هناك بين ابنيه ألفونسو الرابع (Alfonso IV) المعروف بالراهب (El Monje) وأخيه رذمير (Ramiro II) على مدى نحو سبع سنوات، وانتهت الحرب باعتلاء

رذمير العرش 932م، وكان ملكًا شرسًـا جريئًا بدأ حكمه بسمل عيـون أخيه الفونسو وأبناء عمومته وقد أثبت بسالـته في مواجهته للناصر. ومع ذلك فقد ألحق الناصر به هزائم متوالية كان من أكبرها هزيمته في وقعة وخشمة (Osma) في 322هـ/ 934م. وعلى الرغم من هزيمة الناصر لأول مرة في معركة الخندق (327هـ/ 939م) فقـد واصلت جيوش قـرطبة الغارات على مملكة ليـون حتى وفاة رذمير في سنة 950م، أما مملكة نبرة فـإن صاحبها شانجـة الأول كان قد توفي في 926م، وخلفه ابنه غرسية الأول (Garcia I) وكان صغير السن فكان تحت وصـاية أمـه طوطة (Toda)، ولم تمثل هذه المملكـة خطرًا كبـيرًا على قرطبة، وفي 322هـ/ 934م بعد غـزوة وخشـمة وخـروج الناصر إلى الثـغر الأعلى جنحت طوطة إلى الـسلم وخرجت إلى مـعسـكر الناصر في قلهـرة (Calahorra) والتقت بـه وعقدت مـعه هدنة إلا أنهـا نقضـتها بعـد ذلك في 326هـ/ 938م، فاقتحمت جيوش الناصر أرض بنبلونة، واستولت على بعض حصونها، وأخلدت نبـرة بعد ذلك إلى الهدوء، بل إننا نرى طوطة هي وابنها غرسـية وحفيـدها شانجة (المعـروف بالبدين (Sancho, el Craso) لمرض أصابه بالسمن المفرط) يتوجـهون إلى قرطبة في 347هـ/ 958م من أجل عقد الصلح وعلاج شانجة من مرضه، واستجاب الناصر لذلك وندب أطباءه لعلاج الأمير البدين وشفوه من مـرضه. ويشهد عصر الناصر مولد قـومسية (Condado) أو إمارة مسـيحية جديدة بدأت صغـيرة متواضعة ثم أصـبح لها بعد ذلك الدور الأكبر في التغلب على المسلمين، ونعني بها إمارة قشتالة، وقشتالة هي المنطقة التي كان العرب يسمونها «القلاع» وهي ترجمة حرفية للفظ الإسباني، وكانت تحتل الجـزء الشرقي من مملكة أشـتوريش وليون. وأول من ولـي هذه المنطقة بلقب قومس فرنان غونزاليت (El Conde Fernán González) الذي حكمها بين

عامي 923م و970م الذي خلدت اسمه ملحمة مشهورة في تاريخ الأدب الإسباني، وكان سياسيًا داهية استغل النزاع بين مملكتي ليون ونبرة لكي يوسع أملاكه، واستطاع أن يظفر باستقلال إمارته عن مملكة ليون بعد وفاة رذمير في 950م. وقد وجه الناصر إليه حملات عديدة كان من أهمها غزوة وخشمة في 322هـ/ 934م التي استولى فيها المسلمون على كثير من مدنه وحصونه، ثم اشترك مع التحالف المسيحي في إلحاق الهزيمة بالناصر في وقعة الخندق 327هـ/ 939م ولكنه بعد ذلك دخل في الصلح الذي عقد بين الناصر وملكي بنبلونة وليون 329هـ/ 941م. وأما إمارة الفرنج، والمقصود بها قطلونية (Cataluna) فقد غزاها أسطول الناصر في 323هـ/ 935م. وفي 328هـ/ 940م انعقد الصلح بين الناصر وشنيير قومس برشلونة (Sunyer, Conde de Barcelona) (الذي حكم بين عامي 914م و954م) وكان في معظم إمارته مسالمًا لخلافة قرطبة. ومع كل هذه الأحداث من حروب بين الناصر وجيرانه من ملوك إسبانيا المسيحية، فقد تأكد دور قرطبة السياسي كمركز للخلافة الأموية، وتم للخليفة الأموي الهيمنة على كل شبه الجزيرة، وهكذا برز دور إسبانيا الإسلامية باعتبارها أكبر قوة أوروبية وأعظمها ازدهارًا، مما حمل ملوك أوروبا في ما وراء جبال البرتات على خطب ود الخليفة فتكررت عليه سفارات هؤلاء الملوك: الإمبراطور البيزنطي قسطنطين (Costantino) (في 338هـ/ 949م) ثم هوتو (Otón) ملك الصقالبة والألمان وغيرهما من الملوك. وقد عاصر عبد الرحمن الناصر توسع الشيعة العبيديين في المغرب العربي بعد قيام دولتهم في القيروان منذ 909م، وكان عبيد الله المهدي، أول أئمتهم، ومن خلفه يطمعون في ملك إسبانيا الإسلامية لما عرفوه من غناها وكثرة خيراتها، وأدى ذلك إلى وقوع صدام بين الدولتين، على أن الناصر كانت له الغلبة في

هذا الصراع، ولا سيما منذ استطاع الاستيلاء على ميناء سبتة في 319هـ/ 931م فقد بدأ بعد ذلك سياسة تسعى إلى السيطرة على جزء كبير من المغرب مستعينًا بعملائه من خصوم الشيعة، وإذا لم يكن الناصر قد تمكن من فرض سلطته الكاملة بشكل مستقر على المغرب الأقصى فإنه على الأقل استطاع أن ينقل الحرب مع الشيعة الفاطميين إلى عقر دارهم في المغرب العربي. ولم يشغل هذا النشاط السياسي والعسكري عبد الرحمن الناصر عن الاهتمام بالعمران والعناية الشديدة بالثقافة والنشاط الفكري والعلمي، ويكفي أن نشير إلى بنائه عددًا من القصور الفخمة في قرطبة ثم بنائه «مدينة الزهراء» في شمال غربي العاصمة، وهي التي بقيت أطلالها حتى اليوم شاهدة على رقي الفن المعماري لإسبانيا الإسلامية وعلى مدى غنى الخلافة وترفها الفائق. وفي هذه المدينة الملكية كان الناصر يستقبل ضيوفه والسفراء القادمين إليه حسب رسوم وبروتوكولات معقدة كانت تبث الهيبة في النفوس. ولا بد أن نشير كذلك إلى زيادته في المسجد الجامع بقرطبة، وهي زيادة ضاعفت مساحته، وبناء صومعة الجامع (أي مئذنته) وتجديد محرابه الذي يعد حتى اليوم آية من آيات الفن الأندلسي. وأما اهتمامه بالثقافة فيبدو في كثرة من شهده عصره من العلماء في كل فروع المعرفة، وكان ابنه وولي عهده الحكم المستنصر بمثابة وزير للثقافة والعلم في أيامه. وفي أول عهده ظهر كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه (328هـ/ 940م) وهو يعدّ حتى اليوم من المصادر الأدبية الرئيسية، وفي 942م استقدم الناصر العالم اللغوي الكبير أبا علي القالي الذي أصبح رائدًا لنهضة لغوية ونحوية عظيمة في إسبانيا الإسلامية. وحفل بلاط الناصر بالفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء، ومما يذكر أن الإمبراطور البيزنطي حينما بعث إليه بسفارته أهداهّ كتاب ديوسقوريدس (Dioscórides) في الأعشاب الطبية، فندب الناصر من يقوم بترجمته إلى العربية.

وعلى الجملة فإن عصر عبد الرحمن الناصر يعد أزهر عصور إسبانيا الإسلامية في جميع المجالات، وإذا قدرنا الظروف البالغة السوء التي ولي فيها الحكم، ثم ما استطاع إنجازه بعد ذلك، فإننا لا نبالغ إذا قلنا إن الناصر لدين الله كان من أعظم رجال الدولة الذين حكموا في إسبانيا الإسلامية في جميع العصور.

(9) الحكم المستنصر (350هـ/ 961م - 366هـ/ 976م):

تعد خلافة الحكم المستنصر بالله (رمضان 350هـ/ أكتوبر 961م – صفر 366هـ/ سبتمبر 976م) تتويجًا لعصر أبيه عبد الرحمن الناصر. فقد ورث الحكم دولة قوية مستقرة غنية، وواصل السياسة التي رسمها أبوه من قبل سواء في الداخل أو في الخارج، فاهتم بتأمين حدود البلاد وعيَّن عددًا من أكفأ العسكريين قوادًا على الثغور. وكان شانجة الأول المعروف بالبدين ابن رذمير الثاني قد خلف أخاه أردون الثالث في حكم مملكة ليون سنة 955م، غير أن ابن عمه أردون الرابع المعروف بالخبيث (Ordono IV el Malo) خلعه عن العرش في 958م، ورأينا كيف وفد شانجة مع جدته الوصية على عرش نبرة على قرطبة وكيف تم علاج حفيدها المخلوع من داء بدانته وكيف وعده الناصر بإعادته على عرشه، وتم ذلك بالفعل، غير أن الخليفة طلب ثمنًا لهذه المعونة عشرة حصون على الثغور بين البلدين. توفي الناصر قبل تنفيذ هذا الشرط فتراخى شانجة في الوفاء بما تعهد به، وكان أردون الرابع قد هرب بعد طرده إلى مدينة برش (Burgos)، غير أن قومس قشتالة فرنان غونزاليث قبض عليه وبعث به إلى ثغر مدينة سالم (Medinaceli) التي أصبحت مركزًا لما يدعى بالثغر الأوسط فبعث به غالب الناصري قائد هذا الثغر إلى قرطبة. وفي صفر 351هـ/ أبريل 962م استقبله الحكم المستنصر فأعلن خضوعه الكامل

للخليفة ووعده الحكم بإعادته إلى عرش ليون عقابًا لخصمه شانجة، وحينما سمع هذا النبأ ملأه الذعر فأسرع يبعث سفارة إلى الحكم يعلن خضوعه واستعداده لتنفيذ الشروط السابقة من تسليم الحصون الثغرية للمسلمين. غير أن أردون الرابع توفي على أثر ذلك في قرطبة، فعاد إلى النكث بوعوده من جديد وتحالف مع قومس قشتالة وملك نبرة وقومس برشلونة على مهاجمة الأراضي الإسلامية. وإزاء هذا التحالف المسيحي من الدول الأربع: ليون ونبرة وقشتالة وبرشلونة قرر الحكم المستنصر إعلان الحرب عليهم جميعًا، فتوجه بنفسه على رأس حملة كبيرة في صيف 351هـ/ 963م فاستولى على حصن فرماج (San Esteban de Gormaz) (على نهر الدويرة) ثم على حصن أنتيشة (Atienza) وتوجه عامل سرقسطة يحيى بن محمد التجيبي إلى نبرة حيث ألحق الهزيمة بغرسية الأول، واقتحم بلاده القائد غالب في حملة أخرى انتزعت منه حصن قلهرة الذي أعاد بناءه وشحنه بالمقاتلين. وهكذا لقن الحكم جيرانه درسًا بالغ القسوة. ثم كان من حسن طالعه أن توفي شانجة الأول ملك ليون في 965م، وخلفه ابنه رذمير الثالث (Ramiro III) وكان طفلاً في الثالثة من عمره، وتمزقت ليون بعد ذلك إلى قومسيات متنازعة. وأما جليقية وأشتوريش فقد أضرت بهما غارات النورمانديين بينما استطاعت انتصارات الحكم أن تفرق أعوان فرنان وكان قد أصابه الكبر والضعف ثم توفي في 359هـ/ 970م، وتوفي في السنة نفسها أيضًا غرسية الأول ملك نبرة وخلفه ابنه شانجة الثاني الملقب بأبركة (Sancho II Abarca). وبعد هذا التدهور الشامل الذي عم ممالك إسبانيا المسيحية وإماراتها لم يعد هناك من يجرؤ على رفع سلاح في وجه المستنصر، بل رأينا هؤلاء الملوك والأمراء المسيحيين يتوافدون على قرطبة بين سنتي 359هـ/ 970م و363هـ/ 974م معلنين خضوعهم للخليفة، وكان من أولهم بريل بن شنيير (Borrell) قومس

برشلونة، ثم شانجة ملك نبرة، ثم غرسية بن فرذلند (Garci - Fernández) قومس قشتالة الذي خلف أباه بعد موته وغيرهم من صغار القوامس والنبلاء، بل تفد إلى قرطبة بعد ذلك سفارات أوروبية منها سفارة من ملك بيزنطة الدمستق يوحنا (Johannes Tzimisces) (جمادى الأولى 361هـ/ مارس 972م)، ورسالة من إمبراطور ألمانيا هوتو الثاني (Otón II).

وفي صيف 363هـ/ 974م عقد تحالف جديد بين الدول المسيحية الثلاث، ولكن مصيره لم يكن خيرًا من مصير سابقه فقد أوقع القائد غالب في شوال 364هـ/ يونية 975م هو وقواد الثغور بالمتحالفين هزائم فادحة جديدة. وهكذا عادت قرطبة لتصبح سيدة الموقف في كل شبه الجزيرة ولم يعد في أرض المسلمين بإسبانيا الإسلامية مطمع لطامع. أما المغرب العربي فقد واصل الحكم سياسة أبيه في مواجهة الشيعة الفاطميين، ودارت على أرض المغرب معارك شديدة بين الجانبين تداولا فيها النصر والهزيمة، واستطاع الحكم على كل حال فرض سيادته على جزء كبير من هذه البلاد، وإن كان ذلك قد كلفه تضحيات كثيرة ونفقات باهظة. وانصرف الحكم بعد تأمينه لدولته إلى هوايته المفضلة وهي الاهتمام بالثقافة وجمع الكتب، فقد كان هو نفسه عالمًا ومشجعًا لكل ألوان المعرفة، وقد جمع في قصره مكتبة يقدر بعضهم عدد ما فيها بأربعمائة ألف مجلد، كما أنه يكثر من إنشاء المكاتب لتعليم الفقراء واليتامى، ويشجع المؤلفين ويحضر مجالس العلم. وكل ذلك جعل من قرطبة أعظم مركز علمي في الغرب كله الإسلامي والمسيحي على السواء. على أنه ينبغي علينا أن نسجل خطأين كبيرين وقع فيهما الحكم وقُدر أن يجرا على إسبانيا الإسلامية بعد ذلك أوخم العواقب: أولهما هو الاستكثار من الجنود المرتزقة الذين استجلبهم من بربر المغرب العربي، ولا

سيما من مجموعة قبائل صنهاجة، فقد تحول هؤلاء مع الزمن إلى طبقة عسكرية متميزة كان لها بعد ذلك دور كبير في الفتنة التي سوف تطيح بالخلافة نفسها. والخطأ الثاني هو تولية عهده لابنه الصغير هشام الذي لم يكن يجاوز الثانية عشرة من عمره حينما توفي الحكم، هذا مع أن البيت المرواني كان يحفل آنذاك بالفحول من الأمراء الأكفاء لتولي الخلافة. وقد أدى اختيار هذا الأمير الطفل لولاية العهد إلى صراع بين الأحزاب المتنافسة ثم إلى وقوع الدولة بعد ذلك تحت نير الدكتاتورية المستبدة للمنصور بن أبي عامر، فيتغير بذلك مسار الخلافة تغيرًا جذريًا.

حينما توفي الحكم المستنصر في رمضان 366هـ/ أكتوبر 976م بدأت تظهر في الأفق بوادر الأزمة. ذلك أن صقالبة القصر، وكان زعماؤهم على جانب كبير من الإخلاص للدولة، بدا لهم أن تولية الطفل هشام قد تجر عواقب غير مأمونة، فأرادوا أن يعدلوا عنه إلى المغيرة أخي الحكم، وكان رجلاً لا تنقصه السن ولا التجربة، واستشاروا في ذلك وزير الحكم الأول جعفر بن عثمان المصحفي، وكان رجلاً أنانيًا قصير النظر فصورت له مطامعه أن تنصيب صبي مثل هشام سوف يتيح له أن يكون وصيًا على العرش، وأن يجعله ذلك المتحكم في الدولة، وهكذا دبر مع رجاله مؤامرة لإزالة المغيرة من الطريق، وعهد بهذه المهمة في ما يقال لرجل من ثقاته هو محمد بن أبي عامر، وكان ابن عامر قد ترقى في المناصب الإدارية والمالية في أيام الحكم حتى أصبح متوليًا للشرطة الوسطى، واضطلع العامري بالمهمة، وأعلنت وفاة المغيرة مخنوقًا في داره، وعلى أثر ذلك تمت البيعة للصبي هشام الذي لقب بالمؤيد، وأصبحت مقاليد السلطة في يدي جعفر المصحفي ورجل ثقته محمد ابن أبي عامر. وكان بعض قوامس مملكة ليون قد انتهزوا موت الحكم، فشنوا

غـارات على ثغـور المسلمـين، ولـم ينتـدب لصـد هذه الغـارات من رجـال المصحفي إلا ابن أبي عامر الذي تطوع بذلك مع أنه لم يتول قيادة الجيوش من قبل، فخرج على رأس حملة جهزها بعناية وعبر نهر التاجة وأغار على منطقة شلمنقة (Salamanca) فخرب بسائط المدينة وظفر بغنائم كثيرة وعاد إلى قرطبة تسبقه أخـبار انتصاره، وزاد ذلك من شعبـيته، كما أن حسن مـعاملته لجنوده وإغداقـه عليـهم جعلهم يشـيدون به ويؤازرونه. وكـان ابن أبي عامـر بعـيد المطامح عظيم الدهاء، فرأى أن يضرب بين القوى السيـاسية القائمة. وبدأ بأن حمل المـصحفي عـلى الإيقاع بالصـقالبـة، ثم تقرب إلى غـالب قائد الثـغر الأوسط، فصاهره متزوجًا من ابنته وحـالفه على الإيقاع بالمصحفي نفسه، ثم انقلب بعد ذلك على غالب نفسه، فلم تمر سنة واحدة حتى أتت هذه السياسة المكيافـيلية أكلها، فـإذا به يقبض على المصـحفي ويودعه السـجن متهـمًا إياه بتـبديد أمـوال الدولة، ويصبح هو «الحـاجب» الحاكم بأمـره، ويحجـر على الخليـفة الصـبي هشـام المؤيد فلا يدع إلا مـظهرًا شكليًـا للسلطة هو الخطبـة وضرب السكة باسمه(1).

المنصور بن أبي عامر (367هـ/ 977م - 392هـ/ 1002م):

لم يكتف المنصـور بالسيطرة على أمور الحكم في الـبلاد وتولي منصب الحجابة بل ورَّث منصبه لأولاده من بعده فأصبح منصب الحجابة أشبه بمنصب أمير الأمراء في بغداد أو أشبه بنفوذ البرامكة في عهد الرشيد أو بني طاهر في عهـد المأمون. وهو تطور انتهت إليـه الحياة الإسلامـية في عصـور الضعف؛ ضعف الخلافة الإسـلامية، حتى العصر الفاطمي شـهد هذه الظاهرة في عهد المستنصر حينما ظهر بدر الجمّالي. ومـا دام زمام الأمور في إسبانيا الإسلامية

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 92.

قد أصبح في يد المنصور فلنعرف به ونبين أثره في الحياة الأندلسية والدور الذي قام به على وجه التحديد. كان محمد بن أبي عامر ابنًا لفقيه أندلسي من أوساط الناس، عُرف بالتدين وقلة الطموح. وكان همه أن ينشئ ولده محمدًا كما نشأ هو فأرسله إلى قرطبة يطلب العلم والأدب ويسمع الحديث، وقد لوحظ على محمد بن أبي عامر منذ سنه المبكر الطموح إلى السلطان واهتمام بالسياسة، فبينما كان زملاؤه ينصرفون إلى القراءة والاستذكار كان المنصور مشغولاً بدراسة الوضع السياسي والأحوال العامة والشخصيات ذات الأهمية في قرطبة.

وبعد أن أتم دراسته في جامع قرطبة لاحظ أن الكثيرين من خدم القصر لا يحسنون الكتابة فاتخذ له مكانًا قرب القصر وأخذ يكتب للصقالبة ونساء القصر فانتشر ذكره بين رجال البلاط. وعرف بالدقة في التحرير وجودة الخط، وقد قدر له أن يتصل بزوجة الخليفة وأم ولي العهد السيدة صبح البشكنسية صاحبة الصيت الواسع والسلطان البعيد، فقد ذهب أحد خدمها إليه ليكتب خطابًا تحتاجه سيدة القصر الأولى فأجاد الكتابة ولفت نظرها فأخذت تعهد إليه بكتابة رسائلها كلها ثم أوصت به عند رجال الدولة فعين قاضيًا للمواريث ثم قاضيًا لإشبيلية ثم اختارته السيدة صبح بعد ذلك مدرسًا لابنها عبد الرحمن بن هشام، ثم عين وكيلاً على أملاك الأمير، وقد بدأ منذ ذلك الحين ينظم خطته للاستيلاء على السلطة، فعرف أن الوسيلة الوحيدة هي السيطرة على الجيش. ومن هنا بدأ يتجه إلى الوظائف التي تجعله على صلة بالعسكريين. فانتهز فرصة انتدابه للقضاء في جيش إسبانيا الإسلامية العامل في المغرب وتقرب من القواد حتى كسب مودة الكثيرين منهم، ثم عهد إليه الحكم المستنصر بالتحقيق في الأموال التي كانت تنفق في المغرب العربي،

وكان الكثير منها يسرق وينهب غير أن المنصور وجد أنه ليس من الحكمة أن يتهم العسكريين بل استغل الفرصة ليكسب ثقتهم. واستطاع أن يجذب إليه عدداً عظيماً من عرب العاربة البربر ثم عاد إلى قرطبة وقد علت مكانته. ثم توفي الحكم المستنصر واختلف رجال البلاط على نحو ما رأينا فسارع محمد ابن أبي عامر وأيد السيدة صبح حتى تمت الخلافة لابنها هشام بل قاد جماعة من الجند تولت القضاء على الأمير المنافس المغيرة بن عبد الرحمن، وظهر أمام أم الخليفة الجديد على أنه الضامن الوحيد لبقاء الأمر في يده، وبالفعل أخذ الرجل الذكي يرتب أموره فتولى أثناء ذلك دار السكة وأخذ يهدي الأموال للناس، دون حساب، فجذب القلوب واطمأن إليه الكثيرون، ثم تقدم إلى صفوف الوزراء متقرباً من كبير الحجاب أبي جعفر المصحفي. غير أنه يبدو أن طموحه لم يكن يعرف حدوداً أو يعبأ بولاء لأحد أو حتى بمبادئ الأخلاق فتنكر للمصحفي الحاجب وتغلب عليه مستعيناً بغالب أكبر قواد إسبانيا الإسلامية، ولم يكد يتم له ذلك حتى بدأ يتخلص من غالب نفسه، وكان قد تزوج ابنته ولكن حتى هذه الصلات لم تحل دون تدبيره اغتياله، وبهذا تخلص من أكبر عدوين! من الحاجب المصحفي، ومن القائد غالب. ثم استدار لصقالبة القصر فتخلص منهم وشردهم بل امتد طموحه إلى شخص الخليفة نفسه فحجر عليه وحال بينه وبين الناس وانفرد بالأمر في الدولة كلها. لم يكتف المنصور بالسيطرة على قصور الخلافة حتى أصبح القوة الوحيدة في العاصمة بل أراد أن يمتد سلطانه إلى صميم الدولة نفسها سواء في العاصمة أو الأقاليم. وقد استطاع أن ينشر نفوذه في الجيش الإسباني نفسه ليصبح أداة من أدواته خاضعاً لمشيئته يحمي سلطانه وينفذ مآربه، ولتحقيق ذلك أدخل تطوراً خطيراً في تكوين جيش إسبانيا الإسلامية التقليدي، فقد

كان هذا الجيش يتألف من عدة طوائف منها أجناد العرب الذين يفدون من أقاليم الدولة كلما وضحت الحاجة إليهم، وكانوا في الحقيقة عصب الجيش وروحه المعنوية، ثم طائفة ثانية من المرتزقة من الصقالبة أو غيرهم. وكان هؤلاء في الحقيقة هم القوة الضاربة، ولكن كانت تنقصهم الروح المعنوية والإيمان بالحرية التي لا بد منها لكي يكون الإنسان جنديًا وطنيًا. ثم الطائفة الثالثة وهم المطوعة وكانوا في الغالب حشودًا غير منظمة تتقدم الجيش وتقوم ببعض الأعمال العسكرية الهامة، وفي الغالب كان القواد يلقون بهم في المراكز الخطرة أو يجعلونهم في الطليعة.

بدأ المنصور بإبعاد العرب عن الجيش فكأنه في الحقيقة أفقد الجيش روحه المعنوية وقوته الضاربة الحقيقية. ثم امتدت يديه إلى الطائفة الثانية فأبعد الصقالبة القدماء، فكأنه أبعد طوائف من العسكريين كانوا قد أتقنوا القتال وعرفوا أساليبه وأتى بجماعات جديدة كانت تحتاج إلى فترة طويلة من التدريب لتصل إلى نفس المستوى. ولم يقنع المنصور بسيطرته على هذا النحو بل سيطر على الجهاز الإداري كله في العاصمة والأقاليم، فقد ولَّي على وظائف الإقليم رجالاً مخلصين له ينفذون سياسته ويأتمرون بأمره. وكان كلهم من طراز المنصور يمثلون مدرسته أحسن تمثيل من الوصولية والانتهازية مهما كانت الوسائل والسبل، وقد ظهرت طبائعهم على حقيقتها بعد وفاة المنصور، وفي أثناء الفتنة الكبرى التي قضت على الخلافة، فقد تحولوا إلى ثعالب طامعين في السلطة والمال غير مكترثين بمبدأ أو بقانون، وكونوا في عصر المحنة أشبه بحزب سمي بجماعة العامريين لعبوا دورًا محزنًا في عصر ملوك الطوائف. منذ أن قبض محمد بن أبي عامر على مقاليد الحكم في 367هـ/ 977م رأى ككل حاكم مستبد أنه لا بد له من أن يعتمد على جيش قوي يدين

له بالولاء وكان عبد الرحمن الناصر بحكمته السياسية يعتمد في حربه على جنود إسبانيا الإسلامية ولا يستعين بالمرتزقة - ومعظمهم من بربر شمال أفريقيا - إلا في نطاق محدود. ثم أتى الحكم المستنصر فكان من أخطائه الاستكثار من هؤلاء المرتزقة. أما ابن أبي عامر فلم يكن كبير الثقة بجند إسبانيا الإسلامية لما يعرفه من ولائهم للبيت الأموي، فعمل على استجلاب كثير من هؤلاء المرتزقة البربر ولا سيما من صنهاجة الذين كانوا دائمًا يضمرون الكراهية للبيت الأموي. وكان هؤلاء جنودًا محترفين معروفين بفروسيتهم وشجاعتهم الفائقة، وأغدق ابن أبي عامر عليهم العطاء واتخذهم عدة لحملاته التي شرع في تدويخ إسبانيا المسيحية بها. وقد استقر الحكم للمنصور كما اشتهى وكما صورت آماله فبدأ ينفذ سياسته، فأنفق جهدًا عظيمًا في معركة الجهاد فكان يخرج كل عام مرتين، حتى لقد قيل إنه خرج في حياته خمسين مرة ليضع هذا الجهاد في المرتبة الأولى من تاريخه، حتى لقد كان يوصي بأن يجمع غبار الحرب الذي علق بملابسه وأوصى بأن يهال عليه بعد وفاته. قاد المنصور اثنتين وخمسين غزوة على دول إسبانيا المسيحية الثلاث: مملكة نبرة ومملكة ليون وقومسية قشتالة. وكان من هذه الغزوات شواتٍ (جمع شاتية أي في فصل الشتاء) وصوائف (جمع صائفة ومنها أخذت الكلمة الإسبانية (Aceifa) وقد بلغ في هذه الغزوات ما لم يبلغه قائد مسلم من قبل، وألحق بهذه الدول المسيحية من الإذلال والتخريب ما لم تشهده في تاريخها أبدًا، وكان يعود من هذه الحملات كل عام بآلاف كثيرة من الأسرى والسبايا. ولا يتسع المجال للحديث عن هذه الغزوات التي استمرت طوال حكم المنصور على مدى ربع قرن، ولكننا سوف ننوه بأهمها: في 371هـ/ 981م اشتعلت الفتنة بين ابن أبي عامر وبين حميه وحليفه السابق

القائد غالب، فاستعان هذا بقومس قشتالة غرسية بن فرذلند (الذي كان قد خلف أباه في الحكم 970م) وبملك نبرة شانجة الثاني المعروف بأبركة فأرسل له هذا الملك ابنه رذمير ودارت معركة بالغة العنف في موضع يقال له (San Vin-cente) قرب مدينة سالم في محرم 371هـ/ يولية 981م وانتهت المعركة بهزيمة غالب وحليفيه وبمقتل الأمير رذمير. وبهذا الانتصار أزاح ابن أبي عامر القائد غالب من طريقه، وتلقب إثر عودته إلى قرطبة بلقب «المنصور بالله».

وكان ابن أبي عامر قد أوقع هزيمة أخرى في أغسطس من السنة نفسها بتحالف ثلاثي آخر جمع بين بنبلونة وقشتالة وملك ليون رذمير الثالث والتقى الحاجب العامري بجيوش الائتلاف في روطة (Rueda) قرب مدينة بلد الوليد (Valladolide) فألحق بالمسيحيين هزيمة أخرى قاسية ثار أهل جليقية على أثرها على ملكهم رذمير فخلعوه واختاروا للعرش ابن عم له هو برمند الثاني (Bermudo II) ودارت حرب أهلية انتهت باستيلاء برمند على ليون 373هـ/ 984م، فعقد الملك الجديد مع المنصور معاهدة صلح تعهد فيها بدفع جزية سنوية له. وفي عام 375هـ/ 985م وجه المنصور قواته إلى برشلونة فاحتل المدينة بعد أن ألحق بأميرها القومس (Borrell) (حكم بين 954م و 992م) هزيمة منكرة. وفي عام 376هـ/ 987م نقض برمند عهده مع المنصور وحاول طرد الجيش الذي تركه العامري في بلده. فقاد المنصور حملة استولى فيها على قلنبرية (شهر يونية من هذه السنة) ثم جرد حملة في السنة التالية استولت على سمرة ثم على ليون وخربت كلتا المدينتين. وفي 379هـ/ 989م اقتحم قشتالة واستولى على وخشمة وألحق بالقشتاليين هزيمة منكرة.

وفي 382هـ/ 992م انعقد الصلح مع نبرة ووفد ملكها شانجة أبركة على قرطبة، وكان قد أهدى ابنته إلى المنصور فأعتقها هذا وتزوج منها بعد إسلامها

فأنجبت له ولده عبد الرحمن الذي لقب من أجل ذلك بشنجول (Sanchuelo) (تصغير شانجة نسبة إلى جده لأمه ملك بنبلونة)، ووصل الملك إلى قرطبة في 3 رجب 382هـ/ 4 سبتمبر 992م وأبدى من مظاهر الخضوع ما لا سابقة له، إذ قبّل الأرض بين يدي المنصور وقبل يدي حفيده عبد الرحمن وقدميه. وفي 383هـ/ 993م أهدى ملك ليون أيضًا ابنته تيريسا (Teresa) إلى المنصور فأعتقها أيضًا وتزوجها وكان ذلك عربونًا لعقد الصلح بين الدولتين.

وفي 384هـ/ 994م ثار شانجة بن غرسية بن فرذلند (Sancho Garcia) على أبيه قومس قشتالة بتحريض من المنصور الذي اقتحم أرض قشتالة من جديد واستولى على قلونية (Clunia) وشنت إشتيبن (San Esteban de Gormaz)، وفي المعركة العنيفة التي دارت هناك لحقت جراحات بالغة بالقومس غرسية بن فرذلند وأسر، وأمر المنصور أطباءه بالعناية به، ولكنه توفي بمدينة سالم وهو في الطريق إلى قرطبة، وكان ذلك في ربيع الثاني 385هـ/ مايو 995م. وفي هذه السنة نفسها قاد المنصور حملتين: الأولى إلى بني غوميز (Beni Gómez) أصحاب شلطانية (Saldana) وقريون (Carrión de los Condes) والثانية على أرض ليون واستولى على كثير من الحصون والقلاع، واضطر برمند إلى طلب الصلح من جديد. وفي 387هـ/ 997م كانت أشهر حملات المنصور وأعظمها صيتًا وهي حملته على شنتياقب (San-tiago de Compostela) فتوجه المنصور من قرطبة آخذًا طريق الغرب فاحتل قصر أبي دانس (Alcacer do Sal) (في البرتغال) ومنها سار شمالاً فعبر نهر الدويرة نحو جليقية في أقصى الشمال الغربي وضرب مدينة إيليا (Iria Flavia) (التي تدعى اليوم «Padrón») ثم واصل طريقه إلى شنتياقب فوصل إليها في 10 أغسطس 997م فحرق المدينة ولكنه احترم ضريح القدس. وتوجهت سرايا

المنصور فألحقت الخراب بمدينة جليقية وبلغت مدينة كُرنة (La Coruna) الواقعة على أقصى الركن الشمالي الغربي لشبه الجزيرة، وهذه مواضع لم تطأها أقدام مسلم من قبل. وفي صيف 390هـ/ 1000م تزعم شانجة بن غرسيه ائتلافًا مسيحيًا جديدًا ضمه هو وغرسيه الثاني بن شانجة الملقب بالرعديد (Garcia Sánchez II, el Temblón) ملك بنبلونة (وكان قد خلف أباه في 995م) وألفونسو الخامس ملك ليون (وكان قد خلف أباه برمند في 999م)، وجمع جيشًا كبيرًا، فتوجه إليهم المنصور مخترقًا بلاد قشتالة من مدينة سالم، ودارت معركة بالغة العنف في المنطقة الجبلية المعروفة بصخرة جربيرة (Pena de Cer- vera) في 13 شعبان/ 30 يولية من هذه السنة، وانتهت المعركة بتمزق الجيوش المسيحية وبتخريب أراضي قشتالة ولا سيما مدينة برغش في منطقة بنبلونة. وقد قاد المنصور حملته الأخيرة إلى إسبانيا المسيحية في ربيع 392هـ/ 1002م متوجهًا إلى «La Roja» التابعة لقومسية قشتالة وفي الطريق إلى مدينة برغش خرّب دير «San Millán de la Cogolla» ولكن المرض داهمه وهو في طريق العودة وأدركته الوفاة في مدينة سالم حيث تم دفنه. قام المنصور إذن بنحو خمسين غزوة، ويعجب المؤرخون لضآلة النتائج التي وصل إليها، فلم يتمكن من إخماد قوة الممالك الشمالية ولم تكن قلة النتائج ضعفًا من المنصور، فقد جندت الدولة كل ما ملكت. إنما قلة النتيجة يبرره عمق المقاومة فقد كانت الممالك الشمالية قد قطعت شوطًا من التقدم بحيث لا تمحى بجرة قلم[1].

واصل المنصور سياسة الناصر والمستنصر في المغرب العربي، بل إنه مد نفوذ قرطبة إلى مناطق لم يبلغها من قبل، ففي ربيع عام 369هـ/ 980م عهد

(1) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 152.

المنصور إلى حليفه وصنيعه خزرون بن فلفول المغراوى بمهاجمة سجلماسة عاصمة دولة بني مدرار في أقصى جنوب المغرب فاستولى عليها وخطب لأول مرة على منابرها باسم الخليفة في إسبانيا الإسلامية. وفي السنة نفسها قام بلقين بن زيري عامل إفريقية للخليفة الفاطمي العزيز في مصر بحملة جريئة على طول سواحل المغرب العربي لإعادة السلطة الفاطمية إلى هذه البلاد وما زال في زحفه حتى وصل إلى قرب سبتة، ولكن المنصور أعد للقائه جيشًا قويًا فضلاً عن أسطوله الرابض في ميناء سبتة والجزيرة الخضراء، فاضطر بلقين إلى التراجع والعودة. وفي 375هـ/ 985م عاد الحسن بن جنون وكان من فلول أمراء الأدارسة إلى المغرب بعد زيارة لمصر وعده الخليفة الفاطمي خلالها بالمعونة لقاء مقاومة التدخل الإسباني الإسلامي في المغرب، ولكن قواد المنصور حاصروه فاضطر إلى الاستسلام واستدعاه المنصور إلى قرطبة ولكنه أمر باغتياله في الطريق، وبذلك صفا له جو المغرب. واتخذ المنصور صنائع له من زعماء البربر كان منهم زيري بن عطية المغراوي (من قبيلة زناتة)، ولكن زيري لم يلبث أن أعلن تمرده على قرطبة في 387هـ/ 997م فوجه إليه المنصور واضحًا الصقلبي قائد الثغر الأوسط وعززه بجيش قوي على رأسه ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر فوقع الاثنان بزيري هزيمة ساحقة، ودخل عبد الملك مدينة فاس دخول الفاتحين وعينه أبوه نائبًا عنه وحاكمًا على المغرب، وهكذا امتدت سلطة المنصور على المغرب الأقصى كله وعلى الجانب الغربي من المغرب الأوسط. وفي خلال ذلك لم يكف المنصور عن استقدام كثير من قواد البربر من زناتة وصنهاجة إلى الأندلس لكي يشاركوا في حربه ضد إسبانيا المسيحية، وعن استجلاب آلاف من فرسان البربر ومحاربيهم الأشداء لكي يلتحقوا بجيشه، وقدر لهؤلاء أن يتدخلوا على نحو خطير في

شؤون الأندلس كما سوف نرى. ولم تشغل هذه الأعمال العسكرية المتواصلة المنصور عن الاهتمام بالمنشآت العمرانية وعن تشجيع الثقافة والأدب. فقد بدأ حكمه الاستبدادي ببناء قصر ريفي له على مقربة من مدينة الزهراء وسماه العامرية. وفي 369هـ/ 979م، بنى مدينة جديدة سماها «الزاهرة» على ضفاف الوادي الكبير وأسكنها وزراءه وقواد جيوشه ورجال دولته، وكان يريد ببنائها إخمال مدينة الزاهرة. كذلك كان من أهم منشآته زيادته للمسجد الجامع بقرطبة بقدر الثلث من الناحية الشرقية حتى بلغت مساحة 24.300 متر مربع، ولكن البناء نفسه يعد فقيراً من الناحية الفنية إذا قيس بما قام به الحكم المستنصر. كذلك اهتم المنصور بالثقافة فاستدعى العالم اللغوي الأخباري الشاعر صاعداً البغدادي لينافس به أبا علي القالي الوافد على عبد الرحمن الناصر، وأغدق على الشعراء الذين كانوا ألسنة دعاية له فخلّدوا ذكر انتصاراته وكان من أشهرهم شاعره الأثير ابن دراج القسطلي. وتمثل جهود المنصور آخر جهد بذلته الخلافة الأموية قبل أن تحتضر وتموت، وقد ظل المنصور يحكم الأندلس أزيد من ربع قرن بيد من حديد، فقد كان رجلا نادر المثال دائب العمل شديد الحرص على ما يوطد سلطانه. ويرى المؤرخون أن هذه السياسة من جانب المنصور إن كانت مظهرها قوة فقد أضرت بالدولة؛ فإسراف الحاكم كما يقول ابن خلّدون في الطموح يضر بالرعية لأنه يرهقها في أمرها عسراً، فإذا انقضت أيامه انهار كل شيء. والمنصور في سبيل إقامة سلطانه وتوطيده قضى على دعائم القوة التي تكونت في الأندلس عبر العصور. قضى على العرب وعلى البيوت التي كانت تشد أزر البيت الأموي بل قضى على البيت الأموي نفسه. شرد رجاله وقتل ذوي الطموح من أمرائه. أما هشام المؤيد الخليفة الاسمي فقد حجر عليه المنصور ومنع الناس من الاتصال به حتى عندما يخرج من القصر لبعض شئونه، ومنع الناس من

أن يلجأوا إليه، فكان الخليفة موجودًا وغير موجود يحكم المنصور باسمه، أما هو فليس له من الأمر شيء[1]. كان من أعظم عباقرة رجال الحرب والسياسة، ولكن سياسته التي لم تلتزم أبدًا بقواعد الأخلاق كانت موجهة لخدمة مصالحه الخاصة، فقد ألحق مثلاً بإسبانيا المسيحية من التخريب والإذلال ما لم يلحقه أحد بها من قبل، ووصل إلى مواقع لم يصل إليها حتى الفاتحون الأولون، ولكن حملاته كانت قليلة الفاعلية فقد كان هدفه منها الانتصارات السريعة التي تبهر أنظار الشعب ولكن آثارها سريعة الزوال، فهو لم يحاول أن يسكن المسلمين في الأراضي التي كان يغزوها إسكان استقرار، بل كان يتقدم بجيوشه نحو المدن المسيحية فيهرب منها أهلها وقد امتلأت قلوبهم رعبًا فيدخل المدينة ويحرقها أو يخربها ثم ينقلب إلى إسبانيا الإسلامية فيرجع إليها أهلها وتعود الأمور كما كانت. وهذا هو شأن الحكام المستبدين ذوي السياسة الديماغوجية. وأسوأ ما حدث في عهده هو أنه حطم طبقة موالي بني أمية من رجال دولتهم الأكفاء الذين كانوا أركان الدولة الأندلسية، فحول بعضهم إلى حاشية له من المنافقين المجارين لسياسته، أما المعارضون فقد أزاحهم عن طريقه بقسوة، ففقدت البلاد ساستها ورجال دولتها الأكفاء، كذلك أضعف قوة جيش إسبانيا الإسلامية، إذ كان يشك في ولائه له واستعاض عنه إلى حد بعيد بالمرتزقة من البربر والصقالبة حتى أصبح هؤلاء طبقة عسكرية أرستقراطية تثير الكراهية في نفوس الإسبانيين الإسلاميين، على أن المنصور بشخصيته القوية الطاغية استطاع أن يحفظ التوازن بين القوى السياسية والعسكرية، لكن هذا التوازن كان رهينًا ببقائه هو في الحكم، فلما اختفى من المسرح السياسي بدأت مظاهر الاختلال. لقد بدت الأندلس في عهد المنصور

(1) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 153.

في أوج عظمتها وازدهارها ولكن عوامل الفساد والانحلال كانت تكمن وراء هذا الظاهر الذي يبهر النظر. وحينما بدأ الاختلال لم يحدث بشكل تدريجي، بل كان انهيارًا سريعًا مدويًا. وهذا في الحقيقة من آفات الحكم الفردي الاستبدادي في كل زمان ومكان.

المنصور في نظر المؤرخين:

يشهد المؤرخون القدماء للمنصور بالكرم، وبأنه كان يبذل الأموال للمتصلين به والفقراء خاصة، ورغم سفكه للدماء فقد كان يتظاهر بالتقوى، حريصًا في كل غزواته على حمل مصحف خطه بيده، ويقال إنه كان منصفًا عادلاً يزجر الظالم حتى لو كان من كبار حاشيته، وكان صبورًا حليمًا، ولكنهم ينعون عليه شغفه بمعاقرة الخمر، ولم يتخل عن ذلك إلا قبل وفاته بعامين. وتميز المنصور بأنه كان شغوفًا بالعلم والأدب، محبًا للعلماء والأدباء والشعراء ويناظرهم ويشترك معهم في نظم الشعر ويغدق عليهم، ساعده على ذلك نشأته في بيت علم وأدب، وبراعته في علوم الشريعة وفنون الأدب خلال فترة صباه. وحرص المنصور على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب، فأنشأ كثيرًا من دور العلم في قرطبة وأنفق عليها، وكان يزور المساجد والمدارس، ويمنح المكافآت للمتفوقين من الطلاب، كما حرص على جمع الكتب ومكافأة أصحابها، وقد منح «صاعد البغدادي» (500 دينار) مكافأة له على كتابه «الفصوص»، وكان يكره الفلسفة، ويرى أنها مخالفة للدين كما كان يبغض التنجيم ويطارد المنجمين، وقد استخرج من المكتبة الأموية جميع كتب الفلاسفة والدهريين وأحرقها بحضرة كبار العلماء، وما فعله «المنصور» أمر خطير، تسبب في ضياع ثروة علمية عظيمة. ونظرًا للشهرة الواسعة التي حققها المنصور، جاء إليه بعض ملوك النصارى واستعطفوه وتقربوا إليه وزوجوه من بناتهم. ويرى بعض المؤرخين المعاصرين

أن «ابن أبي عامر» من أعظم الرجال وأنه قام بما لم يقم به أحد الرجال وأنه قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام، فقد استطاع الاستيلاء على الحكم في دولة كبرى، وهي في أوج سلطانها ووجه أمورها بصورة مستبدة. ومع ذلك فإن هنا أموراً ثلاثة هي أكثر ما أضر به المنصور[1]:

1 - إقامته ملكه على جند مرتزقة تعالوا على الناس، واصطناعه لبيوت جديدة من زعانف الأسر، وصغار الفقهاء والطامعين، وتوليتهم وظائف القضاء والولايات، وقد أثقل هؤلاء على الناس وأرهقوهم بالمطالب، واستولوا على أموالهم، ومن هؤلاء بنو عباد في إشبيلية، ومن البربر الذين استعان بهم في النواحي، بنو الأفطس في بطليوس وبنو ذي النون جنوب غربي طليطلة - بالإضافة إلى الصقالبة الجدد الذين اشتراهم المنصور لحسابه ومن هؤلاء جميعًا يتكون الحزب العامري - وهم الذين قضوا على وحدة الأندلس فيما بعد، ويتكون منهم ما يعرف بملوك الطوائف.

2 - انعدام المفهوم الأخلاقي عنده، وهذا جعل الناس يخافونه ولا يحبونه، بل إن أنصاره ما كانوا يأمنونه؛ لأنه كان كثير التجسس فكان يطلب من العبيد والجواري أن يكونوا عيونًا في بيوتهم وأفسد أخلاق الناس بالرشوة ونحوها.

3 - حجر المنصور على الخليفة «هشام»، وتعيين ابنه «عبد الملك بن المنصور» وليًا لعهده، والتخلص من معارضيه بالتآمر والقتل.

على كل حال توفي المنصور في عام 1003م وهشام المؤيد حي قليل الشأن مسلوب السلطة وتوارث أبناء المنصور سلطانه ونفوذه، خلفه ابنه عبد الملك المظفر ثم أخوه عبد الرحمن، حتى قامت ثورة الأمويين في قرطبة

(1) د. عبد الله جمال الدين، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 72.

يقودها شاب من سلالة عبد الرحمن الناصر يسمى محمد بن عبد الجبار، قضى محمد هذا على سلطان العامريين بقرطبة. وبدلاً من أن يحيى سلطان هشام المظلوم أعلن نفسه خليفة واتخذ لقب المهدي ونصب البربر خليفة آخر اتخذ اسم المستعين، وشهدت البلاد ثلاثة خلفاء في وقت واحد: المؤيد، والمهدي، والمستعين. فانهارت الخلافة الأموية رمز قوة الأندلس وعزتها ونهضتها. فكانت هذه التصورات بداية الفتنة الكبرى التي عاشها الأندلس في عصر ملوك الطوائف - هذا العصر الذي يمتد معظم القرن الخامس الهجري والذي ينتهي بدخول المرابطين إلى البلاد حوالي 479هـ/ 1086م[1].

عبد الملك المظفر بن المنصور العامري (392هـ/ 1002م - 399هـ/ 1008م)

تحولت الحجابة إلى منصب وراثي بعد أن تلاشت سلطة الخليفة الشرعي على يد المنصور فلم يكد المنصور يرحل عن الدنيا حتى قبض ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر على مقاليد الأمور، وكان قد ورث عن أبيه كثيراً من مواهبه العسكرية دون السياسية، وكان يعرف أن بقاء الدولة العامرية رهين بالانتصارات العسكرية، فكرر سيرة أبيه في مواصلة الحرب ضد إسبانيا المسيحية، وكان قومس برشلونة رامون بوريل الثالث (El Conde de Barcelona, Ramón Borrel III) قد نقض الصلح فتوجه عبد الملك في صيف 393هـ/ 1003م إلى بلاده آخذاً طريق سرقسطة ثم لاردة وهاجم أرض قطلونية من حدودها الغربية فاحتل موقعين من مواقعها: ممقصر (Monmagstre) ومدنيش (Meyá) وفتك بحاميتي الموقعين ويبدو أنه تقدم حتى بلدة مانريسا (Manresa) واضطر القومس القطلاني لطلب الصلح. وفي هذه الحملة يعلن عبد الملك إلى جنوده أن الدولة مستعدة لمعونة من يريد أن يستقر

---

(1) د. حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 152.

في الأرض المفتوحة وتوفر على زراعتها واستثمارها، وهذه أول محاولة لاستبدال سياسة التخريب التي جرى عليها المنصور بسياسة «استعمار» بمعنى الكلمة، غير أنها محاولة أتت بعد فوات الأوان. وفي صيف 395هـ/ 1005م قاد عبد الملك حملة أخرى ضد مملكة ليون فتوجه إلى مدينة سمورة ثم جاوزها شمالاً متوغلاً في وديان ليون العليا حتى استولى على حصن (Barrios de Luna) المنيع على نهر (Orbigo)، وعاد من هذه الحملة الجريئة بعدد كبير من الأسرى والسبايا. وفي صيف 396هـ/ 1006م قاد حملة أخرى أخذ فيها طريق سرقسطة ثم وشقة ثم بربشتر (Barbastro)، ومنها هاجم قومسية (Boltana) الواقعة عل سفوح جبال البيرينية ودمر حصن شنت يانش (San Juan). وفي السنة التالية هاجم هذه المنطقة أيضًا، ولكنه هاجم أيضًا في هذه المرة قومسية ريباغورثا (El Condado de Ribagorza) المجاورة. وفي صيف 397هـ/ 1007م توجه الحاجب العامري على رأس جيش كبير لمواجهة ائتلاف مسيحي بقيادة قومس قشتالة شانجة بن غرسية، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للقومس القشتالي وباستيلاء عبد الملك على معقل قلونية على ضفة نهر الدويرة. على أن آخر حملة قادها المظفر في صيف 398هـ/ 1008م ضد قشتالة أيضًا هي التي شهدت وقوعه فريسة مرض صدري ثم وفاته في 16 صفر في 20 أكتوبر من العام نفسه بعد حكم لم يتجاوز ست سنوات وشهرين. ونأتي إلى المرحلة الثالثة من مراحل عصر الخلافة وهي مرحلة الفتنة التي يطلق عليها المسلمون في إسبانيا اسم «البربرية» بسبب الدور الكبير الحاسم الذي قامت به فيها العناصر البربرية في جيوش الخلافة. وقد بدأت هذه الفتنة أو الحرب الأهلية بعد وفاة عبد الملك المظفر وولاية أخيه عبد الرحمن الحجابة بعدة شهور.. وكان عبد الرحمن هذا ابنًا للأميرة عبدة (هكذا تسمت بعد إسلامها) بنت ملك نبرة شانجة الثاني بن غرسيه الملقب

بأبركة (Sancho Garcés II Abarca)، إذ إن هذا الملك أهدى ابنته للمنصور فأعتقها وتزوج منها وأولدها عبد الرحمن الذي كان أهل قرطبة يلقبونه بسبب ذلك بشنجول (Sanchuelo) (Sanhol) وهو تصغير (Sancho) إشارة إلى جده لأمه ملك بنبلونة. ولم يكن عبد الرحمن على شيء من صفات أبيه ولا أخيه، بل كان شابًا أهوج طائشًا إذ كان أول ما قام به هو إرغام الخليفة هشام المؤيد على إصدار مرسوم بتعيينه ولي عهد له، وهو أمر لم يجرؤ عليه أبوه المنصور ولا أخوه المظفر، إذ اكتفيا بأن تكون لهما السلطة الفعلية ولم يطمحا في انتزاع هذه المظاهر الشكلية التي بقيت للخليفة المحجور عليه. وأثر هذا القرار ثائرة أهل قرطبة الذين كانوا يكرهون دولة العامريين وإن لم يجاهروا بذلك. وكان أول المثيرين للتمرد هم أمراء البيت الأموي من سلالة عبد الرحمن الناصر. غير أنهم تربصوا الفرصة الملائمة، وحانت هذه الفرصة حينما قرر عبد الرحمن الخروج في غزوة لإسبانيا المسيحية في منتصف جمادي الأولى 399هـ/ منتصف يناير 1009م، وكان القائم بالثورة شابًا جريئًا متهورًا من أمراء المروانية هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، فقام هذا بمهاجمة قصر الخلافة في قرطبة في 17 جمادى الثانية/ 15 فبراير وأرغم هشامًا المؤيد على التنازل له عن الخلافة، وتلقب بلقب «المهدي بالله». وتم بعد ذلك نهب مدينة الزاهرة وتدميرها بأيدي عامة أهل قرطبة من أنصار المهدي. أما عبد الرحمن شنجو فقد تملكه الجزع وتخلى عنه أنصاره وتفرقوا وحينما وصل في طريق العودة إلى قرطبة إلى قرية أملاط (Guadalmellato) فاجأته سرية من الجند كان المهدي قد أرسلها للإمساك به إلا أن الجنود ذبحوه هناك في 3 رجب 399هـ/ مارس 1009م، وبهذا تنتهي دولة العامريين[1]. وكان على رأس حركة المقاومة ضد حكم بني عامر،

(1) د. محمود مكى، المرجع السابق، ص 98.

محمد بن هشام ابن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وكان والده هشام قد اشترك في مؤامرة على المنصور ابن أبي عامر فأعدمه. وقبض محمد بن هشام على الخليفة الضعيف هشام المؤيد، وسجنه في قصره، وأعلن نفسه خليفة مكانه، وتسمى بلقب المهدي، وجعل ولي عهده ابن عمه سليمان بن هشام ابن سليمان بن الناصر. وبدلاً من أن يمسك الخليفة الجديد الأمر بيد من حديد، ويسهر على تقويم ما فسد خلال فترة حكم بني عامر، وجمع الناس حول الخلافة، وحول حكم بني أمية، الذي كاد الناس ينسونه فإن الخليفة الجديد أخذ في الفساد والإفساد، وناصب البربر العداء، وأخذ في التحريض على قتلهم؛ لأنهم كانوا عدة الحكم والقوة في دولة بني عامر، وسجن ولي عهده سليمان بن هشام لنصحه إياه في الاعتدال والاستقامة، والسهر على حرمة الحكم ومصلحة الشعب. وجاء هشام بن سليمان الناصر - والد ولي العهد المسجون - مغبة تصرفات المهدي على الحكم، وعلى مستقبل البيت الأموي، ومن أن يفلت زمام الأمور من بين أيدي الأمويين، فأخذ يسعى في خلع المهدي، وانضم إليه البربر والغلمان العامريون، ومن كانوا يتوجسون خيفة من الحكم الجديد، وانطلقت الثورة، وأحاط الثائرون بقصر الخليفة، فقاتلهم جند الخلافة وانتصر عليهم، وأبادهم إبادة شبه تامة. ثم أخذ يتتبع المناوئين له، وصبّ نقمته بصورة خاصة على البربر، فحرض العامة على قتلهم، وجعل لرؤوسهم ثمنًا يدفعه لمن يقتلهم فانطلق العامة والدهماء يقتلونهم في كل مكان وجدوهم فيه. فانسحب البربر شمالاً إلى قلعة رباح، وصحبهم سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، فالتفوا حوله وبايعوه بالخلافة، وتلقب بالمستعين، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم، ويستعدون للعمل لمقاومة المهدي.

الاستعانة بالإسبان والثمن الغالي:

وفكر البربر (العـرب العاربة) ومعهم المسـتعين بالاستعانـة بالإسبان في الشمال، فأخذوا في مفاوضة سانشو غرسيه قشتالة على إمدادهم بالجند، وتم الاتفاق بينهم على ذلك على أن يتعهدوا بالتنـازل له عن عدد كبير من القلاع والحصون والمدن مقابل عونه لهم. وعلم الفتى واضح - قائد الحدود الشمالية - وهو من الغلمـان العـامريين، بمـا يدور من اتصالات بين الـبربر (العـرب العـاربة) والنصـارى، ومـا يجـري من مفـاوضـات على العـون النصـراني للمسلمين، وعلى تنازل المسلمين للنصارى عن الحصـون والقلاع، فاستاء من ذلك، ونادى في مدن الثغور بأن تقاوم مـشاريع البربر (العرب العاربة)، وأن تمتنع عن تقديم العون والمؤن إلـيهم، واتصل بالمهدي في قرطبة يعلمـه بتأييده وعزمـه على مقـاومة البـربر (العرب العـاربة)، فأيده المـهدي وأمده ببـعض القوات. وضـاقت الأمور بالبربر فلجأوا إلـى حليفهم سانشـو أمير قشـتالة، فأمدهم بما طلبـوه من مال ومؤن وقوات. وسار واضح بقواته لقـتال البربر، فالتقى بهم قرب قلعة هـنارس (أو قلعة السلام) في ذي الحجة 399هـ فدارت الدائرة على واضح، وهزم جيـشه، فاتجه إلى قرطبـة على رأس أربعمائة ممن نجو من المعركة. ولاحقـهم المستعين والبربر، ومعهم القوات القشـتالية بقيادة أمير قـشتالة سانشو غـرسيه حتى وصلوا ضواحي قـرطبة في ربيع الأول عام 400هـ، وخرج الفتـى واضح في قوات قرطبة لقـتالهم، وبعد معارك عـنيفة انهزم جـيش قرطبة، فـارتد إلى المدينة، وتحصن فيـها بعد أن قـتل منه قرابة عشرة آلاف رجل. ولاحق البربر المنهزمين، وحاصـروا قرطبة وضيقوا الخناق عليها. وحمل الخوف الخليفة المهدي على إظهار الخليفة المخلوع هشام المؤيد، وأعلن أنه نائبه ويعمل بـاسمه، ودعا البربر وحلفـاءهم المسلمين إلى طاعته.

فلم يقبل البربر بذلك، وتمسكوا بخليفته سليمان المستعين. ولما ضاقت الأمور بالمهدي وأهل قرطبة، هرب المهدي سرًا إلى طليطلة، ودخل زاوي بن زيري زعيم البربر قصر الخلافة، ودخل أثره المستعين في 15 ربيع الأول 400هـ وبايعه الناس بالخلافة.

دخل أمير قشتالة مسلِّمًا على المستعين ومهنئًا بالنصر، فاستقبل استقبالاً حافلاً، ووعده البربر بتسليمه الحصون والقلاع والمدن المتفق عليها، متى استقرت الأمور، فترك قوة صغيرة من جيشه في قرطبة وعاد إلى بلاده. وأخذ المهدي في طليطلة ينظم أموره ويجمع القوات، وانضم إليه الفتى واضح، وأعلنت مدن الثغور ولاءها له. فسار المستعين بقوات البربر وقرطبة إلى طليطلة، ودعا أهلها إلى طاعته، فأبوا عليه ذلك، فسار إلى مدينة سالم فلم تفتح له أبوابها فارتد إلى قرطبة[1].

استنجاد الطرف الآخر بالإسبان والشروط المبهظة:

سار الفتى واضح إلى طرطوشة، وأخذ يتصل بأمير برشلونة الكونت ريموند باريل، وأمير أورقلة الكونت أرمنجو، واتفق معهما على أن يمداه بجيش لمقاتلة البربر في قرطبة، وكان من جملة الشروط الباهظة التي تم الاتفاق عليها: - أن يقدم المسلمون لقواتهما الطعام والمؤن. - أن يتقاضى كل من الأميرين مئة دينار في اليوم. - أن يتناول كل جندي دينارين في اليوم. - أن يستولي النصارى على ما يغنمونه من سلاح البربر وأموالهم. - أن يستولوا على مدينة سالم وتكون لهم. وسار النصارى فورًا إلى مدينة سالم فاحتلوها بعد أن أخلاها الفتى واضح من أهلها المسلمون. وسار الأميران

(1) د. أسعد حوامدة، المرجع السابق، ص 91.

النصرانيان مع واضح إلى طليطلة فانضم إليهم المهدي، وسارت قواتهم مجتمعة إلى قرطبة. وخرج المستعين إليهم بقوات البربر وقوات قرطبة، والتقى الفريقان على مسافة حوالي العشرين كيلو مترًا شمالي قرطبة في منتصف شوال 400هـ، وقاتل البربر قتالاً شديدًا بقيادة زاوي بن زيري وقتلوا الكونت أرمنجو أمير أورقلة. واخترقت قوة من الفرنج صفوف البربر، واقتربت من مكان المستعين في المؤخرة فظن أن الهزيمة قد وقعت ففر هاربًا، فانكشفت مؤخرة البربر وارتدوا إلى الزهراء فأخذوا أهلها وأموالهم وساروا نحو الجنوب وفرَّ سليمان نحو الشرق ووصل إلى شاطبة. ودخل المهدي وواضح ومن معهما من الفرنج قرطبة، وجدَّد المهدي البيعة لنفسه، وعين واضحًا لحجابته. ولاحق المهدي البربر يريد القضاء عليهم نهائيًا، ومعه جيش من الفرنج يبلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل، فأدركهم قرب الجزيرة الخضراء في ذي القعدة 400هـ، ونشبت هناك معركة بالغة العنف قاتل فيها الجانبان قتالاً شديدًا، فدارت الدائرة على المهدي وحلفائه، وقتل من الفرنج وحدهم ثلاثة آلاف. وارتد المهدي إلى قرطبة منهزمًا، وعاد النصارى إلى بلادهم، فلاحق البربر المهدي إلى ناحية (رية)، ولما علم المستعين بالنصر أسرع إلى معسكر البربر بمن معه من القوات، ووصل المهدي إلى قرطبة وباشر في تحصينها، ولكن الفتى واضح ومَن معه من الغلمان العامريين أخرجوا الخليفة هشام المؤيد من محبسه، وقبضوا على المهدي وأتوا به بين يدي الخليفة وضربوا عنقه وكان ذلك في ذي الحجة من عام 400هـ. ودعوا البربر والمستعين إلى طاعة الخليفة المؤيد فلم يقبلوا بذلك.

التسابق إلى طلب العون من الإسبان:

وحاول البربر وسليمان المستعين أن يحصلوا على معونة سانشو غرسية أمير قشتالة، وعرضوا عليه أن يسلموه جميع الحصون الأمامية التي كان الحكم

والمنصور قد افتتحاها، مقابل عونه لهم على استعادة قرطبة ففضل سانشو أن يحصل على ما يريد من الخليفة الشرعي هشام المؤيد، وأرسل رسله إلى قرطبة يطالبون الخليفة المؤيد بتسليمه جميع الحصون والقلاع التي سبق أن افتتحها الحكم والمنصور، ووصل رسله إلى قرطبة بينما كانت قوات البربر تدخل الزهراء غربي قرطبة في ربيع الأول 401 هـ، فاضطر الخليفة إلى الرضوخ إلى مطالب سانشو مخافة أن يتفق عليه مع البربر والمستعين، وتم عقد مجلس من الفقهاء والقضاة وكتب محضر بذلك، وسلم إلى سانشو أكثر من 200 موقع وحصن وقلعة ومدينة. وشدد البربر حصارهم على قرطبة حتى ضاق الأمر بالناس، وشعر واضح أن الأمر ميئوس منه فأراد الهرب إلى الشمال، وعلم القادة ووجوه الناس بعزمه فقتلوه ونهبوا دوره وأمواله. وحاول الخليفة والقرطبيون التفاهم مع البربر فلم يقبلوا ذلك، ثم قتل القرطبيون حباسة بن ماكسن - ابن أخي قائد البربر زيري بن زاوي - في إحدى المعارك، فهاج البربر لمقتله وهاجموا المدينة هجومًا عنيفًا، وقتل أهل قرطبة بشجاعة وعنف، ولكنهم هزموا ودخل البربسر قرطبة. وطلب القاضي ابن زكوان والفقهاء الأمان من المستعين ومن البربر للناس، فمنوهم إياه لقاء دفع مبالغ مالية كبيرة من المال.-ودخل البربر المدينة فقتلوا الشيوخ والأطفال وخربوا الدور واغتصبوا النساء. وفي اليوم التالي دخل المستعين قرطبة فأحضر الخليفة هشامًا المؤيد بين يديه وعنّفه على ما كان منه، ويقال إنه حبسه ثم قتل بعد ذلك. وتسلم البربر السلطة الفعلية في قرطبة، فأراد سليمان المستعين أن يبعدهم عن العاصمة بشكل لا يوحشهم، ولا يبدو وكأنه محاولة للتخلص منهم، فأقطعهم مقاطعات الأندلس، وأعطى عليًا والقاسم ابن حمود (وهما من نسل الإمام الحسن بن علي) ولاية الثغور في المغرب، فولي عليًا على

سبتة والقاسم على طنجة والجزيرة الخضراء. وطمع علي بن حمود في الاستيلاء على الخلافة، وأخذ يبحث عن حلفاء ومؤيدين له بين الناقمين على حكم البربر وسليمان المستعين، فوجد ضالته في الغلمان العامريين، الذين فر أكثرهم إلى شرقي الأندلس خوفًا من بطش البربر، وأقاموا لأنفسهم إمارات مستقلة يتمتعون فيها. فأخذ علي بن حمود في مكاتبة خيران كبير الفتيان العامريين في المرية، وحثه على التعاون لإنقاذ البلاد من البلاء الجاثم على صدرها، ونشر رسالة زعم أن الخليفة هشام المؤيد أرسلها إليه يطلب فيها إنقاذه من أسر البربر، ويوصي إليه فيها بالخلافة من بعده. ولما استوثق عليٌّ من ولاء الفتيان العامريين في الجنوب، عبر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء في أواخر عام 406هـ وسار بقواته إلى مالقة فسلمها إليه واليها عامر بن فتوح، وسار خيران بقواته من المرية والتقى بعلي في المنكب، واتجهت القوات المتحالفة صوب قرطبة، وانضم إليها أثناء زحفها زاوي بن زيري وحبوس الصنهاجي في قوات بربر غرناطة. وخرج سليمان المستعين لقتالهم، وجرت معركة شديدة انهزم فيها جند المستعين، وقتل كثير من رجاله، ووقع المستعين وأبوه وأخوه أسرى، ودخل علي بن حمود قصر قرطبة في 28 المحرم 407هـ (يولية 1016م) وبحث علي عن الخليفة هشام المؤيد فلم يجده، ولما علم أنه قتل، أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه. وبويع له بالخلافة، وتلقب بالناصر لدين الله. وبمقتل سليمان المستعين انطوت آخر صفحة في حياة الدولة الأموية بعد أن حكمت 268 سنة. حاول علي بن حمود فرض هيبة الدولة على الجميع، وألزم الزعماء البربر باحترام القانون، فانضبطت الأمور، واطمأنت النفوس بعض الشيء.

ولما لم يخبر خيران العامـري - الذي آزر عليًا بن حمود - هشام المؤيد حيًـا، خاف على نفسه من الخليـفة الجديد، وسـار بقواته إلى شرقي إسبـانيا الإسلامية، الذي كان في أيدي إخوانه الفتـيان العامريين. وأعلن انشقاقه عن علي بن حمود، وبايع بالخلافـة عبد الرحمن بن محمد بن عـبد الله بن عبد الرحمن الناصر، بعد أن استدعاه إليه من جيان، ولقبه بالمرتضى. وانضم إليه المنذر التجيبي قائد الثغر الأعلى ومـعه عدد من المرتزقة النصارى، وانضم إليه عدد من مدن الشرق مـثل بلنسية وشاطبة وطرطوشة. وسـار الخليفة المرتضى بمن اجـتمع إليـه من القوات لقـتال البـربر (العرب العـاربة) الموالين لعلي بن حمود في غرناطة، فلقيهم زاوي بن زيري أمير غرناطة، وقاتلهم قتالاً شديدًا فمزق جموعهم، وسقط المرتضى قتـيلاً وهرب خيران والمنذر التجيبي بمن نجا من قـواتهمـا إلى المرية، وعاد الفـرنج نحو بلادهم في الشـمال. وبعـد هذه المعركة تقسـمت إسبانيا الإسلامية إلى إمـارات متصارعة متنافـسة تتسابق إلى الاستـعانة بـالإسبان فـي حربهـا مع إخوانهـا، وتدفع له ثمنًا لعونهم مـدنًا وحصونًا وقلاعًـا وأموالاً، واستمر الحكام في خصوماتـهم وتقاتلهم وبحثهم عن إرواء أحـقـاده من إخوانهم وتـسابقـوا في طلب العـون من النصـارى، والمبالغـة في بذل الثمن الغـالي المبهظ للإسبـان، للحصـول على هذا العون الكاذب، حتى أصـبحـوا جميعًا، ودون اسـتثناء، تابعين للحكام الإسـبان، يدينون لهم بالولاء، ويخضعـون لهم خضوعًا تامًا، ويدفعـون إليهم الجزية، ولم يبذل الإسبان في سـبيل تحقيق هذا التفوق على المسلـمين كبير عناء. ولا تحملوا تضحيات تذكر، ومن الغريب أن يكون الحكام المسلمون ذي أنفة وعزة ونخوة في حروبهم بعضهم مع بعض، لا يغتفرون زلة، ولا يعفون عن هفوة أو ذنب ولو كان ذلك الذنـب تافهًا حـقيرًا، مع أنهم كـانوا في نفس الوقت

كرامًا متسامحين تجاه أعدائهم الإسبان يحتملون الأذى والمهانة بصدور رحبة لا يثورون لمهانــة تلحق بهم ولا يتأثرون لذلة أصابتهم، ولا يتــململون من تجاوز على حرمات شعبهم وكرامــاته وأعراضه. لقد كان هؤلاء الطامعون في الحكم أعداء لأنفسهم ولأهلهم ولدينهم وقومهـم، نسوا الله فأنساهم انفسهم، وأذلهم وأخزاهم، وفضلوا مصالحهم الخاصة على مـصالح أمتهم ودينهم فعاقبهم الله بأن انتزع الملك من أيديــهم، وسلط عليهم أعداءهم. وبددوا أمــوال الأمة في بناء القصــور والتســابق إلى اقتناء الجــواري وفي الإنفاق على الملاذ وتحـصيل أطايب العيش فضعفوا أمام أعدائهم، فاستولى الأعداء على ما في أيديهم من مال وحكم، وانزووا في زوايا النسيان من التاريخ[1].

* * *

---

(1) د. أسعد حواميد، المرجع السابق، ص 95.

إسبانيا الإسلامية في عصر الطوائف

حينما انتهى عهد الدولة الأموية في إسبانيا الإسلامية في عام 407هـ (1016م) تقسم ما تبقى بيد المسلمين من أرض الأندلس إلى دويلات وإمارات، بلغت العشرين عدداً، وعرفت في التاريخ باسم دول الطوائف، وهذه الدويلات أو الإمارات هي:

1 - دولة بني جهور في قرطبة (422-463هـ/ 1031-1070م).

2 - دولة بني عباد في إشبيلية (414-484هـ/ 1023-1091م).

3 - دولة بني الأفطس في بطليوس (413-488هـ/ 1022-1094م).

4 - دولة بني يحيى في لبلة (414-445هـ/ 1023-1053م).

5 - دولة بني مزين في باجة (430-455هـ/ 1039-1063م).

6 - دولة بني البكري في ولبة وجزيرة شلطيش (417-443هـ/ 1012-1051م).

7 - دولة بني هارون في شنتمرية الغرب (417-443هـ/ 1026-1051م).

8 - دولة بني ذي النون في طليطلة (427-478هـ/ 1036-1085م).

9 - دولة بني مناد في غرناطة (459-483هـ/ 1013-1090م).

10 - دولة بني برزال في قرمونة (404-459هـ/ 1013-1067م).

11 - دولة بني دمر في مورور (403-458هـ/ 1013-1066م).

12 - دولة بني خزرون في اركش (402-461هـ/ 1011-1068م).

13 - دولة بني يفرن في روندة (406-457هـ/ 1015-1065م).

14 - مملكة المرية (405-484هـ/ 1014-1091م).

15 - مملكة مرسية (403-484هـ/ 1012-1091م).

16 - مملكة دانية والجزائر الشرقية (400-484هـ/ 1009-1091م).

17 - مملكة بلنسية (400-487هـ/ 1009-1094م). حكمها السيد الكمبيادور والقشتاليون (487-495هـ/ 1094-1102م).

18 - بني رزين في شنتمرية الشرق (403-497هـ/ 1012-1104م).

19 - إمارة البوينت (400-495هـ/ 1009-1102م).

20 - مملكة سرقسطة (بني هود)

(408هـ إلى ما بعد 503هـ بقليل/ 1017 - ما بعد 1110م).

عبرت القوات الإسلامية في عام 92هـ/ 711م، من عرب وبربر، مضيق جبل طارق منطلقة من المغرب إلى إسبانيا، ولم تستغرق هذه القوات طول وقت حتى أطاحت بحكم أمراء القوط الغربيين في هذه البلاد، وهم الصفوة العسكرية الجرمانية التي كانت تتولى حكم البلاد في هذه الآونة. وفي العقود التالية للفتح واصلت الجيوش الإسلامية تقدمها وتعقبها لفلول القوط الغربيين حتى جبال كانتابريان الواقعة أقصى شمال شبه جزيرة أيبيريا. بل إن القوات الإسلامية واصلت تقدمها عبر جبال البرانس وتوغلت في بلاد الغال الفرانكية، إلى أن تمكن شارل مارتل من إيقاف توغلها ثم الانتصار عليها في موقعة بوانييه (أو بلاط الشهداء) عام 112هـ/ 732م. وكان يحكم إسبانيا طيلة السنوات الأولى للفتح الأموي سلسلة من الولاة العرب الذين كانوا يفدون إليها من قبل الحكومة المركزية في المشرق. غير أنه في عام 138هـ/ 756م،

ظهر في هذه البلاد عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل - وهو أحد رجال الأسرة الأموية الذين أفلتوا من مذبحة الثورة العباسية - وأقام فيها إمارة أموية.

والواقع أن وجود إمارة أموية في شبه جزيرة كهذه - حيث الظروف الجغرافية التي تحول دون بسط سيطرة مركزية كاملة وبالتالي حكمها على نحو حازم - يعتبر في حد ذاته إنجازًا رائعًا. وقد كانت هذه الإمارة قائمة على مدينتي إشبيلية وقرطبة، إلا أن قبضة الأمراء على الأقاليم المتطرفة كانت أقل إحكامًا. ومع أن نسبة لا بأس بها من الروم الإسبان قد دخلت في الإسلام (المولدون)، فإن عددًا لا يستهان به منهم قد ظل على مسيحيته (المستعربون) وظلوا يتطلعون دومًا إلى الشمال المسيحي يستلهمون منه التأييد المعنوي والديني. وكانت مدينة طليطلة - التي اتخذها القوط الغربيون عاصمة لهم، فضلاً عن كونها المركز الكنسي لإسبانيا - تمثل بصورة خاصة أحد مراكز التمرد والعصيان على الوجود الإسلامي. وكان بين المسلمين كثير من الأمراء المحليين ممّن مكنتهم قوتهم العسكرية - كحكام للأطراف - من أن يتمتعوا بوضع مستقل عن العاصمة قرطبة. وقد ساد هؤلاء الأمراء بصورة خاصة في وادي «أيبرو» الواقع في المنطقة الشمالية من شبه جزيرة أيبيريا، وهي المنطقة التي حملت فيما بعد اسم «أراجون» و«قطالونيا». ومن هذه الفئة من الأمراء «بنو تجيب» في سرقسطة و«بنو قسي» في تطيلة. وفي أعقاب القرن التاسع، كان هنالك مركزان من مراكز التمرد الذي استمر لفترة طويلة ضد الحكومة المركزية - تزعم أحدهما ابن مروان الجليقي في المنطقة الواقعة حول بلدة بطليوس، أما الآخر فقد تزعمه «ابن حفصون» في جبال غرناطة. وعلى الرغم من عوامل الإضعاف هذه، وعلى الرغم أيضًا من مواصلة ممالك

الشمال المسيحيـة الصغيرة تحقيق استقلالها يومًا بعد آخـر، فإن أمويي إسبانيا الإسلاميـة قد جعلوا من قرطبة مركـزًا مرموقًا من مراكز التجارة والصناعة، كما جعلوا منها مركزًا من مراكز الثقافة والعلم العربيين، ولم يكن يفوقها في هذه المنزلة سـوى مدينتي القـاهرة وبغداد. وهيـمن على حكم الأندلس إبان القرن العـاشر واحد من أعظم حكام الأسـرة هو عبد الرحـمن الثالث الملقب بالناصر، فقد دام حكمـه خمسين عامًا (300 - 350هـ/ 912 - 961م). وفي عهده اتخذت السلطة هيئة جديدة من الأبهة، فأضحت مراسـيم البلاط أكثر إتقانًا واتسـاعًا. ولعله كـان يحاكي في هذا ملوك بيزنـطة، كما قـابل اتخاذ أعدائه الفاطميين لقب الخـلافة، بأن اتخذ لنفسه لقبي الخليـفة وأمير المؤمنين. وبهذا قـفز على المبدأ الذي يأخـذ بالنظرية الشرعيـة القائلة بعدم جـواز تعدد الخلافة أو تجزئتها. أما قوة الجيش في عهده، فكان قوامها المجندون الجدد من البربر، فضلاً عن الفرق المحاربة الذين جلبهم من شتى أصقاع أوروبا المسيحية (كالصقـالبة). وقد مكنه هذا الجيش من إخضـاع المناطق الشمالية المسيـحية، واتخاذ سياسة مناهضة للفاطميين الذين ظهروا في شمال إفريقية. وفي أواخر القرن العاشـر كانت مقاليد السلطة الحـقيقية في يد حـاجب الخليفة أو الوزير الأول ابن عامر - الملقب بالمنصور - الذي استولى على برشلونة وهدم ضريح القديس جيـمز الكومبوسـتلي المقام في جليقية. ومع هذا، ففي أوائل القرن الحادي عشر تهاوت أركان الخلافة الأموية في إسـبانيا الإسلامية لجملة أسباب لا تزال مشوبة بكـثير من الغموض. وقـد تداول حكم البلاد لفترات قـصيرة عدد من أفراد أسرة «آل حمود» - الحكام المحليين لمالقـة ثم الجزيرة فيما بعد. وفي عام 422هـ/ 1031م اختفى الأمويون تمامًا من البـلاد. ثم ما لبث إسبانيا الإسلاميـة أن دخلت عهدًا من التـمزق السـياسي كـانت السـلطة خلاله في يد

أعداد شتى من الأمراء المحليين والجماعات العرقية (وهو العهد المعروف بعصر ملوك الطوائف)[1]. على أن الأمور لم تصفُ لمحمد المهدي ولا سيما بعد أن عهد بتدبير أموره لرجال من أصحابه من السوقة غير ذوي الخبرة، ثم بعد أن أساء لقادة الجيش من البربر الذين كان القرطبيون يكنون لهم أشد الكراهية.
وكان رد فعل هؤلاء البربر أن أعلنوا الثورة على المهدي وبايعوا بالخلافة أميرًا أمويًا منافسًا له هو ابن عمه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر وتلقب هذا بالمستعين. وهكذا بدأت الحرب بين حزب إسبانيا الإسلامية بزعامة المهدي والحزب البربري الذي التف حول سليمان المستعين. واستعان الحزبان بنصارى الشمال، فكانت مع سليمان قوات من قشتالة، ومع المهدي قوات من برشلونة، ومع أن القتال انتهى بمصرع محمد المهدي في 8 ذي الحجة 400هـ/ 23 يولية 1010م فإن الأزمة استمرت مستحكمة بسبب إصرار أهل قرطبة على رفض كل صلح مع البربر. أما سليمان فإنه حينما عاد إلى الخلافة قام بإقطاع مناصريه من البربر بعض ولايات إسبانيا الإسلامية، فكان من نصيب صنهاجة إقليم البيرة (غرناطة) ومن نصيب قبائل زناتة مناطق أخرى: مغراوة في ضواحي قرطبة الشمالية وجيان لبني برزال وبني يفرن، ثم بني دمّار وأُرْداجة في شذونة ومورون (Morón)، أما الثغر الأعلى (سرقسطة وأعمالها) فقد أقر سليمان فيه منذر بن يحيى التجيبي. وكان هذا التوزيع بداية لاستقلال حكام ولايات الخلافة بولاياتهم، وبداية عصر الطوائف. أما مدن المغرب العربي التي كانت خاضعة لسلطان قطبة فقد أعلنت استقلالها، وكان علي بن حمود الإدريسي في سبتة فإذا به يطالب بدم هشام المؤيد الذي كان سليمان المستعين أعلن موته وتدور حرب جديدة بين الحمودي والمستعين، فينهزم سليمان

---

(1) بوزوث، المرجع السابق، ص 35.

ويدخل علي بن حمود قرطبة في محرم - صفر 406هـ/ يولية 1016م فيأمر بقتل سليمان ويعلن نفسه خليفة، وهذه أول مرة يلي فيها الخلافة في حاضرة بني أمية أحد العلويين. وأدى هذا الاضطراب إلى أن يتلاعب بالخلافة أمراء الولايات الذين استقلوا بها، فإذا بمجاهد وهو أحد الصقالبة العامريين وكان يحكم دانية (Denia) وجزر البليار (Islas Baleares) يعلن خلافة أموي آخر هو عبد الله المعيطي في (جمادى الأولى - جمادى الثانية 404هـ/ ديسمبر 1014م)، أما علي بن حمود فلم تطل خلافته إذ اغتاله بعض عبيده في 1 ذو القعدة 408هـ/ 21 مارس 1018م. ويحاول المروانيون استرجاع الخلافة فينادون في بلنسية بعبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك خليفة بلقب المرتضى، ويقوم بأمره خيران الصقلبي المستولي على المرية ومنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة ويتوجه المرتضى إلى غرناطة لكي يخضع أمريها الصنهاجي زاوي بن زيري، ولكن خيران ومنذر بن يحيى يغدران بالمرتضى فينهزم جيشه وينتهي أمره بقتله على أسوار غرناطة. أما قرطبة فيلي الخلافة فيها القاسم بن حمود خليفة لأخيه علي، ولكن سرعان ما يعلن عليه الثورة ابنا أخيه يحيى بن علي صاحب سبتة وإدريس صاحب مالقة، ويتمكن يحيى من دخول قرطبة وإعلان خلافته في ربيع الثاني - جمادى الأولى 411هـ/ أغسطس 1021م، واستمرت الحرب بين القاسم وابن أخيه، ثم كانت محاولات أخرى لإعادة بني مروان للخلافة، منها محاولة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار (أخي محمد المهدي) الذي تلقب بالمستظهر وحكم نحو شهر ونصف في (16 رمضان 414هـ/ 2 ديسمبر 1023م - 3 ذو القعدة 414هـ/ 17 يناير 1024م) وانتهى الأمر بقتله، ثم محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله الذي تلقب بالمستكفي، ولكنه اضطر للهرب من قرطبة بعد نحو سنة في 25 ربيع الأول 416هـ/ 26

مايو 1025م). وأخيرًا استدعى القرطبيون أميرًا أمويًا آخر هو هشام بن محمد ابن عبد الملك شقيق المرتضى الذي كان قد قتل في معركة غرناطة - وكان لاجئًا في قلعة البونت (Alpuento) ولقب هذا نفسه بالمعتمد بالله. غير أن مصيره لم يكن خيرًا من مصير سابقيه، إذ رأى بقية رجالات قرطبة التحقيق وأن خير وسيلة للتخلص من الفوضى هو إلغاء الخلافة نهائيًا في 12 ذي الحجة 422هـ/ 30 نوفمبر 1031م. وهذا تكريس لتمزق الدولة الأندلسية واستقلال كل حاكم ولاية بولايته. وبهذا بدأ ما يسمى بعصر ملوك الطوائف. يعد عصر دول الطوائف من أكثر عصور تاريخ إسبانيا الإسلامية تعقيدًا وتشابكًا واضطرابًا، ففيه انفرط عقد البلاد، وتوزعتها نحو ستين دويلة تتفاوت فيما بينها صغرًا وكبرًا وقوةً وضعفًا، ومع أن هذا العصر لا يتجاوز نحو ستين سنة فإن تتبع الأسر الحاكمة التي ملكت تلك الإمارات أمر عسير لأن الحروب المتصلة بينها أدت إلى تحولات مستمرة في مسارها التاريخي: دول تقوم ودول تتساقط، وحدود في تغير متصل، فالقوي لا ينفك طامعًا في أرض جاره الأقل قوة، يستولي عليها حربًا أو صلحًا أو يقتطع أجزاء منها، والجيران المسيحيون الذين تتزايد قوتهم لا يكفون عن طلب العون منهم[1].

تعتبر الفترة الواقعة بين انهيار الخلافة الأموية في إسبانيا وقيام دولة المرابطين فيها، والمقدرة بنصف قرن أو نحوه - فترة تفكك سياسي، وإن عُدَّت - مع ذلك - فترة ازدهار ثقافي عظيم. وقد برز خلال هذه الفترة عدد من الأسر المحلية، قدّره المؤرخ ا.ر. نيكل A. R. Nykl بثلاث وعشرين أسرة. وقد مارست هذه الأسر الحكم في أجزاء شتى من إسبانيا، فبعضها كان يحكم فيما يشبه دويلات المدن، وكان البعض الآخر يبسط نفوذه على

(1) د. محمود مكى، المرجع السابق، ص 99.

مساحات كبيرة من الأراضي، كم هو الحال بالنسبة لأسرة «بنو الأفطس» التي بسطت نفـوذها على الأجزاء الجنوبيـة الغربيـة. ولهذه الأسر أصـول عرقـية متعددة مما يعكس تعدد الفئات العسكرية التي برزت تحت حكم الأمويين، كما يعكس التوترات والصراعات العرقية بين هذه الفئات. ومن بين هذه الأسر من كانت أرومته بربرية مثل «بنو الأفطس» المكناسيين الذين حكموا في بطليوس، و«بنو ذي النون» الـهـواريين الذين حكمـوا في طليـطلة (وإن كـان اسم هذه الأسرة في الأصل «بربر ذي النون»)، وقد نضـيف إلى هذه الأسرة أسرة «آل حمود» التي حكمت في مالقة. وكانت هذه الأسرة الأخيرة قد استعربت إلى حد ما خلال القرن الحادي عشـر، وحاولت من خلال أدارسة المغرب، إثبات الارتفاع بنسبها إلى ذريـة الخليفة علي بن أبي طالب. وقد برز من بعض هذه الطوائف من الأفـواج العسكرية للمغـرب العربي التي تدفـقت على الأندلس بقيادة المنصور في نهاية القرن العـاشر، مثل «الزيريون» - من بربر صنهاجة - الذين استقروا في «البيرة»؛ وفي بلنسية سـادت مجموعة من أعوان بني عامر وسلالة المنصور. وفي أجـزاء بعينها من الشمال الشرقي للبـلاد مثل طرطوشة ودانية، ومن قبلهـما بلنسية، حكم لبعض الوقت عـدد من الأمراء من أصول صقلبـية. وقد دأبت الطوائف الأكبـر على انتهاج سيـاسات عدوانية توسـعية على حسـاب جيرانهم، فـقد وسع «بنو عباد» من دائـرة ملكهم حتى وصلت تقريبًـا إلى مدينة طليطلة فضلاً عـن هذا، فقد سعـوا إلى إحكام مخططاتهم التوسـعيـة في مرحلة مـا من مراحل حكـمهم بأن اسـتخلفـوا على إسـبانيا الإسلامـية رجلاً زعم أنه آخـر أموي، يحمـل اسم هشام الثالث. وقـد كان الكثيرون من ملوك الطوائف لا يتورعون عـن التواطؤ مع المسيحيين من حكام المناطق الأخرى، بل والاستنجاد بهم للعمل ضد إخوانهم من ملوك المسلمين.

ويكفي أن نذكر أن آخر أمراء «بنو الأفطس» المسمى «عمر المتوكل» قد أبدى استعداده للتنازل عن معظم ما يقع تحت يديه من ممتلكات في البرتغال لألفونسو السادس أمير «ليون» و«قشتالة» مقابل مناصرته على أعدائه المرابطين. وقرب نهاية القرن الحادي عشر، ظهر واضحًا أن المد قد أخذ يرتفع في غير صالح المسلمين في إسبانيا، فقد ثارت الفئات المتدينة على حياة اللهو والمجون والتسيب التي كانت عليها الكثرة الكاثرة من الحكام المحليين، وكانوا على استعداد للترحيب بحكم المرابطين البربر المعروفين بغيرتهم على الدين؛ كما حدث عند سقوط طليطلة في يد المسيحيين عام 418هـ/ 1085م. فقد كان في هذا السقوط ما جعل ترحيب المعتمد بن عباد - الملك الشاعر - بقدوم المرابطين أمرًا لا مفر منه.

وها هي الأسر التي سادت بين ملوك الطوائف (للحصول على بيانات كاملة بأسماء هذه الأسر، يمكن الرجوع إلى كتاب زمباور)[1]:

آل حمود - في مالقة والجزيرة (400-449هـ/ 1010-1057م).

آل عباد - في إشبيلية (414-484هـ/ 1023-1091م).

آل زيري - في غرناطة (403-483هـ/ 1012-1091م).

بنو يحيى - في لبلة (414-443هـ/ 1023-1051م).

بنو مُزين - في شلب، الغرب (419-445هـ/ 1028-1053م).

بنو رزين - في البرسين، السهلة (402 - 500هـ/ 1011 - 1107م).

بنو قاسم - في الفونت (420 - 485هـ/ 1029 - 1092م).

آل جهور - في قرطبة (422-461هـ/ 1031-1069م).

(1) بوزوث، المرجع السابق، ص 37.

بنو الأفطس، أو بنو مسلمة - في بطليوس (413-487هـ/ 1022-1094م).

ذو النون، في طليطلة (ق 419-478هـ/ ق 1028-1085م).

العامريون - في بلنسية (412-489هـ/ 1021-1096م).

بنو صمادح - في الميرية (430-480هـ/ 1039-1087م)

بنو تجيب ثم بنو هود - في سرقسطة، وليريدا، وتطيلة، وقلعة يود، ودانية وطرطوشة (410-536هـ/ 1019-1142م)

بنو مجاهد وبنو غانية - في ميورقة (413-601هـ/ 1022-1205م).

فتح المرابطين لإسبانيا الإسلامية 483هـ/ 1090م:

آل حمود في مالقة

400هـ/ 1010م علي الناصر.

407هـ/ 1016م القاسم الأول المأمون، للمرة الأولى.

412هـ/ 1021م يحيى الأول المعتلي، للمرة الأولى.

413هـ/ 1023م القاسم الأول، للمرة الثانية.

414هـ/ 1023م يحيى الأول، للمرة الثانية.

427هـ/ 1036م إدريس الأول المتأيد.

430هـ/ 1039م يحيى الثاني.

430هـ/ 1039م الحسن المستنصر.

434هـ/ 1039م إدريس الثاني - العالي، للمرة الأولى.

438هـ/ 1046م محمد الأول المهدي.

440هـ/ 1048م محمد الثاني المعتصم.

440هـ/ 1048م القاسم الثاني الواثق.

446هـ/ 1054م إدريس الثالث الموفق.

446هـ/ 1054م إدريس الثاني، للمرة الثانية.

447-449هـ/ 1055-1058م محمد الثالث المستعلى.

هزيمة الفرع الرئيسي للأسرة في مالقة على يد «الزيريون» حكام غرناطة، وهزيمة الفرع الثانوي في الجزيرة على يد «بنو عباد» في 450هـ/ 1058م.

بنو عباد في إشبيلية

414هـ/ 1023م محمد الأول بن عباد

433هـ/ 1042م عباد المعتضد

461-484هـ/ 1069-1091م محمد الثاني المعتمد غزو المرابطين لإشبيلية.

* * *

آل جهور في قرطبة

422هـ/ 1031م جهور

435هـ/ 1043م محمد الراشد

450-461هـ/ 1058-1069م عبد الملك

غزو «بنو عباد» لقرطبة.

* * *

بنو الأفطس في بطليوس

413هـ/ 1022م عبد الله المنصور

437هـ/ 1045م محمد المظفر

460-487هـ/ 1068-1094م عمر المتوكل غزو المرابطين لبطليوس.

* * *

ذو النون في طليطلة

؟ عبد الرحمن بن ذي النون

419هـ/ 1028م إسماعيل الظافر

435هـ/ 1043م يحيى المأمون

467-478هـ/ 1075-1085م يحيى القادر

غزو طليطلة على يد ألفونسو السادس حاكم ليون وقشتالة.

* * *

العامريون في بلنسية

412هـ/ 1021م عبد العزيز المنصور

453هـ/ 1061م عبد الملك المظفر

457-468هـ/ 1065-1076م غزو «ذو النون» لبلنسية

468هـ/ 1076م أبو بكر

478هـ/ 1085م القاضي عثمان

478-483هـ/ 1085-1090م ذو النون يحيى القادر

483-489هـ/ 1090-1096م القاضي جعفر

غزو «السيد» لبلنسية ثم فتح المرابطين لها.

بنو تجيب وبنو هود في سرقسطة وغيرها

أولا: بنو تجيب

410هـ/ 1019م منذر الأول المنصور

414هـ/ 1023م يحيى المظفر

420هـ/ 1029م معز الدولة منذر الثاني

ثانيًا: بنو هود

430هـ/ 1039م سليمان المستعين

438هـ/ 1046م أحمد الأول المقتدر

474هـ/ 1081م يوسف المؤتمن

478هـ/ 1085م أحمد الثاني المستعين

503هـ/ 1110م عماد الدولة عبد الملك

513-536هـ/ 1119-1142م أحمد الثالث المنتصر تحت سلطان المرابطين

غزو ألفونسو الأول (البطل) لسرقسطة بالاشتراك مع روميرو الثاني حاكم «أراجون».

* * *

بينا أهم غزوات عبد الرحمن الناصر وقواد الحكم المستنصر ثم المنصور محمد بن أبي عامر المستبد بالسلطان. وعصر هذا الرجل بالفعل ذروة القوة العسكرية والسياسية لإسبانيا الإسلامية، وكان يحكم باسم هشام المؤيد الصبي الصغير فقد كان حاجبه ومن ثم فقد اتجهت همته إلى تأييد سلطانه بالمبالغة في غزو بلاد إسبانيا النصرانية مما أجج العداوة في قلوب أهل الممالك والوحدات السياسية الإسبانية، ومن ذلك حملته المشهورة على جليقية واحتلاله لمدينة شنت ياقب Santiago de Compostila صاحبة المكانة الجليلة في قلوب كل نصارى إسبانيا 387هـ/ 997م، واحتلاله برشلونة 375هـ/ 985م، وليون وسهاجون Sahagun 387هـ/ 997م، وعندما توفي 392هـ/ 1002م ترك إسبانيا الإسلامية وقلوب نصارى إسبانيا متأججة للانتقام، ولم يخلفه أحد من طرازه، وعندما توفي ابنه المظفر 399هـ/ 1009م انفجرت نيران الثورة، وبدأ عصر الطوائف. وينقسم عصر الطوائف وهو عصر تمزق وحدة إسبانيا الإسلامية إلى ثلاث فترات: الأولى من قيام الفتن 399هـ/ 1009م وقيام الصراع على الخلافة بين مرشحين من رجال البيت الأموي لم يكتب الانتصار لأحد منهم، والفترة الثانية تبدأ 423هـ/ 1031م وهي السنة التي أُلغيت فيها الخلافة في إسبانيا الإسلامية على يد أعيان قرطبة وعلى رأسهم أبو الوليد ابن جهور. وهنا بدأ فعلاً عصر الطوائف أي عصر انقسام إسبانيا الإسلامية إلى وحدات سياسية مستقلة بعضها عن بعض، يتحارب بعضها مع بعض. وهنا أتيحت الفرصة لبلاد إسبانيا النصرانية لتتخلص من الضغط الإسلامي وتتقدم إلى الجنوب دون مقاومة إسلامية تذكر، وتلك هي الفترة التي انتهت بأكبر نصر حاسم حققته إسبانيا النصرانية، وهو استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون على طليطلة 478هـ/ 1085م، وضياع ربع مساحة إسبانيا الإسلامية بلا رجعة، والفترة الثالثة فترة فوضى قصيرة زاد فيها شعور أهل

إسبانيا الإسلامية بالضياع واستغاثوا بالمرابطين أصحاب المغرب، فعبر يوسف ابن تاشفين إلى إسبانيا الإسلامية عبوره الأول 479هـ/ 1086م وكسب نصر الزلاقة Sacrajas قرب بطليوس 479هـ/ 1086م. وهنا ينتهي عصر الطوائف ويبدأ عصر المرابطين الذي أصبحت بقية إسبانيا الإسلامية فيه جزءًا من دولة المرابطين المغربية. وقد كانت حدود إمارات الطوائف غير ثابتة نظرًا لحالة الحرب التي كانت دائرة بين ممالك الطوائف بعضها مع بعض من ناحية، وبينها وبين إسبانيا النصرانية من ناحية أخرى، ولم تثبت الحدود إلا فيما يتعلق بإمارة سرقسطة فقد ظلت حدودها ثابتة مع قطلونية وأراغون ونبرة حتى بداية العصر المرابطي في إسبانيا الإسلامية 479هـ/ 1086م.

تطور إسبانيا المسيحية:

نتيجة لضياع وحدة إسبانيا الإسلامية نهضت إسبانيا النصرانية لترث الصدارة في شبه الجزيرة، وكان أول الطامعين إلى ذلك ملوك نبرة الذين طالما غزا عبد الرحمن الناصر بلادهم واحتل عاصمتهم بنبلونة، فنهض الملك شانجة الثالث الكبير Sancho III Mayor (1004-1035) وتصدى لتوحيد إسبانيا النصرانية مناديًا بأن الملوك لا يتولون بالانتخاب بل بإرادة الله وأيدته البابوية في ذلك مشجعة إياه على غزو بلاد المسلمين، مما أعطى الصراع بين المسلمين والنصارى في شبه الجزيرة طابع الحروب الصليبية، فاحتل رياجورثا (1018 - 1025م)، ثم طالب كونت قشتالة بأن يدخل في طاعته، وبالفعل أصبح غرسية كونت قشتالة من أتباعه 1027م. وكذلك فعل مع ملك ليون برمودو الثالث Vermudo III وعندما مات برمودو 1030م أصبحت قشتالة تابعة لنبرة، وبعد ذلك بقليل دخل الكونت رامون بيرنجير الأول Ramon Berenguer I et Conde de Barcelona في طاعته.

عندما توفي شانجة الكبير 1035م كانت فكرة توحيد إسبانيا النصرانية قد استقـرت في أذهان أمرائها ورؤسائهـا، وتلك نتيجة طبيـعية لضيـاع الزعامة الإسلامية لشـبه الجزيرة، ولـم يخلف شانجة ملك نبرة وريثًا فـعاد التفرق إلى بلاد إطبانيا النصـرانية وانتقلت زعامتـها إلى فرناندو الأول Fernando I ملك ليون، وراميرو الأول Ramiro I كونت قشتـالة، وكذلك تطلعت أرجون Ar-ogon للزعامـة وأصبحنـا أمام ملوك طوائف Reyes de Taifas في الجانبين: الإسلامي والـنصراني، ولكن الجـانب الإسلامي كان فـي ضعف بينمـا كان الجانب النصراني في صـعود. وبينما وقفت حدود نبرة كـما كانت عند موت شانجة الكبير - أعظم ملوكها طرا - أخـذت بقية الوحدات النصرانية في شبه الجزيرة تـتقدم، وكان شانجة الـكبير قد ربط بلاده بالبـابوية، وأخضع كنائس بلاده وجماعات رهبانها للنظام البندكتي، ثم اسـتبدلت الطقوس المستعربة في الكنائس بالطقوس الكاثوليكيـة، وأرسلت البابوية مئات القـساوسة الكلونيين لإدخـال النظام الجديـد في إسبـانيـا النصرانيـة ومـا تستـولي عليـه من بلاد المسلمين، وأظهـر الباب إسكندر الثالـث همة كبـيرة في هذا السـبيل. وهذا التـوحيـد الديني أعطى التـحرك النصـراني نحو بلاد المـسلمين طابعًا دينيًـا، وأصبح مـا يستولي عليـه الإسبان النصارى من أراضي المـسلمين يحتل باسم الصليب، واندفعـت جماعات كـبيرة مـن فرسان النصـارى من شتى نواحي أوروبا للاشتراك في حـرب المسلمين في شبه الجزيرة، وهكذا نسـتطيع القول بأن الحركة الصليبية كلها ولدت في شبه الجزيرة الأيبيرية واجتهدت البابوية في تأكيد هذا المعنى. وعندما تحـرك غرسية د ناخرة Garcia de Najera ملك نبرة (1035 - 1054م) لغزو أراضي المسلمين الـتي ضعف الدفاع عنهـا فعل ذلك بتأييد البابوية وباسم الصليب، وافتتح هذه الحركة بالاستيلاء على قلهرة Cal-ahorra بالعنف البالغ 1045م دون أن يلقى مقاومة من بني هود أصحاب إمارة

سرقسطة. ثم تقدم فرناندو الأول Frnando I ملك ليون وقشتالة (1037 - 1065م) فاستولى باسم الصليب على لاميجو Lamego بوازو Viseu في البرتغال سنة 1057م. ثم احتل جواردا Guarda وقلمرية Coimbra 1064م. ولما كانت الإمارات النصرانية الشرقية أقرب إلى الاتصال بالبابوية فقد أخذ التقدم النصراني هنا صورة العنف كما حدث في استيلاء الأرغونيين على منتشون Monzon (1080م) وتقدمت حدود قطلونية إلى طركونة Tarragona (1090م) واستولت أرجون على وشقة (1094م)، وفي 456هـ/ 1064م وقع الهجوم على بربشتر Barbostro وقد قامت به قوة نصرانية أرغونية أوروبية تؤيدها البابوية، وقد اقترف فرسان النصارى من البشاعات في الهجوم على هذا البلد ما أثار الفزع في قلوب المسلمين. وفي النصوص الأوروبية تسمى هذه الحادثة بصليبية بربشترو La Cruzada de Barbostro.

لم تلبث زعامة الحركة الصليبية أن انتقلت إلى مملكة ليون التي اتحدت مع كونية قشتالة أيام الملك شانجة الثاني Sancho II، وأخذت الحركة كلها صورة خطيرة بسبب ضعف المسلمين، وقصر نظرهم، وغياب الفكرة الإسلامية من تصرفاتهم. وتجلى ذلك في رئيس من رؤساء إسبانيا الإسلامية وهو المأمون ين ذي النون الذي ملك أكبر إمارات إسبانيا الإسلامية مساحة، فقد كانت تمتد من شمالي طليطلة عند قلعة أيوب ومدينة سالم إلى حدود إمارة قرطبة دون أن تملك قوة عسكرية قادرة على حماية هذه المساحة الشاسعة التي كانت تمثل قلب إسبانيا الإسلامية، ولم يخطر بباله أن يتحالف مع أحد من جيرانه المسلمين لدرء الخطر، بل العكس تمامًا من الذي حدث، فالمأمون ابن ذي النون ألقى بثقته كلها إلى جيرانه أصحاب قشتالة وليون، واستضاف ألفونسو أخا ملك قشتالة سانشو عندما اختلف مع أخيه، وعندما قتل الملك سانشو الثاني وتولى مكانه ألفونسو باسم ألفونسو السادس كان هذا الرجل هو

الذي استولى على طليطلة 1085م وحوّل مملكته بذلك إلى أقوى الوحدات السياسية في شبه الجزيرة، لأن مملكة «قشتالة وليون» زادت ثلث مساحتها وتضاعف غناها، وانتقلت إليها فعلاً الزعامة السياسية لشبه الجزيرة. وبدا بوضوح أن إسبانيا الإسلامية إذا لم يتداركها مدد عظيم فهي ضائعة لا محالة. وهنا تتجلى لنا الأهمية التاريخية لدخول المرابطين مغيثين لأهلها، ففي يوم الجمعة 12 رجب 479هـ/ 23 أكتوبر 1086م كسب المرابطون ومن معهم من أهل إسبانيا الإسلامية (وفيهم المعتمد بن عباد) نصر الزلاقة Sa-crajas الحاسم قرب بطليوس على نهر الواديانة وأوقفوا تقدم قشتالة وليون، وعندما عبر يوسف بن تاشفين إلى إسبانيا الإسلامية عبوره الثاني تبين أن ملوك إسبانيا الإسلامية غير مخلصين لقضية الإسلام، وهذا هو السبب في عجز المرابطين عن الاستيلاء على قلعة تسمى لبيط Aledo في غرب إسبانيا الإسلامية، وكانت تحكم الطريق إلى بلنسية، وكان المرابطون يريدون الاستيلاء عليها لفتح الطريق إلى بلنسية لإنقاذها من عبث مغامر قشتالي يسمى Ro-drigo Diaz de Vivar ويلقب بالسيد القمبيطور El Cid Camboador استولى عليها لمدة خمس سنوات (1094 - 1099م) وعندما عبر يوسف بن تاشفين إلى إسبانيا الإسلامية عبوره الثالث في رجب 483هـ/ سبتمبر 1090م عزل ملوك الطوائف، وجمع ما بقي للمسلمين من أراضيه تحت لواء المرابطين، وهنا ينتهي عصر ملوك الطوائف ويبدأ العصر المرابطي في تاريخ ما بقي من إسبانيا الإسلامية[1]. ترتب على سقوط الخلافة والدولة الأموية انقسام إسبانيا الإسلامية إلى دويلات متنازعة، واستقلال كل أمير بناحيته، وإعلان نفسه ملكًا، ودخلت البلاد بذلك في عصر جديد عرف باسم عصر ملوك «الطوائف» أو عصر الفرق.

---

(1) د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 189.

انضوت هذه الدويلات تحت مظلة أحزاب ثلاثة كبيرة عمل كل منها على بسط سلطانه على كل إسبانيا الإسلامية.

1 - حزب أهل الأندلس:

يقصد بهم من استقروا في البلاد من قديم الزمان وصاروا من مسلمي إسبانيا بمرور الزمن بصرف النظر عن أصلهم العربي أو المغربي أو الصقلبي أو الإسباني وقد أطلق على هؤلاء مصطلح أهل الجماعة، ومن هؤلاء: بنو عباد اللخميون في «إشبيلية»، وبنو جهور في «قرطبة»، وبنو هود الجذاميون في «سرقسطة»، وبنو صمادح أو تجيب في «المرية» وبنو برزال في «قرمونة»، وعبد العزيز بن أبي عامر في «بلنسية»... إلخ.

2 - حزب البربر أو المغاربة:

حديثو العهد بإسبانيا الإسلامية وهم الذين استقروا بها منذ زمن المنصور ابن أبي عامر، ومن هؤلاء بنو زيري الصنهاجيون في غرناطة، وبنو حمود الأدارسة العلويون في مالقة.

3 - حزب كبار الصقالبة:

الذين استقلوا بشرقي إسبانيا الإسلامية ومنهم مجاهد العامري الذي استقل بدانية والجزر الشرقية وغيرها، وخيران العامري زعيم حزب الصقالبة في قرطبة أثناء الفتنة، وكل واحد من هذه الأحزاب حرص على أن يبحث لنفسه عن غطاء روحي فأقام خليفة بجواره يستمد منه سلطانه، فبنو عباد جاءوا بشخص اسمه خلف الحصري، كان شديد الشبه بهشام المؤيد المشكوك في موته، فجعلوه خليفة صاحب الجماعة، ثم أظهر المعتضد بن عباد موته عام (455هـ)، وأعلن أنه منحه ولاية العهد وأنه الأمير بعده على كل إسبانيا الإسلامية بمقتضى هذا العهد.

أما الحزب المغربي فقد تولى خلافته بنو حمود بالنظر إلى أصلهم العربي الشريف، ولـكن هؤلاء انقسموا على أنفسهم وصار كل واحد منهم يزعم الخلافة لنفسه، ويتخذ ألقابها مثل المهدي والعالي والمستعلي. . .إلخ، وانتهى الأمر باستيلاء بني زيري ملوك غرناطة على مالقة، وبني عباد على الجزيرة الخضراء وانتهى بذلك ملك الحموديين. أما حزب الصقالبة فقد أقام مجاهد العامري في مملكته بدانية والجزر الشرقية خليفة أمويًا هو الفقيه أبو عبد الله بن الوليد المعيطي الذي لقبه بالمنتصر بالله. لكن مجاهد ما لبث أن طرده ونفاه إلى بلاد المغرب عندما علم أنه ثار عليه أثناء غزوه لجزيرة «سردينيا». وقد اصطدمت مصالح هؤلاء جميعًا لقرب المسافات بينهم، وهذا وضع جعل المراكشي يسخر منه فيقول: «وصار الأمر في غاية الأخلوقة (الأضحوكة) والفضيحة، أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخًا في مثلها»[1]. كما كان جديرًا بتندر ابن حزم الذي علق عليه بقوله: «واجتمع عندنا بإسبانيا الإسلامية في صقع واحد خلفاء أربعة، كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه، وتلك فضيحة لم ير مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام كلهم تسمى بالخلافة، وإمارة المؤمنين». تجري الأمور على هذا النحو المرير بإسبانيا الإسلامية في الوقت الذي كانت تعمل فيه دول إسبانيا المسيحية في شمال البلاد على توحيد صفوفها تساندها فرنسا والبابوية في روما.

وما إن زالت الدولة الأموية من إسبانيا الإسلامية حتى تغلغل النفوذ الفرنسي بكل صوره، سياسية وثقافية ودينية في الشمال الإسباني باعثًا روحًا صليبية جديدة ضد المسلمين. وكان يحكم إسبانيا المسيحية في هذه الآونة رجل طموح هو الملك «ألفونسو السادس» ملك قشتالة، نجح في توحيد

---

(1) د. عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 94.

مملكتي قشتالة، وليون، وسيطر على الممالك المسيحية الشمالية، وتوَّج جهوده العسكرية باحتلال «طليطلة» عاصمة الثغر الأدنى للمسلمين (478هـ/ 1085م)، رغم تميزها بموقع منيع. وكان سقوط مدينة «طليطلة» في أيدي الإسبان كارثة كبرى للمسلمين؛ لأن العدو احتل الأراضي الواسعة التي تمتد جنوبًا حتى جبال قرطبة، وأطلق على هذه المنطقة الجديدة اسم «قشتالة الجديدة» وبذلك تمزقت بلاد المسلمين وانشطرت إلى قسمين. ولم يكتف «الفونسو السادس» بما حققه، وإنما اتجه بتحريض من الفرنسيين إلى مدينة «سرقسطة» عاصمة الثغر الأعلى وحاصرها بهدف الاستيلاء عليها، وأخذ يضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض، ويهاجم أراضيهم ويطالبهم بالأموال كي يضعفهم عسكريًا واقتصاديًا. وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة سياسيًا واجتماعيًا فإنه مما يلفت النظر أن تزدهر العلوم وترتقي الآداب والفنون في عصر ملوك الطوائف؛ لأن معظم هؤلاء الملوك والرؤساء كانوا من العلماء والأدباء والشعراء، وكانت قصورهم مجامع للعلوم والأدباء، وكلها تزهو لا بفخامتها وروعتها بل بأمرائها ووزرائها وكتابها، وقد بلغ الشعر الأندلسي في زمن ملوك الطوائف شأوًا لم يصل إليه في أي عصر آخر. وقد تميزت قصور ثلاثة بصفة خاصة بمشاركتها في النهضة الأدبية والشعرية، وهي قصور بني عباد بإشبيلية، وبني الأفطس في بطليوس، وبني صمادح في المرية، وقد برز من بني عباد: المعتضد بن عباد وولده المعتمد، ولمع في بلاطهم كثير من الشعراء والوزراء والكتاب، وظهر في بلاط بني الأفطس «أبو محمد عبد المجيد بن عبدون»، و«أبو بكر» و«أبو محمد» و«أبو الحسن» أبناء عبد العزيز البطليوسي، كما اجتمع حول بني صمادح عدد من أقطاب الأدب والشعر منهم ابن القزاز وابن الحداد والوازي آشي وغيرهم، أما بنو هود في سرقسطة فقد نعم بحمايتهم واشتهر في ظلهم الشاعر أحمد بن محمد بن دراج

القسطلي. وعرف هذا العصر مجموعة من العلماء الكبار الذين وصلوا إلى القمة من حيث النضج الفكري والمستوى العلمي، من هؤلاء ابن حزم وأبو الوليد الباجي، واللغوي ابن سيده، واللغوي الجغرافي أبو عبيد البكري، والعلامة ابن عبد البر، ومجاهد العامري صاحب دانية، ومحمد بن أحمد ابن الطاهر صاحب مرسية، ومن أكابر الفلكيين والرياضيين الذين أفادوا الغرب ببحوثهم أبو إسحاق إبراهيم يحيى الزرقالي، وأبو القاسم إصبغ بن الصمح الغرناطي، وقد اشتهر الأول بجداوله الفلكية التي صحّحت كثيرًا مما جاء في الجداول القديمة، أما الآخر فكان بارعًا في الهندسة والفلك، والرياضيات، ومن كبار العلماء الذين عنوا بالتاريخ وتدوين الحوادث والترجمة للأعلام ابن حزم، والمؤرخ الكبير أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، وأبو عبد الله الحميدي، وأبو الحسن علي بسام الشنتريني صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، والكاتب القدير والمؤرخ الأديب الفتح بن خاقان، وكما ارتقت العلوم والآداب ازدهرت الفنون والصناعات في عهد ملوك الطوائف، خاصة ما يتعلق بالموسيقى والغناء وآلات الطرب. وإذا كان يعرف عن أهل إسبانيا الإسلامية اهتمامهم بكل ما يتعلق بتربية الماشية، وفلاحة الأرض، وتنظيم الري وأحوال الجو، وخواص النباتات وإنشاء الحدائق فإنه ينبغي الإشارة إلى ظهور عدد من علماء النبات والزراعة في عهد ملوك الطوائف، لا سيما في طليطلة وإشبيلية منهم ابن وافد وابن بصال، وأحمد بن محمد حجاج، وابن لونكو في قرطبة وغير هؤلاء. وكانت الصناعات رائجة خلال عصر الطوائف وأشهرها بصفة خاصة، وكان في المرية وحدها خمسة آلاف مصنع تنتج أجمل أنواع الأقمشة وأفخمها، وكانت السفن تأتي من بلاد المشرق ومن الثغور الإيطالية إلى الموانئ الأندلسية في إشبيلية والمرية وبلنسية ودانية وسرقسطة تحمل بضائع المشرق، وتعود محملة بما تستورده من

السلع الأندلسية، وكانت التجارة الخارجية مصدرًا مهمًا من مصادر دخل دول الطوائف ذات الثغور.

* * *

دول الطوائف 422هـ/ 1031م - 484هـ/ 1091م:

لم يكن التمزق الذي وقع في إسبانيا الإسلامية منذ أوائل القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي سياسيًا فحسب، بل كان تمزقًا اجتماعيًا أيضًا بمعنى أن العناصر المختلفة التي كان يتألف من امتزاجها نسيج مجتمع إسبانيا الإسلامية قد عادت إلى الانفكاك ولكن بصورة مختلفة بعض الشيء عما وقع في عهد الأمير عبد الله في أواخر القرن التاسع، فقد رأينا كيف انحل مجتمع إسبانيا الإسلامية آنذاك إلى عناصره الرئيسية وهي: العرب والبربر المستوطنون منذ الفتح ثم المولدون. أما في عصر الطوائف فقد تغيرت الصورة بعض الشيء، إذ كانت قد دخلت إسبانيا الإسلامية منذ عصر الخلافة والحجابة العامرية عناصر جديدة، نذكر من أهمها الصقالبة الذين أصبح لهم دور سياسي متزايد في شؤون الدولة منذ أيام عبد الرحمن الناصر ثم بصفة خاصة في أيام المنصور بن أبي عامر بعد أن استطاع ضمهم إلى صفوفه، ثم الجند المرتزقة من البربر الذين استكثر من استجلابهم الحكم المستنصر وأصبحوا عماد الجيش على عهد المنصور حتى كونوا كتلة قوية الشأن، وقد رأينا كيف كان لهم دور حاسم، أولاً في الفتنة التي سميت «فتنة البربر»، ثم في إسقاط الخلافة. هذا بالإضافة إلى العرب الذين كانوا لا يزالون كتلة لها قوتها، ولبقايا بيوت موالي بني أمية الذين أزاح المنصور معظمهم عن طريقه. ومن هنا يمكن أن نقسم ملوك الطوائف من الناحية الاجتماعية إلى فئات: الفئة الأولى ممن ينتمون إلى الأرستقراطية العربية، وأهم بيوت هذه الأرستقراطية

هو بيت بني عباد الذين حكموا إشبيلية، وكان جدهم الأكبر عطاف بن نعيم اللخمي هو الداخل إلى إسبانيا الإسلامية في طالعة بلج بن بشر القشيري الشامية، ويلي هؤلاء بنو تجيب الذين حكموا الثغر الأعلى في سرقسطة والمدن المجاورة لها خلال الثلث الأول من القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي وهم ينتمون إلى هذه القبيلة اليمنية وقد سكنوا الثغر، وكانوا من العرب البلديين دخل جدهم الأعلى عبد الله بن المهاجر إسبانيا الإسلامية مع جيش موسى بن نصير، وانتقل فرع منهم إلى الجنوب وهم بنو صمادح الذين حكموا المرية حتى دخول المرابطين. ثم بنو هود الذين ملكوا الثغر الأعلى بعد التجيبيين حتى سقوط سرقسطة في يد ملك أراغون، وهم ينتمون إلى قبيلة جذام اليمنية، ومن العرب القيسية بنو طاهر أصحاب مرسية في شرق إسبانيا الإسلامية. والفئة الثانية هي فئة موالي بني أمية الذين كانت بيوتاتهم عماد الحكم في دولة بني أمية، وقد شتت المنصور بن أبي عامر أكثر هؤلاء، غير أنه بقيت منهم بقية كان منها بيت بني أبي عبدة حسان بن مالك الذي كان وزيراً لعبد الرحمن الداخل، وإلى هذا البيت ينتمي بني جهور الذين حكموا قرطبة بعد زوال الخلافة إلى أن قضى عليهم المعتمد بن عباد.
والفئة الثالثة هي التي تنتظم الحزب العامري أي بقايا أسرة المنصور بن أبي عامر ثم من كانوا في خدمتهم من الصقالبة الذين استكثر منهم المنصور فخدموا في القصر وتولى كثير منهم القيادة. أما أسرة العامريين فقد كان منهم عبد العزيز المنصور بن عبد الرحمن الملقب بشنجول بن المنصور، وقد حكم بلنسية أربعين سنة وأورث ابنه الإمارة من بعده، وأما الصقالبة فقد حكموا معظم مدن شرق إسبانيا الإسلامية (El Levánte) خلال الشطر الأول من عصر الطوائف، ومنهم خيران وزهير اللذان حكما المرية قبل بني صمادح، ومبارك ومظفر أميرا بلنسية قبل أن تؤول إلى حفيد المنصور العامري، ومقاتل ولبيب

أميرا طرطوشة (Tortosa) قبل أن يستولي عليها بنو هود. ومجاهد العامري صاحب دانية وجزر البليار وابنه علي إقبال الدولة. والفئة الرابعة هي الطائفة البربرية، وهي تنتظم ثلاث مجموعات متميزة: الأولى البربر الذين استقروا في إسبانيا الإسلامية منذ أول أيام الفتح، واندمجوا في مجتمع إسبانيا الإسلامية حتى لم يعد هناك ما يميزهم عنه وإن ظلوا محتفظين بأنسابهم القديمة. ويلاحظ أن بعضهم اصطنعوا لأنفسهم أنسابًا عربية مما يدل على مدى ذوبانهم في مجتمع إسبانيا الإسلامية، مثل بني الأفطس ملوك بطليوس وغرب إسبانيا الإسلامية، وأصولهم من بربر مكناسة، ولكنهم كانوا ينتسبون إلى قبيلة تجيب العربية. ومن قبيلة هوارة البربرية من ذوي الاستقرار القديم بنو ذي النون ملوك طليطلة الذين كانوا يقيمون في منطقة شنتبرية (Santaver) وكانت لهم الرياسة في مدن وبذة وأقليش وقونكة. وقد ظهر نفوذهم في عهد الأمير محمد، فلما نشبت الفتنة تغلبوا على طليطلة وحكموها إلى أن انتزعها منهم ألفونسو السادس (Alfonso VI). ومنهم أيضًا بنو رزين الذين سكنوا السهلة المنسوبة إليهم والتي لا تزال تحمل اسمهم حتى اليوم (Al-barracin) ومنطقة تيروال (Teruel) وكانوا أيضًا من قبيلة هوارة. والمجموعة الثانية هي التي تضم أولئك الذين وفدوا على المنصور بن أبي عامر من الجند المرتزقة الذين استعان بهم في غزواته فأصبحوا يؤلفون أرستقراطية عسكرية مرهوبة الجانب، وهؤلاء على العكس من المجموعة السابقة لم يتمثلهم مجتمع إسبانيا الإسلامية لحداثة قدومهم إلى إسبانيا الإسلامية من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب الكراهية الشديدة التي كان الإسبان المسلمون يشعرون بها نحوهم بسبب دورهم في الفتنة، هذا وإن كانوا بمرور الزمن قد اندمجوا شيئًا فشيئًا في المجتمع. وأكبر كتلة لهؤلاء البربر هي التي تتمثل في بني زيري الصنهاجيين الذين استولوا على غرناطة، وكانت غرناطة قبل ذلك مستقرًا

لعرب دمشق ولكن تجمع البربر فيها خلال القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي جعل لها طابعًا بربريًا واضحًا. وقد استمر حكم هؤلاء الصنهاجيين لغرناطة منذ الفتنة حتى استولى عليها المرابطون وخلعوهم عنها. وبالإضافة إلى غرناطة التي كان فيها أكبر تجمع للبربر كانت هناك مواقع عديدة في جنوب شبه الجزيرة سيطر عليها هؤلاء المحاربون المحترفون، وكان معظمهم من زناتة، نذكر منها قرمونة التي ملكها بنور برزال، مورون التي حكمها بنو نوح من قبيلة دمر، ورندة إقطاع بني أبي قرة وكانوا من يفرن، وأركش (Arcos de la Frontera) وحكمها بنو خزرون وكانوا من أزداجة. وقد فتك المعتضد بن عباد ملك إشبيلية بهؤلاء الأمراء الصغار وضم أرضهم إلى مملكته. والمجموعة الثالثة التي يمكن أن نلحقها بهؤلاء هي طائفة الذين يمكن أن نسميهم «العرب المتبربرين» ونعني بهم بني حمود، وهم من سلالة الأدارسة الحسنيين الذين أقاموا أول دولة علوية بالمغرب الأقصى، غير أنهم على الرغم من نسبهم العربي الهاشمي عاشوا في كنف القبائل البربرية وصاهروهم و«تبربروا معهم» على حد قول ابن قتيبة، ولذلك فقد التف حولهم البربر الخائضون في الفتنة ولا سيما الصنهاجيون واعترفوا بإمامتهم، وقد حكم هؤلاء الحموديون مناطق من جنوب إسبانيا الإسلامية أهمها مالقة والجزيرة الخضراء وامتدت سلطتهم أيام الفتنة إلى قرطبة وإشبيلية وغيرهما.

* * *

آل جهور في قرطبة

422هـ/ 1031م جهور

435هـ/ 1043م محمد الراشد

450-461هـ/ 1058-1069م عبد الملك

غزو «بنو عباد» لقرطبة.

بعد إعلان سقوط الخلافة في قرطبة في 422هـ/ 1031م اتفق أهل الرأي على إسناد الأمور في حاضرة إسبانيا الإسلامية القديمة إلى «شيخ الجماعة» أبي الحزم جهور بن محمد الذي استطاع أن يبتكر نظامًا سياسيًا جديدًا أشبه بالنظم الجمهورية، فقد ألف مجلسًا من الوزراء وأهل الرأي وكان لا يبرم أمرًا إلا بمشورتهم، أي إنه كانت لقرطبة في ظل هذا النظام قيادة جماعية، وكان يسمي نفسه «أمين الجماعة» وقد أعاد هذا النظام الديمقراطي الصلاح إلى أحوال قرطبة، وإن كان ما اجتاحها من تدمير خلال الفتنة كان يعني أنها لن تتمكن أبدًا من استعادة مجدها القديم، إلا أن قرطبة بفضل سياسة ابن جهور الحكيمة أصبحت واحة سلام في وسط جاراتها من دويلات الطوائف التي كانت تعصف بها الحروب والمنازعات في ما بينها، ولهذا فقد كانت موئلاً للمنفيين والفارين من الأمراء المخلوعين عن عروشهم. وقد عمل أبو الحزم على أن ينصب نفسه رسول سلام بين جيرانه المتخاصمين وإن كان نجاحه في التوفيق بينهم محدودًا، على أن قرطبة نفسها لم تسلم من مطامع أولئك الجيران الأقوياء الذين كانوا يريدون ضمها إلى ممالكهم ولا سيما في أواخر أيام الدولة الجهورية.

وقد حكم أبو الحزم جهور قرطبة بالطريقة الديمقراطية التي أشرنا إليها منذ إلغاء الخلافة حتى وفاته (422هـ/ 1031م - 435هـ/ 1043م)، وخلفه ابنه أبو الوليد محمد فاقتفى آثار أبيه في سياسته، فمضت الأمور على هذا النهج

من الصلاح إلى 456هـ/ 1064م حينما أدركت الشيخوخة أبا الوليد فتخلى عن تدبير الأمور لابنيه عبد الرحمن وعبد الملك فوزع سلطاته بينهما، وكان في ذلك أول مظاهر الاختلال، إذ تحول النظام الديمقراطي إلى ملك وراثي، ثم أدى ذلك إلى التنافس بين الأميرين، وكان لعبد الملك الغلبة على أخيه، فكاد يجرده من سلطته، ثم إنه وصل حبله بالمعتضد بن عباد وزاره بنفسه، فأظهر له المعتضد من المودة ما خدعه به وكان يطمع في الاستيلاء على قرطبة، فأغراه بالإيقاع بوزيره ومدبر أموره ابن السقاء، فـفتك بهذا الوزير. وأثار ذلك طمع يحيى بن ذي النون ملك طليطلة الذي كان بدوره يطمح إلى ضم قرطبة إلى ملكه. فبعث جيشًا لمحاصرته، وتوفي في أثناء ذلك المعتضد ابن عباد 461هـ/ 1069م. وخلفه ابنه المعتمد فاستنجد به عبد الملك بن جهور، واغتنم المعتمد الفرصة فأرسل إليه نجدة حملت ابن ذي النون على رفع الحصار عن قرطبة، غير أن قائدي جيش المعتمد غدرا بعبد الملك فلم يكد خطر ابن ذي النون ينحسر حتى اقتحما قرطبة وناديا بخلع بني جهور وأقاما الدعوة للمعتمد في 462هـ/ 1070م. أما عبد الملك وأخوه عبد الرحمن وأبوهما الشيخ أبو الوليد محمد، وكان مريضًا مصابًا بالفالج، فقد اعتقلهم جيش ابن عباد ثم تم نفيهم عن قرطبة إلى جزيرة شلطيش (Salréa) في نهر الوادي الكبير، وهكذا انتهت دولة بني جهور وضمت قرطبة إلى ملك المعتمد بن عباد. على أن انتصار المعتمد كلفه ثمنًا غاليًا، فقد ترك ابنه عبادًا نائبًا عنه في قرطبة، وكان ابن ذي النون قد كلف واحدًا من قواده وهو ابن عكاشة بمغاورة قرطبة، فانقض عليها في ليلة مظلمة من 467هـ/ 1075م، وقتل عباد بن المعتمد وتملك قرطبة زمنًا ثم عادت بعد ذلك إلى ملك المعتمد[1].

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 103.

بين الحكام المسلمين من حروب وصراعات، ومؤامرات استمرت قرابة نصف القرن، وأخرجت من أيدي المسلمين قرابة نصف مساحة أرض إسبانيا الإسلامية بدون حروب تذكر مع العدو، وإنما تنازل عنها الحاكمون ثمنًا لعون كاذب لهم في صراعاتهم وحروبهم ومحاولاتهم الانتقام والتشفي من إخوانهم المسلمين في الإمارات الأخرى، وسنكتفي بإيراد نماذج من المواقف المخزية للإسبان، والتنازل لهم عن المدن والقلاع والحصون، ثمنًا لصداقتهم لهم، بينما كان أحدهم يجتهد في حرب إخوانه المسلمين، ويشتد في تدميرهم وقتلهم، ويحاول انتزاع الأرض والمدن والحصون من أيديهم ليسلمها كلها أو بعضها إلى الأعداء الإسبان، وهو يعلم أن الإسبان هم الأعداء الحقيقيون، وإنهم لن يدخروا جهدًا ولا وسيلة في تدمير الحكام المسلمين جميعًا، وانتزاع الأرض منهم، ودفعهم إلى الوراء تمهيدًا لإخراجهم من الجزيرة الأيبيرية كلها، وقد لمسوا ذلك كله لمس اليد، ولكنهم لم يتعظوا، ولم يقلعوا عن فسقهم وفجورهم، ولم يرتدعوا عن غيهم، واسترسلوا في ذلك إلى أن عمهم البلاء جميعًا، وخضعوا جميعهم للإسبان، يدفعون الجزية لهم، ويستخزون أمامهم، ويستجيبون لأوامرهم، وينفذون ما يطلبونه منهم وهم صاغرون أذلاء.

* * *

بنو عباد في إشبيلية

414هـ/ 1023م محمد الأول بن عباد

433هـ/ 1042م عباد المعتضد

461-484هـ/ 1069-1091م محمد الثاني المعتمد

غزو المرابطين لإشبيلية.

نأتي إلى كبرى ممالك الطوائف التي كانت تحت حكم الأسر العربية، وهي مملكة إشبيلية، وأصحابها هم بنو عباد اللخميون، وأول من رأس منهم هو القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل وكان قد ورث عن أبيه ثروة طائلة تقدر بثلث إشبيلية، وكان كبار رجالات البلد قد جعلوه رئيسًا لهم جمع السلطة في يده وإن كان قد تمسك بخطة القضاء سياسية منه، واستكثر من العبيد الذين ألف منهم جيشًا قويًا حمى به بلده من غارات البربر، وما زال يحكم إشبيلية منذ سنوات الفتنة حتى وفاته (بين 443هـ/ 1051م - 449هـ/ 1057م). وخلفه ابنه عباد الذي اتخذ لقب «المعتضد»، وكان من أكثر ملوك الطوائف دهاءً وقسوة، وقد تمكن من توسيع مملكته، حتى صارت أكبر ممالك الطوائف إذ انتزع الجزيرة الخضراء من أيدي بني حمود وقرمونة من أيدي البرزاليين (Birzalis) ومورون من بني نوح ورندة من بني أبي قرة، وأركش من بني خزرون ونبلة من اليحصبيين وولبة وشلطيش من البكريين وشلبا (Silves) من بني مرين، وشنتمرية الغرب (Santamaria de Algarve) (وهي اليوم «Faro») وأكشونبة (Ocsonoba) من بني هارون ومارتلة (Mértola) من ابن طيفور، وتم له ذلك ما بين عامي 443هـ/ 1051م و449هـ/ 1057م وأما جيرانه من أمراء هذه الدويلات الصغيرة فقد قام باغتيالهم أو نفيهم، ودارت حروب شديدة بينه وبين جيرانه بني ذي النون أصحاب طليطلة وبني الأفطس

أصحاب بطليوس وبني زيري أصحاب غرناطة، وكانت له الغلبة في أكثر هذه الحروب، وعلى كل حال فإن مملكته أصبحت أكبر ممالك الطوائف في جنوب شبه الجزيرة. وحينما توفي المعتضد 461هـ/ 1069م أورث ابنه محمداً الملقب بالمعتمد هذه المملكة العتيدة، بل إنه تمكن في أول أيامه من التغلب على قرطبة وإضافتها إلى ملكه، وتطلع إلى ملك مرسية فبعث وزيره أبا بكر بن عمار لكي يأخذها من يد ابن طاهر، فلما تحقق له ذلك أراد أن يغدر بالمعتمد ويستقل بحكمها، ولكن المعتمد ما زال حتى استطاع القبض عليها وقتله 477هـ/ 1084م. وعلى الرغم من سعة مملكة المعتمد ومن غنى موارده فإنه كان يرى نفسه عاجزاً عن صد هجوم الأذفونش المتكرر (Alfonso VI) ملك ليون على مملكته، وإزاء ذلك اضطر لاتقاء سره بدفع جزية سنوية له (كانت تدعى بالإسبانية «Parias»)، شأنه في ذلك كشأن سائر ملوك الطوائف، وحينما استولى الملك المسيحي على طليطلة 478هـ/ 1085م، وشعر جميع ملوك الطوائف بالخطر على عروشهم تزعم المعتمد بن عباد مشروع الاستنجاد بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين، اشترك معه في معركة الزلاقة 479هـ/ 1086م، وأبلى فيها بلاءً حسنًا، ولكنه عاد إلى مداخلة المسيحيين بعد عودة ابن تاشفين إلى المغرب، وحينئذ قرر ابن تاشفين خلع ملوك الطوائف جميعًا وكان منهم المعتمد بن عباد الذي خلعه عام 484هـ/ 1091م ونفي إلى أغمات في المغرب حيث توفي 487هـ/ 1095م[1]. أقام بنو عباد حكمًا لهم في إشبيلية، وانتهى هذا الحكم إلى المعتمد بن عباد. وأقام باديس بن حبوس الصنهاجي حكمًا له في غرناطة ومقاطعة (ريا). ولما توفي باديس خلفه في حكم غرناطة حفيده عبد الله بن بلقين، وخلفه في حكم مالقة حفيده الآخر تميم، ولم يمض وقت طويل على حكم عبد الله لغرناطة حتى سار المعتمد بن

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 103.

عـباد في قـواته واسـتولى على مـدينة جـيان، وكـانت من أهم مـدن مملكة غرناطة، (466هـ/ 1074م). وألح ابن عباد على غرناطة يريد الاستيلاء عليها وعلى ما يتـبعهـا من أرض وحصون ومـدن. فاتجـه عبد الله بن بلقين أمـير غرناطة إلى المأمون بن ذي النون أمير طليطلة - وكـان صديقًا لألفونسو ملك قشـتالة - ليـسعى لدى ألفونسـو لعقـد معاهدة تعـاون وصداقـة بين غرناطة وقـشتـالة، وتم له ما أراد، وقـد خضع أمـيـر غرناطة بموجب هذه المعـاهدة لألفونـسو، وتعهـد له بأن يكون تابعــه، وبأن يدفع له الجزية سنويًا بالدنـانير الذهبية، ولقاء ذلك تعهد ألفونسو بحـماية إمارة غرناطة من أطماع المعتمد بن عبـاد، وبأن يمد عبـد الله بالجند والقـوات عند الحاجـة. وفي عام (467هـ/ 1075م) أغار المأمون بن ذي النون أمـير طليطلة على قرطبة، واستـولى عليها وأخرجـها من حكم بني عبـاد. وحينما نزلت هذه الكارثة بالمعـتمد بن عـباد أسرع أمير غرناطة ينتهز الفرصة واستـمد حليفه ألفونـسو ملك قشتالة، ووعده بأن يحـصل على جزء مما يتـحـقق له من المغانم من الأرض والمال والسـلاح والغنائم الأخرى التي يمكن أن يحصـلوا عليها من بني عباد، فأمـده ألفونسو بقطعة من جنده ضمها إلى جيشه، وسار أمير غرناطة بهذه القوة المختلطة إلى مدينة قبرة التـابعة لبني عباد واستولى عليهـا وضمها إلى ملكه. ولما رأى ابن عبـاد تسابق خـصومـه إلى إعلان الخـضوع والطاعـة والولاء لملك قشـتالة، والتباري في دفع الجزية إليـه، فكر هو في أن يحذو حذوهم، وأن يطلب من ألفونسو عقد محالفة معه، وأرسل وزيره ابن عمار إلى قشتالة ليعقد مثل هذه المعاهدة، فوفق في مسعاه، واتفق الفريقان على أن يطلق ألفونسو يد ابن عباد في احتـلال غرناطة على أن تكون المدينة للمعـتمد، وأن يكون مـا في القلعة الحمراء من أموال وذخائر ونفائس وسلاح وأموال ملكًا لألفونسو. وفوق ذلك تعهد ابن عـباد بأن يزيد مقدار الجزية السـنوية التي كان يدفعها أبوه المعـتضد

لملوك قشتالة منذ عام 455هـ/ 1063م، وأن يجعلها خمسين ألف دينار ذهب كل عـام. وبعد توقـيع هذه المعاهدة أخـذ الإسبـان في الإغارة على بسـاتط غرناطة ومروجـها، وعاثوا فيها خـرابًا وتدميراً. وقام ابن عباد ومـعه حلفاؤه النصارى بالإغـارة على غرناطة، ولكنهم فشلوا فـي الاستيلاء عليـها. ورأى عبد الله بن بلقين من جهته أن يتجه بنفسه إلى ألفونسو لمفاوضته واسترضائه، وعقد حلف حماية معه، وقد أسـفرت هذه المفاوضات عن تعهد عبد الله بأن يؤدي إلى ألفونسو جزية سنوية مقـدارها عشرة آلاف مثقال من الذهب، وأن يسلم إليه بعض الحصون الواقعة جنوبي غربي جـيان فتسلمها ألفونسو، ولكنه فكر في أنه يستحيل عليه الاحتفاظ بها، فباعها إلى المعتمد ابن عباد[1].

* * *

---

(1) د. أسعد حواميد، المرجع السابق، ص 99.

ذو النون في طليطلة

عبد الرحمن بن ذي النون

419هـ/ 1028م إسماعيل الظافر

435هـ/ 1043م يحيى المأمون

467-478هـ/ 1075-1085م يحيى القادر غزو طليطلة على يد ألفونسو السادس حاكم ليون وقشتالة.

وأما طليطلة فقد رأينا كيف حكمتها منذ بداية الفتنة أسرة من أصل بربري قديم هم بنو ذي النون، الذين كانوا يتوارثون الرياسة في إقليم شنتبرية، وكان أول من ولي منهم أمر طليطلة هو إسماعيل بن عبد الرحمن ابن ذي النون الملقب بالظافر فحكم المدينة ما بين سنتي 427هـ/ 1036م - 435هـ/ 1043م ودبر أمور مملكته وزيره أبو بكر بن الحديدي، ولما توفي إسماعيل خلفه ابنه يحيى الملقب بالمأمون (435هـ/ 1043م - 468هـ/ 1075م)، ودارت بينه وبين جيرانه من ملوك الطوائف حروب كثيرة: مع سليمان المستعين بن هود (435هـ/ 1043م - 437هـ/ 1046م) ثم بينه وبين المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية، ثم مع ابن الأفطس، واستعان كل من هؤلاء بجيرانهم من المسيحيين، وأدى ذلك إلى خراب دولهم، ولا سيما أن المأمون ابن ذي النون كان مسرفًا في الإنفاق على منشآته العمرانية في بذخ أصبح مضرب المثل، وبعد وفاته في 468هـ/ 1075م ولي مملكته حفيده يحيى ابن إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل الملقب بالقادر (468هـ/ 1075م - 478هـ/ 1085م)، وكان سيء التدبير ففتك بوزيره ووزير جده أبي بكر ابن الحديدي، وأدى ذلك إلى ثورة أهل طليطلة، فهرب القادر منها إلى قونكة وحينئذ استدعى أهل طليطلة عمر المتوكل ابن الأفطس فدخلها في 1079م

وبقي بها مدة عشـرة أشهر، غير أن القادر راسل أذفـونش (ألفونسو السادس) ملك قشـتالة وطلب معونتـه وذكره بجميل جده عـليه حينما كـان لاجئًا إلى طليطلة أثناء حربه مـع أخويه شانجة وغـرسيه، فانـتهز أذفونش هذه الفـرصة وجاء لملاقاته، وتقدمـا معًا نحو المدينة، فدخلاها عندمـا كان المتوكل يسحب منها. ولكن الملك القشتـالي لم يلبث أن استولى على المدينة 478هـ/ 1085م وعوض القـادر عنها بملك بلنسية وأرسل مـعه جيشًـا يعاونه، واستقـر القادر ببلنسـية (477هـ/ 1084م - 485هـ/ 1092م). أما طلـيطلة فقد خـرجت من أيدي المسلمين نهـائيًا، بل أصـبحت منذ ذلك التـاريخ قاعـدة ملك قشـتالة ألفونـسو السادس[1]. حينمـا ترسخ حكم سليمان بن هود في سرقـسطة أخذ يتطلع إلى توسيع رقـعة ملكه على حساب أراضي جـاره المأمون بن ذي النون أمير طليطلة، فأغار على مدينة وادي الحجـارة واحتلها بعد معارك عنيفة هزم فيهـا المأمون بن ذي النون هزيمة منكرة (عام 436هـ/ 1044م). ولم يجد ابن ذي النون، وسيلة للانتـقام من عدوه ابن هود أكرم وأشـرف من أن يلجأ إلى فرناندو ملك قشتالة، فاستغـاث به، واعترف بطاعته، وخضع له وتعهد بدفع الجزية إليه، فأمده فرنـاندو بقوة من جنده تقوى بها ابن ذي النون، وأخذ في الإغارة على أراضي أعدائه بني هود في سرقسطة، فأفسد وخرب. فأسرع ابن هود بدوره يعقد الحلف مع ملك قشتالة، وبذل له أمـوالاً كثيرة وتحفًا ونفائس وتعهد له بدفع الجزية. فأرسل فرناندو قوة من جنده تعيث في أراضي طليطلة حتى خربها. وهو يرمي من وراء عـونه المزدوج للفريقين المسلمين المتنافسين، أن يحملـهما على التـسابق في البـذل والعطاء، والتنازل عن المدن والحـصون والقلاع، كسـبًا لوده، واستقـواء به على الخصوم المسلمين، فـيفتقـر الجانبان وتضعف قواهما، وتسوء سمعتهما، ومكانتـهما لدى شعوبهما، فيسهل عليه

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 106.

الفتك بهما، وإخضاعهما لأمره، وانتزاع ما يريده منهما بسهولة ويسر، وكان له فعلاً ما أراد. ولما رأى المأمون بن ذي النون أن فرناندو قد خانه، وأعان عدوه ابن هود، لجأ هو بدوره إلى ملك نافارا، واستماله ببذل الأموال الجليلة له، فقام ملك نافارا بالإغارة على أراضي سرقسطة، وعاث فيها فساداً وتخريبًا. ولجأ ابن هود إلى فرناندو، وزاد له في البذل والعطاء، فأغار ملك قشتالة على أراضي طليطلة، وقتل وخرب وأفسد. واستمرت الحال على ذلك زمنًا طويلاً، يغير هذا على أراضي طليطلة، فيرد الآخر بالإغارة على أراضي سرقسطة، حتى أرهقت الإمارتان المسلمتان، وخربتا ونضبت مواردهما، وانتزعت منهما كثير من الحصون والقلاع والمدن، كانت من نصيب العدوين الإسبانيين اللذين يترقبان الساعة المناسبة التي ينقضان فيها على أعدائهما المسلمين للقضاء عليهم، وانتزاع ما تبقى بأيديهم من أراض[1].

* * *

(1) د. أسعد حوامد، المرجع السابق، ص 100.

بنو تجيب وبنو هود في سرقسطة وغيرها

أولا: بنو تجيب

410هـ/ 1019م منذر الأول المنصور

414هـ/ 1023م يحيى المظفر

420هـ/ 1029م معز الدولة منذر الثاني

ثانيا: بنو هود

430هـ/ 1039م سليمان المستعين

438هـ/ 1046م أحمد الأول المقتدر

474هـ/ 1081م يوسف المؤتمن

478هـ/ 1085م أحمد الثاني المستعين

503هـ/ 1110م عماد الدولة عبد الملك

513-536هـ/ 1119-1142م أحمد الثالث المنتصر تحت سلطان المرابطين

غزو ألفونسو الأول (البطل) لسرقسطة بالاشتراك مع روميرو الثاني حاكم «أراجون».

ثاني مملكة كبيرة حكمتها أسر عربية هي مملكة الثغر الأعلى (La Marca Superior) أي سرقسطة والمدن التابعة لها. وقد كان يليها عند وقوع الفتنة منذر بن يحيى التجيبي الذي ظل يحكمها منذ الفتنة حتى 412هـ/ 1022م، وخلفه ابنه يحيى بن منذر (412هـ/ 1022م - 427هـ/ 1036م) ثم منذر الثاني بن يحيى (427هـ/ 1036م - 430هـ/ 1039م)، وقد انتهت أيامه باغتياله على يد ابن عم له، وبهذا انتهى حكم الأسرة التجيبية، واستدعى أهل سرقسطة

بعد مقتله سليمان بن محمد بن هود الجذامي صاحب مدينة لاردة وبهذا بدأ حكم بني هود للثغر، وتلقب هذا الملك بالمستعين، وظل في الحكم حتى 437هـ/ 1046م، على أنه كان قد قسم مملكته قبل وفاته على أبنائه الخمسة: سرقسطة لأحمد الذي تلقب بالمقتدر، ولاردة ليوسف، وقلعة أيوب لمحمد، ووشقة لِلُب، وتطيلة للمنذر، غير أن أحمد المقتدر استولى على أملاك إخوته بعد نزاع طويل، وفي أيامه وقع هجوم النورمنديين على بربشتر (شرقي وشقة) 456هـ/ 1064م، وقتلوا آلافًا من أهلها، ولكن المقتدر استطاع استعادة المدينة في العام التالي. وقد استطاع المقتدر أن يوسع مملكته على حساب جيرانه، فاستولى على طرطوشة ثم أخذ دانية من يد علي إقبال الدولة بن مجاهد 468هـ/ 1076م، وعلى الرغم من ذلك فإنه فرض على رعيته ضرائب باهظة حتى يدفعها لجيرانه من الملوك المسيحيين لقاء معونتهم له في بعض حروبه. وقد توفي 474هـ/ 1081م وخلفه ابنه يوسف المؤتمن فحكم حتى 478هـ/ 1085م، ولما توفي ورث ملكه ابنه أحمد الملقب بالمستعين الثاني اتفق هذا مع دخول المرابطين إسبانيا الإسلامية، ومع ذلك فإن يوسف بن تاشفين حينما خلع ملوك الطوائف بعد ذلك بسنوات لم يتعرض له بسوء، فقد رأى أن هؤلاء الثغريين أدرى بالتعامل مع جيرانهم المسيحيين، ومن ناحية أخرى رأى أن التضييق عليهم قد يلجئهم إلى الاحتماء بهؤلاء الجيران. فظل المستعين يحكم الثغر الأعلى حتى توفي 503هـ/ 1110، غير أنه لم يستطع إيقاف الزحف المسيحي، وقد كان يعاصر المستعين ملك أراغون شانجة بن رذمير (1063م - 1094م) فقام هذا بمحاصرة تطيلة سنة 480هـ/ 1087م وشاركته في حصارها حملة صليبية من بلاد النورمنديين وإمارات فرنسا الجنوبية. إلا أنه فشل في الاستيلاء عليها ثم عاد لمهاجمة الثغر وتمكن في هذه المرة من الاستيلاء على منت شون (Monzón) في 482هـ/ 1089م، ثم ضرب الحصار

على مدينة وشقة 486هـ/ 1093م، ولكنه توفي في السنة التالية قبل التمكن من فتحها، وخلفه ابنه بدرو الأول (Pedro I) (1094م - 1104م) فواصل حصار المدينة وهرع إليها المستعين لكي ينقذها غير أنه هزم هزيمة منكرة في موقعة (Alcaraz) (ذو القعدة 489هـ/ نوفمبر 1096م)، وتلا ذلك سقوط المدينة على يد ملك أراغون. وفي 494هـ/ 1101م استولى بدرو الأول نهائيًا على بربشتر، وبعد وفاة هذا الملك خلفه على عرشه أخوه أذفونش الأول المعروف بالمحارب (Alfonso I, el Batallador) (1104م - 1134م) الذي واصل جهود أخيه في حربه ضد المسلمين، فأوقع بالمستعين هزيمة قاسية في معركة بلتيرة (Valtierra) 503هـ/ 1110م والتي استشهد فيها الملك اليهودي، فخلفه ابنه عبد الملك عماد الدولة، ولما تبينت لأهل سرقسطة مداخلته للمسيحيين طردوه من المدينة واستدعوا المرابطين فدخلوها سنة 503هـ/ 1110م، ولكنهم عجزوا عن الاحتفاظ بها بعد سقوط مدن الثغر حولها، فضرب ألفونسو المحارب الحصار على سرقسطة (508هـ/ 1114م - 512هـ/ 1118م) وأخفقت جهود المرابطين في إسقاط المدينة فسقطت في يد الملك الأرغواني في هذه السنة الأخيرة. وانتهت بذلك دولة بني ود في الثغر الأعلى[1]. قسم سليمان بن هود - قبل وفاته - أعمال مملكته بين أبنائه الخمسة، وتسلم كل واحد من الأبناء المنطقة التي عينها له أبوه. وكان ابنه أحمد صاحب سرقسطة (ولقب فيما بعد بالمقتدر) أكثر إخوته طمعًا بما في أيديهم من أرض، وقد استطاع أن يحتال على ثلاثة من إخوته فسجنهم وسمل أعينهم، وانتزع ما كان في أيديهم من أرض ومدن. وناصبه أخوه الرابع (ويسمى يوسف) صاحب لاردة العداء وقاوم أطماعه. ولما رأى أهل الإمارة القسوة البالغة التي عامل بها أحمد إخوته، نفروا منه وخرجت أكثر مدن الإمارة عن طاعته، وأعلنت الطاعة والولاء لأخيه يوسف.

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 107.

اصـابت مجـاعـة شـديدة مدينـة تطيلة في إحـدى السنين - وهي من القواعد التي أعلنت الولاء ليوسف - فاستغاث أهلها بيوسف، فجمع كميات كبيرة من الأقوات والمؤن ليرسلها إليها. ولكن كان لا بد له لإيصال هذه المؤن إلى تطيلة من أن يمر بأراضـي اخيـه أحمـد، أو بأراضي مملكة نافـرا، ولكن احمـد ما كـان ليـسمح لأخـيه العـدو بأن يمد مدينة خـرجت عن طاعتـه، واستـفظعت جرمـه نحو إخوته، فـاضطر يوسف إلى الاتصال بمـلك نافارا، وبذل له المال الوفير لكي يسمح له بمرور المؤن في أراضـيه، فوافق ملك نافارا على ذلك. وعلم أحـمد بن هود أميـر سرقـسطة بما تم من اتفاق بين أخـيه يوسف وبين ملك نافارا، فاتـصل بغرسيه ملك نافارا سـراً، وعرض عليه أن يبذل له ضـعفي ما بذله أخوه يوسف، وأن يتـخلى له عن القافلة وحمولـتها كلها، وما يحمله حراسها من سلاح، وما معهم من خيول، إذا هو مكنه من القضاء علـى حراس القافلة ومنع وصولهـا إلى مدينة تطيلة. فخضع غـرسيه إلى الإغراء، وخان عهـده ليوسف، وعقد الاتفاق معه. وبيـنما كانت القافلة تسيـر آمنة مطمئنة في أرض مملكة نافـارا - وكانت تتـألف من عدة ألوف من الجند وعدد كبـير من الدواب بأحمالها، باغتـها قوات أحمد أميـر سرقسطة، وفتكت بقوة الحمـاية، فقتل من قتل وأسر من أسر، واسـتولى النصارى على أسـلاب الجند والمؤن والدواب وفقًـا للاتفـاق. ويئس أهل تطيلة من وصـول المؤن عن طريق أميرهم يوسف، فأعلنوا خضوعهم للغادر أحمد بن هود.

النورمان يرتكبون أفظع المآسي في أهل بربشتر والحكام يتفرجون:

تقع مدينـة بربشتر بين مـديتني لاردة ووشقـة في الشمـال الشرقي من سرقـسطة، وكانت من أمنع قواعـد المسلمين في الشمـال. وفي عام 456هـ/ 1064م نزلت قوة كبيرة من الفرسان النورمان والفرنـسيين على بربشتر، وكانت

تخضع ليوسف بن هود، وحاصروها، ولم يتمكن يوسف من إنجادها لأنه ليس له طريق أرضي يتصل بها بواسطته إلا عن طريق الأراضي الواقعة تحت حكم أخيه الغادر أحمد، أو عن طريق أراضي مملكة نافارا، وقد خبر غدر ملكها وخسته من قبل. ولم يتحرك أحمد بن هود لنجدة القلعة المسلمة، حقدًا منه على أهلها الذين خلعوا طاعته وأعلنوا الولاء لأخيه يوسف، وجبنًا منه ونذالة، فوقف يتفرج على الأحداث التي تمزق نياط القلوب القاسية.
وقاتل المسلمون قتالاً مجيدًا، ولكن النورمان تمكنوا من اقتحام المدينة في آخر الأمر، ولجأ المدافعون المسلمون إلى القصبة يتابعون دفاعهم، وقتلوا أعدادًا من المهاجمين، وكان في نيتهم أن لا يستسلم أحد منهم لأعدائهم، ولكن أحد الخونة دل النورمان على مجرى الماء الذي يصل إلى القصبة فسدوه، وقطعوا الماء عنها، فاضطر المدافعون - تحت وطأة العطش الشديد - أن يعرضوا على النورمان تسليم المدينة، على أن يسمح لهم بالخروج منها هم وعائلاتهم بأرواحهم فقط دون مال. فوافق النورمان على ذلك، ولكنهم حينما استسلم المقاتلون، ونزعوا أسلحتهم، غدروا بالناس، وانقضوا على الأهلين العزل يقتلونهم بغير رحمة ولا شفقة، وسبوا النساء، ثم سمحوا لمن بقي حيًا بالخروج من البلد. ولما خرج الناس من البلد في ظل الأمان المقطوع، أمر قائد النورمان رجاله بقتل من يقدرون على قتله مخافة أن ترتد الجموع عليهم، فقتلوا منهم حوالي ستة آلاف فحدث هرج ومرج، ومات خلق كثير من شدة الزحام. ولما أصبحت الجموع خارج أسوار المدينة، طلب إليهم النورمان الرجوع إلى دورهم بأهليهم وذراريهم.

يصف ابن حيان - وهو من مؤرخي إسبانيا الإسلامية - وقد عاصر هذه المأساة الإنسانية - ما جرى وصفًا مؤثرًا للغاية، ومما جاء في وصفه لها ما يلي: (ولما برز جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها بعد من خفف منهم

بالقتال. وهلك في الزحمة ظلوا قيامًا ذاهلين منتظرين نزول القضاء فيها، ونودي فيهم بأن يرجع كل ذي دار إلى داره ووطنه بأهله. وأزعجوا لذلك، فنالهم من الازدحام قريبًا مما نالهم في الخروج عنها. ولما استقروا بالدور مع عيالهم وذراريهم، اقتسمهم المشركون، فأمر سلطانهم، فكل من صارت في حصته دار حازها. وحاز ما فيها من أهل وولد ومال، فيحكم كل علج منهم فيمن سلط عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منهم، يأخذ كل ما أظهره إليه، ويقرره عليه فيما أخفى، ويعذبه أشد العذاب، وربما زهقت نفس المسلم من دون ذلك فاستراح، وربما أنذره أجله إلى أسوأ من مقامه بذلك. فإن عداة الله كانوا يومئذ يتولعون بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم، وعلى أعينهم إبلاغًا في نكايتهم، يغشون الثيب، ويفتضون البكر، وزوج تلك، وأبو هذه موثق بقيد أسره، ناظر إلى سخينة عينه، فعينه تدمع، ونفسه يتقطع، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك بنفسه، أعطى من حوله من غلمانه يعبون فيهم عبثه، فبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الثقة على الحقيقة والحول والقوة لله العظيم. ثم تحدث ابن حيان عن عشرات ألوف السبايا اللاتي وقعن في قبضة هؤلاء الوحوش. ووصلت أنباء هذه الفظائع إلى قرطبة في أوائل رمضان من عام 456هـ (وكان ابن حيان مقيمًا فيها)، فتأثرت النفوس لذلك أشد التأثر، ولكن الحكام المسلمين جميعًا كانوا عاجزين عن فعل شيء، وقد يكون بينهم من كان يتشفى بأهل المدينة وما حل بهم.

وجه ابن حيان نقدًا عنيفًا ولاذعًا ومؤثرًا إلى الحكام المسلمين في إسبانيا الإسلامية، وفي غير إسبانيا الإسلامية، على تقاطعهم وتعاديهم، وتقاتلهم، واستشراء بعضهم على بعض مبددين بذلك قواهم، ومضعفين قوتهم، ومهيئين للعدو أسباب الهيمنة عليهم، وإخضاعهم جميعًا لأمره ونهيه، فهم أمام الأعداء يستخذلون ولا يستحيون، وأما إخوانهم قساة غلاظ لا يتسامحون

ولا يتساهلون، ولا تؤثر فيهم نكبة، ولا تهز وجدانهم كارثة، ولا توقظهم من غفلتهم حادثة مؤلمة، ولا ضياع أرض ولا عرض. همهم البقاء في الحكم، والتمتع بخيراته، وإنفاق الأموال - أموال بيت مال المسلمين - على الخمر والغواني، وشراء الإماء والمغنيات، وابتناء القصور وزخرفتها وإنفاق الكثير الكثير عليها، واستدرار مدح الشعراء وسماع أقوال المتملقين المنافقين فيهم، وفي ظنهم أن ذلك يمكن أن يخلدهم، ويبقي على ذكراهم حية على الدهر. ومما قاله ابن حيان في التعليق على هذه الكارثة: لقد استوفينا في شرح هذه الفدحة مصائب جليلة، تؤذن بوشك القلعة، طالما حذر أسلافنا لحاقها بمن احتملوه عمن قبلهم من آثره. ولا شك عند أولي الألباب، ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع، وقد أخذنا بالتواصل والألفة فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه، على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لا محالة، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ما عهدنا في القرن الذي سلخه من آخر أمور الجماعة على إدراك ما لحق الذي قبله، فمث دهرنا هذا - لا قدس - بهيم الشبه، ما إن يباهي بعرجه، فضلاً عن نزرح خيره، قد غربل ضمائرهم، فاحتوى عليهم الجهل، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء، ولا على معالي الغي بأقوياء، نشد من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل من أوائل الدلائل على فرط جهلهم واغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، ورفضه وصية نبيهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم حتى أطل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم، يتبجح عراص دورهم، ويستقريء بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم طرفًا، ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم، لهاة عن بثهم، ما إن يسمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكر لهم أو داع، فضلاً عن نافر إليهم، أو ماش لهم، حتى كأنهم ليسوا منا، أو كأن فتقهم ليس بمفض إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا بالقناء، عجائب فاقت

التقدير، وعرضت للتغيير ولله عاقبة الأمور وإليه المصير). وقد وقف أحمد بن هود من هذه الأحداث المفجعة موقف المتفرج الشامت، فالبلد خلع طاعته ودان بالولاء لأخيه وخصمه وعدوه يوسف، فما يعنيه هو من نصرة أهله المسلمين؟ ولم يفكر أحد من أمراء الطوائف المسلمين الآخرين في إنجاد حصن بربشتر لأنهم كانوا جميعًا يخضعون للإسبان، ويدفعون لهم الجزى، ولا يسمح الإسبان لأحد منهم بأن يتدخل لإنجاد مسلمين ورفع الغمة عن حصن مهدد بالسقوط في يدي قوى نصرانية؛ لأهم مع كل ما يؤدي إلى دمار المسلمين في النهاية، وضد كل من يقف في وجه القوى النصرانية من أي قطر كانوا.

الحرب بين ابني المقتدر بن هود واستعانة كل منهما بالنصارى:

بعد أن مات المقتدر بن هود (أحمد)، تسلم الحكم مكانه في سرقسطة ابنه يوسف المؤتمن، وتسلم الحكم في لاردة ابنه الآخر المنذر. وقد قامت الحرب بين الأخوين العدوين فاستعان المؤتمن بصديق أبيه وحليفه (السيد الكمبيادور، وكان هذا السيد يقود جيشًا من المرتزقة القشتاليين). واستعان المنذر بسانشو راميرز ملك أراجون وبرامون برنجير أمير برشلونة، ووقعت أول معركة بين الأخوين عند قلعة المنار قرب لاردة، انهزم فيها المنذر هزيمة منكرة، وأسر رامون برنجير أمير برشلونة.

ولم يطل حكم المؤتمن فقد توفي بعد سنين قليلة، فخلفه في الحكم ابنه أحمد المستعين. وأخذ أحمد يتطلع - بعد دخول المرابطين في الجزيرة - إلى الاستيلاء على بلنسية، ودفع (السيد) إلى مهاجمتها، ظنًا منه أن السيد إنما يعمل لحسابه هو، ولكن السيد خدعه، واستولى على بلنسية لحسابه الخاص، وبقي السيد حينًا يحكمها بصورة مستقلة. وحينما ثبت المرابطون أقدامهم في

الجزيرة بعد موقعة الزلاقة، رأى المستعين أن يلجأ إلى ألفونسو ملك قشتالة يعلن له الخضوع، ويطلب منه الحماية ضد تهديد المرابطين. وفي هذه الأثناء ألح ملك أراغون على مدينة وشقة وحاصرها يريد أخذها، فأدرك المستعين أنه لن يستطيع إنقاذ المدينة عن طريق الاستعانة بملك قشتالة، ويبدو أن صحوة من ضمير هزته، فاتجه إلى يوسف بن تاشفين يستنجد به، وهو يقدر مبلغ الخطر الذي يشكله المرابطون على حكمه، ولكنه أدرك أنه إذا كان لا بد له من الاختيار بين المرابطين وبين النصارى، فإن التسليم للمرابطين أكرم له ولأهله ولقومه ولدينه. فأسرع يوسف بن تاشفين بأمر ولاته في الأندلس بإنجاد المستعين، وأرسلوا إليه ألف فارس، وستة آلاف رجل من المرابطين، وأمد ملك قشتالة المستعين بقوة من الجند أيضًا. وبعد أن اشتد الحصار على وشقة، وطال حوالي ثلاثين شهرًا، سار المستعين بمن تجمع لديه من قوات لرفع الحصار عنها، فسار إليه ملك أراغون، وجرت بينهما معركة عنيفة انهزم فيها المستعين وجند المرابطين والقوة القشتالية، وسقطت وشقة في يد ملك أراغون فجعلها عاصمة ملكه (عام 489هـ/ 1096م)[1].

---

(1) د. أسعد حواميد، المرجع السابق، ص 105.

العامريون في بلنسية

412هـ/ 1021م عبد العزيز المنصور

453هـ/ 1061م عبد الملك المظفر

457-468هـ/ 1065-1076م غزو «ذو النون» لبلنسية

468هـ/ 1076م أبو بكر

478هـ/ 1085م القاضي عثمان

478-483هـ/ 1085-1090م ذو النون يحيى القادر

483-489هـ/ 1090-1096م القاضي جعفر

غزو «السيد» لبلنسية ثم فتح المرابطين لها.

وأما شرق إسبانيا الإسلامية فقد تغلب عليه العامريون، فنجد في المرية خيران العامري الصقلبي الذي استبد بالمدينة وحكمها ما بين 403هـ/ 1012م حتى 419هـ/ 1028م، وخلفه عليها زهير الصقلبي بين 419هـ/ 1028م و429هـ/ 1038م، ثم دارت حرب بين زهير وباديس بن حبوس صاحب غرناطة وانتهت بمقتل زهير، فاستدعى أهل المرية جارهم عبد العزيز الملقب بالمنصور بن عبد الرحمن شنجول بن المنصور العامري، وطمع مجاهد في ملك المرية، فخرج إليه عبد العزيز لاستصلاحه وترك على حكم المرية نائبًا عنه صهره ووزيره معن بن صمادح التجيبي، غير أن هذا لم يلبث أن غدر به وأعلن استقلاله بالمرية وظل يحكمها من 432هـ/ 1041م حتى وفاته في 443هـ/ 1051م، وخلفه عليها ابنه محمد الملقب بالمعتصم الذي امتد حكمه حتى وفاته 484هـ/ 1091م، ودخلت على المدينة جيوش المرابطين وهو في النزع الأخير، وبذلك انتهت دولة بني صمادح وهرب عز الدولة بن محمد بن

معن إلى ديار بني حماد الصنهاجيين في المغـرب الأوسط. وفي بلنسية استقر مبارك ومظفر الصقلبيان مشـتركين في حكمهما منذ بداية الفتنة حتى 410هـ/ 1019م، ثم انتقل حكمهـما إلى لبيب صاحب طرطوشـة، ولكن أهل بلنسية ثاروا به حينما علمـوا بمداخلته للمسيحـيين المجاورين من أهل برشلونة، ولما كان في بلنسية تجمع كـبير من موالي العامريين فقد عـمد هؤلاء إلى استدعاء عبـد العزيز بن عـبد الرحـمن الملقب بشنجول بـن المنصور العـامري، وولوه إمارتهم في 412هـ/ 1021م، وتلقب بالمؤتمن، وطال حكم هذا الأمير حـفيد المنصور العامري حتى توفي 452هـ/ 1061م خلفه ابنه عبد الملك الذي تلقب بالمظفر، وكان صـغير السن، فاضطلع بأمر الدولة وزير أبيـه أبو بكر بن عبد العزيز، ولكن الأمور اضطربت عليه، واغـتنم فرذلند الأول ملك قشتالة هذه الفرصة فهـاجم بلنسية 455هـ/ 1063م وأوقع بأهلها هزيمة قاسيـة في معركة بطرنة (Paterna)، وحينما بدأت حركة تمرد بين عامـة بلنسية بادر صهره يحيى المأمـون بن ذي النون - وكـان والد زوجـتـه - بإرسـال جيـش من طليطلة لحمايـته. على أن المأمون قرر في مـا يبدو خلع عبد الملك وضم بلنسـية إلى ملكه 457هـ/ 1065م وظل الأمر كذلك حتى 467هـ/ 1075م، إذ أعقب وفاة المأمون في هذه الـسنة أن آل حكم المدينة إلى أبي بكر محـمد بن بعـد العزيز الذي كان وزيـرًا لعبد العـزيز المنصور وابنه عـبد الملك، وقـد دبر هذا الوزير أمور بلنسـية بحكمة إلى أن اسـتولى ألفونسو الـسادس على طليطلة 478هـ/ 1085م وخلع عنهـا القادر حـفيـد المأمون بن ذي النون، فـعوض القـادر عن طليطلة ببلنسية وظل القـادر يحكمها حتى 485هـ/ 1092م حينما ثار به أهل البلد بقيادة القـاضي جعفر بن جحاف وقـتلوه، وبقي هذا القاضي يدبر أمور بلنسيـة، ولكن أحوالهـا بقيت مضطـربة مما أطمع فيهـا القائد المغـامر لذريق المعـروف بالسيـد القنبـيطور (Rodrigo Diaz de Vivar, El Cid, Compeador)

وكان محاربًا قشتاليًا جريئًا عمل في خدمة ملكي قشتالة شانة ثم أذفونش، وخدم أحمد المستعين ملك سرقسطة أيضًا. وبدت له الفرصة سانحة، فهاجم بلنسية وفتحها بعد حصار شديد سنة 487هـ/ 1095م طالب القاضي ابن جحاف بذخائر القادر بن ذي النون التي اتهمه باحتيازها، وبسبب ذلك أُحرق القاضي حيًا. وظل السيد يحكم بلنسية حتى وفاته 492هـ/ 1099م، على أن زوجه السيدة خيمينا (Jimena) بقيت فيها مدة ثلاث سنوات حتى اضطرت للجلاء عنها ومعها جنود زوجها حينما شدد القائد المرابطي مزدلي بن سُلنكان الحصار على المدينة. وكانت خيمينا قد طلبت المساعدة من ألفونس السادس فهرع لمساعدتها ولكنه رأى استحالة الاحتفاظ بالمدينة إزاء الحصار المرابطي، وهكذا نصح بالجلاء عنها بعد أن أضرم النار فيها. وعادت بلنسية إلى سلطان المرابطين بدءًا من هذا التاريخ[1].

بين ابن ذي النون في بلنسية وبين ابن هود في لاردة:

بعد أن احتل ألفونسو مدينة طليطلة، أخرج ملكها يحيى بن ذي النون (القادر) إلى بلنسية، ووعده بالعون على احتلالها، وهو يعلم أن ترسخ قدم ابن ذي النون في بلنسية يعني خضوع المدينة له، وترسخ قدمه هو فيها. وسار القادر إلى بلنسية ومعه سرية من الجند القشتاليين تحت إمرة القائد (البارهانيس)، وخافت جموع أهل الرأي في المدينة من أن تقع بلنسية فريسة للاحتلال القشتالي، فقرروا تسليمها للقادر ابن ذي النون (شوال 478هـ/ 1086م). وحينما استغاث ابن عباد وأمراء الجزيرة بالمرابطين، وأخذت تتدفق سراياهم على الجزيرة، اضطر ألفونسو أن يجمع قواته لمواجهة السيل المتدفق، فاستدعى قائده البارهانيس. وأنعش نصر المسلمين في الزلاقة آمال أهل بلنسية

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 108.

في الخـلاص من أيدي القـشتـاليين وعـملائهم، وحـدثت حـوادث تمرد في الحـصون والقـلاع والمدن التابعـة لبلنسـية، واضطربت الأمـور على ابن ذي النون، فتحرك المنذر بن هود ليستولي على بلنسـية التي كانت أراضيها تفصل بين شطري مملكتـه في الجنوب والشمـال، فسـار في قواته، ومـعه قـوة من المرتزقة (القطلان) وضـرب الحصار حـولها (1088م). فاضطرب أمـر القادر، ولم يجد وسيلة تخـرجه مما هو فيه من الضيق سوى اللجـوء إلى سيده ملك قشتالـة ألفونسو السادس، فاستـغاث به كما استغـاث بالمستعين بن هود ملك سرقسطة، وخصم عمه المنذر العنيد. وكان المستعين يتطلع إلى الاستيلاء على بلنسية، فأسرع إليـها ومعه السيد الذي كان يقود قوة مـن المرتزقة القشتاليين، وكان جيش المسـتعين يتألف من 400 مقاتل، وجيش السـيد يتألف من ثلاثة آلاف مـقاتل، وكـان السيـد يعمل في الـظاهر لحسـاب ابن هود، ولكنه في الحقيقة كان يعمل على الاستيلاء على المدينة لحساب نفسه. ولما رأى المنذر بن هود قدوم ابـن أخيه المسـتعين مع القـوة النصرانيـة أدرك أنه لم يعد يسـتطيع الاستيلاء على بلنسـية، فأخذ في مفاوضة القادر بن ذي النون لعـقد معاهدة صداقة وتحالف بيـنهما ضد ابن أخيه المسـتعين. ولما رأى القادر أن قوات ابن هود تبتعد عن بلنسية، أخذ يفكر في أنه لا ينجده عند الشدة إلا القشتاليون، فأخذ يتـصل بالسيد سرًا، ويحـثه على عقد حلف بينهـما سرًا دون علم ابن هود، وبعث إليه بطائفة من التحـف والأموال الجليلة. ولما وصل المستعين إلى بلنسية ذكر للسيد أنه يرغب في الاسـتيلاء على المدينة، وطلب إليه العون في قتـالها، فماطل السـيد في ذلك، وقال له إن ابن ذي النون داخل في حـماية ملك قشـتالة، وإن بلنسية هي من أمـلاك ألفونسو، أعطاها للقادر، فـالعمل على احتلالها يعـتبر اعتداء على حقوق ألفونسـو، ولذلك لا بد من استئذانه قبل أية محاولة لمهاجمتهـا؛ لأن السيد لا يستطيع أن يعمل ضد سيده ومليكه

ملك قشتالة. وسار السيد إلى ألفونسو لمفاوضته، والاتفاق معه، فحصل منه على تفويض بأن أي أرض أو حصن أو مدينة ينتزعها السيد من المسلمين، تغدو ملكًا خالصًا له ولأولاده وأعقابه. ولما رأى المستعين بن هود ما فعله السيد به، قطع علاقاته به، واتجه بأنظاره إلى برنجير كونت برشلونة، وعقد معه أواصر الود والصداقة. وعاد السيد ومعه قوة قشتالية مؤلفة من سبعة آلاف مقاتل، فأعاد فرض الجزية على صاحب السهلة وشنتمرية الشرق، ابن رزين، ورفعها من ثمانية آلاف دينار سنويًا إلى عشرة، فاضطر ابن رزين لقبول هذا الغرم الثقيل. ولما وصل السيد إلى بلنسية، كان برنجير أمير برشلونة يحاصرها طمعًا في الاستيلاء عليها، فوقعت بين السيد وبين صاحب برشلونة معركة انهزم فيها الكونت برنجير وسقط عدد كبير من رجاله أسرى في أيدي السيد، وانسحب برنجير بقوته إلى برشلونة. وضرب السيد الحصار حول بلنسية، وأخذ يخضع ما حولها إلى سيطرته، حتى خافه أهل المنطقة جميعًا، واضطروا لدفع الجزية له. وفي ذلك الحين كان المرابطون قد استولوا على أكثر مناطق إسبانيا الإسلامية واستولوا على حصن لبيط، وأصبحوا قريبين جدًا من إمارة المستعين بن هود، فخاف منهم على نفسه، فعاد يتصل بالسيد، وأسفرت الاتصالات بينهما عن عقد صلح وحلف بينهما، فسار السيد بقواته إلى سرقسطة، وهناك عقد محالفة مع ملك أراغون وملك نافارا للتعاون مع ابن هود ملك سرقسطة على مقاومة خطر المرابطين، وإبعاده عن شرقي إسبانيا الإسلامية.

ولما اقترب المرابطون من بلنسية تحرك الناقمون على حكامهم الخاضعين للنصارى، وكان القاضي ابن جحاف المعافري أقوى الرجال المناوئين للسيد والقشتاليين والقادر ابن ذي النون الخاضع لهم. فأخذ ابن جحاف يفاوض داود بن عائشة قائد المرابطين، ووعده بتسليم بلنسية إليه إذا ساعده على

محاربة القادر والسيد، فبعث إليه سرية من جند المرابطين، ولما دخلت هذه السرية المدينة اندلعت نيران الثورة، وقادها ابن جحاف، فقبض على ابن الفرج مندوب السيد، وقبض على القادر وقتله في الحال، واستولى على ما كان في يده من مال وجواهر (رمضان (485هـ/ أكتوبر 1092م). ولما علم السيد بهذه التطورات سار إلى بلنسية، وأخضع المناطق التي مر بها، وفرض عليها المغارم الثقيلة. ووصل بقواته إلى بلنسية، ونزل في جباله، فاجتمع إليه أنصار القادر بن ذي النون (أواخر عام 1092م) وحاصر المدينة بعد أن أحرق ما حولها. وحاول السيد التفاهم مع ابن جحاف وأهل بلنسية على إخراج المرابطين، ويعدهم بالمعاملة الطيبة، وبأن يجعل ابن جحاف ملكًا عليها. ومال ابن جحاف وفريق من أصحاب المصالح البلنسيين إلى التفاهم معه، وانتهت المفاوضات إلى تقرير ما يلي: - يغادر المرابطون المدينة. - يدفع ابن جحاف للسيد ثمن ما كان مخزونًا في مستودعاته وقت قتل القادر. - أن تؤدى إليه الجزية التي سبق فرضها ومقدارها ألف دينار في الأسبوع. - أن تبقى ضاحية الكدية بيد السيد. - أن يرتد الجيش القشتالي إلى جبالة، ويبقى هناك مع السيد.

وهكذا عادت بلنسية تخضع للسيد مرة أخرى، وتدفع له الجزية، ولم يمانع المرابطون في عقد الصلح، فقد كانوا ملّوا تقلب أهل بلنسية. وما كاد المرابطون يغادرون المدينة، حتى نقض السيد العهد وأخذ يغير على ضواحي المدينة ويتلف ما حولها من زروع وثمار وأقوات، ويلح على ابن جحاف بالمطالب الثقيلة. وكان فريق من أهل بلنسية - أمثال آل طاهر أصحاب مرسية السابقين - يتآمرون على ابن جحاف ويثيرون في وجهه الاضطرابات والقلاقل، ويتصلون سرًا بالسيد. وكان ابن جحاف كلما استجاب لطلب مرهق من مطالب السيد، جاءه بعده طلب آخر أكثر ثقلاً وإرهاقًا، حتى أنه

بعد أن أحكم طرق الحصار حول المدينة، طلب إليه أن يسلمه جميع موارد المدينة، وأن يقدم له ابنه رهينة على ولائه للسيد، فرفض ابن جحاف هذه المطالب، وأغلق أبواب المدينة، وكتب إلى داود ابن عائشة قائد المرابطين يستغيث به، واستصرخ المستعين بن هود، وكتب إلى ألفونسو ملك قشتالة، فأرسل كل واحد من هؤلاء خطابًا إلى ابن جحاف يعده بالعون. وشدد السيد الحصار على المدينة بغية إجبار أهلها على الاستسلام، قبل أن يستجيب المرابطون للصريخ، ودام الحصار عشرين شهرًا، هلكت فيه الأقوات، وانقطع الرجاء. وتحرك الحزب المناوئ لابن جحاف يعمل ليضطره إلى المفاوضة والاستجابة لمطالب السيد. ولما لم تصل نجدات اضطر ابن جحاف إلى التسليم في (جماد الأولى 487هـ/ 1094م) على الشروط التالية: - يبقى ابن جحاف قاضيًا للمدينة وحاكمًا لها، ويؤمن في نفسه وأهله وماله. - يؤمن السكان في أنفسهم وأموالهم. - يتولى ممثل السيد تحصيل الضرائب. - تحتل المدينة حامية من النصارى المستعربين الذين يعيشون بين المسلمين. - يبقى السيد مرابطًا بجيشه في جباله، ولا يغير شيئًا من شرائع المدينة وأحكامها. - يُسلم ابن جحاف للسيد جميع أموال القادر بن ذي النون.

وحينما دخل السيد المدينة بجيشه لم يف بالعهود واحتل جيشه أكثر دور المدينة، وتسلموا الأبراج خلافًا للمعاهدة. وسلمه ابن جحاف أموال القادر، وأخذ السيد يشدد عليه في السؤال ليعلم إن كان بقي عنده شيء منها، وطلب إليه الحلف أمام الأعيان من الملتين على أن يستبيح دمه إن ظهر أنه أخفى منها شيئًا، فحلف ابن الجحاف على أنه لم يخف شيئًا. ثم وجد السيد مخبأ فيه حلي القادر وذخائره، فأمر السيد بالقبض على ابن جحاف وعذبه عذابًا شديدًا، ثم أمر بإعدامه حرقًا. وأراد السيد أن يحرق زوجة ابن جحاف وبناته، ولكن بعض قادته نهاه عن ذلك. وأخذ في إحراق أصحاب ابن

جحاف، وفي إزعاج أهل بلنسية وإذلالهم والإساءة إليهم. وكان من الظواهر المؤلمة يومئذ أن التف حول السيد رهط من الخونة الذين تستروا بالإسلام، ومعظمهم من السفلة والأشرار، انضووا تحت لوائه، وأخذوا يعيثون في المدينة فسادًا، ويعتدون على إخوانهم، يقتلون الرجال، ويسبون النساء والأطفال، وقد ارتد عن الإسلام جماعة منهم وكان يطلق على تلك العصابات يومئذ اسم (الدوائر).

وفيما بين بلنسية وطليطلة تقع مملكة لسهلة التي حملت اسم بني رزين (وتدعى اليوم «Albarracin») وقد حكمتها هذه الأسرة التي تنحدر من أصل بربري قديم، وعلى الرغم من صغر هذه المملكة وقلة مواردها فقد استطاعت الاحتفاظ باستقلالها عن جيرانها الأقوياء وذلك بفضل منعة موقعها الجبلي، وحكمها منذ بداية الفتنة هذيل بن خلف بن رزين (403هـ/ 1012م - 436هـ/ 1045م)، ثم ابنه عبد الملك الذي امتد حكمه نحو ستين سنة (436هـ/ 1045م - 496هـ/ 1103م)، وقد كان أسعد حظًا من سائر ملوك الطوائف إذ إن المرابطين الذين خلعوا معظم ملوك الطوائف لم يتعرضوا له بسوء، وحينما توفي ورث ملكه ابنه يحيى الذي سرعان ما خلعه المرابطون بعد أقل من عام (496هـ/ 1103م - 497هـ/ 1104م). تبقى في النهاية الطوائف البربرية التي انحصرت كتلتها الكبرى في الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة. وقد التف البربر منذ نشوب الفتنة بأسرة بني حمود التي كانت تنحدر من بيت الأدارسة العلويين ملك المغرب، وقد رأينا أن بعض أفراد هذه الأسرة ولوا الخلافة في قرطبة في سنوات الفتنة. فلما ألغيت خلافة بني أمية استقر بعضهم في مالقة والجزيرة الخضراء. أما مالقة فقد تعاقب عليها هؤلاء الحموديون من 427هـ/ 1035م حينما حكمها إدريس بن علي بن حمود «المتأيد» إلى 1057م وفيها توفي آخرهم محمد (الثاني) بن إدريس «المستعلي»

وتغلب على مالقة باديس بن حبوس ملك غرناطة بعد خلعه لمحمد بن إدريس هذا في 465هـ/ 1072م. وأما الجزيرة الخضراء فقد حكمها محمد بن القاسم بن حمود (427هـ/ 1035م - 439هـ/ 1048م) وخلفه القاسم بن محمد فملك الجزيرة حتى 450هـ/ 1058م حينما استولى عليها عباد بن محمد المعتضد ملك إشبيلية وأزال ملك الحموديين. على أن أقوى دول البربر هي دولة بني زيري الصنهاجيين في غرناطة وأول من ملك فيهم هو زاوي بن زيري (403هـ/ 1012م - 410هـ/ 1019م)، وأتى بعده ابن أخيه حبوس بن ماكسن بن زيري (410هـ/ 1019م - 429هـ/ 1038م) ثم ابنه باديس بن حبوس (429هـ/ 1038م - 465هـ/ 1073م). وآخر ملوكهم هو عبد الله بن بُلقين بن باديس (465هـ/ 1073م - 483هـ/ 1090م) حينما خلعه يوسف بن تاشفين ونفاه إلى أغمات. وضمت غرناطة بذلك إلى ملك المرابطين. وتبقى بعد ذلك دويلات بربرية صغيرة ينتمي أصحابها إلى قبيلة زناتة، مثل قرمونة ومورون ورندة وأركش، وهي معاقل ضئيلة القيمة، غير أن أصحابها امتنعوا فيها زمنًا بسبب منعتها، ولكنها لم تستطع الصمود لهجمة المعتمد بن عباد الذي انتزعها من أيدي أصحابها فيما بين سنتي (450هـ/ 1059م و460هـ/ 1068م)[1].

صورة مما كان يتلهى به حكام إسبانيا الإسلامية والخطوب تلح عليهم:

حينما أخذت إسبانيا الإسلامية في التمزق، قام في شنتمرية الشرق بيت من البربر دخل جدهم رزين مع طارق بن زياد وأعلن كبيرهم أبو محمد هذيل بن عبد الملك بن رزين، الاستقلال بما كان تحت يده من الأراضي، عن حكومة قرطبة. وكان هذيل - كما تصف روايات إسبانيا الإسلامية - جبارًا

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 110.

جاهلاً فظًا، روي أنه قتل والدته بيديه. وقد اشتهر هذيل بحياته المترفة الناعمة، والاهتمام بالفنون، والشغف باقتناء أجمل الجواري والفتيات البارعات في الحسن والموسيقى والغناء، وقد اشترى جارية أبي الطيب الكناني بثلاثة آلاف دينار، وكانت وحيدة عصرها، وقد أحجم الملوك عن شرائها لغلاء ثمنها. وكان مجلس أنسه أشهر مجالس ملوك إسبانيا الإسلامية وأمرائها، وقد اجتمع لديه مئة وخمسون جارية ومغنية، وكُنَّ مضرب الأمثال في الجمال والمعرفة بفنون الطرب والغناء.

وجمع المأمون بن ذي النون ثروات طائلة، وابتنى في عاصمة ملكه طليطلة قصوراً باذخة اشتهرت في ذلك العصر بروعتها وفخامتها، وكان منها مجلسه الشهير المسمى (المكرم)، وكان آية في الروعة والبهاء. ويصف ابن حيان هذا المجلس فيقول: (وأغرب ما فيه لحظي من بهي زخرفه إزاره الرائع الدائر بأسه حيث دار، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون، الزارية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة، نصاعة التلوين، قد خرمت في جثمانه صور البهائم، وأطيار وأشجار ذات ثمار، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما فيها من أفنان أشجار، وأشكال الثمر. وفوق هذا الكتاب الفاصل من هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون المبس بالذهب الإبريز، وقد أجريت فيها أشكال حيوان وأطيار، وصور أنعام وأشجار، يذهل الألباب، ويقيد الأبصار. وأرض هذه البحار من أوراق الذهب الإبريز، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأتقن تصوير، وأبدع تقدير). وقال ابن بدران يصف القصر الذي بناه المأمون بن ذي النون: «بنى المأمون صاحب طليطلة فيها قصراً تأنق في بنائه، وأنفق مالاً كثيراً، وصنع فيه بحيرة، وبنى في وسطها قبة، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل على القبة حواليها محيطًا بها، متصلاً بعضه

ببعض، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء». ومن أكبر ممالك شرق إسبانيا الإسلامية التي حكمها العامريون دانية وجزر البليار، التي استقل بحكمها أبو الجيش مجاهد الملقب بالموفق، منذ أول أيام الفتنة حتى وفاته (400هـ/ 1009م/ 436هـ/ 1044م)، وفي 405هـ/ 1014م استقدم مجاهد الفقيه عبد الله بن عبيد الله المُعَيطي ونادى به خليفة مناوأة لسليمان بن الحكم المستعين، ثم توجه في السنة التالية إلى جزيرة سردينية (Cerdena) فاستولى على جزء كبير منها وإن كانت هذه الحملة البحرية قد أخفقت في النهاية بسبب تحطم مراكبه، على أن مجاهدًا كان قائدًا عسكريًا ماهرًا ورجل دولة ساس مملكته الكبيرة التي أصبحت من أجلّ ممالك الطوائف وأغناها بسبب نشاطه التجاري. وحينما توفي ورث ملكه ابنه الملقب بإقبال الدولة (436هـ/ 1044م - 468هـ/ 1076م)، وكان مخلدًا إلى السلام مع جيرانه، مهتمًا بتنمية موارده التجارية، وأدى ذلك إلى مطامع جيرانه، ففي 468هـ/ 1076م هاجمه جاره وصهره المقتدر بن هود صاحب سرقسطة واستولى على دانية ونفى عليًا إلى سرقسطة. أما جزر البليار فقد استقل بها بعد خلع علي إقبال الدولة واليها أغلب الملقب بالمرتضى وحكمها حتى وفاته 468هـ/ 1093م، وحينئذ حكم الجزر ناصر الدولة مبشر بن سليمان 486هـ/ 1093م - 508هـ/ 1115م) ففي هذه السنة الأخيرة هاجمت جزيرة ميورقة أساطيل ائتلاف مسيحي من القطلان والإفرنج وأهل بيشة (بيزا) واستولوا على جزيرة يابسة (Ibiza) ثم على ميورقة فذبحوا كثيرًا من أهلها ودمروا بعض أحياء المدينة ونهبوها، وخلال حصار ميورقة كتب ناصر الدولة إلى علي بن يوسف سلطان المرابطين يستنجده، ثم توفي بعد ذلك في أول 509هـ/ 1116م، وأعد علي بن يوسف أسطولاً كبيرًا إلى الجزر، فرأى الغزاة المسيحيون الانسحاب بما حازوه من غنائم بعد أن احتلوا ميورقة بضعة شهور. ودخلت جزر البليار منذ هذا التاريخ في حوزة المرابطين.

وإلى الشمال من دانية وعلى ساحل البحر المتوسط تقع طرطوشة التي تعاقب عليها الصقالبة العامريون، فحكمها أولاً لبيب (412هـ/ 1021م - 427هـ/ 1036م) وخلفه مقاتل الذي كان حليفًا لعبد العزيز المؤتمن صاحب بلنسية، ولسليمان المستعين صاحب سرقسطة وقد حكم طرطوشة في تاريخ غير معروف تمامًا ويبدو أنه استمر في حكمها حتى نحو 437هـ/ 1046م، وخلفه صقلبي يدعى نبيلاً حكم حتى نحو 452هـ/ 1060م حينما اضطر إلى التخلي عنها للمقتدر أحمد بن هود صاحب سرقسطة. وأما مرسية الواقعة بين ممالك المرية وبلنسية ودانية وغرناطة فقد كانت مطمعًا لأصحاب هذه الممالك. وقد حكمها في البداية خيران (406هـ/ 1016م - 419هـ/ 1028م) ثم صاحبه زهير (419هـ/ 1028م - 429هـ/ 1038م) ملكا المرية، وبعد مقتل زهير انتقلت إلى ملك عبد العزيز المؤتمن ثم ابنه عبد الملك المظفر 429هـ/ 1038م - 457هـ/ 1065م)، على أن الذي كان يحكمها باسم هؤلاء الملوك حكمًا فعليًا كان أبو بكر أحمد بن طاهر حتى وفاته سنة 455هـ/ 1063م، ثم خلفه ابنه محمد (457هـ/ 1065م - 470هـ/ 1078م). وفي هذه السنة الأخيرة دخلت في طاعة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وذلك على يد وزيره أبي بكر محمد بن عمار الذي خلع محمد بن طاهر وخطب لابن عباد، غير أن ابن عمار أراد أن يستقل بحكم مرسية، ولكن الوزير عبد الله بن رشيق خدع ابن عمار وقبض عليه. وبقيت مرسية تحت حكم ابن عباد حتى خلعه المرابطون[1].

مواقف مخزية لملوك الطوائف في كارثة طليطلة:

حينما رأى ملك قشتالة اضطراب أمر المسلمين، واختلاف آراء حكامهم وأمرائهم، وتشتت أمرهم، أخذ يلح على المناطق المجاورة له، ينتزع من

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 109.

أمرائها والحصون والقلاع والمدن، طوعًا أو كرهًا، وركز اهتمامه على مملكة طليطلة المجاورة له، فقد كان أمراؤها خضعوا له منذ وقت، وقبلوا بحمايته لهم، ودفعوا له الجزية، ولكنه كان يطمع في أكثر من ذلك، فكان يساعدهم تارة، ويكون مع أعدائهم عليهم تارة أخرى، ليزيد في اضطراب أمرهم، وضعفهم ونكالهم.

وجه فرناندو رسالة معبرة إلى أهل طليطلة ينبههم فيها إلى سوء حالهم، وفساد حكامهم، وينذرهم بسوء العاقبة والمصير، وذلك حينما أرهقهم بمطالبه واشتط فيها، فرفضوها فوجه إليهم الرسالة التالية: (إننا إنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا إليها قديمًا في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضي لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم ولن نرجع عنكم). وفي عام 454هـ/ 1062م خرج فرناندو على رأس جيش قوي يعيش في أراضي مملكة طليطلة الشمالية، فخربها، فاضطر المأمون بن ذي النون إلى الخضوع لمطالب الملك القشتالي، وزيادة مبلغ الجزية التي كان يدفعها. وبعد أن مات المأمون بن ذي النون خلفه في حكم طليطلة حفيده يحيى الملقب (بالقادر)، وكان إنسانًا ضعيفًا نشأ بين العبيد والجواري، فغلب العبيد والموالي على أمره، واضطربت الأمور في طليطلة حينما فتك القادر بوزير جده ابن الحديدي، بإغراء من أعداء آل ذي النون وأعداء ابن الحديدي، وهكذا سقط القادر في أيدي أعدائه وأعداء بيته الذين كانوا يحيكون المؤامرات لإسقاطه. وفي هذه الأثناء تحرك ابن هود وسانشو راميرز ملك أراجون إلى مدينة وقنقة التابعة لمملكة طليطلة، وحاصراها، وكادت تسقط في أيديهم، لولا أن افتداها أهلها بمبلغ كبير من المال، واضطر القادر مرة أخرى إلى إعلان الخضوع والولاء لملك قشتالة، وطلب حمايته، والتماس عونه. وكان ألفونسو يشتط في طلب الجزية منه،

ويلح عليه في تسليم الحصون والقلاع والمدن ثمنًا لهذه الحماية، فكان القادر يخضع مضطرًا، فثار الشعب عليه واضطره إلى الهرب من المدينة بأهله إلى حصن وبذة. ولما وجد أهل طليطلة أنفسهم بدون أمير عليهم، استدعوا ابن الأفطس. ولجأ ابن ذي النون مرة أخرى إلى ألفونسو يذكره بسالف الود بينه وبين جده المأمون، وما كان للمأمون من فضل في غوثه وعونه، ويطلب منه العون في محنته. فاستجاب ألفونسو لدعوته،وسار مع جنده إلى طليطلة ومعه القادر فانسحب ابن الأفطس مسرعًا إلى بطليوس، وحاصر ألفونسو والقادر طليطلة (1080م). وأخيرًا دخل القادر طليطلة في حماية الجند النصارى، وحاول الشعب ردهم ومدافعتهم، فنكلوا به شر تنكيل، وجلس القادر على عرشه مرة أخرى في حماية أعدائه النصارى. وبعد أن أصبح القادر في قبضة ألفونسو ورهن إشارته، أخذ يفكر في احتلال طليطلة بصورة نهائية. ويقال إن القادر بن ذي النون تعهد لألفونسو بأن يحكم البلد باسمه، وأن يسلمها إليه متى شاء، على أن يعاونه على استرداد بلنسية لتكون مقرًا لإمارته.

* * *

بنو الأفطس في بطليوس

413هـ/ 1022م عبد الله المنصور

437هـ/ 1045م محمد المظفر

460-487هـ/ 1068-1094م عمر المتوكل غزو المرابطين لبطليوس.

وفي بطليوس حكمت أسرة بني الأفطس، وهم من البربر المستوطنين بالأندلس منذ قديم، أصلهم من مكناسة وهي قبيلة بربرية كانت تنزل في فحص البلوط (El Valle de los Pedroches) (في شمال غربي قرطبة) وكان جدهم عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس من أعوان حاكم المنطقة الغربية (من بطليوس إلى شنترين) سابور، ويظهر أنه كان من الصقالبة الذين كانوا يخدمون الحكم المستنصر، وذلك إبان اشتعال الفتنة وانهيار الخلافة. فلما مات سابور استولى ابن مسلمة على مقاليد الأمور ومد ملكه على الجزء الغربي كله (وهو الذي يقابل اليوم محافظة «Extremadura» الإسبانية والشطر الأكبر من البرتغال). وتلقب بالمنصور وحكم ما بين سنتي 412هـ/ 1022م - 437هـ/ 1045م). ولما توفي خلفه ابنه محمد الملقب بالمظفر (437هـ/ 1045م - 456هـ/ 1064م) ودارت حروب كثيرة بينه وبين جاريه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ويحيى المأمون صاحب طليطلة، وفي أثناء هذه الحروب استولى فرناندو الأول (Fernando I) ملك قشتالة على مدينة قلنبرية (في البرتغال) في سنة 456هـ/ 1064م وكانت في أيدي المسلمين منذ أعاد فتحها المنصور ابن أبي عامر سنة 375هـ/ 985م. وعلى الرغم من ذلك فقد كان المظفر قد قسم بلاده قبل موته بين ولديه يحيى الملقب بالمنصور (الثاني) وعمر الملقب بالمتوكل، فكانت بطليوس ليحيى ويابرة لعمر، ولكن النزاع شب بين الأخوين بعد موت أبيهما، ثم توفي يحيى المنصور في

460هـ/ 1068م فـآلت أملاكـه إلى أخيـه المتوكـل الذي استـمر حكمـه إلى 487هـ/ 1094م، وكـان من الضعف والـتخـاذل بحـيث إنه وعلى الرغم من استمراره فيدفع الإتاوة لجاره ملك قشتالة فإن ألفونـو السادس انتزع من يده مدينة قورية في 472هـ/ 1079م، وهي أول معقل يفتحه المسيحيون في حوض نهـر تاجة. وبسـبب سـقوط هذه المدينة بعث المتوكل بوفـد إلى يوسف بن تاشفين يستنجـده لدفع المسيحيين عن بلاده. وعلى الرغم من معـركة الزلاقة المشهورة التي انتصر فيهـا المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين على ألفونسو فإن عمر المتوكل واصل بعد ذلك علاقاته بالمسـيحيين وحينما قرر ابن تاشفين خلع ملوك الطوائف تشبث المتـوكل بملكه ولجأ من جديد إلـى الاستغاثة بألفـونـو السادس، بل إنه تخلى له في 486هـ/ 1093م عن بعض القواعـد الكبرى في مملكته مـثل شنترين والأشبـونة وشنترة (Cintra) (في البرتغـال اليوم). وأدت هذه الخيـانة إلى تصمـيم المرابطين على خلعه وقـتله في 487هـ/ 1094م[1].
وكان المعـتمد بن عبـاد يطمع في أن يستولي على الأراضي الواقـعة في أيدي إخوانه الحـكام المسلمين، ولكنه كان يدرك أنه لا يـستطيع أن يمضي قـدمًا في تنفيـذ خططه ومشـاريعه الرامـية إلى تحقـيق أطماعـه إلا إذا وثق أواصر الود والصداقة مع ألفونسو ملك قشتالة، وقبل الملك القشتالي أن يغض الطرف عن تحركـات ابن عـباد. لذلك أرسل المعـتمـد وزيره أبا بكر بن عمـار إلى بلاط قشتالة، فـفاوض ملكها وتم الاتفاق بين الجانبين على الأمـور التالية: - يقوم ملك قشتالة بمعاونة المعتمـد بن عباد في حروبه مع أعدائه من الأمراء المسلمين بالجند والسلاح والمال. - يؤدي ابن عـباد لألفونسو جزية سنوية كـبيرة بلغت خـمسين ألف دينار. - يقـوم المعتـمد بغـزو أراضي مملكة طليطلة الجنوبيـة، ويسلم لألفونسـو منها الأراضي الواقعـة شمالي: جبـال سيرا مورينا (جبـال

(1) د. محمود مكى، المرجع السابق، ص 107.

الشارات). - يطلق المعتمد بن عباد يد ألفونسو في تحقيق مشاريعه ضد طليطلة.

وبعد توقيع هذه المعاهدة، تأكد ألفونسو أن جميع ملوك الطوائف - باستثناء أمير بطليوس ابن الأفطس - قد خضعوا له خضوعًا تامًا، وتعهدوا صاغرين بدفع الجزية له، فلم يعد يخشى شيئًا إذا ما تحرك لمهاجمة طليطلة، وأنه أصبح واثقًا بأن أحدًا من الأمراء المسلمين لن يتحرك لمعونتها. وحرك ألفونسو في نفس الوقت الحزب المعارض لابن ذي النون داخل المدينة، يثير القلاقل والاضطرابات وكان كثير من هؤلاء الناقمين من النصارى وهم يؤيدون احتلال ألفونسو للمدينة. باشر ألفونسو أعماله الحربية ضد طليطلة، وأخذ في الإغارة على ما حولها يخرب المزارع والقرى والأقوات ويتلف المحاصيل، حتى خربها، وأشاع فيها الفوضى والمجاعة. وحينما عاد القادر بن ذي النون إلى عرشه بمساعدة ألفونسوا عام 474هـ/ 1081م أخذ ألفونسو يشدد من حملاته على طليطلة وما حولها، فيقطع الأشجار وينهب المحاصيل، ويتلف ما يمكن أن ينتفع به أهل المدينة إن حاصرها ذات يوم، كما كان يقتل الرجال الذين يقعون في يده ويسبي النساء والأطفال ولا يجد في كل ذلك من يقف في وجهه. وقد شغل المعتمد بن عباد نفسه في ذلك الحين بمحاربة أمير غرناطة عبد الله بن بلقين كما شغل عبد الله نفسه بمحاربة ابن عباد، وكل منهما يستعين بألفونسو، وبذلك كان كل منهما يبرر تقاعسه عن نجدة طليطلة بأنه منشغل بما هو أهم وهو محاربة أخيه في الدين والقومية، بينما يعيث ملك الإسبان خرابًا ودمارًا في عاصمة إسبانيا الإسلامية الأولى طليطلة.

شغل أمير سرقسطة ابن هود نفسه بمحاربة ملك أراغون وأمراء برشلونة، فتابع ألفونسو أعماله التخريبية ضد طليطلة وهو مطمئن البال إلى

نجاح خطته تمامًا. وأدرك عقـلاء المسلمين أن الموقف في طليطلة خطير للغاية، وأن الأمر يقتضي التـعاضد والتساند والتوقف عن النزاعـات الداخلية القائمة بين الحكام المسلمين، وتكريس الجهـد والطاقات لمواجهة العـدو وإنقاذ طليطلة من السقوط في أيدي الأعداء. وأرسل المتـوكل بن الأفطس القاضي أبا الوليد الباجي يطوف قواعد إسبانيا الإسلاميـة وعواصمها صائحًا ومنذرًا ومحذرًا من عواقب التفرق والخصام والاقتتال، ومؤكدًا أن ملك قشتالة سوف يسحق دول الطوائف كلها واحـدة بعد الأخـرى، ولكن جميع هذه الصـيحات والجـهود ذهبت أدراج الرياح فلم يكن لهـا صدى يسمع. وحـينما ألح ألفـونسو على طليطلة لم يتحرك من الأمراء غير ابـن الأفطس، الذي أرسل جيشًا بقيادة ابنه لصـد النصارى عن طليطلة، ولكـن جيش ابن الأفطس لم يقـو على الثبـات طويلاً في المعركـة فانهزم عائدًا إلى بطليـوس. وهكذا ترك المسلمون جمـيعًا طليطلة لمصيرها المحتوم. وفي خريف عام 1084م اقترب ألفونسو من المدينة، وضرب الحصـار حولها، وطال الحصار، ودخل الشـتاء، وقلت الأقوات في المدينة، والقـادر بن ذي النون لا يتـصـرف تصـرف من يريد الجد فـي قتـال الأعداء، وكان الحزب الواعي الداعي إلى الصبر والمقاومة يتوقع من إطالة أمد الحرب أن يخف أحـد من المسلمين إلى نجدتهم ولكن عبـثًا انتظروا. واضطر الزعماء – في آخر الأمـر – وبالاتفاق مع القادر بن ذي النون أن يرسلوا وفدًا إلى ألفونسو للحـديث في أمر الصلح، فأبى أن يستقبلهم، واسـتقبلهم وزيره سنندو، وكان هذا الرجل قد أسره المسلمـون، وعاش في بلاط ابن عباد حينًا من الدهر، وتعلم العـربية ثـم هرب إلى قشـتالة. وحـاول سنندو أن يدخل اليأس والقنوط إلى قلوب أعـضاء الوفد الإسلامي، ليـدركوا أنه لا فائدة من المقاومة، ولا من المفاوضـة، وأنه لابد من تسليم البلد. وأدخل سنندو زعماء طليطلة إلى خيـمة الملك، فقـالوا لألفونسو إنهم ينتظرون عـونًا من إخوانهم المسلمين، فزجرهم الملك، وسـخر منهم، واستدعى من خيامـه سفراء الملوك

المسلمين الذين جاؤوه جميعًا يخطبـون وده، ويقدمون له الجزية المتوجبة على ملوكهم. وحينمـا رأى الوفد المسلم هذا المنظر المؤلم خرجوا من خـيمة الملك وقد فقدوا كل أمل في العون، وبعد مـضي تسعة أشهر طلبت المدينة التسليم لملك قشـتالة، وكان من شـروط التسليم: - يسلم القـصر والأبواب والقناطر وحديقـة القصـر الملكي إلى ألفونسـو. - يكون القادر حـرًا في الذهاب إلى مدينة بلنسية وفق رغبته. - يسمح لمن شاء من المسلمين أن يتبعه، وأن يأخذوا معهم أموالهم. - الذين يريدون البقاء في المدينة لا يتعرض لأحد منهم بشيء في أموالهم ولا في أملاكـهم، ولا في حريتهم في العبادة. - تبـقى مسـاجد المسلمين في أيديهم يقـيـمون فـيهـا صلواتهم، وتجـري على المسلمين أحكام شريعـتهم على أيدي قضـاة من المسلمين دون غيرهم. - لا تفـرض ضرائب على المسلمين الباقين أكثر من الضرائب التي كانوا يدفعونها إلى ملوكهم.

ولكن ملك قشـتالة غدر بالمسلمين بعـد أن دخل المدينة، وداس شروط العهد التي قطـعها على نفسه، وحنث بالأيمان الـتي أقسمها هو وكـبار رجال دولته ودينه. وتبع سـقوط طليطلة سقوط جـميع المناطق المحيطة بها والـتابعة لها، وتتضمن ثمـانين موضعًا بها مسجد، عدا القـرى والضياع. وكان لتلك النكبة أسوأ الوقع في نفوس المسلمين في الجزيرة وخارجها، وأدرك المعتمد بن عـبـاد وملوك الطوائف الآخـرون عظم الخـطأ الذي ارتكبـوه بحق الإسـلام والمسلمين وبحق أنفـسـهم، بسكوتهم عن تصرفات ألفونسـو، وتواطؤهم معه على إطلاق يده في التصرف لاحـتلال المدينة العظيمة التي كانت ثغـرًا عظيمًا من ثغور المسلمين في شـمال إسبـانيا الإسلاميـة، وأدركوا جميـعًا أن الدائرة ستدور عليهم قريبًا، فاتجهوا جـميعًا وهم متحدو الكلمة إلى طلب العون من أمير المرابطين يوسف بن تاشـفين حينما تقدم ألفونسـو في العـام التالي لحصار إشبيلية[1].

(1) د. أسعد حوامد، المرجع السابق، ص 115.

المرابطون والموحدون في إسبانيا الإسلامية

معركة الزلاقة عام 479هـ/ 1086م وسقوط حكام الطوائف:

بعد أن استولى ألفونسو عام 1085م على طليطلة عاصمة بني ذي النون، استخف بملوك الطوائف المسلمين جميعًا، وبقواهم وجيوشهم، فأخذ يجوب الأراضي الإسلامية فيما يشبه النزه، والجميع خائفون منه، يحجمون عن التعرض له وعن مقاومته. وبلغ من تعجرفه أن طلب من المعتمد بن عباد أن يسمح لزوجته بأن تضع مولودها في مسجد قرطبة، حيث كان يوجد مقام لبعض القديسين النصارى في الماضي قبل دخول المسلمين. ولما تلكأ ابن عباد في الاستجابة لطلبه هدده ألفونسو بالحرب. ووقع في ذلك الحين أن أرسل ألفونسو وفدًا من قبله يرأسه رجل يهودي إلى ابن عباد ليتسلم منه الجزية، ولما قدمها ابن عباد تطاول اليهودي عليه واتهمه بأنه يزيف العملة التي يقدمها جزية إلى ملك إسبانيا، فضربه ابن عباد وقتله، فوجد ألفونسو في ذلك فرصة ليستولي على ما تحت يد ابن عباد من أرض وحصون، وليخضعه بصورة نهائية لسلطانه، وحشد جيشًا ضخمًا وتقدم إلى إشبيلية وعسكر أمامها على الجانب الآخر للنهرَ الكبير. فاستبد القلق بابن عباد، ولم يجد وسيلة يدفع بها خطر الأذفونش إلا اللجوء إلى أمير المرابطين في المغرب. ولما قيل له إن المرابطين قد ينتزعون ملكه منه قال بأصالة المؤمن الشريف: لئن أرعى الجمال عند ابن تاشفين، خير لي من أرعى الخنازير عند الأذفونش. وتقدم يوسف بن تاشفين إلى إسبانيا الإسلامية بقوات ضخمة، وانضمت إليه جميع القوى المسلمة في الجزيرة، والتقوا بألفونسو وجيشه بتاريخ 23 أكتوبر 1086م/ 479هـ في موقع تعرفه الروايات العربية بالزلاقة، بالقرب من بطليوس

(باداخوز)، وحاول ألفونسو خداع المسلمين، لأخذهم على غرة لكنه فشل بسبب يقظة المسلمين، ومعرفة مسلمي إسبانيا بغدره ومكره، ودارت على الأثر رحى معركة طاحنة قتل فيها أكثر الإسبان، ونجا ألفونسو جريحًا مع خمسمائة من رجاله. وقد أوقف هذا النصر اندفاعة الإسبان المحمومة بعض الوقت. وعاد ابن تاشفين إلى المغرب، تاركًا بعض جيشه في إسبانيا الإسلامية، ولكنه أدرك أن أمراء الطوائف لن يقووا على الصمود في وجه العدو، ولا سيما وأنهم عادوا يتآمر بعضهم على بعض ويتصلون بالعدو، فقرر القضاء عليهم وتوحيد إسبانيا الإسلامية والمغرب وانتهى من ذلك عام 495هـ/ 1102م. توفي تاشفين بن علي عام 539هـ/ 1145م، فخلفه ابنه إبراهيم، وفي عهده احتل الموحدون مراكش عاصمة المرابطين، ثم قضوا على حكم المرابطين قضاءً تامًا. خرج في عهد يوسف بن تاشفين رجل من قبيلة مصمودة اسمه عبد الله ابن تومرت، إلى إسبانيا الإسلامية ومصر وبغداد، طلبًا للعلم والتفقه في شؤون الدين، وقابل في بغداد الإمام الغزالي، وأخذ عنه، وعاد إلى وطنه عام 510هـ/ 1116م. ولما عاد أخذ يهاجم الحكام المرابطين في خطبه، وينعي عليهم الترف والفجور، ويدعو الناس إلى الزهد والتقشف. وطاف في بلاد المغرب يعظ الناس، ويدعوهم إلى الخير، ومحاربة الفساد، فالتف الناس حوله، وكان من أنشط تلاميذه رجل يدعى عبد المؤمن، لازمه وأخذ عنه، ثم لاحقته السلطات المرابطية فهرب مع خواص تلامذته. وعاد فقوي أمره وبايعه الناس، وتلقب بالمهدي، وسمى جماعته بالموحدين، أي الداعين إلى وحدانية الله. وفي عام 516هـ/ 1122م حقق الموحدون أول نصر لهم على المرابطين، وتوالت انتصاراتهم عليهم، وجعل المهدي تلميذه عبد المؤمن قائدًا لقوات الموحدين. وفي رمضان من عام 524هـ/ 1130م، توفي المهدي فخلفه عبد المؤمن، وتابع جهوده حتى أزال دولة المرابطين من

المغـرب، واستـولى على عـاصمـتـهم مراكش عـام 540هـ/ 1145م، وتابع ملاحقتهم حتى استولى على جميع ما كان بيدهم بما فيه إسـبانيا الإسلامية.

وكان لتـدخل الموحدين في إسـبانيـا الإسلاميـة مثل الأثر الذي كـان لتدخل المرابطين فيـها، إذ أوقف جـهد هذه القوة الناشـئة اندفـاعة الإسبـان، وأخر سقوط إسـبانيا الإسلامـية. وفي عام 591هـ/ 1195م حقق الخليـفة الموحدي المنصور بالله يعقـوب بن يوسف بن عبد المؤمن، انتصارًا رائعًـا على الإسبان في معـركة الأرك (أركوش)، - قرب بطليـوس - لا يقل أهمية عن انتـصار المرابطين في الزلاقة، لكن الموحدين منوا بهزيمة ساحقة عام 609هـ/ 1212م، في معـركة العـقاب (التل)، وتسمـيها الروايات الإسـبانيـة (لاس نافاس دي تولوسا)، فقد اسـتنجد الإسبان بإخوانهم المسيحـيين في أوروبا فجاءهم عدد كبير من المتطوعـة الألمان والبريطانيين والفرنسيين، وجمعت لهم قـوات كبيرة من ممالك إسبـانيا، فتـوجه إليهم الخليـفة الموحدي الناصـر بن المنصور بالله، على رأس جيش كبير، قدرته الروايات بنصف مليون جندي، والتقى الفريقان عند مكان يعـرف بالتل، ودارت الحـرب، وثبت الموحدون وكـادوا يهزمـون عدوهم، لكن بعض الخلل وقع في صفوفـهم أدى إلى انكـسارهم في النهاية، وتفرق الجـيش، ولم ينج الخليفـة إلا بشـق الأنفس، وعاد فـالتزم بيـته في مراكش حتى مات غمًا وحزنًا[1]. تمكن الموحدون من قتل أبي إسحاق إبراهيم ابن تاشفين بن علي بن يوسف، وتم لهم بذلك القـضاء على المرابطين، وفي (555هـ/ 1160م) عبر «عبد المؤمن بن علي» أول خلفـاء الموحدين إلى إسبانيا الإسلامية؛ لضم ما بقي بها إلى دولته، واستقر في إشبيلية، ونظم الدفاع عن البلاد، وأقـام على قواعد إسـبانيا الإسلامـية رجالاً من آل بيـته، وتمكن من توحيد معظم ما بقي من إسبانيـا الإسلامية تحت رايته، ولم يخرج عن طاعته

(1) د. أسعد حواميد، المرجع السابق، ص 118.

إلا بنو غانية أمـراء دانية، ومحمـد بن سعد بن مردايشن رئيس مـرسية الذي انضـمت بلاده إلى الموحدين بعـد ذلك، وبدأ جهـاد المسلمين ضد النـصارى واتخذ مـيدانًا له غربي إسبـانيا الإسلامـية بعد أن كان مـجاله شرقي إسبـانيا الإسلامـية زمن المرابطين. كـان الخليفـة الموحدي أبو يوسف يعقـوب الملقب بالمنصور هو أكبـر شخصية في تاريخ الموحـدين بعد محمد بن تومـرت وعبد المؤمن بن علي قد عقد صلحًا مع النـصارى، وعندما انتهت مدة هذا الصلح (590هـ/ 1194م) بدأ هؤلاء في مهـاجمة أراضي المسلمين، فعـبر أبو يوسف يعقوب إلى إسبانيا الإسلامية ومـعه خيرة المقاتلين والموحدين وضم إليه أحسن مقاتلي إسبانيـا الإسلامية، وحشد حشدًا عظيمًـا من جنده وحمسهم في هذه الحملة، بـينما استـعان عـدوه «ألفونسـو الثامن» ملك قـشتالة ولـيون بملوك النصارى وبالبابوية، وكون جيشًا ضـخمًا، وعسكر عند حصن يسمى «الأرك» عند نهاية الطريق المؤدي من طليطلة إلى قرطبة على بعد (20 كم) بالقرب من قلعة «رباح» وغـرب المدينة الملكية الآن، وبدأت مـوقعة حاسـمة في شعـبان (591هـ/ يولية 1195م) أسفـرت عن نصر مؤزر للمسلمين، وانكسـرت حدة الموجة النصرانية، وكـان لهذا النصر أثره في تثبيت جبهة الإسـلام في إسبانيا الإسلامية لمدة طويلة من الزمان. وبعـد هذه الهزيمة عقدت هدنة بين المسـلمين والنصارى (594هـ/ 1198م)، ولكن ملك النصـارى ما كـان ليستـريح بعـد هزيمته القـاسية في «الأرك»، ولذلـك أخذ في الاستـعداد لمعركـة جديدة مع المسلمين قبل انتهـاء أمد الهدنة وأعد جيشًـا ضخمًا واحتشـد بكل ما يستطيع بمعاونة كـاملة من ملوك النصارى في غرب أوروبا ومن البـابوية ومن نصارى إسبانيا وشـجعه موت أبي يوسف يعقوب خليفـة الموحدين، وتولية خلفه أبي عبد الله مـحمد الناصر الذي كان أقل كفـاية من أبيه وقد عبر الخليـفة الجديد إلى إسبانيا الإسلامية في ذي الحجة (607هـ/ 1211م) على رأس جيش ضخم

ونزل إشبيلية ومن هناك صعد شمالي الوادي الكبير وعسكر في سهل تكثر فيه التلال الصغيرة ويقع غربي الحصن المسمى بالعقاب (جمع عقبة)، وأقبل النصارى كذلك، وعسكروا فوق هضبة الملك المشرفة على معسكر المسلمين، وقبل اللقاء استولى النصارى على قلعة «رباح» من قائدها الإسباني المسلم، وعندما وصل هذا القائد إلى معسكر الناصر قتله دون تحقيق، الأمر الذي أغضب مسلمي إسبانيا وأثر في معنوياتهم. بدأ اللقاء في (15 من صفر 609هـ/ 16 من يولية 1212م)، وانخذل مسلمو إسبانيا والخارجون على المسلمين من العرب بعد قليل، وتركوا الجناح الشرقي للمسلمين مكشوفًا فانقض عليهم النصارى وحصدوا الآلاف من متطوعة المسلمين المجاهدين من إسبانيا الإسلامية كما حصدوا زهرة مقاتلي إسبانيا الإسلامية، وعددًا كبيرًا من خيرة العلماء والفقهاء والقضاة، وكان الخطب عظيمًا حتى قيل إن الإنسان كان يتجول في المغرب بعد المعركة فلا يصادف شابًا قادرًا على القتال. وبعدها ضعفت جبهة الوادي الكبير، وسقطت مدن كبرى، وأشرف النصارى مباشرة على قرطبة وإشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم هذا الخط، ثم توفي خليفة الموحدين الناصر في شعبان (610هـ/ 1213م)، ودب الخلاف في صفوف البيت الموحدي وانعكس ذلك على إسبانيا الإسلامية فبدأت تصفية ما بقي للمسلمين من أرضها خلال عصر الموحدين ولم تبق إلا مملكة غرناطة.

لمحة عن الجوانب الحضارية والإدارية:

كانت إسبانيا الإسلامية في عهد الموحدين ولاية من ولايات الدولة، يأتي الخليفة إليها ويرعى شئونها العسكرية والعلمية والإدارية كلما دعت الظروف إلى ذلك، وقد أكد الخلفاء والولاة وجوب إقامة العدل والتمسك بالشريعة في كل الأمور، وقد بلغت الدولة الموحدية مكانة عالية في النواحي

الحربية والسياسية والحضارية حتى جاءت الوفود إلى البلاط الموحدي لعقد المعاهدات وإظهار الصداقة وفي آخر العهد الموحدي أنشئ منصب وزاري لاستقبال الشعراء والعناية بأمورهم. وكانت هناك عناية بالإنشاءات العسكرية والتحصينات وكان الأسطول موضع اهتمام الخلفاء، كما كان للجيش أسلوبه في التحرك والقتال وله تنظيماته، وكان هناك مجلس عسكري أول يستشار في الخطط والأمور العسكرية وكانت الخلافة وراثية. كما كان الاهتمام عاليًا بالجوانب الإدارية والمالية والموارد والمصارف، وكان القضاء مستقلاً يتولاه أهل إسبانيا الإسلامية ويحكمون بين الناس بما أنزل الله، ونعمت البلاد بالأمن والرخاء في ظل صناعة وزراعة وتجارة مزدهرة. أما عن الناحية العمرانية فقد أنشأ الخليفة أبو يعقوب يوسف بعض المشروعات في «إشبيلية»، منها بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير، كما حصن هذه المدينة وأقام بها منشآت لتوفير المياه الجارية لسقاية الناس، وأسس الخليفة أبو يعقوب (567هـ/ 1172م) جامع إشبيلية الأعظم وأتم ابنه المنصور صومعته أو مئذنته الكبيرة عام (584هـ = 1188م) وهذه المئذنة قائمة حتى اليوم، وتعرف بالمئذنة الدوارة (لاخيرالد) ويبلغ ارتفاعها (96) مترًا، كذلك أقام الموحدون بعض القصور الخاصة المحاطة ببساتين تزينها أشجار الفواكه والثمار وتسقى بواسطة النواعير «السواقي». وقد برز بإسبانيا الإسلامية على عهد الموحدين عدد من البارعين في فروع العلم والمعرفة منهم أبو محمد بن خير، وأبو الحسين محمد بن أحمد ابن جبير الرحالة المشهور، وأبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، الحافظ المحدث الأديب، وأبو الحسن علي بن محمد الرعيني الكاتب الأديب، وأبو مروان عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة المؤرخ، وعبد الواحد المراكشي، وعلي بن موسى بن سعيد، وابن عذارى من المؤرخين، وأبو جعفر أحمد الغافقي وأسرة بني زهر علماء الطب والنبات،

وأبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد والحفيد، الذي اشتهر بالطب والفلسفة، وغير هؤلاء من العلماء المجاهدين كثير[1]. في أواخر القرن الرابع الهجري كانت تعيش في أقصى جنوب المغرب في الصحراء الممتدة إلى حوض نهر السنغال جنوبًا مجموعة من القبائل الصنهاجية التي تدعى «صنهاجة الصحراء» وأهمها جدالة وتسوفة ولمتونة وترغة ولمطة وجزولة.
وكان الزناتيون قد طردوا هذه القبائل إلى الجنوب وألجأوها إلى هذه المناطق الصحراوية الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي (والتي تقابل اليوم موريتانيا ومالي والساقية الحمراء). وكان هؤلاء الصحراويون يعيشون حياة خشنة تقوم على الرعي وقليل من الزراعة، وكانوا قد دخلوا الإسلام ولكن الإسلام لم يكن قد تعمق في نفوسهم بعد، فقد ظلوا بدوًا يسودهم الجهل والفوضى.
وكان يتزعم هذه القبائل في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي يحيى بن إبراهيم الجدالي، وفي نحو 426هـ/ 1035م خرج يحيى لأداء فريضة الحج ومر في طريق عودته بالقيروان وحضر بها مجلس فقيهها المشهور أبي عمران الفاسي. فطلب إلى الشيخ أبي عمران أن يبعث إلى تلميذ له يدعى وجاج بن زلو كان مستوطنًا في بلاد السوس. فلما اجتمع يحيى بوجاج اختار هذا له أحد طلبته وهو عبد الله بن ياسين الجزولي لكي يمضي معه إلى الصحراء.
وكان عبد الله قد دخل إلى إسبانيا الإسلامية وحصل بها علمًا كثيرًا. ومضى عبد الله إلى الصحراء وأدى مهمته في تعليم جدالة وانقادت له لمتونة وزعيمهم يحيى بن عمر الذي ولي الرياسة بعد وفاة يحيى بن إبراهيم، وأمر عبد الله بن ياسين الأمير يحيى بن عمر بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة وأهلها خاضعون آنذاك لقبيلة مغراوة الزناتية، ففتحوا هذه البلاد ولكن يحيى بن عمر قُتل في بعض المعارك فقدم عبد الله ابن ياسين بعده أخاه أبا

---

(1) د. عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 101.

بكر بن عمر الذي مد سلطته شمالاً إلى بلاد مصمودة واستولى على أغمات 450هـ/ 1058م. وقتل بعد ذلك عبد الله بن ياسين في حرب له مع قبيلة برغواطة في منطقة تامسنا 451هـ/ 1059م، وانفرد أبو بكر ابن عمر بالسلطة، ولما اتسع ملكه شرع في بناء عاصمة جديدة سنة 462هـ/ 1070م، وهي مراكش التي أصبحت قاعدة لهذه الدولة التي أطلق عليها ابن ياسين اسم «المرابطين» لما كان يحثهم عليه من الجهاد في سبيل الإسلام. وفي 463هـ/ 1071م بلغ أبا بكر بن عمر انتقاض جدالة في الصحراء وفتكهم بلمتونة، فقرر السير إليهم بعد أن استخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين، ثم لم يلبث أن قتل في حرب له مع السودان في جنوب الصحراء. واتسع ملك يوسف بن تاشفين ففتح مدينة فاس ثم تلمسان واكتمل له ملك المغرب الأقصى كله وشطر من المغرب الأوسط، وتسمى بأمير المسلمين[1].

وصلت دولة المرابطين في المغرب إلى أقصى قوتها وبلغت أكبر اتساع لها على يد مؤسسها الحقيقي «يوسف بن تاشفين»، وكان أصحابها من البواسل الشجعان ذوي الطباع السليمة والعزائم القوية التي لم يفسدها الضعف والهوان، فهم ممن يؤمل نجدتهم ويرجى غوثهم. وكانت حال الأندلس في العدوة الأخرى تعاني سيطرة ملوك النصارى وسطوتهم واستغاثة ملوك المسلمين بهم وإرهاق هؤلاء لهم بالجزية وبما يفرضون عليهم، وتعسفهم في مطالبة الولاة المسلمين بما لا طاقة لهم به، وتكليفهم فوق طاقتهم، وعاد هؤلاء الملوك على شعوبهم فأثقلوا كواهلهم وبالغوا في تحميلهم ما لا قدرة لهم عليه، واحتقر «ألفونسو» وغيره زعماء وقادة المسلمين حتى جثوا جميعًا أمامه يستعطفونه ويرجونه قبول أموالهم وهداياهم وهو يشتط ويبالغ ويقول: «أنا لا أرى فيكم إلا أنكم جماعة لصوص، فاللص الأول قد سرق وجاء

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 111.

الثاني فسرق من الأول ما سرق، جاء الثالث فسلب من الثاني ما سرقه من الأول». وهم من ناحيتهم يبادرون بتهنئته وحمل الطرف والهدايا إليه ويصرحون له بأنهم داخل حدود سلطانه ليسوا إلا جباة أموال لتحصيل الضرائب ودفع الجزية. وقد أخذ «ألفونسو السادس» يجتاح ويخرب مدنهم ومروجهم ويفتح معاقلهم ويحطم حصونهم، ويضرب عليهم جميعًا ما يشاء من أموال ويضاعفها فيؤدونها - بلا استثناء - وهم صاغرون، ثم أخذت المدن تتساقط في أيدي النصارى مدينة إثر مدينة. وفي هذه الأثناء كانت أحوال إسبانيا الإسلامية تمضي من سيئ إلى أسوأ. وحينما بلغ أهل إسبانيا الإسلامية قيام هذه الدولة الجديدة في المغرب وما كان عليه يوسف بن تاشفين من الجهاد في سبيل الإسلام، كان أول من استنجد بأمير المرابطين من ملوك الطوائف هو عمر المتوكل بن الأفطس ملك بطليوس بعد أن استولى أذفونش السادس على مدينة قورية في 472هـ/ 1079م، ثم تزايد الشعور بالخطر بعد أن انتزع الملك القشتالي نفسه طليطلة من أيدي المسلمين في 478هـ/ 1085م. وكانت هذه ضربة قاصمة ملأت نفوس ملوك الطوائف ورعاياهم بالذعر، فقد كان موقع طليطلة في وسط إسبانيا الإسلامية مؤذنًا بفصل الثغر الأعلى عن المناطق الجنوبية والانفراد بكل شطر على حدة.

إزاء هذا الوضع المتردي فكر مسلمو إسبانيا في مخرج، ووجد رجال الدين أن خير وسيلة هي دعوة المرابطين للعبور إلى بلادهم وتخليصهم من الوضع المرير الذي بلغ القمة ولم يحتمل المزيد، أما الملوك والأمراء فقد ترددوا أول الأمر ورأوا في ابن تاشفين مناوئًا خطيرًا أكثر منه عونًا ونصيرًا، وربما جاء إلى بلدهم فاستقر فيها وطردهم منها، لكن «ابن عباد» صاحب «إشبيلية» قطع الشك باليقين قائلاً إنه لا يريد أن تتهمه الأجيال المقبلة بأنه ترك إسبانيا الإسلامية غنيمة في أيدي الكفار قائلاً: «ولا أحب أن يلعن اسمي

على منابر المسلمين وعندي أن رعي الجمال خير من رعي الخنازير». وقد أقنع المعتمد بن عباد بوجهة نظره كلا من المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس و«عبد الله بن بلقين» صاحب غرناطة، وأرسلوا جميعًا ومعهم العلماء والفقهاء وفدًا إلى «يوسف بن تاشفين» يستصرخونه ويطلبون إنقاذهم. كان من عادة زعيم المرابطين ألا يبرم أمرًا إلا بعد مشاورة الفقهاء، وقد أشاروا عليه أن يبدأ بقتال القشتاليين، وأن تخلى له الجزيرة الخضراء، فأمر يوسف بن تاشفين بعض فرسانه فعبروا من مدينة سبتة على متن بعض السفن إلى الجزيرة الخضراء يقودهم «داود بن عائشة»، وكان معهم جيش كثيف من الجنود، وأرسل المعتمد إلى ابنه حاكم الجزيرة يطلب منه تركها وتيسير مهمة قوات المرابطين، ثم تلاحقت الجنود بالجزيرة، وعبر «يوسف» نفسه، وعني بتحصين المدينة حتى اطمأن إلى أنها قد أصبحت في حالة حسنة وبها من المؤن والذخائر ما يكفيها، ثم سار في معظم جيشه إلى «إشبيلية»؛ حيث خرج المعتمد للقائه وأحسن استقباله وقدم له من الهدايا ما يليق بمقامه وما أكد ليوسف أن إسبانيا الإسلامية تتمتع بغنى موفور وثراء متزايد، وقد طلب ابن تاشفين من أمراء الطوائف المشاركة في الجهاد، فلبى الدعوة صاحب غرناطة وأخوه صاحب مالقة، وقصد الجميع نحو بطليوس حيث لقيهم ملكها وأخذت وفود الرؤساء تتوافد من سائر أقطار إسبانيا الإسلامية وانتظمت القوات الإسبانية المسلمة وحدة قائمة بذاتها، القيادة فيها لابن عباد واحتلت المقدمة، بينما احتلت الجيوش المرابطية المؤخرة[1].

واصلت القوات الإسلامية سيرها حتى نزلت على سهل فسيح يقع إلى الشمال من مدينة بطليوس قرب حدود البرتغال الحالية تسميه المصادر العربية بالزلاقة فلما علم «ألفونسو السادس» بأخبار المرابطين ترك حصار «سرقسطة»

(1) د. عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 95.

وأرسل إلى «سانشـوا» ملك «أراجون» يطلب معـونته، وكان بدوره يحـاصر «طرطوشة» واستـدعى قواته التي كانت في «بلنسية»، وحشـد كل ما استطاع وجـاءه المتطوعون من جنـوبي فرنسـا وإيطاليـا وحرص على أن يكون لقـاؤه بالمسلمين في الأراضي الإسلامـية، حتى لا تتـعرض بلاده للتخـريب ثم اتجه نحو الجنوب للقاء المرابطين، وهو يمـتلئ زهوًا ويتيه فخرًا بما معـه ومن معه، ونزل في مكان يبعد نحـو ثلاثة أميال عن معـسكر المسلمين، وقـدر جيشه بما بين أربعين إلى ثمانين ألفًا على حين قدر الجيش الإسلامي بما بين عشرين إلى نحو خمسين ألفًا، وكان يقود المقدمـة المعتمد بن عباد، وعلى الميمنة «المتوكل ابن الأفطس»، وتكونت الميسرة من أهل شرقي إسبانيا الإسلامية، أما المؤخرة فكانت من البـربر بقيـادة «داود بن عائـشة»، وكـان أنجاد المرابطين من لمتـونة وصنهـاجة وغـيرها بقـيادة يوسف بـن تاشفين. لبث الجـيشـان ثلاثة أيام لا يفصلهـما سوى نـهر، والرسل تتردد بينهـما، وقد أرسـل «ابن تاشفين» إلى خصمـه يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاسـتاء الملك النصرانى ورد بقـوله: «إني مـا كنت أتوقع أن يصل الحـد بالمسلـمين الذين كـانوا يعطونني الجزية منذ سنين أن يعرضوا علي مثل هذه الاقـتراحات الجارحة ومع هذا فإن لدي جـيشًـا في استطاعـته أن ينزل العـقـوبة على هذه الوقاحـة البالغـة من الأعداء» ولـم يكـن جواب «يوسف» على أكـثر من هذه العبـارة «الذي يكون ستراه». جـرت اتصالا تهدف إلى تحديد مـوعد المعركة، وحـاول «ألفونسو» خديعة المسلمين، لكن المعتمد بن عبـاد أدرك خديعته، وقد أخبرته طلائعه بما في معسكر العـدو من حركة وجلبة سلاح، رغم أن الوقت المتـفق عليه لبدء القتال لم يكن قد حان[1]. وفي أوائل (رمضان 480هـ/ ديـسمبر 1087م) بدأ القتال في الصبـاح الباكر واشتد لهيب المعركة وهاجم النصـارى بعنف مقدمة

(1) د. عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 95.

«المعتمـد بن عباد» ونجح في ردها عن مواقعـها واختل نظامها وارتد مـعظمها إلى بطليوس ولـم يثـبت إلا الإشبيليون وابن عبـاد الذي كان مثالاً للشـجاعة والإقدام حـيث صمد للعـدو، وقاوم هجمـاته العنيفة رغم جـرحه الذي في وجهـه ويده، وهجم «ألفونسو» على مـقدمة المرابطـين التي يقودها «داود بن عائشـة» وردها عن مواقعـها، وفي اللحظة المناسـبة دفع ابن تاشـفين بقوات البربر إلى نجدة مـسلمي إسبانيا والمرابطين، ونفـذت قواته إلى قلب النصارى بكل قوة، وسرعان ما تغير وجه المعركة؛ لأن يوسف هاجم عدوه من الخلف مباغتة وهذا شجع الفارين فعادوا ونـظموا صفوفهم، وشدوا من أزر المعتمد، ورغم أن «ألفونـسو» كان قد وصل إلى خـيام المرابطين، فإن ابن تاشفين تقدم على رأس من معه من قـوات وتجاوز جموع النصارى وقصـد إلى معسكرهـم نفـسه وهاجـمه بشـدة وفتك بحـراسـته، ثم وثب إلى مـؤخرة القـشتـاليين النصارى، وأثخن فيهم قـتلاً وطبوله تضرب فتشق أجـواز الفضاء، ثم أضرم النار في معسكر الأعداء. واضطر «ألفونسو» أن يـستدير لينقذ معسكره؛ لكنه اصطدم بالمرابطين ولم يصل إلى محلته إلا بعد خسائر فادحة، وكان «يوسف» أثناء القتال يجول على صهوة جواده بين المحاربين يهيب بهم «أن تشجعوا أيها المسلمـون، أعداء الله أمامكم والجنة تنـتظركم، وطوبى لمن أحرز الشـهادة».

وكان سـماع النصـارى لدوي الطبول ووقـوف المسلمين يقاتلون في صـفوف متـراصة ثابتـة من العوامل المساعـدة على انتصـار المسلمين وإلحاقـهم الهزيمة بصفـوف عدوهم، وقد دفع «ابن تاشفين» بحـرسه الأسود البالغ عـدده نحو أربعـة آلاف إلى قلب المعـركـة في الوقت المنـاسب، وتمكن واحـد منهم من الوصول إلى «ألفونسو» وطعنه في فـخذه، الشيء الذي اضطره إلى الاعتصام بتل قريب حـتى جن الليل ثم هرب في نحو خمـسمائة فارس مـعظمهم من الجرحى ووصل إلى طليـطلة منهم مائة فقط. أمـضى المسلمون الليل يرقـبون

حركات النصارى وفي اليوم التالي طارد الفرسان الفارين، وجمعت الأسلاب الهائلة. وقد استبشر المسلمون في شبه الجزيرة بهذا النصر العظيم غير أن وصول نبأ وفاة الأمير أبي بكر بن يوسف بن تاشفين كدر صفو النصر، وجعل «ابن تاشفين» يقرر العودة إلى بلاد المغرب ومعه عامة الجند، وترك تحت إمرة المعتمد جيشًا من المرابطين مؤلفًا من ثلاثة آلاف جندي. بعد أن نجح «يوسف» بما حققه من نصر مؤزر في إعادة روح الثقة والأمل إلى نفوس المسلمين بإسبانيا الإسلامية[1].

تطور حدود إسبانيا الإسلامية من قيام دولة الموحدين إلى قيام مملكة غرناطة من 552هـ/ 1157م إلى 630هـ/ 1232م:

وبعد وفاة الخليفة الموحدي الرابع محمد الناصر تصدعت قوى الموحدين، وكثر النزاع على السلطان، وكان الخليفة الموحدى الخامس المستنصر قد أقام أخاه أبا العلا إدريس المأمون على إسبانيا الإسلامية، ولكن هذا الرجل كان قصير النظر شديد التطلع إلى السلطان، وعندما وجد أخاه أبا عبد الله محمد والي مرسية يعبر إلى المغرب ليطالب بالخلافة ويعلن نفسه خليفة ويتلقب بالعادل سارع هو الآخر - دون نظر إلى العواقب - فجمع كل ما كان تحت يده من قوات وأعلن نفسه خليفة، وتلقب بالمأمون حوالى 633هـ/ 1236م وعبر إلى المغرب تاركًا إسبانيا الإسلامية دون غطاء عسكري، فلا غرابة أن خط الوادي الكبير بقواعده العظيمة مثل إشبيلية وقرطبة قد تصدع، خاصة وأن انهيار المقاومة الإسلامية فتح باب التوسع والتقدم أمام ممالك إسبانيا النصرانية على مصراعيه، فقد زادت قوة وانتظامًا، وإحساسًا بكيانها، ووعيًا إلى أن ما تقوم به إنما هو حركة استرداد Reconquista لأرض هي من

(1) د. عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 96.

حقهم؛ لأن تصرف المسلمين في إسبانيا الإسلامية بعد ذلك كان تصرفًا غير جدي ينقصه الوعي والحزم والإيمان، فبينما كانت فوضى الخلاف والتمزق على أشدها في الجانب الإسلامي نجد أن قطلونية وأرغون تتوحدان في شكل دولة واحدة تملك السيادة الكاملة على شرق إسبانيا الإسلامية وتتقدم بحزم للاستيلاء على ما بقي بأيدي المسلمين من بلاد الشرق 1237م. وقد كانت لدى المسلمين قوى كافية للثبات، فقد كانت بيدهم مناطق واسعة غنية مثل: بلنسية ومرسية والمرية ومالقة، ولكنها كانت كلها وقفت متفرقة وقد شل الخوف قواها وجعلها عاجزة عن القيام بأي تصرف سليم.

ونتيجة لهذا يتقدم رامون بيرنجير الرابع Ramon Berenguer IV ملك أرغون ويعلن على المسلمين حربًا صليبية يباركها البابا، ويستولي فيما بين 1248 - 1249م على لاردة Lerida وطرطوشة Tortosa، وكان قد وقع في 1129م حلف تعاون بين مملكتي قشتالة وأرغون وهو حلف Cazola، وقد وقع قبل وقعة الأرك ولكنه مؤشر على الاتجاه العام لإسبانيا النصرانية، ودليل على وعيها لذاتها ولرسالتها، وفي 1229م يستولي جاقمة Jaima I Reuyde Aragon Y Barcolona (1213 - 1276م) وهو أول ملوك العصر عمرًا - على الجزائر الشرقية «البليار» وفي 1230م يتم الاتحاد بين قشتالة وليون نهائيًا على يد فرناندو الثالث Fernando III (1217 - 1252م) وكانت النتيجة المباشرة لذلك سقوط قرطبة في يد مملكة قشتالة وليون دون مقاومة في 634هـ/ 1236م، وفي 636هـ/ 1238م تقع بلنسية وإقليمها الواسع في يد الملك جاقمة الأول ملك أرجون. ونظرًا إلى أن البلاد الإسلامية لم تعد مناطق حروب بل مساحات اقتسام فقد وقعت بين مملكتي قشتالة وليون من ناحية، ومملكة أرجون من ناحية أخرى معاهدة المرسي Almirza 1244م التي تؤكد معاهدة كارولا، وتحدد مناطق توسع كل من الدولتين الإسبانيتين، فوقف توسع

أرجون عند بلنسية، وتركت بقية بلاد الإسلام لتتوسع فيها مملكة قشتالة وليون، وفي نفس الوقت كانت مملكة البرتغال قد استضعفت بلاد غرب إسبانيا الإسلامية فاستولت على شلب وفارو وشنتمرية الغرب، ولم يبق للمسلمين في الغرب شيء، وفي 1248م استولت قشتالة وليون على بلنسية، وهبطت حدود إسبانيا الإسلامية إلى جنوب الوادي الكبير[1]. وكما تطورت مملكة قشتالة وليون من واحدة من الوحدات السياسية المتنافسة على السلطان في شبه الجزيرة إلى أكبر دولة في شبه الجزيرة نتيجة لاستيلائها على إمارة طليطلة فتضاعف ثراؤها وقوتها، فكذلك حدث للأغون التي لم تكن أول الأمر إلا دويلة صغيرة من الدويلات النصرانية في الركن الشمالي الغربي من شبه الجزيرة، فأصبحت مملكة كبيرة غنية ذات مستقبل باهر بعد استيلائها على إمارة سرقسطة وضمها بلاد الثغر الأعلى لإسبانيا الإسلامية إلى أراضيها. وقد تم ذلك في 512هـ/ 1118م، أي أيام المرابطين، وكان الذي قام بذلك هو ألفونسو المحارب Alfonso I El Batallador وقد سقطت بلاد الثغر الأعلى بعد صراع طويل، ولكن سرقسطة نفسها سقطت تقريبًا دون حرب نتيجة للنزاعات المستمرة داخل بيت بني هود، وقد بذل المرابطون أقصى جهدهم لإنقاذها، ومات في سبيل الدفاع عنها نفر من خيرة قادتهم، ولكن ذلك الجهد انحسر تمامًا أيام الموحدين. وقد دخل الموحدون إسبانيا الإسلامية أواخر 555هـ/ 1160م بعد فتح المغرب كله وتوحيده تحت رايتهم. وكان نفر من أهل إسبانيا الإسلامية قد ثاروا على المرابطين فأطفأ عبد المؤمن بن علي تلك الفتن، ووحد ما بقي للمسلمين في إسبانيا الإسلامية تحت لوائه، وولي على نواحيه أمراء من آل بيته ومن كبار الموحدين. وجعل عاصمة إسبانيا الإسلامية قرطبة أولاً، ثم عادت العاصمة إلى إشبيلية كما كانت الحال أيام المرابطين. ولم

---

(1) د. حسين مؤنس، أطلس العالم الإسلامي، ص 190.

يخرج عن سلطان الموحدين إلا ناحية دانية التي استبد بها بنو غانية وهم مسوفيون من رجال المرابطين، وكذلك عارضهم رؤساء من أهل إسبانيا الإسلامية مثل محمد بن سعد بن مردانيش وصهره إبراهيم بن هَمُشْك الذي استبد ببعض نواحي الشرق. وقد استطاع عبد المؤمن بن علي «524-558هـ/ 1130-1163م» أن يثبت حدود إسبانيا الإسلامية عند الخط المبين على الخريطة وهو خط نهر الوادي الكبير ونهر بلنسية، وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف (558-580هـ/ 1163-1184م) وكانت مملكة البرتغال قد استقلت عن إسبانيا ومضت تبني نفسها بما تكسب من أراضي المسلمين في غرب إسبانيا الإسلامية، وقد تولى ذلك أفونسو إنريكي Affonso Enrique الذي يسميه المسلمون ابن الريق، وفي 523هـ/ 1129م حاول الاستيلاء على الأشبونة ففشل ولم يستطع، ولكنه استعان بنفر من الصليبيين الذين كانوا في طريقهم إلى البلاد المقدسة للاستيلاء على شلب. وكانت شنترين قد سقطت في يده، ولهذا نجد أن ثاني خلفاء الموحدين الذي ذكرناه يركز جهوده في الدفاع عن غرب إسبانيا الإسلامية ويموت وهو يحاول استعادة شنترين. غير أن بطل الإسلام في إسبانيا الإسلامية في العصر الموحدي كان ثالث خلفاء الموحدين، وهو أبو يوسف يعقوب المنصور (580-595هـ/ 1184-1199م) وتحت قيادته كسب المسلمون انتصار الأرك المشهور، ويسمى عند الإسبان Alorcos إلى غرب مدينة ثيودادريال الحالة في شرق إسبانيا الإسلامية في 9 شعبان 591هـ/ 18 يولية 1195م. وبعدها فر ألفونسو الثامن ملك قشتالة إلى طليطلة بفلول جيشه. وهذه المعركة تعدل الزلاقة في أهميتها بالنسبة لمصير إسبانيا الإسلامية، فقد انكسرت حدة الزحف النصراني على بلاد المسلمين إلى حين. ولكن الحال تغيرت بعد وفاة أبي يوسف يعقوب المنصور، لأن خليفته وابنه محمد الناصر (595-610هـ/ 1199-1213م) لم يكن من طراز أبيه. ثم إن

العبء على خلفاء الدولة الموحدية كان ثقيلاً جداً، فقد امتدت من طرابلس في أقصى شرق المغرب إلى ساحل المحيط، ومن شمال نهر الوادي الكبير في إسبانيا الإسلامية حتى وادي درعة في إفريقية، ثم إن الخلافات اشتدت بين المتنافسين على السلطان في الدولة. وكذلك كان لثورة بني غانية المسوفيين - وهم بقايا المرابطين في دانية والجزائر الشرقية وبلاد إفريقية - أثر كبير في إضعاف جبهة الموحدين في إسبانيا الإسلامية، وكان ألفونسو الثاني ملك قشتالة منذ هزيمته في موقعة الأرك قد ملكه الخوف فاستعان بالبابوية وأخذ يتأهب للأخذ بثأره. وتمكن من ذلك فجمع حشوداً عظيمة وسار للقاء الموحدين. وجمع محمد الناصر الموحدي أقصى ما استطاع جمعه وسار للقاء القوات القشتالية، ولكن النزاع كان قد دب بين مسلمي إسبانيا من ناحية، والموحدين من ناحية أخرى، وكان في جيش الموحدين عدد كبير من العرب الهلالية، وهؤلاء لم يتعودوا على نوع الحرب البالغة العنف والضراوة بين المسلمين والنصارى في إسبانيا الإسلامية، وكان اللقاء في موضع يسمى العقاب Las Navas de Tolosa شمالي أبذة Ubeda وجيان في شرق إسبانيا الإسلامية في 15 صفر 609هـ/ 17 يولية 1212م، ولقي الموحدون هزيمة كبرى إذ حُصدت قوات المطوعة وفر العرب ثم بقية مسلمي إسبانيا. وتعتبر هذه المعركة من أكبر المعارك الفاصلة في تاريخ إسبانيا الإسلامية، فقد انحسرت حدوده، وهبطت إلى حوض الوادي الكبير، بل إن القوة العسكرية الموحدية لم تعد قط إلى سابق عهدها بعد هذه الهزيمة لكثرة من قتل فيها من جنود الموحدين ومن انضم إليهم من المسلمين[1].

يرجع المرابطون في أصلهم إلى قبيلة لمتونة من عرب العاربة، وهي بطن من بطون صنهاجة الكبيرة، قد اشتق اسم لمتونة من ثوبهم البسيط (اللمت)،

---

(1) د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 189.

ويسمون أيضًا بالملثمين، وكان اللمتونيون من البدو الرحل الذين ينتقلون في صحارى أفريقيا، ثم نزلوا في أقصى غربي أفريقيا قرب المحيط الأطلسي، أما دينهم فكان الوثنية، ثم تحولوا إلى الإسلام في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي بجهود رجلين، أحدهما من لمتونة هو يحيى بن إبراهيم اللمتوني، الذي طاف بالمشرق، واطلع على تعاليم الإسلام ودان به. والآخر هو عبد الله ابن ياسين الكزولي. وقد افتتن اللمتونيون بعبد الله وجعلوه زعيمًا لهم فتسمى بالإمام، واعتبر أبو زكريا يحيى بن عمر زعيم الملثمين نفسه تابعًا للإمام، وتلميذًا له، فاختاروه لقيادة المجاهدين في سبيل الله. واتخذ اللمتونيون لأنفسهم اسم (المرابطين)، الذين ينذرون أنفسهم في الثغور للدفاع عن أرض الإسلام، والجهاد في سبيله. ودفعت الحماسة الدينية هؤلاء الرجال الأشداء إلى بسط نفوذهم على موريتانيا، وكان أبو زكريا زعيم اللمتونيين، أشد الناس جرأة وشغفًا بالجهاد، فسقط ذات يوم قتيلاً، فاختار الإمام أخاه أبا بكر بن عمر مكانه، وكان الإمام عبد الله مؤسس الدولة المرابطية شديد التقشف في مأكله وملبسه، شديد التعصب لرأيه ومذهبه، يفرض على أصحابه الورع والبساطة، والتمسك بأهداب الدين.

وفي عام 452هـ/ 1059م قتل الإمام في إحدى المعارك مع أهل (تاسنا) فاستقل أبو بكر قائد المجاهدين بالأمر دون مشاركة. ولما اتسع ملك المرابطين، وتزايد عددهم، رأى أبو بكر أن يبني له ولجماعته حصنًا يتخذونه قاعدة، فاختار مدينة مراكش، وشرع في بنائها عام 454هـ/ 1062م، وفي تلك الأثناء نشب قتال بين قبيلتي لمتونة وكدالة فأسرع أبو بكر إلى الصحراء ليحول دون اقتتال القبيلتين، وترك ابن عمه يوسف بن تاشفين في مراكش، نائبًا عنه، وكلفه بتولي أمر إتمام بنائها. كان يوسف رجلاً مقدامًا واسع الذكاء، بعيد النظر، طموحًا، ولكنه شديد البساطة في حياته، فطمع

بالزعامة، وألف لنفسه جيشًا كبيرًا. ولما عاد أبو بكر بعد مدة طويلة قضاها متنقلاً في الصحراء خرج يوسف للقائه بجيش ضخم فارتاع أبو بكر، وقرر التنازل ليوسف عن الزعامة، وعاد هو إلى الصحراء[1].

عودة ابن تاشفين إلى إسبانيا الإسلامية:

عبر ابن تاشفين مرة أخرى إلى إسبانيا الإسلامية في رجب (483هـ/ سبتمبر 1090م)، واتجه نحو حصن يسمى حصن «لابيط» وهناك تبين له تخاذل أمراء الطوائف فعزلهم جميعًا ووحد إسبانيا الإسلامية ولم يستثن من ذلك إلا إمارة سرقسطة، فقد كان أصحابها محاطين بالنصارى إذا تعرض لهم فتركهم بدون تدخل، وبهذا العبور الثاني ليوسف بدأ عصر المرابطين في إسبانيا الإسلامية. وعلى الرغم من قيام المرابطين بمسئولياتهم في المغربين الأوسط والأقصى فإنه كان من مهامهم الرئيسية الدفاع عن الإسلام في إسبانيا الإسلامية، ففي هذا الميدان جاهدوا وأنفقوا، واستشهد فيه خيرة رجالهم، وعرفوا كيف يثبتون لعدوهم ويوقفون تقدم النصارى، رغم تكتل الأعداء واستعانتهم بملوك غربي أوروبا والبابوية، ومن موقع المرابطين التي أبلوا فيها بلاء حسنًا موقعة «أقليسن» شرقي طليطلة، وكان من نتائجها استيلاؤهم على هذه المدينة، وعلى مدينة طلبيرة للمرة الثانية سنة (503هـ/ 1109م). كما تمكنت البحرية المرابطية في سنة (509هـ/ 1115م) من استعادة جزر البليار، ولو بقيت هذه الجزر بيد النصارى لأصحبت خطرًا يهدد شرق إسبانيا الإسلامية كله. وهذا لا يعني أن المرابطين خلت أيامهم من الهزائم، فقد تعرضوا لنكبة عند بلدة «كتندة» القريبة من سرقسطة في (ربيع الأول 514هـ/ يونية 1120م)، واستشهد منهم ألوف من بينهم بعض العلماء بسبب تسرعهم

---

(1) د. أسعد حواميد، المرجع السابق، ص 116.

في الهجوم على العدو قبل أن تنتظم صفوفهم، فاختل نظامهم وكانت الهزيمة، لكنهم حققوا نصراً في موقعة «أفراغة» جنوبي غربي «لاردة» بالثغر الأعلى في سنة (528هـ/ 1134م)، يقودهم واحد من كبار رجالهم هو أبو زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية. وفي الوقت الذي يقوم فيه المرابطون بهذه المجهودات ويحققون أعظم الانتصارات إذ بهم يفاجئون بثورة يقوم بها المصامدة بقيادة «محمد بن تومرت» ضدهم في بلاد المغرب. فكان سببًا في توقف الجهاد في إسبانيا الإسلامية وبدأت المدن تتساقط واحدة وراء الأخرى في أيدي النصارى، بسبب سحب القوات من إسبانيا الإسلامية وهي في أوج انتصاراتها، وشغل المرابطون بالدفاع عن أنفسهم بالمغرب خاصة بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين ثالث أمرائهم (370هـ/ 1142م)، وزاد الموقف سوءاً قيام بعض مسلمي إسبانيا بالثورات ضد المرابطين وزعمهم أنهم أكثر رقيًا وأعظم حضارة من هؤلاء الأفارقة. أما عن النواحي الفكرية والأدبية، فلم يكن المرابطون يرحبون بمظاهر حضارة إسبانيا الإسلامية، فخبا ضوء الفكر والأدب في أيامهم، وانتهت الحلقات الأدبية التي كانت تزدان بها قصور ملوك الطوائف، وهذا لا يمنع من ظهور شخصيات عُدَّت امتدادًا لعصر الطوائف، يأتي علي رأس هؤلاء «ابن باجة» الطبيب الفيلسوف، وأبو بكر الطرطوشي، والفتح بن خاقان، وابن بسام الشنتريني وأبو بكر بن قزمان أمير الزجل الأندلسي وغيرهم. وجدير بالذكر أن المرابطين حرصوا على تحري الحق وتحقيق العدل وإقامة شعائر الدين، وأقاموا مجتمعًا مسلمًا عمل على الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه. وكان بإسبانيا الإسلامية قائد أعلى هو الحاكم العام غالبًا، وللمدن قادة يخضعون لهذا القائد الأعلى ويتولون المهام العسكرية والإدارية وغيرها، وكان اختيار الوالي يتم على أساس تقواه وعدالته وإجادته لمهمته، وسرعان ما كان يعزل إذا فرط أو قصرَّ، وقد قسمت إسبانيا

الإسلامية زمن المرابطين إلى ست ولايات هي: إشبيلية وغرناطة وقرطبة وبلنسية ومرسية وسرقسطة. أما القضاء فقد بقي مستقلاً، وكان القضاة يستشارون، ولهم مكانتهم عند الناس وعند الدولة. وقد استمرت الصناعة أيام المرابطين على نحو ما كانت عليه من قبل، واهتموا بالجيش والأسطول، وتحصين الثغور والمدن. وكان من نتائج هذا الانتصار أن استرد المسلمون عدداً من المدن التي احتلها ألفونسو من قبل مثل الأشبونة وشنترين، كما انقطع ملوك الطوائف عن دفع الإتاوات إلى جيرانهم من الملوك المسيحيين بل يمكن أن يقال إنه بفضل هذا الانتصار مُدَّ في عمر الإسلام بعدما كان موشكًا على الانقطاع. وعلى الرغم من ذلك فإن يوسف بن تاشفين لم يستطع أن يستثمر هذا الانتصار كما كان ينتظر، فهو لم يواصل زحفه لاسترداد طليطلة، ولعله رأى من سير المعركة وكانت غاية في العنف أن الأمر أصعب بكثير من أن يخوض فيه مثل هذه المغامرة، كما أنه لا بد أن يكون قد فطن إلى ما يسود إسبانيا الإسلامية من ضعف وتخاذل، وملوك الطوائف من أنانية وتباغض في ما بينهم.

ولم يغب هذا الوضع عن قادة المسيحيين، فإذا بهم يعودون إلى مهاجمة المواقع الإسلامية ولا سيما في شرق إسبانيا الإسلامية، حيث كان الخلاف ناشبًا في مرسية بين المعتمد بن عباد وابن رشيق، فكان السيد القنبيطور لا يكف عن مهاجمة المنطقة، وكذلك القائد القشتالي غرسية خيمنيث (Garcia Jiménez) الذي احتل معقل لييط (Aledo) المنيع على مقربة من لورقة، وكان يغير منه على منطقة مرسية. وكان هذا الحصن يقع على جبل شاهق ويسع نحو ثلاثة عشر ألفًا من المحاربين، وقد ألحق المعتصمون به أشد الأضرار بمن جاورهم من المسلمين. وهذا هو ما دفع المعتمد بن عباد - وكان يرى أن المعقل من أملاكه - إلى الجواز إلى المغرب والاجتماع بيوسف بن تاشفين

طالبًا مـنه العودة إلى إسبـانيا الإسـلامية لكـي يستنقذ هذا المـعقل. وترددت سفارات الفقهاء على أمير المرابطين تهيب به أن يهرع لإنقاذ إسبانيا الإسلامية. وبالفعل جهز يوسف جيشًا عبر به المضيق في جوازه الثاني في صيف 480هـ/ 1088م ودعا ملوك الطوائف إلى الاجتماع به لحصار ليـيط، فقدم عليه المعتمد وعبـد الله الزيري وأخوه تميم صاحب مـالقة والمعـتصم بن صمـادح صاحب المرية وابن رشيق صاحب مـرسية. غير أن هؤلاء الأمراء لم يلبـثوا أن «نشروا غسيلهم القذر» في محضـر يوسف بن تاشفين، فبدأ كل منهم في اتهام أقرانه والطعن عليهم تقربًا إلى أمـير المسلمين، بل بدا من بعضهم الغدر، فـقد كان ابن رشيق يبعث بالمؤن سـرًا إلى المسيحيين المعتصمـين بالحصن. وطال حصار الحصن بغيـر نتيجة، وحاول يوسف بن تاشـفين أن يصلح بين هؤلاء الأمراء بغـير جـدوى، وضجـر ابن تاشفين لـطول مقـامه ولفـشل الحصـار، فقـرر الانصراف وقد ملأه الشعور بالاشمئزاز من ملوك الطوائف جميعًا والاستياء لما أصاب هيبته بسبب فشل الحصار، ولـم يلبث يوسف أن تلقى بعد رجوعه إلى المغرب رسائل من الرعايا فـي إسبانيا الإسلامية ومن الفـقهاء تدعوه إلى خلع هؤلاء الملوك واتهامـهم بخيانة قـضية الإسـلام، ولا سيما بعـد أن عادوا إلى التفاوض مع جـيرانهم المسيحـيين وإبداء استعدادهم للعـودة إلى دفع الجزية، وعزز الفـقهاء مطالبهم بفـتاوى من أبي حامـد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي بشرعية احتلال إسبانيا الإسلامية وإسقاط أولئك الملوك.

وفي 483هـ/ 1090م عبـر يوسف بن تاشفين البـحر في جـوازه الثالث إلى إسبـانيا الإسلامـية. فحل هذه المرة بـقرطبة وأرسل إلى عـبد الله الزيري يستـدعيه بعـد أن علم بمداخلته للقـائد القشتـالي ألبار هانش (Alvar Fanez) نائب ألفـونسو الثـالث واتفـاقه مـعـه على دفع الجزية له لـقاء حـمايتـه من المرابطين، ولم يقدم عليه عبد الله وإنما أرسل سفـراءه فأساء يوسف معاملتهم

وأعلن عن عزمه على خلع عبد الله بسبب مداخلته للمسيحيين، ولم يلبث شعب غرناطة أن أعلن الثورة، مما سهل على يوسف بن تاشفين مهمة خلعه عن عرشه ونفيه هو وأخيه إلى أغمات بالمغرب. فكان عبد الله هو أول من خلع من ملوك الطوائف ثم دخلت جيوش المرابطين المرية حيث كان المعتصم بن صمادح في النزع الأخير، وتبين ليوسف بن تاشفين أن المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس قد كاتبا ألفونسو السادس يطلبان حمايته لهما، فوجه يوسف جيشًا إلى إشبيلية احتلها بعد مقاومة عنيفة من المعتمد، وسيَّر ملك إشبيلية المخلوع إلى منفاه بأغمات أيضًا. وتم ذلك في رجب 484هـ/ مارس 1091م. وتساقطت بعد ذلك عواصم إسبانيا الإسلامية في أيدي المرابطين، وكان آخرها بطليوس التي قام ملكها عمر المتوكل باستدعاء ألفونسو السادس مسلمًا له الأشبونة وشنترين وشنترة ثمنًا لمعونته، وكانت هذه المدن قد استردها المسلمون بعد وقعة الزلاقة، أدى ذلك إلى ثورة شعب بطليوس عليه، غير أن المتوكل قاوم المرابطين بلاقوة، مما اضطر يوسف بن تاشفين إلى الأمر لا بخلعه ونفيه فحسب، بل لقتله لقاء خيانته. واستمر خلع بقية ملوك الطوائف حتى لم يبق منهم بعد هذه السنة إلا بنو هود أصحاب الثغر الأعلى، وأغلب المرتضى الذي كان يحكم جزر البليار، وذلك لما سبق أن ذكرناه من الخوف من أن يلقوا بأيديهم إلى جيرانهم المسيحيين، ثم لأنهم لم يقصروا في جهاد الأعداء.

منذ خلع ملوك الطوائف في 484هـ/ 1091م أصبح الدفاع عن الإسلام في شبه الجزيرة مسؤولية المرابطين إذ إن إسبانيا الإسلامية أصبحت مجرد ولاية في الإمبراطورية المرابطية التي امتدت من نهر الإبرو (Rio Ebro) شمالاً إلى نهر السنغال في أفريقيا المدارية الغربية جنوبًا، وكانت تلك مهمة ثقيلة بسبب فساد أوضاع إسبانيا الإسلامية السياسية والاقتصادية وتعاظم القوى

المسيحية التي كانت تمدها الدول الأوروبيـة في ما وراء جبال البرتات. وكانت هيبة المرابطين قـد تزعزعت بعد فشلهم في الاستيـلاء على حصن لييط، وفي 478هـ/ 1094م هاجم السيد بلنسية في قلب البلاد الإسـلامية واستولى عليها ولم يفلح قواد المرابطين في استردادها، وتزايد ضغط ملوك أراغون على الثغر الأعلى، فاستولوا على منت شون في 481هـ/ 1089م ثم على وشقة 489هـ/ 1096م وبربشـتر 494هـ/ 1101م. غـير أن قـواد المرابطين لم يقـصـروا في جهودهم لاسـترداد ما استولي عليـه المسيحيون وفي الحـفاظ على ما بقي في أيديهم من أرض إسـبانـيا الإسـلاميـة. وفي 486هـ/ 1093م قام يوسف بن تاشفين بجوازه الرابع إلى إسبانيا الإسلامية لتفقد أحوالها، وكان معه ابنا تميم وعلي الذي عيـنه وليًا لعهـده بعد عودتـه إلى مراكش. وفي 495هـ/ 1102م استرد مزدلي ابن أخي يوسف بلنسية بعد جـلاء المسيحيين عنها. وكانت وفاة يوسف بن تاشفين في 500هـ/ 1106م وولي بعده ابنه علـي الذي حكـم حتى 537هـ/ 1143م، وكان اهتمـامه بأمور إسبـانيا الإسلامية لا يقـل عن اهتمام أبيه. ومـنذ بداية حكمه عـهد بولاية الحـواضر الأندلسـية الكبـرى إلى قواد وعمال من ذوي قـرابته وكانوا على جانب عظيم من الكفـاءة والمقدرة. وجاز علي بن يوسف في أولى سنوات حكمه إلى إسـبـاينا الإسلامـيـة متـفقـداً مناطقـها، وفي هذا الجواز ضـم إمارة بني رزين الصـغيرة (سـهلة بني رزين) ولكنه أقـر بني هود على الثـغر الأعلى. ولعل مـن أهم ما قـام به علي ابن يوسف في السنوات الأولى لحكمـه إصلاح الأحـوال الاقتصـادية في إسبـانيا الإسلاميـة مما أتاح للبلاد قدرًا من الرخاء والاستقـرار. وفي رمضان 501هـ/ مايو 1108م يحرز المرابطون انتصاراً كبيرًا على قـشتالة في معركة أقليش التي تلي معركة الزلاقـة في أهميتها، وكانت قـوات المرابطين قد توجهت إلى هذا المعقل الواقع في منطقة شنتبرية والذي كان ألفـونسو السادس قد استولى عليه

في ما تغلب عليه من حصون بعد استيلائه على طليطلة. وكان يقود جيوش المرابطين أخوان للأمير علي: تميم ومحمد المعروف بابن عائشة والقائد عبد الله بن فاطمة وكانوا عمالاً لعلي بن يوسف على غرناطة ومرسية وبلنسية، فلما بدأ المرابطون حصار أقليش بعث ألفونسو بجيش كبير مع ابنه الوحيد شانجة وكان في الخامسة عشرة من عمره ومعه قائدان من أبطال رجاله هما ألبار هانش وغرسية ردونس (Garcia Ordonez) في عشرة آلاف فارس لإغاثة المدينة، وانهزم المسلمون أولاً ثم كروا على الجيش المسيحي فأوقعوا به هزيمة منكرة. وقتل في المعركة شانجة بن ألفونسو الوحيد وولي عهده كما قتل غرسية ردونس وسائر قواد الجيش القشتالي، واستولى المسلمون على أقليش. وكان وقع الهزيمة شديدًا على الملك القشتالي حتى إنه لم يعش بعدها إلا أقل من سنة (ذو الحجة 502هـ/ سبتمبر 1109م). وفي يولية من السنة نفسها (ذو الحجة 502هـ/ 1109م) كانت الغزوة التي اضطلع بها علي بن يوسف بنفسه ضد طلبيرة (الواقعة على نهر التاجو غربي طليطلة)، فحاصر المدينة واستولى عليها عنوة، ثم توجه إلى طليطلة فحاصرها ثلاثة أيام ونسف ما حولها ولكن المدينة امتنعت عليه فصدر عنها بعد أن فتح بعض حصونها مثل حصن قنالش. على أن المسلمين إذا كانوا قد تنفسوا الصعداء قليلاً بعد موت ملك قشتالة فقد بقي عليهم أن يواجهوا ملكًا آخر لا يقل عنه ضراوة وهو ألفونسو الأول الملقب بالمحارب ملك أراغون (Alfonso I, El Batallador) الذي رأينا كيف كان يلح بهجماته على مدن الثغر الأعلى، وقد مر بنا أنه أوقع بالمستعين ابن هود هزيمة منكرة في (Valtierra) قتل فيها الملك الهودي 503هـ/ 1110م، وخلفه ابنه عماد الدولة عبد الملك الذي عزم على إقامة علاقات مع ألفونسو فثار عليه أهل سرقسطة وأخرجوه واستدعوا القائد المرابطي محمد بن الحاج صاحب بلنسية وأدخلوه البلد، وهكذا دخلت سرقسطة ومدن الثغر في ملك

المرابطين، وتقدم ألفونسو من المدينة فخرج إليه محمد بن الحاج وابنه أبو يحيى، ولكن المعركة انتهت بهزيمة المسلمين وبمقتل أبي يحيى. وظلت الحرب بعد ذلك سجالاً إلى أن ضرب ملك أرغون الحصار على سرقسطة على مدى أربع سنوات (508هـ/ 1114م - 512هـ/ 1118م) حتى تمكن من فتحها وبسقوطها سقط معظم مدن الثغر الأعلى. وحاول المرابطون استرداد سرقسطة فتوجه إليها إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أخو السلطان علي، ولكنه مني بهزيمة شديدة في معركة كتندة (Cutanda) في 514هـ/ 1120م وفي الوقت نفسه استولى ألفونسو على روطة (Rueda) وركلة (Rikla) وبُرْجة (Borja) وطرسونة (Tarazona) ثم على قلعة أيوب ودروقة (Daroca).

قبل ذلك هاجم جزر البليار ائتلاف من أساطيل قطلونية وبيزة (Pisa) وإفرنجة احتلوا يابسة وميورقة وأعملوا فيهما القتل والتخريب (508هـ/ 1115م - 509هـ/ 1116م) كما سبق أن ذكرنا، ولكن المرابطين استنقذوا الجزر وبسطوا عليها سلطتهم. وفي 508هـ/ 1114م قتل الأمير مزدلي العامل على قرطبة بعد غزوة دوخ فيها أرض طليطلة. وفي السنة نفسها وقعت هزيمة أخرى كبيرة على المسلمين في معركة «البورت» (El-Congost de Martorell) التي قتل فيها القائد محمد بن الحاج وذلك حينما توجه لغزو برشلونة. وفي السنة التالية قتل القائد محمد بن مزدلي أيضًا ومعه عدد من كبار قواد المرابطين. وفي سنتي 519هـ/ 1125م و520هـ/ 1126م قام ألفونسو المحارب بأجرأ حملة على إسبانيا الإسلامية، فقد خرج من سرقسطة على رأس جيش كبير مخترقًا أرض بلنسية ومرسية ثم منحدرًا إلى الجنوب مارًا بمقربة من أقاليم قرطبة وغرناطة إلى أن وصل إلى ساحل البحر المتوسط ونزل ببلش (Vélez - Málaga)، واستغرقت حملته هذه سنة وثلاثة أشهر، وانضم إليه في أثناء هذه الحملة النصارى المعاهدون (المستعربون Los Mozárabes) حتى قدر عدد من

لحق بجيشه منهم بأربعة عشر ألفًا. وأبدى قواد المرابطين في هذه الحملة تخاذلاً غريبًا إذ لم يجرؤ أحد على التعرض له، لا في طريق اختراقه لأرض المسلمين ولا في طريق عودته. واظهرت هذه الحملة مدى الضعف الذي طرأ على المرابطين، وأفقدت أهل إسبانيا الإسلامية الثقة في قدرة المرابطين على حماية أرضهم. ومن هنا بدأ التذمر والثورات التي قام بها بعض الزعماء المحليين ضدهم. وبسبب هذه الحملة أفتى الفقيه أبو الوليد ابن رشد قاضي الجماعة بقرطبة بنفي من بقي من النصارى المعاهدين من إسبانيا الإسلامية إلى المغرب حتى يكونوا تحت نظر السلطان. وبعد ذلك بسنوات وقعت هزيمة أخرى على المرابطين في شرق إسبانيا الإسلامية عند قرية قليرة (Cullera) على مقربة من بلنسية وذهب من المسلمين في هذه الواقعة (523هـ/ 1129م) نحو اثني عشر ألفًا بين قتيل وأسير، وبسبب هذه الهزيمة أمر علي بن يوسف كاتبه ابن أبي الخصال بتوجيه رسالة إلى قواده من لمتونة بإسبانيا الإسلامية يوبخهم أقصى التوبيخ على تخاذلهم[1].

وكان أبو الحسن علي بن يوسف وافر العزم، واسع الأفق، دخل الجزيرة غازيًا أكثر من مرة، وانتصر على الإسبان أكثر من مرة، ولكن النفور بين المرابطين وبين أمراء إسبانيا الإسلامية الموجودين في الثغور الشمالية أدى إلى استعانة هؤلاء بالإسبان على المرابطين، فأدى ذلك إلى سقوط عدد من أمهات مدن الثغور، مثل سرقسطة، بيد الإسبان[2]. ونحن نرى من هذا العرض كيف سرى الاختلال إلى دولة المرابطين في إسبانيا الإسلامية ولا سيما في السنوات الأخيرة من حكم علي بن يوسف، وكان من أقوى أسباب هذا الاختلال الثورة التي أعلنها على المرابطين محمد ابن تومرت المهدي القائم

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 116.

(2) د. أسعد حواميد، المرجع السابق، ص 118.

بدعوة الموحدين في جبال السوس بجنوب المغرب، وذلك ابتداء من 515هـ/ 1121م، وسرعان ما انتشرت دعوته بين المصامدة (قبيلة مصمودة)، واضطر المرابطون إلى توجيه حملاتهم للقضاء على هذه الثورة وإرسال خيرة قوادهم إلى معاقل الثورة، فتوزعت جهودهم بين نصارى إسبانيا الإسلامية والموحدين، مما أضعف قواهم في شبه الجزيرة. ومع ذلك فإنهم لم يألوا جهداً في صد هجمات المسيحيين الموجهة إليهم من ملك أراغون الشجاع من ناحية ثم من ملك قشتالة ألفونسو السابع (Alfonso VII) حفيد ألفونسو السادس (ابن ابنته Urraca) الملقب بالسليطين (Pex Parvus) الذي ولي قشتالة بين سنتي 1126م و1157م. وقد أبدى هذا الملك منذ شبابه المبكر نشاطًا حربيًا كبيراً فتكررت غاراته على إشبيلية وغرب إسبانيا الإسلامية، في سنوات 523هـ/ 1129م و527هـ/ 1133م، و533هـ/ 1139م. ومع ذلك فإن المرابطين لم يخلدوا تمامًا إلى التخاذل، فعلى الرغم من فقدهم لكثير من أشجع قوادهم في هذه الحروب فقد واصلوا الجهاد، وأحرزوا بعض الانتصارات الكبيرة حتى السنوات الأخيرة من حكمهم لإسبانيا الإسلامية. وقد برز نشاطهم الحربي بصفة خاصة منذ ولي علي بن يوسف ابنه تاشفين إسبانيا الإسلامية في أواخر 523هـ/ 1129م، وكان تاشفين الذي انهارت على يده دولة المرابطين - على جانب عظيم من الشجاعة والمقدرة الحربية. ففي شوال 524هـ/ صيف 1130م قاد بنفسه حملة حاصرت حسن السكة (Azeca) في منطقة طليطلة واستولى عليه عنوة وأسر قائده (Tello Fernández) وعدداً من أصحابه بعد قتل الكثيرين من رجاله. ومن أعظم الانتصارات التي أحرزها المرابطون في أيام ولاية تاشفين معركة إفراغة (Fraga) في 528هـ/ 1134م، وكان هذا المعقل مما بقي بأيدي المسلمين من مدن الثغر الأعلى. فتوجه إلى ألفونسو المحارب للاستيلاء عليه، وحاصر المدينة حتى كادت تستسلم وأرسل

أهلهـا إلى يحيى بن علي بن غـانية الصـحراوي عامل تاشـفين على بلنسـية ومرسـية، فـسار بخيـرة جنوده للقاء الملك الأرغـواني وأوقع به هزيمة منكرة كانت سببًا في إصـابته بالخبل ثم توفي في وشقة 1134م بعد شهور قليلة من هزيمته. وفي السنة نفسـها أحرز تاشفين نفسـه انتصارين على عساكر قـشتالة أحدهما لدى بطليـوس على مقربة من الموضع الذي دارت فيه موقـعة الزلاقة والآخر عند عقبـة البقر (التي تدعى اليوم El Vacar) على الطريق المتوجه من قرطبة إلى بطليوس. وفي 530هـ/ 1136م انتزع يحيى بن غانية مدينة مكناسة (Mequinenza) من أيدي الأراغونيين ولـم يفلح رذمير الثـاني الملقب بالراهب (Ramiro II el Monje) أخو ألفونسو المحارب وخليـفته على عرشه (1134م – 1137م) في صد المسلمين واسـتنقاذ المدينة. وفي ربيع الأول 531هـ/ ديسمبر 1136م هزم تاشفين جيـشًا قشتاليًـا قرب بلدة إشكلونة (Escalona) واستولى عليها عنوة.

نرى الحرب كـانت سجالاً بين المرابطين وبـين مملكتي قشتـالة وأرغون، وكانت لهم في هذه الحرب انتصارات ووقعت عليهم هزائم، على أن الملاحظ هو أن المرابطين أنفـسهم بـجنودهم القادمين من المـغرب هم الذين اضطلعـوا بعبء الجهاد على حين أن رعيتهم من إسبانيا الإسلامية استنامت إلى حكامها من المرابطين، فقد خمدت في نفوسهم الروح القتالية، ومع ذلك فقد كانوا لا يكفـون عن إبداء التـذمـر والنزوع إلى الثـورة على حكامـهم من المرابطين، والاستعلاء عليهم إذ كانوا يريدون أنفـسهم خاضعين لشعب يرونه أدنى منهم في مضمار الحضارة. وكثيراً ما بدا هذا الحقد الدفين فيما سطرته أقلام الكُتّاب والشعراء الذين كانوا يشعرون بالحنين إلى عصر ملوك الطوائف على الرغم مما كانوا يعترفوا به من مفاسد ذلك العصر. ولعل من أسباب ضيق شعب إسبانيا الإسلاميـة بالمرابطين ما جرى عليه هؤلاء من إسناد كثـير من أمور الدولة إلى

مستشاريهم من الفقهاء، وكان هؤلاء لا يخلون من تزمت وجمود. وقد بدا ذلك في انقياد علي بن يوسف لمشورة قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن علي بن حمدين وأصحابه من الفقهاء حينما أوصوه بإحراق كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، وذلك في محرم 503هـ/ أغسطس 1109م ثم تعقب المتصوفة من أمثال ابن العريف (المتوفي 536هـ/ 1141م) وتلاميذه أبي بكر الميورقي وأبي الحكم بن برجان الإشبيلي وابن قسي الشلبي. وكان لهؤلاء الصوفية شعبية كبيرة في صفوف الجماهير، فأدى إحراق كتاب الإحياء واضطهاد الصوفية إلى نفور الشعب من حكم المرابطين حتى إننا نرى في أواخر دولتهم ثورة دينية سياسية يعلنها ابن قسي في منطقة الغرب (Algarve) وتعرف من التاريخ باسم «ثورة المريدين». ولهذا فعلى الرغم من كل ما بذله المرابطون من جهود في سبيل الدفاع عن الإسلام في إسبانيا الإسلامية فإننا لا نصل إلى السنوات الأخيرة من حكم علي بن يوسف بن تاشفين حتى نرى العديد من الثورات تنشب ضد المرابطين في كثير من نواحي إسبانيا الإسلامية، والغريب أن هذه الثورات كان يتزعم أكثرها القضاة من أمثال حمدين بن حمدين بقرطبة، وأبي الحكم ابن حسون بمالقة، وعبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية، وابن أبي جعفر الخشني بمرسية، وأحمد بن عصام بأوريولة (Orihela)، هذا فضلاً عن بعض الزعماء المحليين الطامعين في السلطة مثل محمد بن سعد بن مردنيش وصهره إبراهيم ابن هَمُشْك. وحينما توفي علي بن يوسف 537هـ/ 1143م خلفه ابنه وولي عهده تاشفين (537هـ/ 1143م - 539هـ/ 1145م) وكان من خيرة الملوك شجاعة وسياسة، ولكنه كان سيء الحظ، فقد تفاقمت في أيامه ثورة الموحدين بزعامة عبد المؤمن بن علي بالإضافة إلى الثورات التي شنها الأندلسيون، وكان عبد المؤمن لا يكف عن الغارات يطلقها ما بين فاس وتلمسان مستخدمًا أسلوب حرب العصابات.

وخلف تاشفين بن علي أباه في الملك، وكانت سلطة المرابطين قد بدأت تضعف، واحتل النصارى كثيرًا من المواقع الإسلامية، وتطاولوا على المسلمين حتى وصلت جيوشهم ضواحي قرطبة وإشبيلية تنهب وتقتل وتسبي، وفي نفس الوقت قامت في المغرب حركة الموحدين، وأخذت تقوى وتشتد حتى قضت على المرابطين في المغرب[1]. وكان تاشفين بنى حصنًا على مقربة من وهران اتخذه مقرًا لقيادته من أجل مطاردة عبد المؤمن، فحاصره به الموحدون، وفي محاولة الفرار حينما اشتد عليه الحصار إذا به يتردى بفرسه من أعلى الحصن ويعثر عليه المحاصرون ميتًا، وذلك في 26 رمضان 539هـ/ 22 فبراير 1145م. وخلف تاشفين ابنه وولي عهده إبراهيم، غير أن عمه إسحاق خالف عليه، وكان هذا النزاع نذيرًا بسقوط الدولة، وفي محرم 541هـ/ يونية 1146م حاصر عبد المؤمن مدينة مراكش وبها إبراهيم بن تاشفين وفتحها عنوة وقبض على آخر أمراء المرابطين فعجل بقتله. وبهذا انتهت هذه الدولة التي بدأت قوية رافعة راية الجهاد في سبيل الإسلام، ولكنها انهارت فجأة وهي لا تزال في أوج شبابها.

كانت دولة المرابطين كيانًا سياسيًا ظهر إلى الوجود في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بفضل داعية ديني هو عبد الله بن ياسين الجزولي. وبعد قرن من الزمان تظهر دولة أخرى هي دولة الموحدين تدين بوجودها أيضًا لداعية آخر هو محمد بن تومرت الملقب بالمهدي. وإذا كانت الأولى قد وحدت بين قبائل صنهاجة الصحراء وجعلت منهم قوة سياسية هائلة فإن الثانية قد فعلت مثل ذلك بقبائل المصامدة الذين كانوا يعيشون على جبال الأطلس في جنوب المغرب. وشخصية محمد بن تومرت مؤسس هذه

(1) د. أسعد حواميد، المرجع السابق، ص 118.

الدولة وراعيها الروحي شخصيته غريبة معقدة يلفها الغموض وتلتقي فيها المتناقضات. ولد في تاريخ يتراوح بين 471هـ/ 1078م و474هـ/ 1081م في قبيلة هرغة البربرية (عرب العاربة) التي تنتمي إلى مجموعة مصمودة، ويبدو أن أسرته كانت شريفة على الرغم من فقرها. وكان يحس منذ صباه بأنه مؤهل لكي يقوم برسالة كبيرة، فحداه طموحه إلى طلب العلم فذهب إلى قرطبة حيث درس قليلاً ثم رحل إلى المرق في حدود 500هـ/ 1107م فالتقى في الإسكندرية بالفقيه الأندلسي أبي بكر الطرطوشي، ويقال إنه التقى بالإمام الغزالي ولو أن ذلك أمر مشكوك في صحته، وإن كانت تعاليمه تدل على أنه تأثر بالتيارات الفكرية المنتشرة في الشرق مثل «الأشعرية» التي كانت مذهبًا متوسطًا بين فكر أهل السنة والمعتزلة، كما تأثر بحركات التصوف، ويبدو أن مقامه بمصر جعله يتأثر ببعض عقائد الشيعة كما أنه استفاد من الفاطميين الذين كانوا يحكمون مصر إحكامهم لأساليب الدعوة وللتنظيمات السرية.

وفي المشرق قضى ابن تومرت عشر سنوات وفي 511هـ/ 1117م بدأ رحلة العودة عبر مدن المغرب العربي، وفي أثناء الرحلة نفسها بدأ يحس بالدور الذي عليه أن يقوم به، إذ كان يدعو في جرأة إلى تغيير ما يراه من منكرات، وهو ما أدى بحكام بعض المدن التي مر بها إلى طرده وإيذائه، وقرب تلمسان يلتقي بعبد المؤمن بن علي، وكان شابًا صغيرًا يطلب العلم فدعاه إلى اتباعه، ومنذ ذلك التاريخ ارتبطت حياة الرجلين فأصبح عبد المؤمن أقرب تلاميذه إليه وخليفته على دعوته. وفي مراكش عاصمة دولة المرابطين عاد ابن تومرت لتغيير المنكر وكان يجاهر بمهاجمة الفقهاء ورجال السلطان، ولم يأبه علي بن يوسف به، واكتفي بطرده من مراكش. وفي 515هـ/ 1121م يصل إلى إيجليز في موطن قبيلته هرغة ويبدأ في إعلان دعوته وينادي بنفسه باعتباره «المهدي» الذي وصف في الأحاديث النبوية بأنه «يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جورًا».

وفي السنة التاليـة تبدأ ثورته المسلحة ضد المرابطين بعـد أن زاد عدد أنصاره، وكان لا يتـورع عن التصفيـة الجسدية لكل من يشكك في أمره، وفي سـبيل ذلك استخدم واحدًا من أكثر أصحـابه إخلاصًا هو عبد الله بن محسن الملقب بالبشيـر كان هو المكلف بـ «التمييز» أي الحكم بإعـدام كل المعارضين. كذلك اصطنع نظامًـا للدعـوة قسم فيـه أنصاره إلى طبـقـات: أهل العشـرة وأهل الخمسين وأهل الدار والطلبة. . . إلخ. وفي هذا جمـيعه يبدو أنه تأثر بالدعوة الفاطمية الإسـماعيلية، كما تأثر بها أيضًـا في مناداته بأنه «الإمام المعصوم». وبعد ثـلاث سنوات انتقل المهـدي إلى مدينة تينملل إلى الـشمال الغـربي من إيجليز، فأصبـحت هذه المدينة مقره الجديد، ومنها انتـشرت الدعوة إلى سائر القبائل البربرية في جبال الأطلس. وشعرت الدولة المرابطية بخطر هذه الدعوة التي سـماها ابن تومـرت «دعـوة الموحدين» باعـتبـارهم هم المحـافظين على التوحـيد الإسلامي الصحـيح على حين كان يسمي المرابطين بـ«المجـسمين»، فوجه علي ابن يوسف عدة حمـلات إلى تينملل وإلى القبائل التي تبعث ابن تومرت ولكنهـا فشلت في القضـاء على الثورة، بل تزايدت قـوة ابن تومرت فقرر المواجهة الصريحة مع المرابطين محاصرًا عاصمتهم مراكش، وقاد الجيش عبـد المؤمن بن علي، ودارت المعـركة المعـروفة باسم «البُـحيـرة» على أبواب مراكش في جمادى الأولى 524هـ/ أبريل 1130م، ولكن الموحدين منوا فيها بهزيمة شديدة ثم لم يلبث المهـدي بن تومرت أن توفي في آب/ أغسطس من السنة نفـسها، ولـكن بعد أن ترك لأنصـاره كتاب تشـريع هو أعز مـا يطلب واستخلف عليهم تلميذه عبد المؤمن بن علي الكومي.

واصل عبد المؤمن خلال السنوات التالـية حربه مع المرابطين حتى كانت المواجهة الأخيرة مع تاشفين بن علي في وهران، فقتل تاشفين 539هـ/ 1145م ولم تمض سنة على ذلك حـتى استـولى عـبد المؤمن على مـراكش حاضـرة

المرابطين. أما إسبانيا الإسلامية فإن أنباء الدعوة الموحدية شجعت الثوار على التعجيل بإسقاط دولة المرابطين في البلاد، ولا سيما بعد ما تداعت هيبتهم نتيجة لهزائمهم في المغرب أمام الموحدين وفي إسبانيا الإسلامية أمام القوى المسيحية. ولهذا فإن السنوات الأخيرة من حكم المرابطين شهدت ما يمكن أن نسميه عصر الطوائف الثاني، إذ عادت إسبانيا الإسلامية فيه إلى الانقسام واستقل كل رئيس بما في يده على نحو ما كان الحال قبل دخول المرابطين.
وقام معظم هؤلاء الرؤساء بمكاتبة عبد المؤمن بن علي معلنين دخولهم في دعوة الموحدين. وكان ابن قسي المتصوف القائم بثورة المريدين في الغرب أول من بعث بتأييده لعبد المؤمن وهو يحاصر تلمسان في 539هـ/ 1145م، وتلاه القائد البحري علي بن عيسى بن ميمون الذي كان أول من خطب على منابر بلده قادس (Cádiz) باسم عبد المؤمن. وحينما كان عبد المؤمن يحاصر مراكش في محرم 541هـ/ يونية 1146م بعث بعض زعماء إسبانيا الإسلامية بسفاراتهم إليه منهم القاضي ابن حمدين المتغلب على قرطبة وأبو الغَمْر بن عَزُّون الثائر في شريس (Jerez). بل إننا نرى ابن قسي يضطلع بالوفادة بنفسه إلى مراكش فيسأل عبد المؤمن ألا يكتفي بهذا التأييد المعنوي من جانب بعض أمراء الأندلس، بل يوجه جيشًا يضمن له محو سلطة المرابطين من إسبانيا الإسلامية وإخضاع البلاد لدعوته. واستجاب عبد المؤمن لهذا المطلب فبعث بجيش كبير على رأسه برَّاز المسوفي في صيف 542هـ/ 1147م فاحتل مدينة طريف والجزيرة الخضراء، ثم توجه إلى الغرب فأخذ بيعة أبي الغمر ابن عزوم ويوسف البطروجي واحتل مرتولة وسلمها إلى ابن قسي تحت إمرة حاكم شِلب (Silves) ومضى بعد ذلك إلى باجة وبطليوس حيث أخذ بيعة صاحبها سِيدْراي بن وزير. وفي بداية السنة التالية 1148م يتوجه بَرَّاز بعد تلقيه مزيدًا من الإمدادات إلى إشبيلية بعد أن تخضع له طليطلة (Tejada) وحصن القصر

(Aznalcázar) ويبعث أهل إشبيلية بسفارة إلى عبد المؤمن على رأسها الفقيه أبو بكر بن العربي تلميذ الغزالي والطرطوشي. وفي ربيع 543هـ/ 1149م يرسل الخليفة الموحدي مزيداً من القوات إلى قرطبة، وبفضلها يضطر ألفونسو السابع لرفع الحصار عن المدينة، ويبعث القرطبيون بسفارة إلى عبد المؤمن يعلنون فيها طاعتهم له. وكان ألفونسو السابع ملك قشتالة (الذي حكم بين سنتي 520هـ/ 1126م و552هـ/ 1157م) قد دأب منذ بداية حكمه على مهاجمة أراضي المسلمين، وتصدى له تاشفين بن علي وقواد المرابطين فوقعت بين الجانبين معارك تداولا فيها الهزيمة والنصر، ومنذ تداعت دولة المرابطين شدد هجماته على إسبانيا الإسلامية منتهزاً فرصة الاضطرابات والثورات السائدة، وكان يعاونه في حملاته سيف الدولة أحمد المستنصر بن عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود (وهو الذي تلقبه المدونات المسيحية «Zafadola»). وفي 542هـ/ 1147م تمكن ألفونسو من الاستيلاء على المرية، ولم يمكن الموحدين استنقاذها إذ كان عبد المؤمن منشغلاً بإعداد حملته الكبيرة التي استولى فيها على تونس، وتم له بذلك مُلك المغرب كله من طرابلس إلى المحيط وطرد النورمانديين من المدن التي كانوا قد فتحوها في المغرب العربي من 543هـ/ 1148م. على أنه قبل أن يشرع في هذه الحملة أمر قواده باتخاذ العدة نحو استرداد المرية، وبالفعل نجد أسطولاً للموحدين يتوجه من سبتة فيضرب على المدينة الحصار لمدة سبعة أشهر حتى تم فتحها في جمادى الثانية 552هـ/ يولية 1157م وقام جيش الموحدين بمطاردة فلول ألفونسو السابع في بياسة وأبدة (Ubeda) ولم يلبث الملك القشتالي أن توفي بعد ذلك وهو في طريقه للهرب في 13 رجب/ 21 أغسطس من السنة نفسها. وبعد فراغ عبد المؤمن من حملة المغرب العربي التي توّجها بفتحه المهدية وأخذها من يد النورمانديين في 10 ذي الحجة 554هـ/ 21 يناير 1160م. وفي نوفمبر من هذه

السنة توجه عبد المؤمن إلى جبل طارق أو جبل الفتح فقضى شهرين هنالك متفقدًا التحصينات التي أمر بإقامتها. وفي رجب 557هـ/ يولية 1162م استعاد الموحدون غرناطة وكان ابن همشك قد استولى عليها في السنة السابقة بمعونة جيش مسيحي، وذلك بعد أن أوقعوا بابن همشك وحليفه وصهره ابن مردنيش ومن معهما من المسيحيين هزيمة منكرة تعرف باسم وقعة السبيكة وهي السهل الذي يطل عليه قصر الحمراء بغرناطة. وفي جمادى الثانية 558هـ/ مايو 1163م توفي عبد المؤمن بن علي بعد أن شاد تلك الدولة العظيمة التي امتدت من حدود مصر العربية إلى المحيط الأطلسي وأضاف إلى ذلك ما بقي في أيدي المسلمين من أرض إسبانيا الإسلامية، وكان رجل دولة عظيمًا أقر الأمن في إمبراطوريته الشاسعة التي فاقت دولة المرابطين والتي كانت تضم شعوبًا وأجناسًا متباينة عرف كيف يؤلف بينها بشخصيته القوية[1]. وكان يوسف بن عبد المؤمن الذي خلف أباه بعد وفاته هو عامله على إشبيلية، ولهذا فإنه وجه اهتمامه إلى إسبانيا الإسلامية منذ بداية خلافته التي امتدت بين 558هـ/ 1163م و580هـ/ 1184م، وكان عليه أن يقضي على محمد بن سعد بن مردنيش الذي كان قد استولى على مدن شرقي إسبانيا الإسلامية. وفي ذي الحجة 560هـ/ 1165م انطلق جيش الموحدين من إشبيلية بقيادة السيد بن عمر وعثمان أخوي الخليفة إلى مرسية حيث التقيا بابن مردنيش في فحص الجلاب وهو سهل على بعد عشرة أميال من مرسية، فأوقعا به هزيمة شديدة.

بينما كان الموحدون يوطدون سلطتهم في شرق إسبانيا الإسلامية كان الخطر يتهدد المناطق الغربية، فقد ظهر البرتغاليون على مسرح السياسة كقوة يحسب حسابها، وبرزت شخصية مغامر برتغالي هو جيرالدو سم بافور (Geraldo Sem Pavor) (أي الجريء) الذي يُشبهه المؤرخون بالسيد القنبيطور،

---

(1) د. محمود مكى، المرجع السابق، ص 121.

وفي 560هـ/ 1165م نفسـهـا هاجم هـذا المغـامـر يابرة (Evora) وترجـالة (Trujillo) ثم استـولى على قـصرش (Cáceres) ومونتـانجش (Montánchez) وشربة (Serpa) وجلمانية (Jurmenha)، وكل هذه مدن تحيط ببطليوس وتهدد بالانقضاض عليها، وفي ذلك الوقت كانت تتنازع الاستيلاء على غرب أسبانيا الإسلاميـة مملكتان مسيـحيتان: مملكة ليـون التي كان يحكمها فـرناندو الثاني (Fernando II) ابن ألفونسو السابع (1157م - 1188م) وكانت قد انفصلت عن قشـتالة، ومملكة البرتغـال الوليدة التي كان يحكمـها ألفونسـو إنريكث الثاني (Alfonso II Henriquez) (الذي تدعـوه المصـادر العـربيـة ابن الريق). أمـا جيرالدو الجـريء فقد كان مغامـرًا يعمل لحسابه الخاص وإن كـان في حملاته الأخيرة مـتحالفًـا مع ألفونسو إنريكث ملك البرتغـال، إذ اشتركا فـي حصار بطليـوس. وحينما بلـغت هذه الأنباء يوسف بن عـبد المؤمن أسـرع بإرسال جيش لإنقاذ بطليـوس، وكان قد عقد الصلح مـع ملك ليون الذي عد تدخل البرتغاليين اعتداء على سلطته، فـتعاون الجيش الموحدي مع فرناندو على صد الجيش البـرتغالي بل وأسر ألفـونسو إنريكث وحليفـه المغامر البرتغـالي. أما المواقع الأخرى فظلت مـتداولة بين الموحدين والبرتغـاليين وملك ليون. وفي 565هـ/ 1170م استطاع الموحدون استرداد معظم هذه المواقع وإبعاد الخطر عن بطليوس.

في شوال 566هـ/ ربيع 1171م قدم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بنفسه إلى إشبيلية ومنها انتقل إلى قرطبـة حيث جهز حملة توغلت في أرض قشتالة ووصلت إلى ضـفاف نهر تاجـو وعادت بغنائم كـثيـرة. ثم عاد الخليـفة إلى إشبيـلية وفيهـا بدأ منشآته العمرانيـة الكبيرة ومنها عـدد من القصور الفـخمة وتحصينات وأبراج للمدينة ومـتنزه البحيـرة وقنطرة طريانة (Triana)، وإنشاء المسجد الجامع الكبير، ويبدو أن المقـام طاب له في إشبيلية التي كان قد قضى

فيها شبابه، إذ إنه بقي فيها نحو أربعة أعوام (حتى 572هـ/ 1176م) وفي هذه الأثناء كان قد تم إخضاع منطقة مرسية بأجمعها ولا سيما بعد موت ابن مردنيش في رجب 572هـ/ مارس 1172م. ولما كان ابن مردنيش يعتمد في ثورته على القشتاليين فقد جهز يوسف حملة كبيرة قادها بنفسه وكان هدفها الاستيلاء على وبذة ولكن هذه الحملة التي استغرقت نحو ثلاثة شهور لم تنجح في التغلب على المدينة، وإن كانت قد خربت ما مرت عليه في طريقها، واضطر الخليفة لرفع الحصار عنها والعودة إلى مرسية. وفيما بين 569هـ/ 1174م و573هـ/ 1178م تبودلت الحملات بين الموحدين وفرناندو الثاني واسترد الموحدون باجة التي كان البرتغاليون قد فتحوها في 571هـ/ 1175م، فعملوا على تعميرها من جديد. وفي رجب 572هـ/ يناير 1177م قام ملك قشتالة ألفونسو الثامن (Alfonso VIII) بضرب حصار على قونكة إلى أن فتحها في ربيع الثاني/ أكتوبر، واستمرت الحملات القشتالية والبرتغالية ضد إسبانيا الإسلامية إلى أن عزم يوسف عى تجهيز حملة كبيرة ضد البرتغال. وبدأت الأعمال العسكرية بتوجيه أسطول كبير من سبتة (Ceu-la) بقيادة أبي العباس الصقلبي إلى شلب، وأحرز الموحدون نصرًا كبيرًا على أسطول الأشبونة الرابض في الميناء. وكان ذلك في 577هـ/ 1182م انتقامًا لهزيمتهم في العام السابق، وفي 579هـ/ 1184م أعد يوسف بن عبد المؤمن حملة كبيرة ضد مدينة شنترين، وكان الخليفة نفسه على رأس هذه الحملة، وبعد حصار استمر عدة أيام رأى الخليفة استحالة الاستيلاء على المدينة ولا سيما بعد أن أتته أنباء عن توجه الملك فرناندو الثاني إليها بجيشه لنجدتها بعد رفعه الحصار عن قصرش. وهكذا أخفقت حملة شنترين على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت في إعدادها. وفي طريق العودة إلى إشبيلية مرض الخليفة - وكان معتل الصحة دائمًا - وأتته وفاته في منتصف ربيع الثاني

579هـ/ أواخر يـولية 1184م. وولي الخلافـة بعد يوسف ابنه يعـقوب الذي تلقب بالمنصور، وكان من أول ما شغل به الخليفة الجديد هو القضاء على ثورة بني غانية. وكان مـحمد ابن غانية المسوفي الصحـراوي عاملاً للمرابطين على جزر البليار حينما انهارت دولتهم فتمسك بدعوتهم ورفض المبايعة للموحدين كما فـعل معظم المتغلبين على نواحي إسبـانيا الإسلامية. وخلف مـحمد بن غانية ابنه إســحاق، ولم يستطع عبد المؤمن ولا ابنه يوسف الاشتـغال بأمره، وحينمـا ولي أمر الجزر علي ابن إسحـاق لم يكتف برفضه الاعـتراف بسلطة الموحدين، بل إنه قام في 579هـ/ 1184م بإرسال قواته البحرية فاستولت على ثغر بجاية في المغرب الأوسط، ومنذ ذلك التاريخ أصـبح بنو غانية شوكة في جنب الدولة الموحـدية إلى أن استـولى الموحدون علـى الجزر 509هـ/ 1203م بعد حروب داميـة خضبت صحراء المغرب العربي. واسـتحوذت هذه الحرب على جهود يعقـوب المنصور خلال السنوات الأربع الأولى من حكمه. ثم بدأ في توجيه عنايته إلى إسبانيا الإسلامية، ولكن بالبطء والتثاقل اللذين تميز بهما دائمًا إعداد الموحدين لحملاتهم. فاستغرق ذلك سنة كاملة (583هـ/ 1188م - 584هـ/ 1189م) ولم تبـدأ الحـملة حـركـتهـا إلا في أواخـر 585هـ/ أوائل 1190م، واستخدم المسيحيون هذا الوقت فـي تعزيز مراكزهم واكتساب مواقع جديدة، وكـان شانجة (Sancho) الذي خلف أباه (Alfonso Henriquez) على ملك البـرتغال صـاحب المبادرة الأولـى، فقـد أسرع بمحـاصرة مـدينة شلب مستعـينًا بأسطول للصليبيين المتوجـهين إلى فلسطين، وكان هذا الأسطول قد توقف في الأشبونة وبعد حصار استمـر ثلاثة أشهر استولى شانجة على المدينة في رجب 585هـ/ سبتمبر 1189م، وفي الوقت نفسه قام ملك قشتالة ألفونسو الثامن بحـملة أخرى ضد مـدن الغرب وإشبيليـة. ولم يصل الخليفة يعـقوب المنصور إلى شلب إلا بعـد خمســة أشهر من استــسلامهـا. وفي هذه الحملة

استولى على بعض المواقع البرتغالية ومنها (Torres - Novas) بينما قام جيش آخر بقيادة السيد يحيى بن عمر ابن عم الخليفة بمحاصرة شلب. ولكن مرض الخليفة وتعذر الإمدادات حملاه على الانسحاب بقواته إلى إشبيلية قبل الاستيلاء على شلب. وفي ربيع الثاني 587هـ/ أبريل سنة 1191م قاد المنصور حملة جديدة حاصرت قصر أبي دانس (Alcacer do Sal) واستولت عليه، ثم توجه إلى شلب وتمكن من فتحها هذه المرة في يولية من السنة نفسها، وبعد هذا الانتصار وعقد الهدنة مع الملوك المسيحيين عاد إلى المغرب، غير أن ملك قشتالة ألفونسو الثامن عاد إلى مهاجمة منطقة إشبيلية بعد انتهاء الهدنة، فعزم المنصور على تجهيز حملة تأديبية كبيرة وبالفعل توجه إلى إسبانيا الإسلامية، فحل بإشبيلية ومنها تحرك في رجب 591هـ/ يونية 1195م إلى قرطبة، ثم سار شمالاً ليواجه الحملة المسيحية المشتركة المؤلفة من جيوش قشتالة وأراغون والبرتغال بقيادة ألفونسو الثامن. وفي 9 شعبان 591هـ/ 19 يولية 1195م دارت هذه المعركة العنيفة التي تعرف باسم «الأرك» وانتهت بهزيمة ساحقة لقوات الائتلاف المسيحي. وكان هذا الانتصار الموحدي لا يقل في أهميته عن انتصار المرابطين في معركة «الزلاقة» إذ ثبت خطوط الإسلام في حوض وادي آنه (Rio Guadiana) حيث استعاد كثيراً من حصون الغرب. وفي السنة التالية 592هـ/ 1196م قاد المنصور حملة أخرى اخترق فيها منطقة الغرب ثم أرض قشتالة واستولى على كثير من حصونها بعد أن ضرب الحصار على طليطلة.
وفي صيف شعبان 593هـ/ 1197م قاد المنصور حملة أخرى توغلت في أرض قشتالة شمالاً، فحاصرت طلبيرة ومكادة (Maqueda) وطليطلة وأوريلية (Oreja) ومجريط ووصلت شمالاً إلى وادي الحجارة ثم انحدرت إلى وبذة وأقليش وقونكة قبل عودتها إلى قرطبة ثم إشبيلية. وكانت هذه آخر حملة تصل فيها الجيوش الإسلامية إلى هذه المواقع في الشمال. وكانت وفاة

المنصور في 22 ربيع أول 595هـ/ 22 يناير 1199م، وبموته ختم آخر فصل في تاريخ عظماء رجال الدولة في إسبانيا الإسلامية.

خلف المنصور ابنه محمد الناصر الذي حكم بين 595هـ/ 1199م و610هـ/ 1213م وقد بدأ حكمه بالصراع مع بني غانية، ونجح في الاستيلاء على ما كان بيدهم من جزر البليار 599هـ/ 1203م). ثم بدأ حملة على قشتالة التي كان ملكها ألفونسو الثامن قد نقض مواثيق الهدنة التي أعقبت هزيمته في «الأرك». وفي ذي القعدة 607هـ/ مايو 1211م اجتازت قوات الناصر المضيق إلى طريف ومنها إلى إشبيلية. وفي ذي الحجة 608هـ/ يونية 1212م استرد المسلمون حصن شليطرة (Salvatierra) الذي كان القشتاليون قد أخذوه في 594هـ/ 1198م، واستنفر ألفونسو ملوك إسبانيا المسيحية فقدم عليه شانجة الملقب بالقوي (Sancho el Fuerte) ملك نبرة، وكذلك ملك أراغون بطره الثاني (Pedro II). وقد استنجد الإسبان بإخوانهم المسيحيين في أوروبا والفاتيكان فجاءهم عدد كبير من المتطوعين الألمان والبريطانيين والفرنسيين والإيطاليين إضافة إلى أعداد كبيرة من جميع أنحاء إسبانيا وتجمعت لديهم قوات كبيرة. وبدأ المعركة بانتصار المسلمين، ولكن مسارها تغير بعد ذلك، إذ انتهت بهزيمة منكرة، وتعرف هذه المعركة باسم «العِقاب» وبالإسبانية بـ«Las Navas de Tolosa» وذلك في 8 صفر 609هـ/ يولية سنة 1212م. واضطر الناصر إلى الفرار إلى جيان. أما جنوده فقد قتل منهم في أثناء الفرار أكثر ممن قتلوا في المعركة نفسها. وكانت هذه الهزيمة أخطر ما مني به المسلمون من الهزائم، إذ تعد النهاية الحقيقية لقوة الإسلام في إسبانيا الإسلامية. ولم يلبث بعدها محمد الناصر أن مات كمداً في كانون الثاني/ يناير 1213م. وولي بعد الناصر ابنه يوسف الملقب بالمستنصر (610هـ/ 1213م - 620هـ/ 1222م) وفي أيامه بدأ تفكك دولة الموحدين وانهيارها السريع، أما في المغرب فقد نشبت

الثورات ضد الموحدين وكان أخطرها بداية تمرد بني مرين الذين قدر لهم أن يخلفوا دولتهم هناك. وأما في الأندلس فقد بدأ تساقط القواعد الأندلسية الكبرى واحدة إثر أخرى. على أن ذلك تأخر بضع سنوات، فقد توفي ألفونسو الثامن في 1214م، وكانت الهدنة التي عقدت بينه وبين المسلمين بعد معركة العقاب ما زالت سارية. غير أنه بمجرد انتهائها 614هـ/ 1217م بدأت الأعمال الحربية من جديد، وزاد تفاقم أحوال الدولة الموحدية ما نشب بين أفراد أسرتهم من تنازع على الخلافة بعد وفاة المستنصر. هذا على حين كانت قشتالة تتوحد من جديد مع ليون في ظل الملك فرناندو الثالث الملقب بالقديس (Fernando III, el Santo) (1217م - 1252م) وذلك بعد وفاة والده ألفونسو التاسع ملك ليون 1230م. على أن هذا الملك تمكن من خلال هذه السنوات من الاستيلاء على عدد من مدن إسبانيا الإسلامية في سنتي 626هـ/ 1229م و627هـ/ 1230م، ومنها مونتانجش ثم ماردة وبطليوس والبش (Elvás). وهكذا هوت الجبهة الغربية كلها تقريبًا بكبريات قواعدها. وحينئذ بدأ فرناندو يوجه نظره إلى بقية مدن إسبانيا الإسلامية في وسط الجنوب، فقد هبطت الخطوط الدفاعية للمسلمين من نهر وادي آنة إلى الوادي الكبير ومزقت الخلافات والثورات دولة الموحدين. وفي أول حملة له 622هـ/ 1225م تمكن من الاستيلاء على أندوجر (Andújar) ومواقع أخرى في منطقة قرطبة. وفي عام 630هـ/ 1233م استولى على أبدة ثم مدلين (Medellin) وحصن الحنش (Alanje) وشنت اقروج (Santa Cruz) وأم غزالة (Magcela) (سنة 631هـ/ 1234م) وهذه مواقع في غرب إسبانيا الإسلامية.

أدى تمزق دولة الموحدين إلى قيام عدد من الزعماء المحليين بإسبانيا الإسلامية بالاستيلاء على ما بأيديهم من مدن وأقاليم، وبهذا بدأ ما يسمى بعصر الطوائف الثالث، وكان أهم هؤلاء الزعماء ابن هود الجذامي (وهو

سليل بني هود ملوك الثغر في عصر الطوائف) ومحمد بن يوسف بن نصر الملقب بابن الأحمر، وزيان بن مدافع من سلالة ابن مردنيش، وعزيز بن خطاب، إلى عدد من أصاغر الثوار. وكان فرناندو الثالث يزاوج بين استخدام القوة العسكرية واصطناع السياسة في التعامل مع هؤلاء الزعماء فيتحالف مع بعضهم ضد بعض بحسب ما تقضي مصلحته. وفي 22 شوال 633هـ/ 29 يونية 1236م استولى فرناندو على قرطبة وفي سنة 641هـ/ 1244م شن الغارات على غرناطة فاضطر صاحبها محمد ابن يوسف بن الأحمر المعروف بالشيخ إلى مهادنته بل ومعاونته في حصار جيان التي استولى عليها بعد عدة أشهر (رجب 643هـ/ ديسمبر 1245م). وفي 5 شعبان 646هـ/ 23 نوفمبر 1248م استولى على إشبيلية ثم ما يليها جنوبًا إلى قادس. أما شرق إسبانيا الإسلامية فقد تكفل بانتزاع مدن المسلمين فيه ملك أراغون وقطلونية خايمي الأول الملقب بالفاتح (Jaime I, El Conquistados) الذي خلف أباه بطره الثاني في 1213م، وكان لا يقل عزيمة ولا حماسة عن فرناندو الثالث. وقد استطاع خلال حكمه الطويل (1213م - 1276م) أن ينتزع من المسلمين مناطق من أغنى بلادهم وأهمها. وقد بدأ بطرطوشة (622هـ/ 1229م - 627هـ/ 1230م) ثم جزيرة يابسة (Iluiza) (ذو القعدة 632هـ/ أغسطس 1235م). أما الجزيرة الثالثة منورقة فقد استطاع واليها سعيد بن حكم أن يعقد الصلح مع ملك أراغون ويضمن بذلك استقلالها لمدة نصف قرن، فهي لم تسقط إلا في عهد حفيده ألفونسو الثالث (Alfonso III) في ذي الحجة 686هـ/ يناير 1287م. ولم يكد خايمي الأول يفرغ من ميورقة حتى اتجه ببصره إلى مملكة بلنسية التي استغرق الاستيلاء عليها ثلاث عشرة سنة (630هـ/ 1233م - 643هـ/ 1245م)، وكان الخلاف آنذاك محتدمًا بين زعماء شرق إسبانيا الإسلامية أبي زيد عبد الرحمن بن محمد من أمراء الموحدين وزيان بن مدافع

حفيد ابن مردنيش ومحمد بن يوسف بن هود، فتقدم خايمي ومعه بعض رجال الإسبتارية وشرع في الاستيلاء على معاقل بلنسية وحصونها والمدن الواقعة في زمامها، وانتهى الأمر باستسلام بلنسية في صفر 636هـ/ أكتوبر 1238م ومعها دانية وقلييرة وبعدها سقطت جزيرة شقر (Alcira) وشاطبة في 646هـ/ 1248م. ولم يبق في ما بين شرق إسبانيا الإسلامية وجنوبها إلا مملكة مرسية، وكانت مثار نزاع بين قشتالة وأراغون، إذ كانت كل من الدولتين تدّعي أحقيتها في فتحها، وكان أهل مرسية أعلنوا خضوعهم للأمير ألفونسو ولي عهد فرناندو الثالث ملك قشتالة، وإن كانوا قد ظلوا مستقلين، وحينما حاول ابن الأحمر جمع المدجنين من مسلمي مدن إسبانيا الإسلامية الخاضعة للمسيحيين تحت رايته والقيام بثورة شاملة استنجد الأمير ألفونسو بحمية خايمي الأول (والد زوجته فيولانتي «Violante») فسارع إلى معونته. ولكن الحرب كانت طويلة وشارك فيها خايمي الأول بالاستيلاء على إلش (Elche) ولقنت (Alicante). وفي 664هـ/ 1266م استسلمت مرسية لألفونسو الذي كان قد ولي العرش بعد أبيه في 1252م. وبذلك أتمت قشتالة وأراغون فتح كل المناطق الإسلامية في الغرب والوسط والشرق. ولم تبق بأيدي المسلمين إلا مملكة غرناطة التي نهض بلم شعثها محمد بن يوسف بن نصر (ابن الأحمر) الذي أعلن نفسه ملكًا على ما تبقى للمسلمين من أراضي الجنوب وإن كانت مقتضيات السياسة قد فرضت عليه إعلان تبعيته لملك قشتالة بمقتضى معاهدته مع فرناندو الثالث المعقودة في جيان في 1246م.

في هذه الأثناء كانت دولة الموحدين تحتضر في المغرب احتضارًا بطيئًا تحت ضربات دولة فتية ظهرت على أنقاض خلافتهم هي دولة بني مرين. وأخيرًا تم مصرع أبي دبوس آخر خلفاء الموحدين في 1 محرم 678هـ/ 31 أغسطس 1269م بعد نحو قرن ونصف قرن من بداية دعوة المهدي بن

تومرت[1]. رأينا كيف كانت وقعة العقاب في (609هـ/ 1212م) فاتحة لانهيار الجبهات الإسلامية الثلاث في إسبانيا الإسلامية: في الغرب والوسط والشرق، وكيف كان الاجتياح المسيحي لهذه الجبهات بالغ العنف والسرعة، فقد أطبق على إسبانيا الإسلامية البرتغاليون في الغرب وملك قشتالة فرذلند في الوسط وخايمي الأول (الفاتح) في الشرق، وبعد سقوط كبريات حواضر إسبانيا الإسلامية بدا وكأن أيام الإسلام أصبحت معدودة في شبه الجزيرة إذ إن ما بقي في أيدي المسلمين لم يكن يجاوز عشر مساحتها، ولكن الغريب هو أن هذه البقية الباقية استطاعت أن تظل على قيد الحياة قرنين ونصف قرن من الزمان، وكان ذلك بفضل زعيم استطاع هو وذريته من بعده أن يلموا شعث هذه البقية ويستنقذوها من أيدي جيرانهم الأقوياء ويحسنوا الحفاظ عليها خلال العصور التالية. هذا الزعيم هو محمد بن يوسف بن نصر الذي ينتهي نسبه إلى الصحابي قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي، وكان كغيره من زعماء إسبانيا الإسلامية الذين شاركوا في الفتن الواقعة في أواخر عصر الموحدين، إلا أنه كان أكثرهم ذكاءً وأقومهم سياسة، وكان من أسرة استقرت قديمًا في منطقة جيان ومولده في إحدى قراها الصغيرة: أرجونة (Arjona)، وقد رأى في ظل الاجتياح المسيحي الشامل أن السياسة تقضي عليه بأن يحني رأسه للعاصفة، فلم يجد بدًا من الاتفاق مع ملك قشتالة فرناندو الثالث، فعقد معه معاهدة جيان 643هـ/ 1246م التي يمكن اعتبارها شهادة ميلاد لمملكة غرناطة، وبمقتضاها اعترف بتبعيته لملك قشتالة، بل كان عليه أن يؤدي دورًا مهينًا هو المشاركة بجملة من فرسانه في الحصار الذي ضربه فرناندو على إشبيلية حتى افتتحها في 646هـ/ 1248م، ودفع جزية مالية كبيرة، غير أنه بفضل هذه الشروط استطاع محمد المعروف بابن الأحمر أن ينعم بسنوات من

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 127.

الهدوء أعاد فيها ترتيب أوراقه، ويضمن السلام لما ظل تحت حكمه من بلاد في إطار حدود يمكنه الدفاع عنها. ولهذا فإنه لم يحاول أن يقف في وجه المد القشتالي الجارف الذي اجتاح فيه الملك ألفونسو العاشر مدن شريش وشذونة ونبريشة (Nebrija) وأركش في 661هـ/ 1263م، فقد كان يعرف أنه غير قادر على حماية هذه المدن. وقد عاصر محمد (الأول) من ملوك إسبانيا المسيحية ملكي قشتالة فرناندو الثالث (1217م - 1252م) ثم ابنه ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم (Alfonso X, el Sabio) (1252م - 1284م)، إذ إنه حكم حتى 1273م. وإذا كان قد هادن قشتالة بل واعترف بتبعيته لها خلال أيام فرناندو ثم السنوات الأولى من حكم ابنه ألفونسو فإن ذلك لن يكون سياسة ثابتة له ولا لخلفائه من بعده، بل إن ملوك غرناطة سوف ينتهجون سياسة مرنة تتراوح بين المهادنة عند قوة خصومهم واستعمال القوة إذا آنسوا في جيرانهم الضعف، وكثيرًا ما كانوا يعملون على التضريب بين جيرانهم المسيحيين أو يتدخلون في شؤونهم الداخلية متبعين السياسة نفسها التي يقوم خصومهم بها، فإذا رأوا أنهم لا طاقة لهم بمقاومتهم لجأوا للاستعانة بإخوانهم المسلمين في المغرب العربي، وهكذا كان سلوكهم السياسي مزيجًا من اللجوء للقوة وللعمل الدبلوماسي الذي سمح لهم بإقامة توازنات دقيقة بين القوى المحيطة بهم، وهذا هو العامل الأساسي في إطالة عمر مملكة بني الأحمر في غرناطة مع ما كان يبدو أول الأمر من أن نهايتها غدت وشيكة.

في 671هـ/ 1273م توفي محمد الأول وخلفه ابنه محمد الثاني الملقب بالفقيه وهو الذي مهد الدولة وأقام رسوخها واستطاع القضاء على ما وقع في البلاد من ثورات، وفي عهده ظهرت دولة بني مرين بصفتها قوة جديدة فتية في المغرب العربي بعد انهيار دولة الموحدين، وبدأ سلاطين بني الأحمر يستخدمون هذه القوة الجديدة في لعبة التوازنات السياسية التي كانوا يقومون

بها إزاء إسبانيا المسيحية فهم يتحالفون مع بني مرين حينما يشتد الضغط المسيحي عليهم باعتبارهم إخوانهم في العقيدة، ولكنهم كثيرًا ما يفضون هذا التحالف إذا رأوا منهم تدخلاً في شؤون بلادهم الداخلية. فقد استنجد محمد الثاني بالسلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، فعبر السلطان المضيق، غير أنه اشترط قبل عبوره أن ينزل له ابن الأحمر عن طريف ورندة والجزيرة الخضراء حتى يؤمن ظهره، ويتكرر هنا ما حدث عند جواز يوسف ابن تاشفين إلى إسبانيا الإسلامية قبل قرنين من الزمان. وهنا يسوء ظن السلطان النصري، ولا سيما بعد مداخلة المريني لبني أشقيلولة وهي أسرة شريفة ذات أصل مسيحي قديم (Los Escayuela) كانوا أصهارًا لبني الأحمر ولكنهم كانوا كثيري التمرد على سلاطين غرناطة، ولكن المريني بمعونة هذه الأسر يقتحم أرض قشتالة برسم الجهاد ويوقع بالجيش القشتالي هزيمة كبيرة لدى إستجة (Ecija) وفيها يقتل القائد المسيحي (Don Nuno de Lara). وفي 677هـ/ 1278م يجوز السلطان أبو يوسف مرة أخرى فينزل مالقة حيث يحتفي به رؤساؤها المتمردون بنو أشقيلولة، ويتوغل في أرض قشتالة حتى أحواز إشبيلية. وفي عام 1282 يعلن الأمير شانجة الثورة على أبيه ألفونسو العاشر، ويلجأ الملك إلى أبي يوسف ويلتقي به في معسكره قرب رندة ويرهن لديه تاجه، فيمده السلطان المغربي بمائة ألف قطعة من الذهب، ثم يغزو أرض قشتالة ويحاصر قرطبة. وفي جواز السلطان المريني الرابع 684هـ/ 1285م يغزو مدينة شريش وأحواز إشبيلية ثم يتصالح هو وسلطان غرناطة، ويتفقان على أن تستقر في ملمكة غرناطة بشكل دائم فرقة عسكرية مغربية يوكل أمرها إلى قائد مريني يحمل لقب «شيخ الغزاة». وقد أدت هذه الوظيفة خدمات كبيرة لمملكة غرناطة، ولكنها كانت في الوقت نفسه قاعدة لتدخل المرينيين في شؤون غرناطة الداخلية. وعلى الرغم من التحالف الذي تم بين الدولتين

الإسلاميتين على جانبي المضيق، فإن ذلك لم يمنع شانجة الرابع الذي خلف أباه على قشتالة (1284م - 1296م) وهو الملقب بـ«الثائر» (El Bravo) من الاستيلاء على مدينة طريف في 691هـ/ 1292م. وفي سنة 694هـ/ 1295م يأتي رد محمد الفقيه على حملة الملك القشتالي، فيغزو منطقة جيان، ويستولي على قيجاطة (Quesada) ثم على القنداق (Alcaudete) في 699هـ/ 1299م. هذا على حين يعقد معاهدة تحالف في 700هـ/ 1301م مع خايمي الثاني (Jaime II) ملك أراغون.

يرث عرش غرناطة بعد ذلك محمد الثالث المعروف بالمخلوع (701هـ/ 1302م - 708هـ/ 1309م)، فيرى من الخير لبلاده أن يعقد هدنة مع قشتالة (702هـ/ 1303م)، وتسوء على أثر ذلك العلاقات بينه وبين السلطان المريني وينتهز محمد فرصة الاضطراب الواقع في المغرب في أواخر أيام السلطان المريني أبي يعقوب يوسف، فيستولي على ميناء سبتة 705هـ/ 1306م، ويتدخل في شؤون المغرب، وأغراه ذلك باستعراض قوته، فنقض حلف غرناطة التقليدي مع مملكة أراغون، وأغار على منطقة بلنسية، وحينئذ عقد خايمي الثاني ملك أراغون اتفاقًا مع فرناندو الرابع ملك قشتالة والسلطان المريني 708هـ/ 1309م، وتحالفت الدول الثلاث على مهاجمة غرناطة، فاسترد المريني سبتة عنوة، على حين حاصر الأراغونيون مدينة المرية. وفي السنة التالية (709هـ/ 1310م) استولى فرناندو الرابع على جبل طارق وحاصر أسطوله الجزيرة الخضراء ولكنه لم يتمكن من فتحها. وأدى ذلك إلى عودة السلطان الجديد نصر (708هـ/ 1309م - 713هـ/ 1314م) إلى التحالف مع بني مرين، وفي سبيل ذلك تنازل لهم عن الجزيرة ورندة. وتنشب ثورة أهل غرناطة بسبب هذه الأحداث على سلطانهم نصر ويطيحون به. ويلي على أثره إسماعيل الأول بن فرج (713هـ/ 1314م - 725هـ/ 1325م). وكان

يعاصره في قشتالة الملك ألفونسو الحادي عشر (Alfonsi XI) (1312م - 1350م). وكان قد ولي العرش طفلاً صغيرًا فقام بالوصاية عليه الأميران خوان (D. Guan) وبطره (D. Pedro)، ورأى الوصيان على عرش قشتالة الفرصة سانحة للتدخل في غرناطة بذريعة مؤازرة السلطان المخلوع نصر اللاجئ إلى وادي آش (Guadix)، فقررا تجريد حملة كبيرة اخترقت أرض غرناطة حتى بلغت مرجها الفسيح (La Vega)، على أن المعركة الدائرة هناك كانت كارثة على القشتاليين إذ هزم جيشهم وقتل القائدان الوصيان على العرش في ربيع الثاني 719هـ/ يونية 1319م، وأعقب ذلك استيلاء السلطان الغرناطي على حصن أشكر (Huéscar) الذي استخدم في حصاره البارود ثم على مدينة مارتش (Martos) واضطرت قشتالة إلى طلب الهدنة، ولا سيما بعد نشوب النزاع الداخلي بين المتنافسين على وصاية العرش. وفي غرناطة يلي العرش محمد الرابع بعد مقتل أبيه إسماعيل غيلة ومع أن حكمه لم يطل (725هـ/ 1325م - 733هـ/ 1333م) فقد هاجم قشتالة وفتح مدينتي قبرة (Cabra) وباغة (Priego)، ولكن فتنة وقعت بينه وبين «شيخ الغزاة» عثمان بن أبي العلاء في سنة 727هـ/ 1327م، وانتهز ملك قشتالة الفرصة فاستولى في سنة 730هـ/ 1330م على حصن إطابة (Teba)، وأحس الغرناطي بالخطر فقرر أن يعود إلى التحالف مع السلطان المريني أبي الحسن علي بن عثمان المريني (731هـ/ 1331م - 752هـ/ 1351م) وهو أعظم ملوك بني مرين وأوسعهم ملكًا. فتنازل له عن رندة ومربلة (Marbella) واشترك ملكا غرناطة والمغرب في حصار جبل طارق واسترداه من أيدي القشتاليين في 733هـ/ 1333م، ولكن محمدًا الرابع قتل بعد ذلك بقليل.

خلفه على عرش غرناطة أخوه يوسف الأول (733هـ/ 1333م - 755هـ/ 1354م) واستمرت الهدنة خلال السنوات الأولى من حكمه بينه وبين

قشتالة، غير أن الصلح ينتقض في 740هـ/ 1340م، ويجوز أبو الحسن المريني البحر إلى ثغر طريف ويشترك مع يوسف الأول في حصاره من أجل استرداده، فيهرع الملك القشتالي ألفونسو الحادي عشر وحموه ألفونسو الرابع ملك البرتغال، وتدور معركة بحرية عنيفة هي المعروفة باسم «وقعة طريف» (بالإسبانية «Batalla del Rio Salado») في 8 جمادى الأولى 741هـ/ 30 أكتوبر 1340م، وتنتهي بهزيمة ساحقة لأسطولي غرناطة والمغرب، وتعد هذه الهزيمة ثانية لوقعة العقاب (في 609هـ/ 1212م) في بعد أثرها، إذ أعقبها حصار ألفونسو للجزيرة الخضراء، وقد شاركت في الحصار قوى أوروبية عديدة واستمر عشرين شهراً، وعلى الرغم من المقاومة الباسلة للمدينة فقد سقطت في النهاية في صفر 745هـ/ مارس 1344م. وأغرت هذه الانتصارات الملك القشتالي، فعاد إلى حصار جبل طارق في 750هـ/ 1349م، وكادت المدينة تسقط حين أصابه الطاعون الذي كان متشراً في كل مكان، وقضي عليه 751هـ/ 1350م، متقذاً مملكة غرناطة من كارثة أكبر. وكانت الجيوش القشتالية بعد انتصارها في «موقعة طريف» قد زحفت على قلعة سعيد (Al-calá la Real) وباغة واستولت عليهما في 742هـ/ 1341م. وتبين لمرة أخرى أن أيام غرناطة المسلمة باتت معدودة، بعد أن خسرت طريف والجزيرة الخضراء، وهما القاعدتان الكبيرتان اللتان تصلان المملكة بالمغرب العربي.

وسرعان ما تبدل الحال بشكل جذري بعد وفاة الملك القشتالي وتولي عرش غرناطة محمد الخامس بن يوسف الأول. ويعتبر هذا السلطان الملقب بالغني بالله أعظم ملوك غرناطة، وكان له أطول عهد فيها إذ حكم من 755هـ/ 1354م إلى 793هـ/ 1391م، ما عدا السنوات الثلاث في 760هـ/ 1359م إلى 763هـ/ 1362م حين خسر العرش إثر مؤامرة أطاحت به، وعاش منفياً في المغرب. في ما يتعلق بقشتالة، استهل محمد الخامس حكمه بتوثيق عرى

الصــداقة مع ملكهــا الجديد بـطره الأول المعروف بلقب «القــاسي» (751هـ/ 1350م - 770هـ/ 1369م). وتحولت هذه الصداقة إلى حلف قوي دفع الملك الغرناطي إلى التضحية بالصـداقة التقليدية التي تربط غرناطة بمملكة أراغون، إثر نشوب صراع بين ملك قشتالة وبطره الرابع ملك أراغون. وقد برع سلطان غرناطة في اسـتغلال هذا الصراع للحـفاظ على سلامة مملكتـه، وعمل على التدخل مبـاشرة بشؤون إسبانيا المسيـحية، وهي سياسة طبـقها وزيره الكاتب الموسـوعي لـسان الـدين ابن الخطيب وحاجبـه أبو النعـيم رضوان. وعندمـا اندلعت الحرب بين المملكتين المسيحيتين أسرع محمد الغني بالله لمساعدة حليفه ملك قشتـالة، وزوده بجيش أغار به على منطقة مـرسية 763هـ/ 1362م. ثم نشبـت حرب 767هـ/ 1366م بين بطره الأول وأخيـه أنريكي دي تراسـتمارا (Enrique de Trastamara) الذي كان يطالب بعرش قـشتالة، واستغل مـحمد الفرصة ثانيـة وأرسل قواته لمساندة حليفـه. وأغارت هذه القوات على أطريرة (Utrera) وهاجمت جيـان وأبدة وحاصرت بياسة، كما ضـربت حصاراً على قرطبة وكادت تسـتولي عليها في 769هـ/ 1368م. وهكذا استطاع محمد أن يستغل الصراع القـائم بين الأخوين بما فيه مصلحة بلاده، مسـتوليًا على ثغور عديدة بين مملكته ومنطقتي قرطبة وجيان. وكان من بين أهم الانتصارات التي أحرزها استيلاؤه على الجزيرة الخضراء في أواخر ذي الحجة عام 770هـ/ يولية 1379م. لكنه أدرك أنه لا يمكنه الاحتفاظ بها بشكل دائم، فانسحب منها بعد عشر سنوات تاركًا المدينة في حالة من الدمار الشامل. وعند انتهاء الحرب بين أنريكي وبطره بمقتل هذا الأخـير 770هـ/ 1369م، عمل مـحمد على عـقد صلح مع الملك الجديد، وفي شـوال عام 771هـ/ مايو 1370م تم توقيع هدنة لمدة ثمانيـة أعوام بين غرناطة وفاس وقـشتالة. وفي العام التـالي وقعت هدنة أخرى مع أراغون.

وعمت الفوضى خلال هذه السنوات دولة بني مرين في فاس، فتمكن محمد من التدخل علنًا في شؤون البلاد إلى حد أصبح فيه يتحكم بأمر تعيين السلطان المريني. كما احتل جبل طارق وألغى وظيفة «شيخ الغزاة» واضعًا بذلك حدًا للوجود العسكري المغربي في بلاده. وبفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها محمد الخامس، تمتعت غرناطة بسلام دام طويلاً لم تشهده من قبل، الأمر الذي سمح للسلطان النصري بالمباشرة في عدة مشاريع إعمارية منها تشييد القسم الأكبر من قصر الحمراء (Alhambra)، والاهتمام بأمور الثقافة والعلوم كما عاشت المملكة في عهده رخاءً اقتصاديًا عظيمًا بعد أن توثقت عرى الصداقة بينها وبين الدول الإسلامية في المغرب وفي الشرق: الدولة الزيانية في تلمسان، والحفصيون في تونس والمماليك في مصر.

ويعد عصر محمد الغني بالله هو آخر عصور ازدهار مملكة غرناطة، إذ إن خلفاءه كانوا في الغالب أمراء ضعفاء لم يعرفوا كيف يواصلون سياسته التي زاوجت بين العمل الدبلوماسي البارع واستعمال القوة عند الضرورة. هذا وإن كان الوضع لم يتغير كثيرًا خلال ربع القرن الذي تلا وفاة محمد الخامس (793هـ/ 1391م - 820هـ/ 1417م) وهي الفترة التي حكم فيها غرناطة ثلاثة من السلاطين هم يوسف الثاني ومحمد السابع ويوسف الثالث. ذلك لأن معاصري هؤلاء السلاطين من ملوك قشتالة كانوا بدورهم ضعافًا، وكانوا منشغلين بحروبهم الداخلية إما مع منافسيهم على العرش أو مع النبلاء المتمردين. والحدث الوحيد الجدير بالذكر خلال السنوات الأولى من القرن الخامس عشر هو سقوط مدينة أنتقيرة (Antequera) في أيدي القشتاليين. وكان يحكم قشتالة آنذاك خوان الثاني (Juan II) (1406م - 1454م) وقد بدأ حكمه طفلاً في الثانية من عمره، فوضع تحت وصاية عمه الأمير فرناندو، وكان رجلاً حازمًا قوي الشكيمة، وهو صاحب الحملة المشهورة التي استطاع

فيها أن يستولي عنوة على تلك القاعدة الغرناطية التي كانت من أحصن معاقل البلاد وكان استيلاؤه عليها في جمادى الثاني 813هـ/ سبتمبر 1410م بعد حصار استمر نحو خمسة شهور. وبسبب هذا الانتصار لقب هذا الوصي على العرش بصاحب أنتقيرة (Fernando de Antequera). وفي 834هـ/ 1431م نشبت حرب جديدة بين البلدين، وتوجهت من قشتالة حملة بقيادة الوزير ألبارو دي لونا (Alvaro de Luna)، واقتحم الجيش القشتالي أرض غرناطة ووصل إلى ضواحيها، ودارت هناك معركة حامية تدعى «معركة الشجرة» (La Higueruela) وفيها أحرز القشتاليون نصرًا كبيرًا، غير أنهم لم يستثمروا هذا النصر، إذ انسحبوا بعده إلى بلادهم، وفيما عدا هذين الحدثين ظل السلام سائدًا بين غرناطة وقشتالة طوال أيام خوان الثاني.

يظل الوضع في غرناطة مستقرًا إلى حد ما خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر، غير أن هجمات القشتاليين تزداد ضراوة في عهد إنريكي الرابع (Enrique IV) ابن خوان الثاني (1454م - 1474م) ولا سيما في السنوات الأولى من حكمه، فقد تكررت الحملات القشتالية على غرناطة ما بين 859هـ/ 1455م و861هـ/ 1457م، هذا على حين كانت المنازعات الداخلية والتنافس على العرش بين الأمراء النصريين تتفاقم بشكل خطير، ولعل أخطر ما أصاب غرناطة خلال هذه السنوات هو استيلاء القشتاليين على جبل طارق في رمضان - ذي القعدة 866هـ/ صيف 1462م وبهذا قطع آخر خيط يربط بين إسبانيا الإسلامية وبلاد المغرب العربي التي كانت تأتي منها المعونة لمملكة غرناطة. ولسوء حظ هذه المملكة كانت دولة بني مرين ماضية بسرعة في طريق التفكك والانحلال. وكان الضعف قد أدرك أيضًا مملكة بني عبد الواد في تلمسان والحفصيين في تونس، وبعث الغرناطيون بسفارة إلى مصر تطلب معونة سلاطينها المماليك، ولكن مصر لم تكن بدورها أحسن

حالاً من غـرناطة. أما القوة الإسلامـية الوحيـدة التي كان بوسعهـا أن تقدم المعونة لإسبـانيا الإسلاميـة فهي دولة العثمانيين الفـتية التي كانت قـد فتحت القسطنطينية 857هـ/ 1453م وبرزت على مسرح السياسة بصفتها أعظم القوى الإسلامـية في شرق البـحر المتوسط، ولكن الـعثمـانيين كانوا مشـغولين عن إسبانيا الإسـلامية بفتوحهم لبلاد الإسـلام في المشرق. ويزيد في سوء أحوال غرناطة نشوب الحرب الأهلية بين أمـراء البيت المالك الغرناطي، ففي 878هـ/ 1474م ثار على السلطان سـعـد بن محـمـد بن يوسف ابنه أبو الحـسن علي 865هـ/ 14161م - 887هـ/ 1482م الذي التف به بنو سراج وهم أسـرة نبيلة كان لها نفود كبير في الحياة الـسياسية في غرناطة، وقام أبو الحسن بخلع أبيه ونفيه حـيث توفي في السنة التالية. غير أن الخـلاف نشب بعد ذلك بينه وبين بني سراج، فـأعلن هؤلاء الثورة عليه، ولا سيـما بعد أن هجر زوجـته الحرة ابنة محـمد التاسع آخـر الملوك العظام من بني الأحمـر، وقرب إليه جـاريته «ثريا» التي كانت سـبية مسـيحية. ونادى الثـوار بالإمارة لأخي هذه الـسلطان محمـد بن سعد الملقب بالزغل، وكـانت مالقة مسـرح هذه الثورة. ولكن أبا الحسن عليًـا أحمد تلك الـثورة. وكان بطبـعه محـاربًا جَلْدًا، فاغتنم فـرصة الاضطرابات والثورات الـتي كانت تجتـاح قشتـالة آنذاك لكي يوجه حـملاته الـسنوية إلى أرض قشتالة، وذلك مدة حكم إنريكي الرابع حتى وفاة هذا الملك في 878هـ/ 1474م. ولما كان إنريكي قد توفي بغير ولد يخلفـه فقد اجتمعت إرادة القشتاليين على تنصيب أخته إيزابيل على العرش وكانت قد تزوجت في أكتـوبر 1469م من أميـر أراغون فـرناندو ابن خوان الثـاني. وهو الذي ولي عرش أراغون بعد وفاة أبيه خوان الثاني 1479م. وهكذا يتوحد عرشا قشتالة وأراغون وبهذا التـوحد تلتقي جهـود الدولتين على الإطاحة بما بقي في أيدي المسلمين من مملكة غرناطة.

في هذه الأثناء يشتد الصراع بين أبي الحسن علي وأخيه محمد «الزغل». فيطلب أبو الحسن من ملكي قشتالة وأراغون عقد الهدنة، ولكنهما يشترطان اعترافه بتبعيته لقشتالة، ودفع جزية كبيرة، فيرفض ذلك وتقع على الحدود أحداث تتبادل فيها الدولتان الحملات. وفي محرم 887هـ/ فبراير 1482م يستولي القشتاليون على مدينة الحامة (Alhama) ثم على لوشة (Loja) بعد أشهر. وأثرت هذه الهزائم الشعب على أبي الحسن، ففر إلى مالقة، وأجلس الثوار ابنه أبا عبد الله محمدًا مكانه على العرش في غرناطة. وفي هذه الأثناء استطاع أبو الحسن وأخوه محمد صد هجوم قام به القشتاليون على مالقة وأحرز انتصارًا ساحقًا في معركة «الشرقية» (Ajarquia) لدي جبال مالقة (صفر 888هـ/ مارس 1483م). وأراد أبو عبد الله أن ينافس أباه وعمه في إحراز انتصار مماثل فقاد حملة هاجم بها منطقة قرطبة ولكنه هزم قرب اليساة (Lucena) وحمل أسيرًا إلى فرناندو ملك قشتالة. ورأى هذا أن يتخذه صنيعة له فأطلق سراحه ونصبه أميرًا على وادي آش. وكان فرناندو يرى الاكتفاء بذلك والانصراف عن مواصلة الحرب غير أن زوجته إيزابيل صممت على خوض الحرب حتى النهاية. وفي عام 890هـ/ 1485م احتل أبو عبد الله مدينة المرية ولكنه سرعان ما طرد منها. فهرب إلى قشتالة وفي أثناء ذلك توفي أبو الحسن علي ونودي بأخيه «الزغل» مكانه سلطانًا، إذ إنه كان يمثل أمام الشعب الغرناطي حزب المتشددين المصممين على الحرب. واشتد عنف الحملات القشتالية خلال السنوات (890هـ/ 1485م - 892هـ/ 1487م) وكان هدفها الاستيلاء أولاً على جبال رندة أنشط مراكز المقاومة، ثم مالقة وساحلها وأخيرًا فحص غرناطة (La Vega). وفي يونية 1485م استطاع القشتاليون الاستيلاء على رندة وإسقاط شريطها الساحلي الممتد حتى مالقة. وفي العام التالي اقتحموا فحص غرناطة. وفي السنة نفسها عاد أبو عبد الله إلى المنطقة

الشرقيـة بمعونة القشتاليين. وفي جمـادى الثانية 891هـ/ ربيع 1486م استولى على حي البيازين في غرناطة (Albaicin). وبدأ في التفاوض مع عمه، ويبدو أنه أدرك خطأه فـقرر الاعتـراف بإمارته والانضـمام إلى صفـه لمقاومـة الغزو القشتالي. وأثار ذلك ملك قشتالة فألقى بثقل جيشه كله على فحص غرناطة، وفي ما بين جـمادى الثـانية - رجب 891هـ/ مايو ويـونية 1486م تمكن من الاستيـلاء على لوشة ومقلين (Moclin) ومنتفريد (Montefrio) وقلميرة وعاد إلى أسر أبـي عبد الله من جـديد، وتحرج مـوقف الزغل في الحـمراء. وفي 892هـ/ 1487م اضطر إلى الانسحاب إلى المرية. أما مالقـة فقد تزعم مقاومة الغزو فيها أحمد الثغري. وفي جمادى الثانية - شعبان 892هـ/ صيف 1487م بدأ حصار مالقة التي قاومت ببسالة منقطعـة النظير، واستمر القتال نحو أربعة أشهر حتى هم القـشتاليون بالانسحاب لكثرة خسـائرهم. ولكن الملكة كانت مصممة على استمرار الحرب. وفي محرم 895هـ/ ديسمبر 1489م استسلمت بسطة بعد حصار استمر سـتة أشهر. واضطر الزغل بعد ذلك إلى التسليم بعد أن أحرز شروطًا فيهـا كثير من التساهل. ومع ذلك فقد اسـتمرت المقاومة في غرناطة. وخلال 897هـ/ 1491م كلها كان هم الملكين الكاثوليكيين هو تشديد الحصـار على غرناطة. وفي مـايو بدأ في فحص غـرناطة بناء مدينة شـنتفي (Santa Fé) لكي تكون مـركز القيـادة العامة للقـوات المحاصِـرة. وفي أواخر نوفمبر بدأ أبو عبد الله مفاوضاته السرية للتسليم، وكانت الشروط المتفق عليها متساهلة جدًا مع أهل غرناطة. وفي ليلة 29 صفر 897هـ/ يناير 1492م بدأت قوات الملكين الكاثوليكيين احتلالها لحـمراء غرناطة. ودخلها الملكان أخيرًا في يوم 5 ربيع الأول/ السادس من يناير. وبهـذا سقط المعقل الأخيـر من معاقل الإسلام في إسبـانيا الإسلاميـة، وطويت صفحة من صـفحات التاريخ لـتبدأ إسبانيا مرحلة جديدة من حياتها. وقد اشتملت معاهدة التسليم على ضمانات

كثيرة بتأمين أهل غرناطة في أنفسهم وأموالهم وسائر حقوقهم المادية واحترام شعائرهم، غير أن قدوم الكاردينال فرانسيسكو خيمينث دي ثيسنيروس (Francisco Jinénez de Cisneros) إلى غرناطة في نوفمبر سنة 1499م كان مؤذنًا بنقض كل تلك الشروط نصًا وروحًا. فقد كان هذا القس المتعصب يرى ضرورة إرغام شعب غرناطة المسلم على اعتناق الدين المسيحي. وأدى ذلك إلى اندلاع الثورة في حي البيازين في 18 ديسمبر من هذه السنة، ولكن الثورة لم تزد الكاردينال وسلطات الاحتلال إلا تشددًا وقسوة. واندلعت ثورة أخرى في منطقة البُشَّرات (Las Alpujarras) ولكنها أخمدت بالقسوة نفسها[1].

تفسخ الدولة الإسلامية بعد معركة العقاب:

انهارت سلطة الموحدين في إسبانيا الإسلامية وفي المغرب إثر انكسارهم المريع في معركة العقاب، وآل الملك بعد موت الناصر إلى ابنه القاصر أبي يعقوب يوسف المستنصر بالله، وعمره 11 سنة فقام بأمر الملك أعمامه ووزراؤه؛ وكان في إسبانيا الإسلامية أربعة من هؤلاء الأعمام يحكمون مقاطعاتها، ولم يكن الأخوة متفقين فيما بينهم، ولم تكن سيرتهم في الشعب الذي يحكمونه حسنة، فنقم عليهم وسخط. وعلى الرغم مما كانت عليه الممالك الإسبانية إذ ذاك من تنازع فيما بينها، فإنها استطاعت أن تنتزع من المسلمين كثيرًا من المدن والقلاع، حتى بلغ الأمر بمغامريهم أن وصلوا إلى بسائط إشبيلية وقرمونة، يخربون وينسفون ويأسرون. وفي عام 1224م مات الخليفة الطفل المستنصر غير مخلف عقبًا فقام بأمر الملك في مراكش عم أبيه أبو مالك عبد الواحد.

---

(1) د. محمود مكي، المرجع السابق، ص 135.

خروج إسبانيا الإسلامية من ملك الموحدين:

اشتد التنافس بين أفراد البيت الحاكم الموحدي، وقامت بينهم حروب ومعارك، فطمع مسلمو إسبانيا في الخلاص من حكمهم، وثار في منطقة مرسية أبو عبد الله محمد بن يوسف، سليل بني هود أمراء سرقسطة السابقين، فاستولى على مرسية، ونادى بنفسه أميرًا على المنطقة باسم (المتوكل على الله)، وحاول جمع مسلمي إسبانيا حوله، وتأليبهم معه لقتال الموحدين، ولبس السواد معلنًا الطاعة لبني العباس فأسرعت مدن إسبانيا الإسلامية الكبرى إلى الاعتراف بطاعته، وأعلن الجهاد ضد الإسبان، وسار في عام 1230م، لقتالهم على رأس جيش كبير؛ ولكن ألفونسو ملك ليون هزمه، واستولى على مدينتي ماردة وبطليوس. وعمل ابن هود على إسقاط الخليفة الموحدي المأمون، فخاف هذا، وعقد معاهدة مع ملك قشتالة أمده الملك القشتالي على أثرها باثني عشر ألف رجل جعلهم المأمون حرسًا له في مراكش، فزاد ذلك في نقمة الشعب عليه في إسبانيا الإسلامية وفي المغرب. وبعد وفاة المأمون عام 1232م، استطاع ابن هود السيطرة على معظم مناطق إسبانيا الإسلامية الباقية بيد المسلمين، وأصبح بذلك أقوى أمراء المسلمين في إسبانيا الإسلامية. وكان في إسبانيا الإسلامية بجانب ابن هود أميران آخران موحدان، أحدهما في بلنسية، والآخر في إشبيلية كما كان في جيان أمير غير موحدي، هو محمد بن الأحمر النصري، وكان هؤلاء الأمراء في نزاع مستمر على السلطة. كان أمير بلنسية الموحدي هو أبا عبد الله محمد، فلما تعاظم أمر ابن هود خاف الأمير الموحدي على ملكه منه فلجأ إلى ملك أراغون خايم الأول (جاقمة)، يطلب عونه، ويتعهد بأن يؤدي له الجزية، وأن يكون الأمير الموحدي تابعًا له، فاستاء أهل بلنسية من ذلك، والتفوا حول زعيم منهم يدعى أبا جميل زيان ابن أبي الحملات، سليل آل مردنيش، أمراء بلنسية

السابقين، وطردوا الأمير الموحدي. فلجأ أبو عبد الله إلى خايم يطلب حمايته، ويقال إنه اعتنق النصرانية حسبما رواه ابن خلدون. وفي عام 1237م زحف خايم على بلنسية بجيش ضخم، فاستنجد ابن مردنيش بابن هود، ولكن هذا قتل غيلة في المرية بينما كان يعد جيشًا لنجدة بلنسية، فيئس زيان من العون، وحاول دفع خايم عنه، وعرض عليه أن يتنازل له عن جميع الحصن الواقعة بين طرطوشة وبين نهر الوادي الكبير، ولكن خايم رفض العرض وأصر على فتح بلنسية، وبعد حصار طويل أجهد المسلمين وأتعبهم، اضطر زيان إلى المفاوضة لتسليم المدينة إلى خايم، وتم الاتفاق على الشروط، ووقعت معاهدة التسليم في 28 سبتمبر 1238م (17 صفر 636هـ)، وكان من شروط التسليم: 1 - تستسلم المدينة لملك أراغون، على أن يؤمن أهلها في أنفسهم وأموالهم. 2 - يحق لجميع من يريدون الهجرة إلى المناطق الإسلامية أن يخرجوا من المدينة بجميع أموالهم. 3 - يكفل ملك أراغون للذين يريدون البقاء حريتهم التامة في مزاولة شعائرهم الدينية، والتكلم بلغتهم، والتقاضي لدى قضاتهم بحسب شريعتهم وعاداتهم، ولا يكلفون بدفع ضريبة أكثر مما يدفعه الرعايا الآخرون. 4 - تستسلم لملك أراغون جميع الحصون والمواقع الواقعة على ضفة نهر شقر اليسرى. 5 - وفي نظير ذلك، تقوم هدنة بين خايم وزيان مدتها ثمانية أعوام. وإثر توقيع هذه المعاهدة دخل خايم مدينة بلنسية، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة، وخرج من المدينة قرابة خمسين ألف مسلم. لكن خايم لم يشأ الوفاء بالبند الرابع فقرر متابعة فتوحاته في الأراضي الخاضعة لزيان، ففتح جميع ما كان تابعًا لبلنسية من أرض.

اشتد التنافس بين الأمراء المسلمين بعد مقتل ابن هود، للفوز بما كان تحت يده من أرض، وقد زاد ذلك انقسامهم ومتاعبهم، وتحرك الإسبان يقطفون ثمرات هذه الخلافات بين المسلمين، فبدأت قواعد إسبانيا الإسلامية

الكبرى، ومـواقعهـا الحصينة، تتـساقط بيـد الإسبان: فـسقطت قرطبـة عام 1236م، بعد أن مكثت بـيد المسلمين 525 سنة، فهـجرها أكثـر سكانها. ثم سقطت مرسية عام 1243م. ثم إشبيلية عام 1248م، ولم يبق بيد المسلمين بعد فترة قصيرة غير إمارة غرناطة في أقصى الجنوب[1].

* * *

(1) د. أسعد حواميد، المرجع السابق، ص 122.

بنو نصر أو بنو الأحمر

627 - 897هـ/ 1230 - 1492م

في غرناطة

629هـ/ 1232م محمد الأول الغالب المسمى ابن الأحمر

671هـ/ 1272م محمد الثاني الفقيه

701هـ/ 1302م محمد الثالث المخلوع

708هـ/ 1308م نصر

713هـ/ 1313م إسماعيل الأول

725هـ/ 1325م محمد الرابع

733هـ/ 1333م يوسف الأول

755هـ/ 1354م محمد الخامس الغاني، للمرة الأولى

760هـ/ 1359م إسماعيل الثاني

761هـ/ 1360م محمد السادس

763هـ/ 1362م محمد الخامس، للمرة الثانية

793هـ/ 1391م يوسف الثاني

797هـ/ 1395 محمد السابع المستعين

810هـ/ 1407م يوسف الثالث

820هـ/ 1417م محمد الثامن المتمسك، للمرة الأولى

822هـ/ 1419 محمد التاسع الصغير، للمرة الأولى

831هـ/ 1427م محمد الثامن، للمرة الثانية

833هـ/ 1430م محمد التاسع، للمرة الثانية

835هـ/ 1432م يوسف الرابع

835هـ/ 1432م محمد التاسع، للمرة الثالثة

848هـ/ 1445م محمد العاشر الأحنف، للمرة الأولى

849هـ/ 1445م يوسف الخامس، للمرة الأولى

849هـ/ 1446م محمد العاشر، للمرة الثانية

851هـ/ 1447م محمد التاسع، للمرة الرابعة (854 - 855هـ/ 1451 - 1452م) بالاشتراك مع محمد الحادي عشر

857هـ/ 1453م أو 858هـ/ 1454م سعد المستعين، للمرة الأولى

867هـ/ 1462م يوسف الخامس، للمرة الثانية

867هـ/ 1462م سعد، للمرة الثانية

868هـ/ 1464م علي، للمرة الأولى

887هـ/ 1482م محمد الحادي عشر (بوعبديل) أولاً بمفرده

888هـ/ 1483م علي، للمرة الثانية

890هـ/ 1485م محمد الثاني عشر الزغل

892- 897هـ/ 1487 - 1492م محمد الحادي عشر، للمرة الثانية

الاحتلال الإسباني

* * *

بعد أن ترك الموحدون إسبانيا، لم تلبث الكثير من المدن الإسلامية أن سقطت واحدة بعد الأخرى في يد المسيحيين؛ فسقطت قرطبة في 635هـ/ 1236م، وسقطت إشبيلية في 646هـ/ 1248م. غير أن أحد أمراء المسلمين، وهو محمد الغالب الذي ينحدر من أصل عربي قد تمكن من الاحتفاظ بمنطقة غرناطة الواقعة في منطقة جبلية حصينة، واتخذ من قلعة مدينتها - المعروفة بالحمراء - مركزًا لحكمه، بعد أن قبل بتأدية الجزية لفرديناند الأول ملك قشتالة، ثم وافق على تأديتها بعد ذلك لخلفه ألفونسو العاشر. وقد حاول سلاطنة «بنو نصر» ابتاع سياسة متوازنة في تعاملهم مع المسيحيين من ناحية، ومع «بنو مرين» من ناحية أخرى. وقد كان «بنو مرين» يطمحون إلى استعادة إسبانيا إلى حظيرة الإسلام، غير أن آمال المسلمين في تحقيق فتح مريني ناجح قد تهاوت بهزيمة السلطان أبو الحسن علي على يد الملك ألفونسو الحادي عشر حاكم قشتالة في موقعة «ريو صلادو» عام 741هـ/ 1340م. وقد ظلت غرناطة - رغم موقعها الضعيف - طيلة قرنين ونصف القرن مركزًا للحضارة الإسلامية، يقصدها طلاب العلم والأدب من مختلف أصقاع الغرب الإسلامي. ومن أعلام غرناطة المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون الذي عمل سفيرًا لمحمد السادس، ومن أعلامها أيضًا الوزير لسان الدين الخطيب الذي يعد كتابه: الإحاطة في أخبار غرناطة، واحدًا من أهم المصادر التاريخية، كما استحدثت غرناطة في عهد بني نصر لونًا أدبيًا رئيسًا. غير أن زواج فرديناند الثاني ملك أراجون من إيزابيلا ملكة قشتالة في عام 1469م قد وحّد إسبانيا المسيحية تحت تاج واحد، فبات الأمل واهيًا في بقاء غرناطة مملكة إسلامية. والواقع أن المسلمين هم الذين عجلوا بقرب نهايتهم في إسبانيا حين رفضوا أداء الجزية، وحين انشغلوا بمعاركهم الداخلية حول ولاية الحكم. وفي عام 897هـ/ 1492م، سقطت غرناطة في يد المسيحيين، وفرَّ منها آخر ملوك بني نصر إلى المغرب[1].

---

(1) بوزوث، المرجع السابق، ص 44.

عندما أخذت قواعد إسبانيا الإسلامية الكبرى تتهاوى حاول زعيم عسكري إسباني مسلم يسمى محمد بن يوسف بن هود الجذامي أن يجمع بقايا إسبانيا الإسلامية ويقيم لنفسه دولة، فأدرك بعض التوفيق ولكنه قتل، فنهض زعيم آخر يسمى محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر للقيام بهذه المهمة، وأصله من بلدة صغيرة تسمى أرجونة Argona، على ثلاثين كيلو متراً جنوبي جيان، وقد نجح في ذلك وتجمعت بقايا مقاتلي المسلمين حوله فانتقل إلى جيان ومنها إلى غرناطة، وكانت حصنًا منيعًا على الطرف الغربي لجبال الثلج أو Sierra - Navada وتحصن به آخر رمضان سنة 635هـ/ 1237م. وتلاحقت به الجنود، وتجمع حوله من أراد الهروب من أيدي النصارى من مسلمي إسبانيا، وأيده بعض زعماء الجنوب ومنهم بنو أشقيلولة أصحاب جيان. وهكذا قامت دولة بني نصر، أو بني الأحمر، وهي دولة غرناطة آخر معاقل الإسلام في إسبانيا الإسلامية. وكان محمد بن نصر ابن الأحمر رجلاً ذكيًا نشيطًا عرف كيف يؤسس دولة، وشملت شيئًا فشيئًا كل كورة غرناطة وتسمى أيضًا إلبيرة Elvira باسم بلدة صغيرة مجاورة لها، ثم ضم إليه بسطة Baza ووادي آش Guadix ومالقة Malaga والمرية Almeria وجيان، ثم اضطر إلى التخلي عن هذه الأخيرة، ووجد هذا الرجل أنه من الحكمة أن يدخل في ولاء فرناندو الثالث Fernando III ملك قشتالة وظل على هذا الوضع خلال السنوات الأولى من حكمه ليضمن سلامة دولته. وكانت مملكته التي أنشأها لا تمثل إلا جزءًا صغيرًا من شبه الجزيرة، ولكن نجدات المقاتلين خفت إليها، وهاجر إليها عدد كبير من الصناع والمعلمين فازدحمت بالسكان وعمرت، وتجمع لدى محمد بن نصر ابن الأحمر مال كثير حصَّن به بلاده وسلَّح جيشًا كبيرًا، وإن كان قد اضطر إلى معاونة ملك قشتالة بقوة من جيشه عندما استولى على إشبيلية سنة 1248م. وفي سنة 653هـ/ 1255م كانت قواعد

دولتـه قد اسـتقـرت وضم إليـها الجـزيرة الخضـراء Algeziras وجبل طارق فحصنهما ليضمن لدولته طريـقًا إلى المغرب. وقد حكم محمد بن نصر الذي تلقب بالغالب الله من 629 إلى 671هـ/ 1232 - 1272م وقد عرف خلال هذه السنوات كيف يـضع أساسًا متينًا للدولة وأضاف إليـها لورقـة وعندما توفي فرناندو الثالث عقـد نفس الاتفاق مع خليفته ألفونسـو العاشر الملقب بالعالم Alfonso El Sabio وأصبحت دولة غرناطة وحدة سيـاسية يحسب لها حساب في سياسة مملكة قشتالة، فهي تخـضع لها إذا خافت على نفسها وتخرج عن طاعتها وتحاربهـا إذا آنست منها ضعفًا. والفونسو العاشـر ملك قشتالة وليون هذا سيهرب لاجئًا إلى ابن الأحمر ويطلب عونه ويقبل يده عندما يختلف مع ابنه شانجو الرابع عام 681هـ/ 1282م ويهدد بالعزل عن العرش. وقد عمرت مملكة غرناطة 268 سنة هجرية، فلم تسقط في أيدي مملكة قـشتالة وليون إلا في 2 ربيع الأول 897هـ/ 2 يناير 1492م. وكانت خـلال هذه الفتـرة الطويلة في صراع دائم للمـحافظة على مصيـرها، وقد ابتليت بمتـاعب كبيرة أهمـها الخلافات المتـصلة على العرش والسلطان بين أفراد الأسرة أو منافسـيهم. وقد انتفعت كثيرًا بمعاونة بني مـرين العسكرية، وكان بنو مرين على اهتمام عظيم بأمر الجـهاد في غرناطة. وكانت لهـم قوة دائمة تسمى مـشيخة الغـزاة. وقد حكينا كيف تعاون الجانبان على المحافظة على غرناطة، وكيف انهزم المسلمون آخر الأمـر في موقعـة طريف، وخسرت غـرناطة ثغر طريف، ثم ثغـر جبل طارق فانقطعت صلاتها تمامًا بإفـريقية. وقد حكم من ملوك غرناطة 21 ملكًا لم تطل مـدة الحكم إلا لثلاثة منهم، وأقـدرهم محـمد بن يوسف بن نـصر الغالب بالله مؤسـس الدولة، وأبو عبد الله محمـد الفقيه ابنه، وأكبر ما خلفه لنا بنو نصر هو قصور الحمراء التي تعتبر من أعاظم معالم الفن في إسبانيا بل في أوروبا.

بعد سقوط غرناطة وعقد معاهدة مع فرناندو وإيزابيلا تضمن حرية بقايا المسلمين نسخت تلك العهود واجتهد الأساقفة في تنصير المسلمين الذين عرفوا بعد ذلك بالموريسكيين Los Moriscos أي المسلمين الصغار. وثار المسلمون مرارًا، وصدرت قرارات بتخييرهم بين التنصير أو مغادر البلاد في سنة 1603 ثم 1609م، وبذلك ينتهي التاريخ السياسي للإسلام في شبه الجزيرة. أما الأثر الحضاري فقد ظل قرونًا بعد ذلك، بل ما زالت آثار منه باقية إلى اليوم[1].

انفرط عقد إسبانيا الإسلامية بعنف بعد هزيمة الموحدين في معركة «العقاب» أمام الجيوش الإسبانية والأوروبية المتحالفة، وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، والقواعد تخرج من قبضة الموحدين واحدة بعد الأخرى، ينتزع بعضها ابن هود الثائر وبعضها النصارى وأتاحت هذه الظروف فرصة الظهور والمغامرة للطامحين من القادة والزعماء. في تلك الأثناء ظهر محمد بن يوسف بن نصر أو ابن الأحمر الملقب (الغالب بالله) في وقت اشتدت فيه المحن، وانعقدت عليه الآمال؛ لتميزه بالشجاعة ومجاهدة العدو، والتف حوله الناس وبايعوه في «أرجونة» وما حولها على بعد ثلاثين كيلو مترًا من «جيان» في رمضان (629هـ/ يولية 1232م) وتوافد عليه جنود إسبانيا الإسلامية؛ فأعلن نفسه أميرًا وانتقل إلى «جيان»، ودخلت في طاعته بلاد الجنوب كلها، لكنه أحس أنه في حاجة إلى معقل يعتصم به؛ لأن «جيان» مدينة مكشوفة، فوقع اختياره على غرناطة الواقعة عند سفح جبل الثلج، وكان يوجد في أعلى الجبل حصن منيع سبق تعميره أول عصر ملوك الطوائف، فتوجه إليه وسكنه واستقر به، وشيئًا فشيئًا أخذ يوسع نطاق سلطانه، حتى أصبحت دولته تضم بين جنباتها ثلاث ولايات كبيرة هي: غرناطة والمرية، ومالقة، ووصلت حدودها إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق، واتخذ مدينة

---

(1) د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 190.

غرناطة عاصمة لدولته، وساعد على دعم دولته استيلاؤه على المرية ومالقة لما لهما من أهمية عظيمة في المجالين التجاري والبحري.

واجهت «ابن نصر» بعض المشكلات الداخلية والخارجية، منها: علاقته بأصهاره «بني أشقيولة» الذين عاونوه ثم انقلبوا عليه، ونقص المال الذي كان في أشد الحاجة إليه لتثبيت قواعد سلطانه، ومشكلته مع ملوك النصارى الذين أدركوا خطر دولته الناشئة وأرادوا القضاء عليها، فاضطر إلى أن يعقد معهم معاهدة صلح (643هـ/ 1245م) لمدة عشرين عامًا، وبمقتضاها حكم ابن الأحمر مملكته باسم ملك قشتالة «فرناندو الثالث» ودفع له جزية، ووافق على حضور البلاط القشتالي باعتباره واحدًا من أمراء الملك، وعلى مده بالجنود كلما طلب منه ذلك، وبالفعل أمده ابن الأحمر بقوات ساعدت على سقوط «إشبيلية» في يد النصارى في (3 شعبان 646هـ/ نوفمبر 1248م). وفي جمادى الثانية (671هـ/ ديسمبر 1272م) توفي محمد بن يوسف بن نصير الملقب بالشيخ، وكان قد أخذ البيعة لولده محمد، فأقر بذلك مبدأ الملكية الوراثية، وقد اعتلى محمد الثاني العرش ولقب بالفقيه؛ لاشتغاله بالعلم أيام أبيه، وقال عنه ابن الخطيب: «وهو الذي رتب رسوم الملك للدولة ووضع ألقاب خدمتها، ونظم دواوينها وجبايتها، هذا إلى جانب اعتنائه بالجيش وخاصة فرق الفرسان. . وكان سياسيًا بارزًا. . ، أديبًا عالمًا، يقرض الشعر ويجالس العلماء والأدباء والأطباء والمنجمين والحكماء، والكُتَّاب والشعراء». وقد واجه الأمير الجديد ثلاث مشكلات هي: مشكلته مع الإسبان، وقد نجح في تحقيق انتصارات عليهم منتهزًا فرصة موت مليكهم، ومع المرينيين الذين استنصر بهم ليعاونوه في الجهاد ضد المسيحيين فإذا بهم يطمعون في الاستيلاء على إسبانيا الإسلامية، الشيء الذي دفعه إلى التحالف مع ملك أراجون تارة ومع ملك قشتالة تارة أخرى لدرء خطر المرينيين، وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين

غرناطة وفاس، فإن الفقيه لم يكن يطمئن إلى نياتهم، وقد دفعهم ذلك إلى التحالف مع النصارى مرات، وأخيرًا كانت هناك مشكلة مع أصهار أبيه «بني أشقيلولة» التي اشتدت في زمنه، وانتهت بصدور أمر يقضي بتهجيرهم إلى مدينة القصر الكبير بشمالي المغرب جنوب مدينة سبتة (687هـ). على كل حال فقد توفي محمد الفقيه في (شعبان 701هـ/ إبريل 1302م) بعد أن نجح في دعم دولته داخليًا وخارجيًا. تولى الأمر بعد محمد الفقيه ابنه أبو عبد الله محمد، وفي عهده تحالف ملكا قشتالة وأراجون على غزو مملكة غرناطة برًا وبحرًا، ولكن «المرية» تمكنت من الصمود في مواجهة أقصى هجوم عرفته في تاريخها وتمكن جيشها بقيادة شيخ الغزاة «عثمان بن أبي العلاء» من هزيمة جيش أراجون، لكن العلاقة ساءت بين غرناطة وفاس، وقام صاحب مالقة بثورة عارمة ضد الحكومة المركزية، وكانت فتنة وقتال وحرب وهدنة استمرت أعوامًا ولم تنته إلا بموت الأمير. ثم تولى أبو الوليد إسماعيل بن فرج (713هـ/ 1313م)، الذي اشتهر بإقامة الحدود وتطبيق الشرع، وفي عهده قام القشتاليون بهجوم ضخم على غرناطة، انتهى بمقتل أميري الجيش النصراني في مروج غرناطة، وانتهز الأمير فرصة منازعات بين أمراء قشتالة واستولى على بعض المدن القشتالية ومنها مدينة «أشكر»، وقد استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة عند منازلتهم لها. ثم تولى أبو عبد الله محمد الرابع بن إسماعيل (725هـ/ 1325م) الذي اشتهر بالشجاعة كما كان مغرمًا بالصيد محبًا للأدب والشعر، وفي عهده قامت بعض الفتن الداخلية التي انتهزها النصارى واستولوا على عدد من الحصون، كما أحرز أسطولهم نصرًا على الأسطول الإسلامي في المرية ومالقة.

دفع هذا السلطان أن يعبر بنفسه إلى المغرب ليستنجد ببني مرين الذين أجابوه إلى ما طلب، ونزلت قوات المرينيين على جبل الفتح وأمكنها

الاستيلاء عليه عام (733هـ/ 1333م)، ولكن السلطان قتل في طريق عودته إلى غرناطة وتولى من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الأول. وشهدت مملكة غرناطة في عهده عصرها الذهبي، فأنشئت المدرسة اليوسفية والنصيرية، وجرى الاهتمام بتحصين البلاد، وإنشاء المصانع، وإقامة الحصون، وبناء السور العظيم حول ربض البيازين في غرناطة، وأضيفت منشآت كثيرة إلى قصر الحمراء منها باب الشريعة وغيره، وكان السلطان حريصًا على تفقد أحوال شعبه بنفسه. يرجع نسب بني الأحمر، أو بني نصر، إلا سلالة عربية نبيلة، استقرت في الجنوب من شبه الجزيرة. وقد ولد محمد بن الأحمر النصري - مؤسس الدولة - في مدينة أرجونة، وكان متصرفًا إلى الزراعة والعناية بأملاكه؛ وحينما ساد الاضطراب أرجاء الأندلس، في أواخر عهد الموحدين، اهتم بشؤون الحرب، واشترك في مجاهدة الإسبان. وأظهر من الجرأة والشجاعة، وسداد الرأي، ما لفت الأنظار إليه فاختاره أصحابه سيدًا لأرجونة وما جاورها. واستطاع أن يدعم سلطانه بسرعة، برغم هجمات ابن هود عليه. ولما قتل ابن هود، تمكن ابن الأحمر من بسط سلطانه على جزء من الأراضي الخاضعة لابن هود، واتخذ غرناطة قاعدة له. وفي ذلك الحين كانت أعداد كبيرة من المسلمين تنزح من المناطق التي احتلها الإسبان، أو أخذوا في تهديدها. ولم يكن أمام هؤلاء النازحين غير مملكة ابن الأحمر مكان يلجؤون إليه، فتدفقت ألوف من أولئك النازحين من أرباب العلم والحرف والصناعات، ورجال السيف، على منطقة غرناطة، فعمر بهم ابن الأحمر مملكته، واتخذ منهم جيشًا يقف معه في وجه التهديد الإسباني. وكان أول نصر حققه ابن الأحمر على الإسبان عام 636هـ/ 1238م، حينما هاجم الإسبان حصن مرطوس، فتصدى لهم ابن الأحمر وهزمهم هزيمة منكرة، فارتفع شأنه في أعين مواطنيه، وأخذ مسلمو المناطق الأخرى ينظرون إليه

كآخر أمل لهم في السلامة. ومن الأحداث العظام في عهده: الوباء الأسود الذي تفشى في حوض البحر الأبيض المتوسط عامي (749 - 750هـ/ 1348 - 1349م)، وشمل المشرق والمغرب، وراح ضحيته عدد عظيم من علماء إسبانيا الإسلامية ورجال الدين والأدب والسياسة فيها. وعلى الرغم من قيام أبي الحجاج بعقد سلام مع ملك قشتالة عام (734هـ/ 1334م) فإنه - سرعان - ما تحطم وبدأ - صراع بين غرناطة والمغرب من ناحية، وقشتالة تساندها أراجون والبرتغال من ناحية أخرى حول السيطرة على جبل طارق، وبعد معارك انتهى الأمر بين كل الأطراف بعقد معاهدة مدتها عشر سنوات، وتوفي يوسف الأول قتيلاً في (أول شوال 755هـ/ سبتمبر 1357م)، وتولى ابنه محمد الخامس الغني بالله، وحدث صراع وتحالف بين هذا الطرف أو ذاك وبين ملوك النصارى، وانتهت هذه المرحلة بعقد صلح دائم بين قشتالة وأراجون وغرناطة والمغرب عام (771هـ/ 1370م)، ثم توفي السلطان محمد الخامس الذي كان ملك البرتغال وسلطان بني مرين قد ساعداه على استرداد ملكه، وبعده تعاقب على عرش غرناطة عدد من السلاطين الضعاف وتعرض المملكة لكثير من الفتن والدسائس والمؤامرت وجرت اتصالات وتحالفات مع ملوك النصارى، وبلغ الاضطراب حداً تعاقب معه على مملكة غرناطة اثنا عشر سلطانًا خلال القرن (9 هـ/ 15م)، تولى بعضهم أكثر من مرة، فشهدت غرناطة اعتلاء عشرين سلطانًا على عرشها. حدث هذا في الوقت الذي شهدت إسبانيا المسيحية نهضة حربية وسياسية توجت بزواج «فرناندو الثالث» ملك أراجون من «إيزابيلا» ملكة قشتالة، واتحدت الدولتان في مملكة واحدة عام (874هـ/ 1469م) بعد طول نزاع وحروب، وكان ذلك بداية النهاية لمملكة غرناطة الإسلامية التي استمر بقاؤها معتمدًا - على حد كبير - على استغلال النزاع بين هاتين المملكتين، وبدأ الملكان الكاثوليكيان يعملان على إنهاء

الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة، وعرف ذلك سلطان غرناطة فامتنع عن دفع الجزية لقشتالة وبدأ النزاع بين الجانبين، وتمكن النصارى من الاستيلاء على حصن «الحمة» عام (887هـ/ 1482م). وزاد من سوء الموقف اشتعال الحروب الأهلية بين أفراد البيت الحاكم؛ فقد هجر السلطان أبا الحسن علي ولداه «أبو عبد الله محمد» و«يوسف» وأعلنا الثورة على والديهما بسبب خضوعه لسيطرة زوجته الرومية الأصل وإهماله أمهما، وقد قامت حروب بين الفريقين، أسفرت على طرد السلطان أبي الحسن الذي لجأ إلى مدينة بسطة، كما قتل ابنه يوسف وتولى ابنه أبو عبد الله على مملكة غرناطة، وقد تعرض السلطان الجديد لهزيمة على يد النصارى وأسروه ثم أطلقوا سراحه بعد أن أملوا عليه شروطهم، وواصل السلطان الجديد الحرب ضد والده الذي سرعان ما توفي وخلفه أخوه أبو عبد الله محمد الملقب بالزغل. انتهز النصارى فرصة هذه الفتن واستولوا على بعض المدن، وبعثوا إلى الزغل يعرضون تسليم ما معه من أراضٍ مقابل مال كثير فوافق ورحل إلى فاس، وهناك وضعه سلطان المغرب في السجن وصادر أمواله وسمل عينيه. وقد لجأت مملكة غرناطة في السنوات الأخيرة من عمرها إلى السلطات الحاكمة في مصر تطلب نجدتها، ولكن مصر المملوكية آنئذٍ لم يكن في مقدورها أن تفعل شيئًا بسبب ظروفها الداخلية، وكل ما استطاعته هو التهديد بمعاملة المسيحيين في المشرق معاملة سيئة إذا ما تعرض المسلمون في إسبانيا الإسلامية للإهانة، وقد أرسل الملكان المسيحيان سفارة إلى السلطان «قانصوة الغوري» عام (907هـ/ 1501م) طمأنته على وضع المسلمين وأزالت التوتر بين الجانبين.

التقت قوات غرناطة والمرينيين وحاربوا قوات قشتالة وليون عند «استجة» جنوبي قرطبة سنة (647هـ/ 1249م)، وتحمس المسلمون حماسًا عظيمًا ومزقوا قوات قشتالة شر ممزق، واضطر «ألفونسو العاشر» إلى طلب

الصلح، وحدث لقاء مماثل قرب غرناطة عام (817هـ/ 1318م) اتحد فيه المسلمون فحققوا نصرًا مؤزرًا، وهذا يعني أن قوة المسلمين في إسبانيا الإسلامية كانت لا تزل تستطيع الدفاع عن نفسها ودحر عدوها إذا وحدت صفوفها وأدركت أهمية معاركها، ووعت جيدًا دورها في مواجهة الأعداء وتثبيت أقدام المسلمين في أرض إسبانيا الإسلامية لكن النفور بين المرينيين وبين بني نصر كان أكثر أذى وأشد وطأة من خلافهم مع النصارى. وبقي عبد الله في الميدان وحده وقد رفض تسليم غرناطة وصمم على القتال، وفي عام (896هـ/ 1491م) قام الملك «فرناندو» بحصار غرناطة وأفسد زراعتها وأقام حولها القواعد، ثم توصل الطرفان إلى معاهدة التسليم، ودخل الملكان الكاثوليكيان مدينة غرناطة في (الثاني من ربيع الأول 897هـ/ الثاني من يناير 1492م).

اتفاق ابن الأحمر مع ملك قشتالة:

وفي عام 1245م، هاجم الإسبان حصن جيان، وحاصروه واستولوا على جميع الحصون والمواقع المحيطة به. ولم يكن في جيان كميات كافية من المؤن، فأسرع ابن الأحمر لدفع الإسبان عن المدينة، لكن الإسبان هزموه، وتابعوا حصار جيان. وخاف ابن الأحمر أن تسقط جيان بيد الإسبان، فيجر سقوطها سقوط العديد من القلاع والحصون الأخرى، فقرر أن يقوم بمحاولة لعلها تنقذه، فسار بنفسه إلى معسكر ملك قشتالة، وعرَّفه بنفسه وأعلن له طاعته، فدهش فرناندو لجرأة ابن الأحمر وعانقه، وعقد معه اتفاقًا كان من بنوده:

أ - يحتفظ أمير غرناطة بما تحت يده من المدن والحصون. ب - يؤدي أمير غرناطة لملك قشتالة جزية سنوية مقدارها 50 ألف مثقالاً من الذهب.

جـ - يتعهد ابن الأحمر بأن يسرع بقواته لعون ملك قشتالة، كلما طلب منه ذلك، سواء كان ذاك لمحاربة المسلمين أو النصارى. د - يتعهد ابن الأحمر بأن يحضر اجتماعات مجلس التاج (الكورتس)، كبقية الأمراء التابعين للعرش. هـ - يسلم ابن الأحمر قلعة جيان للملك فرناندو رهنًا وتوثيقًا للعهد. و - يمتنع ملك قشتالة عن الاعتداء على الأراضي التابعة لمملكة غرناطة.

وبعد هذه المعاهدة، عاد ابن الأحمر إلى غرناطة، ودخل فرناندو جيان، في إبريل 643هـ/ 1246م وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة. وأقام في قلعتها حامية قشتالية قوية. ومنذ ذلك اليوم استقر ملك بني الأحمر في جنوبي إسبانيا الإسلامية، وبدأ عهد دولتهم التي امتد حكمها حتى سقوط غرناطة في 1492/1/2م. وأخذت شكلها التاريخي. وكان طول هذه المملكة من الشرق إلى الغرب حوالي 200 كيلو متر. أما عمقها من البحر، فقد كان في الغرب قرابة مئة كيلو متر، بينما يبلغ في الشرق حوالي مئتين. أما أهم المدن في هذه المملكة فهي: غرناطة والمرية ومالقة، ورونده وبسطة ولوشة. وكانت تغطي أرض المملكة سلسلة من الحصون والقلاع الحصينة، التي توفر حماية كافية، وتؤمن عمليات الدفاع عنها. وتجعل حركة الجيوش العدوة أمرًا صعبًا. يعتبر المؤرخون الأجانب، أن الملك فرناندو هو المؤسس الحقيقي لمملكة غرناطة لأنه اتفق مع ابن الأحمر، ويسّر له الوقت والحماية الكافيين، لتوطيد دعائم ملكه، ويعللون تصرف الملك القشتالي بعدد من الدوافع والأسباب الخاصة ومنها:

1 - مهد هذا الاعتراف بابن الأحمر، السبيل أمام النصارى للسيطرة الكاملة على المناطق الإسلامية الأخرى، الواقعة خارج غرناطة. وفي الواقع

فإن القشتاليين أفادوا من تحالفهم مع ابن الأحمر فوائد جلى، إذ تدخل ابن الأحمر في كثير من الحالات التي استعصى فيها على القشتاليين التغلب على الحصون، وخاصة إشبيلية، فكان يقنع المسلمين بعدم جدوى المقاومة، ويتوسط بين الجانبين، ليحصل المسلمون على أفضل شروط الاستسلام. 2 - إن التنافس الشديد بين مملكتي أراغون وقشتالة، والتسابق بينهما إلى افتتاح الأراضي الإسلامية، جعل ملك قشتالة يفضل محالفة ابن الأحمر، ليعجل بذلك افتتاح الأراضي الإسلامية الباقية، إذ كانت هذه المناطق تفضل الاستسلام لحليف ابن الأحمر، لقاء حصولها على شروط معقولة. 3 - خاف فرناندو أن يحمل اليأس المسلمين على الاستماتة في المقاومة، لذلك فضَّل أن يكون للمسلمين منطقة يمكنهم اللجوء إليها، وبذلك تسهل مهمة الفتح. 4 - أصبحت غرناطة تعج بعشرات الألوف من المحاربين الأشداء، الذين نزحوا إليها من جميع المناطق فلم يكن من العقل خوض معركة مع هذه الألوف المدربة من الرجال الأشداء. الذين يضطرمون حقدًا على الإسبان وغيظًا منهم.

وأيًا ما كانت الأسباب التي أدت إلى قيام مملكة غرناطة واستقرارها فإن ملك قشتالة وجد من مصلحته أن تكون المملكة الجديدة حليفة له، تؤيده في التنافس القائم بينه وبين ملك أراغون. ولا شك في أن المسلمين أفادوا من هذا التحالف أيضًا إذ مكنهم من تدعيم ملكهم، وإرساء أسسه، وبناء دولة قوية قاومت الأحداث قرابة قرنين ونصف القرن.

ولا شك في أن مملكة غرناطة تمكنت من مقاومة هجمات أعدائها الشماليين بفضل توافر ثلاثة عوامل أساسية، فلما فقدت هذه الأسباب انهارت، وانهار معها آخر معقل عربي في شبه الجزيرة. وهذه العوامل هي:

أ - تماسك الجبـهة الداخلية في مملكة غـرناطة، وتصميم رجـالها على الموت في الدفاع عن أرضـهم. ولكن هذه الوحدة الوطنية تصـدعت في آخر عهد المملكة، وبدأ هذا التصدع بتفسخ البيت النصري المالك، فسرى الانقسام إلى الشعب، وأخذ يضرب بعضهم بعـضًا. ب - تنازع الممالك النصرانية في الشمال، وتنافسها، وقـد كان لذلك أثر واضح في بقاء مملكة غرناطة إذ حال هذا النزاع دون اتخاذ تدبير مـوحد مخلص ضد المسلمين. ولكن حـينما اتحد تاجا قشـتالة وأراغون، بزواج وارث عرش أراغـون بوارثة عرش قشتـالة عام 1469م، زال التنافس، ووحدت المملكتـان خطتهما للانتهـاء من وجود الجيب الإسلامي. جـ - تفاهم البيت النصـري مع سلاطين المغرب، من بني مرين، وتعاون البيتين تعاونًا مخلصًا ضد نصارى إسبانيا. وقد كان لجهود سلاطين آل مرين، وللمـجاهدين المغاربة، أكـبر الفضل في دفع شـر الطامعين في أرض غرناطة.

ولكن بني مـرين عـانوا محنة شـديدة، أولاً بانهـزامـهم أمام القـوات النصـرانية المؤتلفـة، وتحطم أسطولهم تحطمًـا تامًا. ثم باضطراب أمـرهم في المغرب نفسه، الأمـر الذي صرفهم عن إنجاد إسبانيـا الإسلامية. فكان لذلك أبعد الأثر في تقرير المصير المحزن، للـحكم العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبـيرية. ارتقت الملكة إيزابـيل عرش قـشتـالة، وكانت قـد اقتـرنت بملك صقلية، فـرناندو دوك مونت بلان الوارث الشرعي لعـرش أراغون، وسـارت الأمور بينهمـا سيرًا حسنًا، في بادئ الأمـر، ثم حدث خلاف بين الزوجين، حول ممارسـة صلاحيـات الحكم. ولكن رُئي، حسمًـا لهذا الخلاف، تقـسيم الصلاحيـات بينهما، فاكـتسبت الملكة محبـة زوجها وثقتـه. ولتصرف الملكة أنظار الناس عن الفوضى والفساد في مملكتها، وجدت أن أفضل وسيلة لذلك هي إشغالهم بمحاربة المسلمين في مملكة غرناطة، إذ كانت تطمع في أن يقترن

اسمها في التاريخ، بإخراج المسلمين من إسبانيا. ولكن كانت تقوم في وجهها صعوبتان، دون تحقيق هذه الأمنية الغالية عليها:

1 - وجود معاهدة بين مملكتي قشتالة وغرناطة. وقد جددت هذه المعاهدة عام 1478م، بين الملكة، وبين مولاي أبي الحسن ملك غرناطة. وقد أدخل في هذه المعاهدة بند يسمح لكل من الجانبين بالقيام بالغارات، ومهاجمة الحصون الواقعة على الحدود، بشرط أن لا يكون مع المهاجمين مدافع، وبشرط أن لا يدوم حصار حصن من الحصون أكثر من ثلاثة أيام. 2 - حالة المملكة الاقتصادية والمالية لم تكن تسمح بشن الحروب واحتمال نفقاتها. كما كان الملك يعارض في إشغال نفسه في حرب قد تكون طويلة الأمد، تهم مملكة قشتالة وحدها. ولكن الظروف المواتية لتحقيق مطامع الملكة، ما لبثت أن توافرت، فأشعلت الشرارة الأولى لنيران الحرب.

فاجأ مولاي أبو الحسن، حصن الصخرة الواقع في الجهة الغربية على حدود مملكة غرناطة - ليل 26 - 27 ديسمبر 1480م - وتمكن خلال وقت قصير من القضاء على مقاومة حاميته وأسر من تبقى حيًا من رجال الحامية، ومن كان في الحصن من سكان، فكانوا حوالي 1060 شخصًا. تعالت صيحات الإسبان، وأرسلت الملكة إلى أبي الحسن تطالبه بإعادة الحصن، والتعويض عن الأضرار التي ألحقها بالحامية والسكان. ولكن أبا الحسن، رد بأن معاهدة عام 1478م تسمح بما قام به. فسكتت الملكة على مضض. وأردك أبو الحس أن الحرب لا بد واقعة، فانصرف إلى الاستعداد. أخذ الإسبان يتحينون الفرص للانتقام لما حل بهم في حصن الصخرة. وبدأوا يتجسسون على الحصون الإسلامية لمعرفة أوضاعها، وقوة حامياتها، ليضربوا ضربتهم. وفي أوائل عام 1482م، علم مركيز قادس (رودريكو بونسه دوليون)، من

جواسيسه أن حصن الحامة الواقع جنوبي غربي غرناطة سيئ الحراسة، وأن مباغتته ممكنة. فأرسل شخصًا من قبله يستطلع حقيقة الأمر. وعاد الرسول يؤكد له أقوال الجواسيس. وبعد أن اتصل بحكم مقاطعة الأندلس في إشبيلية، جمع حوالي 7000 رجل وسار بهم في طرق ملتوية بعيدة عن الأنظار. وعند منتصف ليل 27/26 فبراير 1482م، انقض على حامية الحصن، والتحم معها في عراك دام طوال الليل واليوم التالي كله. ولكن الحصن لم تكن فيه قوة كبيرة، إذ كان جميع من فيه 600 عائلة مجموع أفرادها 3800 شخص. فانتهت المعركة مساء اليوم التالي، بعد أن قتل من رجال الحامية 800 رجل، وأسر من تبقى في الحصن من الرجال والنساء والأطفال. ولما اتصل نبأ الهجوم الإسباني بأبي الحسن، أسرع على رأس من تجمع لديه من الرجال آملا أن يصل في الوقت المناسب فيدفع الإسبان عن الحصن، ريثما تكون بقية قواته قد تجمعت والتحقت به. ولكن أبا الحسن لم يصل إلا بعد سقوط الحامة، فشن هجمات على الإسبان في الحصن لاستعادته فلم يوفق. فانسحب ليجمع القوات، وبعد قليل عاد على رأس خمسة عشر ألف جندي وعدد من المدافع، وهاجم الحصن بعنف بالغ، فصمدت له الحامية الإسبانية، وأرسلت تستنجد بإشبيلية فأسرع الملك فرناندو بالاستعداد للسير بنفسه، وأرسل من إشبيلية قوة قوامها 45 ألف رجل بقيادة دوك مدينة شذونة (إنريك جوسمان). ولما رأى أبو الحسن القوات الإسبانية تقترب من ميدان المعركة انسحب. ولكن أبا الحسن ما كان يطيق أن يترك هذه الحربة مغروسة في جنب غرناطة، فأصبح همه استعادة الحامة كما أصبح هم الإسبان الاحتفاظ بها والدفاع عنها، وتقوية حصونها وحاميتها ومدها بالمؤن والسلاح. وهكذا اصبحت الحرب محتومة بين الجانبين[1].

(1) د. أسعد حوامد، المرجع السابق، ص 128.

الخلاف في البيت النصري:

كانت مملكة غرناطة تعتمد في دفاعها حتى ذلك الحين على العنصرين الهامين التاليين:

1 - وجود عدد كبير من الحصون والقلاع الحصينة التي تغطي المملكة، وتجعل تقدم العدو في أرضها أمرًا بالغ الصعوبة. ولكن أسوار هذه الحصون، التي كانت قادرة على مقاومة هجمات العدو في الماضي، أصبحت أضعف من أن تحتمل هجمات المدفعية، التي أخذت تظهر في الحروب سلاحًا ناجعًا لقهر الحصون. 2 - وجود جيش قوي ومتمرس بالحروب، أصبح فرسانه مضربًا للمثل في الشجاعة والشهامة والتقاليد الحميدة. وقد وصف أحد الكتاب جيش غرناطة بعبارات مثيرة، حين قال:

(إن جميع عرب غرناطة قد تمرسوا بالحروب، وتدربوا على السلاح، وكانوا يمتازون في الحملات الصغيرة، (إذ كانت صدمتهم الأولى لا تقاوم. وكانوا ميالين إلى إقامة الكمائن، ويبحثون عن الملاجئ، وراء الأسوار والجدران، ويتراجعون أمام حصار طويل، ويتفرقون بعد أيام من المسير). وكان لغرناطة في الماضي أسطول قوي، ولكنه أصبح مهملاً فضعف شأنه مع تمادي الأيام. ولكن هذين العاملين فقدا أهميتهما: الحصون فقدت أهميتها أمام المدفع، والجيش ضعف بالانقسام على نفسه نتيجة للانقسام الذي حدث في البيت الحاكم، في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ العرب في إسبانيا الإسلامية. بدأ الخلاف في البيت النصري بين زوجة السلطان أبي الحسن، ستي عائشة (وتعرف بالحرة) وبين محظيته الإسبانية الأصل ثريا (وكان اسمها إيزابيل دوسوليس). فقد كان السلطان متزوجًا من عائشة وانجبت له ابنه ولي عهده أبا عبد الله الصغير. ثم وقعت في يده فتاة إسبانية، من أسرة نبيلة

اسمها إيزابيل دوسوليس، فأسلمت وتسمت باسم ثريا، فسيطرت بدلالها وجمالها على الملك الشيخ، وأنجبت له عددًا من الأبناء. ثم أخذت تسعى لتجعل ابنها الأكبر وليًا لعهد أبيه بدلاً من أبي عبد الله الصغير. ولتنجح في مسعاها، عملت على تحريض الملك على ابنه الصغير وأمه عائشة. وسرعان ما بدأ الصراع بين المرأتين، وأخذت كل منهما تجمع حولها الأنصار والمؤيدين حتى أصبح الصراع مكشوفًا بينهما حينما كان أبو الحسن يهاجم حصن الحامة في ربيع عام 1483م، فاضطر أبو الحسن للعودة إلى غرناطة لحسم الخلاف. وسجن عائشة وابنها. ولما عاد أبو الحسن لمتابعة حصار الحامة، تمكنت عائشة من اغتنام الفرصة وإطلاق سراح ولدها، فما لبث الصغير أن أعلن الثورة على أبيه، ولم يسمح له بدخول غرناطة، فلجأ أبو الحسن إلى حاكم المرية، وهناك جمع قوة ضمها إلى جيشه وسار إلى غرناطة فدخلها. وانحاز ابنه بمن معه من الرجال إلى حي البيازين، واستمرت الحرب بينهما وقتًا طويلاً.

وجدت الملكة الإسبانية هذه الفرصة ذهبية لا يمكن تفويتها، ورجت زوجها أن ينضم إليها في تنفيذ المخططات التي كانت تحلم بها منذ زمن بعيد. وأعلمته بأنها ستعمل على توفير المال اللازم لسد نفقات الحرب من المصادر التالية:

أ - ستفرض ضريبة استثنائية على المدجنين، ومقدارها دوكًا واحدة على كل رأس. ب - ستحمل محاكم التفتيش على أن تدفع لخزينة الدولة مجموع الغرامات والمصادرات التي ستقضي بها. جـ - ستتدخل لدى البابا، ليحمل الكنيسة على أن تتنازل لخزانة إسبانيا، عن ثلث حصتها من العشر.

فقبل الملك رجاء الملكة، وأخذا يعملان مع البابوية من أجل حصة الكنيسة، ومن أجل إعلان الحرب التي يريدان شنها على المسلمين، حربًا

صليبية مقدسة. ونجحا في المسعيين، إذ أصدرت البابوية نداء لمساعدة الملكين الإسبانيين في حربهما المقدسة ضد المسلمين. وأصدرت صكوك غفران بيعت في جميع أنحاء إسبانيا، وكانت حصيلتها شيئًا كثيرًا. أما ثلث العشر الكنسي فكانت حصيلته حوالي مئة ألف فلوران. تقدم فرناندو على رأس قواته إلى حصن لوشة، فحاصره في 5 يولية 1483م، واستمر في حصاره حتى 14 منه، لكنه أخفق في الاستيلاء عليه، إذ أسرع أبو الحسن إلى إنجاد الحصن، فخرج من غرناطة تاركًا الصراع مع ابنه واتجه بقواته إلى لوشة، مقدرًا بأنه إذا انتصر على الإسبان، فإن الشعب سينحاز إليه. فاضطر فرناندو إلى الانسحاب. ولما انسحب انقض أبو الحسن على الحصن الإسباني (كافيت لا ريال)، واستولى عليه في أغسطس. لكنه لما رجع إلى غرناطة، وجد أن الشعب كله ناقم عليه، وأنه انحاز إلى ابنه أبي عبد الله. وأن وزيره يوسف بن كماشة، استولى في غيابه على قصر الحمراء، فلم يشأ الملك أن يضيع جهوده في قتال ابنه، في وقت يظهر فيه خطر الإسبان ملحًا. فسار إلى مالقة، حيث كان أخوه أبو عبد الله الزغل، يتولى حكمها باسمه. وهكذا أصبح في مملكة غرناطة الصغيرة ملكان يتنازعان الملك، ويجران الشعب معهما إلى الانقسام والاقتتال، في الوقت الذي اتحدت فيه جميع القوى النصرانية في إسبانيا على قتالهما، وسحقهما. في أواسط مارس 1483م سار مركيز قادس على رأس قوة مؤلفة من أربعة آلاف رجل، لتخريب بسائط مالقة، والاستيلاء على الحاصلات التي تتمون بها المدينة. فسرع أبو الحسن على رأس 500 فارس لمقاومة الإسبان، وتمكن من القضاء عليهم، رغم قلة عدد رجاله، وعاد فرسانه إلى مالقة يحملون قرابة ألف رأس من رءوس القتلى، ويجرون وراءهم 900 أسير منهم 250 نبيلاً، وكان دخول أبي الحسن مالقة يومًا مشهودًا، تردد صداه في جميع أرجاء إسبانيا الإسلامية. شعر أبو عبد الله

بضعف مركزه تجاه النصر الذي حققه أبوه، فأراد أن يقوم بعمل بطولي يضمن له استمرار تأييد الشعب الغرنـاطي. فأعد للجهاد عدته، وخرج في 20 إبريل 1483م، على رأس 18000 رجل متجـهًا إلى حصن (اللسانة) ليبـاغته. ولكن قادة الحصون الإسـبان كانوا يقظين، فأعلنت إشارات التحـذير والاستغاثة في جمـيع المناطق بواسطة إشعال النيـران علي رءوس الجبال، واخـذت الكتائب الإسبانيـة تتجمع للدفاع عن الحصن. وشـعر أبو عبد الله وكبـار قادته بفشل خطتـهم، وبخطر اندفـاعهم في أرض العـدو، فـقرروا الانسـحاب. وعـاد الغرناطيون بانتظام. ولكن الإسبان انقـضوا عليهم في الطريق فوقع الخلل في صفوف المسلمين، وتدافـعوا منهزمين. ولما وصل أبو عبد الله إلى سـاقية كان عليـه اجتـيازها سـقط حصانـه، ولم ينتبـه رجاله إلى ملكهم، فـاضطر إلى الاختباء، بعـد أن قتل حصانه. ولكن جنديين إسبانيين عثرا علـيه، واستاقاه إلى (كونت قبر) الذي أعلم الملك بأسره فأسرع بالسفر إلى قرطبة حيث حمل إليه أبو عبد الله. وأخذ في مفاوضـته لإطلاق سراحه. وتقول الرواية الغربية أن الملكة التي يكمن في أعـماقهـا كره رهيب للعرب والمسلـمين، كانت تريد استبقاء أبي عبد الله في أسرها، لتتلذذ برؤية أمير مسلم تحت سلطانها، ولكن فرناندو البعـيد النظر كان يريد إطلاق سراحــه ليحقق أغراضــه، بدوام تقسيم المملكة المسلمة، واسـتمرار ضعفـها. وأسفرت المفاوضـات بين فرناندو وبين الصغير عن اتفاق على إطلاق سراح الصغير بالشروط التالية:

1 - يعلن أبو عبد الله تبعيته لملك إسبانيا. 2 - يتنازل عن الحصون التي يستولي عليـها القشتالـيون، مما تحت يد أبي الحسن. 3 - يتعهد الـصغير بأن يسمح للـجيش القشـتالي بالمرور في الأراضي الخـاضعة له كلمـا طلب الملك القشـتالي ذلك. 4 - يطلق خلال خـمس سنوات سراح 700 أسير، ممن هم تحت يده، على أن يختار ملك قـشتالة 300 منهم. 5 - وتحقيقًـا للوفاء بهذه

الشروط، يسلم أبو عبد الله ابنه البكر، و12 شخصًا من كبار رجال دولته ليبقوا رهائن بيد ملك قشتالة. 6 - يدفع أبو عبد الله فدية مقدارها 14000 دينار من الذهب.

لما علم أبو الحسن بأسر بنه، أسرع فورًا إلى غرناطة ودخلها، وخاف ملك قشتالة من عواقب عودة وحدة المملكة الإسلامية، فأسرع بإطلاق سراح أبي عبد الله الصغير، وأعلن عن منحه هدنة مدتها سنتان لكل مدينة تعلن ولاءها للملك الشاب. فاضطر ذلك المدن التي خضعت في الماضي لأبي عبد الله إلى التردد في إعلان انضوائها تحت علم أبي الحسن. وبالتالي فإنه جعل أمر توحيد أجزاء المملكة مرة أخرى شيئًا صعبًا.

أطلق الملكان سراح أبي عبد الله فسار إلى غرناطة، وحاولت والدته تسهيل أمر إدخاله إلى حي البيازين، لكنه بعد أن حارب أباه أيامًا اضطر إلى الانسحاب إلى المرية، واتخذها قاعدة له. وشرع يهاجم منها المناطق الخاضعة لأبيه، ويعيث فيها فسادًا وتخريبًا. وأراد فرناندو أن يزيد في حدة الخلافات بين العرب، وأن ينهك قوى الوالد والولد، قبل أن يشرع في عمله الحاسم ضدهما. فأصدر أمره إلى القادة الإسبان في جيان ومرسية بضرورة تقديم العون لأبي عبد الله ضد أبيه. وأخذت القوات الإسبانية، بعد ذلك، تقوم بمهاجمة المناطق الغربية من مملكة غرناطة، فتمكنت من الاستيلاء على أكثر من 300 حصن في مرج غرناطة، بين يونية وديسمبر. وتتالت الأحداث والخلافات بين الوالد والولد من جهة، وبين الوالد والإسبان من جهة أخرى، وكان الإسبان قد أرهقوا المملكة، واستولوا على كثير من حصونها وقلاعها ومدنها. وساءت صحة أبي الحسن، وكف بصره، ولم يعد قادرًا على حمل أمانة الحكم، فأقنعه ابنه يحيى النير بالتنازل عن العرش لأخيه الزغل ففعل.

تسلم الزغل الحكم في ظروف صعبة للغاية، ومع أنه كان رجلاً شجاعًا مقدامًا، إلا أن الظروف المحيطة بالمملكة، كانت أقوى منه. وكانت قوته أدنى من قوة خصومه بكثير. وقد حقق فعلاً بعض الانتصارات على الإسبان لكن ذلك لم يكن له نتيجة عملية، ولم يمنع تساقط الحصون والقلاع بيد الإسبان. ولما طالت الخلافات بين الزغل وابن أخيه، وأنهكت قوى الشعب، وأضعفت ثقته بنفسه وبحكامه، تدخل العلماء والفقهاء ووجوه الناس. وأجبروا الجانبين على التفاهم، وإنهاء الحرب بينهما، فأعطوا نصف المملكة للزغل مع الحمراء لتكون مقرًا له، وأعطوا النصف الآخر لأبي عبد الله، مع حي البيازين ليكون مقرًا له.

قبل الزغل بهذه القسمة، وأمل في أن يتمكن من التفرغ لرد غارات الإسبان وعدوانهم. ولكن الصغير لم يلبث أن تنكر للاتفاق، وأرسل إلى الملك الإسباني، يرجوه مهاجمة مالقة الخاضعة لعمه، ويعده بالسماح للقوات الإسبانية بالمرور في أراضيه، وبتقديم العون لها. ولكن فرناندو، بدلاً من أن يسير إلى مالقة، سار إلى حصن لوشة التابع للصغير، نظرًا لأهميته الاستراتيجية، إذ إن سيطرة الإسبان على هذا الحصن، مع سيطرتهم على حصن الحامة، يجعلهم قادرين على شطر المملكة، وقطع الاتصال بين شرقيها وغربيها.

تحرك فرناندو في أوائل عام 1486م، على رأس جيش مؤلف من ستين ألف رجل إلى لوشة. وعلم أبو عبد الله بذلك فأسرع على رأس قواته للدفاع عنه، ودخل الحصن ليشترك في أعمال الدفاع مع الحامية. وجاءت القوات الإسبانية فأحاطت بالحصن، وأخذت تقصف أسواره ومنشآته بالمدفعية، واستمر الحصار مدة شهر كامل. فأحدثت المدفعية كثيرًا من التخريب في

التحصينات ووسائل الدفاع فضعفت همة المدافعين، وشعروا بعدم جدوى المقاومة، فشرع أبو عبد الله في مفاوضة فرناندو، لتقرير شروط التسليم.

وقَّع أبو عبد الله اتفاقين مع فرناندو أحدهما سري، والآخر علني. أما السري منهما فإنه يتضمن:

أ - استعداد أبي عبد الله لتسليم غرناطة عاصمة ملكه إلى الإسبان، إذا ما تمكنوا من إخضاع عمه الزغل.

ب - قبول أبي عبد الله بأن يستبدل بلقبه الحالي - ملك غرناطة - لقب (دوق) وادي آش، اعترافًا منه بتبعيته لملكي إسبانيا.

جـ - تبقى شروط المعاهدة السرية، في طي الكتمان إلى أن يتم إخضاع الزغل.

أما المعاهدة العلنية، فإنها تتناول مصير السكان في مدينة لوشة، ومصير أموالهم، وحريتهم في البقاء في المملكة الإسبانية كمدجنين، أو النزوح بأموالهم المنقولة إلى حيث يرغبون. ولكن الإسبان لم يتركوا لأحد خياراً إذ أجبروا الجميع على الهجرة. وفي خلال شهر يونية استولى فرناندو على كثير من القلاع والحصون في مرج غرناطة، وأبدى الكثير من رجال حامياتها مقاومة مشرفة خليقة بتقاليد فرسان غرناطة، ولكن التفوق العددي الساحق، الذي يتمتع به العدو، وقصف المدفعية، كانا فوق احتمالهم وجرأتهم. بعد أن بلغت الأمور ما بلغته قرر الملكان الإسبانيان، جعل قضية الاستيلاء على الأراضي المتبقية في أيدي المسلمين، القضية الأولى للمملكة. وعقد (الكورتس) مجلس التاج اجتماعًا في مدينة طركونة في فبراير 1484م، تقرر فيه جعل مسألة الاستيلاء على مملكة غرناطة، الهم الأول للمملكة، وأن تقدم على جميع ما سواها من المسائل، وأن تستمر الجهود المبذولة إلى نهايتها.

وتقرر طلب تضحيات أكبر من الشعب. وحصلت الملكة من الكنيسة على ثلث عرشها لمدة عشرين عامًا، مساهمة من الكنيسة في نفقات الحرب المقدسة.. ووضع مخطط جديد لسير المعركة، ينفذ على سبع مراحل:

أ - في المرحلتين الأولى والثانية يصار إلى فتح النهاية الغربية من مملكة غرناطة، وهي المنطقة الواقعة بين جبل طارق ومالقة. ب - وفي المرحلة الثالثة تفتح المنطقة الشمالية، وهي منطقة لوشة ومقلين. جـ - وفي المرحلة الرابعة تفتح منطقة مالقة. د - وفي المرحلة الخامسة، تفتح المنطقة الشرقية، وهي منطقة شرقي المرية. هـ - وفي المرحلة السادسة تفتح المنطقة الشمالية الشرقية، بما فيها المرية ووادي آش. و - وفي المرحلة السابعة، يتم فتح مدينة غرناطة والبشرات.

ووضع منهاج للعمل المستمر، الذي يمكن أن يؤدي إلى إرهاق المسلمين، وتحطيم قواهم المعنوية والمادية، وكان مما اتفق عليه في هذا الصدد:

أ - يقوم الملك بحملتين في السنة إحداهما في فصل الربيع والأخرى في فصل الخريف. ب - في الأوقات التي لا تكون فيها حملات عسكرية، يتولى أمراء الإقطاع، حماية الثغور، ويبذلون جهدهم لمنع العرب من جني غلالهم، وذلك بالقيام بعمليات تخريب مستمرة في الأراضي المجاورة لهم. جـ - تسهر الملكة والكاردينال على تأمين السلاح والمؤن، والعتاد للقوات المحاربة الإسبانية.

وشرع الإسبان في تنفيذ هذا البرنامج بدقة، وأخذت الحصون والقلاع العربية تتساقط تباعًا بيد الإسبان، نتيجة لهذا العمل المستمر المنظم. حدث كل ذلك والملكان المسلمان عاجزان عن دفع هذا البلاء عن انفسهما وأرضهما، بل إنه يمكن القول إن كلا منهما كان يشمت بعدوه المسلم إذا نزل به مكروه، وقد

كان هم أبي عبد الله الصغير الأول هو تحطيم عمه، ومنعه من تحقيق أي نصر على الإسبان، يمكن أن يرفع من هيبته في نظر شعب المملكة، مخافة أن يؤدي ذلك إلى تضعضع مركزه هو. فكان يتصرف وكأنه يريد تصفية المملكة في أقرب وقت. وبرغم جميع هذه الخلافات الحادة التي مزقت وحدة المملكة، فقد دافع كثير من حاميات المدن والحصون دفاعًا مجيدًا مشرفًا، أكبره المؤرخون الغربيون وذكروه بكل احترام وتقدير.

ولن نطيل الحديث في كيفية تطبيق البرنامج الإسباني لاحتلال المملكة الإسلامية، وإنما نكتفي بالإشارة إلى مختصر لتاريخ سقوط المدن الإسلامية الكبرى الثلاث: غرناطة والمرية وبسطة.

استهداف مالقة:

تمكن فرناندو من احتلال روندة، في 23 مايو 1484م، وهي أهم حصن يدافع عن مدينة مالقة، بعد قتال بطولي قاومت فيه الحامية الصغيرة الهجوم العنيف الذي شنه جيش إسباني عدته أربعون ألف جندي، مزودين بالمدفعية. ولم يستسلموا إلا بعد أن تهدمت جميع أبراج حصنهم، وغارت الآبار التي يستقون منها، فسمح الملك لمن في الحصن بالخروج إلى حيث يشاؤون. وبعد أن سقطت روندة سقطت بيد الإسبان أكثر القلاع والحصون القريبة منها، ونزح عنها أكثر سكانها إلى غرناطة وإلى شمالي إفريقيا. وكانت هذه الحصون هي عدة الدفاع عن مالقة من جهة البر، إذ كان رجالها ينضمون إلى حامية مالقة، حينما تتعرض للخطر. ووضع الملك في برنامجه أن يهاجم مالقة عام 1487م، فاستعد لذلك استعدادًا خاصًا، واكتفى عام 1486م، بالقيام بعمليات محدودة ليوفر قواه لمعركة مالقة، إذ كان يقدر أن انتزاع مالقة من المسلمين سيحرمهم من الميناء الطبيعي الهام، ويؤدي إلى اقتطاع جزء كبير

من مملكتهم، ويمنع عنهم وصـول النجدات من المغرب. باشر فـرناندو بحشد قواته في قـرطبة منذ أوائل شهـر يولية 1487م، ولكنه علم في ذلك الحين أن أبا عبد الله تمكن من دخـول غرناطة واحتلال حي البيـازين، وأنه يطلب عونًا من قشتالة، لتثبيت أقدامه فـيها. فصفق الملك لهذا الخلاف يتجدد بين الملكين المسلمين، ويشغلهما عن إنجـاد مالقة. وأراد الملك أن يزيد في ارتباك الزغل، فـأرسل بعض قواته إلى البـيـازين لمساعـدة الصغـيـر، فوصلت هذه القـوة الإسبانية، ودخلـت البيازين، فنشبت الحرب في شوارع غـرناطة، واستمرت بضعة أيام، دون أن يتمكن فريق منهما من إحراز نصر حاسم.

سار فرناندو بقـواته من قرطبة فوصل أمام حـصن بلش مالقة، يوم 16 إبريل 1487م، وهو حصن قريـب من مالقة، وشرع في حصـاره. أما الزغل فإنه رأى أن لا فائدة من متـابعة قتال ابن أخيه الصغـير، وأنه من الخير له أن يسرع لإنجاد بلش مالقـة، فترك بعض قواته في غرناطة لمتابعـة القتال، وسار بباقي جيشه إلى لقاء الإسبان، وكان يقـدر أنه سيجد في سكان الجبال القريبة من ميدان المعـركة، مددًا لجيشـه. ولكن حالة المملكة، واستمـرار القتال بين العم وابن أخيـه أدخل اليأس إلى نفوس سكان المناطق المعرضـة لخطر الغزو، لذلك شـرع سكان المناطق المحـيطة ببلش، يفـاوضون الملـك الإسبـاني على التسليم، ولما وصل الزغل، كان الأمر قـد سوي. فارتبك الزغل، وخاف أن يؤدي تفاهم مسلـمي المنطقة مع الإسبان إلى قطع خط الرجـعة عليه، وعلى جيشه إذا قـدرت عليهم الهزيمة. فلم يقم بمهاجمة الإسبـان، كما كان ينتظره أهل بلش مـالقة ليـقومـوا من جهتهم بشن هجـوم في نفس الوقت، يضع الإسـبان بين نـارين. وأخذ الزغل يتـجـول بعـيدًا في الجـبـال يراقب تطور الأحداث، فانصبت عليه المدافع الإسبانية، فـتفرق جيشه، وفجأة وجد الزغل نفسه مع قلة من الرجال، فانسـحب عائدًا إلى غرناطة، ولكنه علم وهو عائد

أن الصغير احتل قصر الحمراء، فتابع سيره إلى المرية، التي يتولاها ابن أخيه. ولما انسحب الزغل شرع قائد حامية بلش مالقة، رضوان بنيغش، بالتفاوض مع الملك لتقرير شروط الاستسلام. ولما كان الملك حريصًا على الاستيلاء على مالقة، تساهل مع حامية بلش، ليتفرغ للأهم. وفي 7 إبريل وقعت اتفاقية بين الجانبين منح الملك فيها سكان بلش مهلة ستة أيام، وأمانًا على أرواحهم، وضمانًا لأموالهم، كما منحهم حرية الاختيار بين النزوح إلى المغرب العربي وبين البقاء في أرض المملكة، في المناطق الداخلية، ليعيشوا كمدجنين. وفي 3 مايو أخليت المدينة من سكانها، وتفرق أهلها. وبعد ذلك استسلمت حاميات خمسين قرية وحصنًا مما حول بلش، على نفس الشروط التي استسلمت عليها بلش.

تعتبر مالقة أكثر المدن مناعة في مملكة غرناطة، إذ كانت أسوارها يحيط بها ثمانون برجًا بارزًا، وأربع قلاع تتصل فيما بينها بسراديب سرية، وكانت القلاع تتمركز فيها قوة من المدفعية التي تستطيع السيطرة على جميع الاتجاهات والمواقع التي يمكن أن يحتلها جيش العدو. ولما سقطت بلش، انسحب حاكم مالقة يوسف بن كماشة، فتسلم القيادة في المدينة ثلاثة من الرجال الأشداء، هم: حامد سليم الثغري شيخ قبيلة غمارة، وإبراهيم الزناتة (أو الزيناتي)، وثالث تقول الرواية الإسبانية أن اسمه حسن. وقد صممت الحامية بقيادة هؤلاء القادة الأبطال، على الصمود والقتال حتى النهاية، وعدم الاستسلام والرضا بالذل. وأدرك فرناندو صعوبة المهمة التي ستواجهه إذا ما ثبتت الحامية على قرارها في المقاومة، وأراد أن يستميل القادة ويشتريهم، فأرسل إليهم يعرض عليهم العروض السخية المغرية، ومن جملة ما عرضه على الثغري، أن يمنحه حصن ذكوان، وأربعة آلاف دينار من الذهب، فلم يقبل أحد من القادة التزحزح عن موقفه، ورد الثغري ردًا نبيلاً، إذ قال له:

إن مواطنيه العرب، اختاروه للدفاع عنهم، كأفضل رجل فيهم، لذلك لن يكون أسواهم ببيعهم تأمينًا لمصالحه الخاصة. ولما يئس الملك من استمالة القادة لجأ إلى التهديد، ليوقع الشقاق والبلبلة بين رجال الحامية، وفي أوساط الشعب، فأرسل إلى المدينة يخيرها بين الاستسلام على نفس الشروط التي استسلمت عليها بلش مالقة، وبين الوقوع في الرق إذا ما أخذت المدينة عنوة، فلم يجده ذلك نفعًا، إذ أصرت المدينة على القتال. ووصل فرناندو أمام مالقة يوم 7 مايو على رأس جيش قدرته الروايات بستين ألفًا، ولم يكن في المدينة غير ثمانية آلاف مقاتل يؤلفون القوة المدافعة، وكان معهم بعض (القوم) الذين أتوا من المغرب تلبية لداعي الجهاد، ونجدة إخوانهم في القومية والدين. وركز الملك مدافعه في الأماكن التي تسيطر على المدينة، وقد أظهر القائدان الثغري والزيناتي من الجرأة والحذق في أعمال الدفاع، ما أكبره المؤرخون الغربيون. وكان إبراهيم يقود عمليات الحامية، وقتال الإسبان خارج الأسوار، فيؤثر فيها تأثيرًا بليغًا، ويوقع الذعر في قلوبهم، حتى أخذ النبلاء الإسبان يرتجفون من مواجهة المسلمين في ميدان القتال، ويكرهون الهجوم على المدينة، لكيلا يصطدموا بالمسلمين وجهًا لوجه. فتقدموا إلى الملك يعرضون عليه دفع نفقات الحصار مهما طال أمده لإخضاع المدينة بالجوع والإنهاك، بشرط وقف الهجوم على المدينة. وبرغم ما كان يعانيه المسلمون من ضيق، وإجهاد، وما كانوا يتحملونه من غدر الإسبان وغشهم،فإن قادة الحامية ورجالها ظلوا أوفياء للتقاليد العربية الإسلامية الحميدة، في النبل والشهامة، فقد التقى إبراهيم يومًا وهو عائد من ميدان القتال، بجمع من الصبية الإسبان، يلعبون وهم يظنون أنهم في مأمن من الخطر، فداعبهم إبراهيم بكعب رمحه، وقال لهم اذهبوا إن أمهاتكم ينتظرنكم، ولم يفكر بإيذاء أحد منهم ولا في أخذهم أسرى أو رهائن. ولما قال له أصحابه لماذا لم تضرب بسن رمحك قال: لم

أجد فيهم شاربًا. وقد ذكر الكونت سيركور هذه القصة، وعلّق عليها بكثير من الاحترام والتقدير.

استمرت عمليات الحصار حتى شهر أغسطس، وكانت الأسوار والأبراج قد تهدمت، من كثرة ما احتملته من قذف المدفعية، ونفذت الأقوات والذخائر من المدينة. وألح الألم والمرض على القائد الثغري فانسحب إلى قلعة جبل فارو مع شجعان جيشه من القوم، وانسحب إبراهيم هو الآخر إلى أحد الأبراج المتهدمة لمتابعة المقاومة. وحينئذ أخذ أغنياء البلدة في مفاوضة الملك على التسليم، وأرسلوا شخصًا يتولى المفاوضة عنهم، ويبدو أنه خانهم، إذ اهتم بتأمين مصالحه، ومصالح أقربائه، وحصل على ضمان لحياة السكان. ونتيجة للاتفاق سلمت المدينة إلى الملك يوم 18 أغسطس، واستسلم الثغري يوم 20 منه، بعد أن نفدت ذخيرته وأقواته، فقذف الملك به في السجن، ولم يشفع له جهاده ونبله وبطولاته، ولكنه بقي في سجنه وقيوده أكبر من فرناندو المنتصر عليه، كما يقول الكونت سيركو. ولم يكن مصير الزيناتي بأفضل من مصير صاحبه. وقد أظهر الملك - على ما يقوله الكونت سيركور - بعد ظفره في مالقة من أعمال الغش والخداع ما يثير الاشمئزاز والقرف والاحتقار، فقد كان في المدينة قرابة 450 يهوديًا، أعلن إخوانهم في مملكة قشتالة عن استعدادهم لافتدائهم، بمبلغ 27 ألف دوكات من الذهب فلما دفعوا الفدية قبضها الملك، وقال لهم إن هذا المال يعود إليه أصلاً، ولا يمكن أن يكون فدية لأهل مالقة، وبذلك قبض المال واسترق اليهود. أما السكان العرب، وعددهم قرابة 12 ألفًا، فقد أراد الملك أن يستصفي أموالهم، وأن يحملهم على إخراج ما يخبئون من مال، فأعلن لهم أنه يقبل منهم افتداء أنفسهم بدفع 36 دوكا عن كل شخص، تدفع خلال سنة ونصف على أن يكون السكان كلهم متضامنين، فإذا لم يدفعوا كامل المبلغ، كان له أن يسترقهم. وجهد العرب

في جمع المال، وأخرجوا كنوزهم، وحصلوا على أموال وإعانات من إخوانهم في غـرناطة، وفي المناطق الأخرى، ولكن المبلـغ المفروض كان كـبيـرًا. فلم يتمكنوا من جـمعه كله، فتسلـم الملك المبلغ المجموع، واستـرق أهل مالقة. وهو ما كـان قد قرر في نفـسه عـمله على كل حال. تقع بسطة في الشـمال الشرقي من غـرناطة، على ضفة نهر يسـمى باسمها، وتعـتبر مفتـاح المنطقة الشرقـية كلها. وكـانت توجد حـولها بساتين كـثيفـة، تفصل بينهـا جدران (دكوك)، تحـد هذه البساتين، وتجـرى فيها أقـنية مياه الري، فـتجعل حـركة الفرسان صعبة، وتجعل المدفعـية عديمة الجدوى. وبالإضافة إلى حصون المدينة وأبراجها، فإن كـثيرًا من الأبراج التي كانت تقوم بين البسـاتين، تمكن الحامية من الدفاع عن المدينة، إذ كـان يعتبر كل برج منها، وحـدة دفاعية مـستقلة، تتطلب جهودًا خاصة للسيطرة عليها. وكان في قلعة بسطة حامية يبلغ تعدادها عشـرين ألفًا، إذ إن الزغل أدرك من حـملة فرنانـدو لعام 1488م، أن هدفه المقبل سـيكون بسطة، فجمع فيـها الأقوات والرجـال والمؤن والذخائر لتكفي الحامية خمسة عشر شهرًا، وأرسل إليها خيرة رجال المملكة، وأكثرهم تدريبًا. وفي ربيع عام 1489م، سار فرناندو على رأس قوات قـدرت باثني عشر ألف فارس، وخمـسين ألف راجل، فوصلها في أوائل يونية. وجرت فورًا مـعركة بين الإسبان والحامية تمكن فيها الإسبان من دحر الحامية وردها إلى حصونها. وتقدم الإسبان إلى الحصون الخارجـية، وحينئذ أدرك الملكان عظم المهمة التي سيواجهـانها، وأن الحصار سيطول، فقررا تخريب البـساتين، وهدم جدرانها العائقـة لتقدم الفرسـان والمدفعية، وأمرا أربعـة آلاف رجل القيام بهـذه المهمة تحت حماية الجيش كله، فشقـوا طريقًا إلى بسطة خلال أربعين يومًا، وكانت المناوشات لا تنقطع بين الجانبين، ثم رئي أن العملية تتطلب جـهدًا أكبر فقرر الملكان تحويل مياه نهر بسطة، وإقامة سورين وأبراج لإقامة رجال المراقبة. وقد

استغرق العمل في تنفيذ ذلك أربعة أشهر. وكان الخريف قد حل، وأخذ البرد يشتد ويزعج الجنود فطالبوا بالسماح لهم بالعودة إلى بيوتهم كما هي عادتهم دائمًا. ولكن الملكين أرادا الاستمرار وعدم تأجيل عملية الاستيلاء على بسطة لأن جميع الجهود المبذولة ستضيع سدى إذ إن المسلمين سيتمكنون من تخريب جميع ما بنوه وأقاموه، فأمر الملكان ببناء أماكن تقي الجنود البرد والمطر. أما المسلمون فقد بقوا مصممين على الدفاع، ثابتين عليه، وفرسانهم يقومون كل يوم بتحدي الفرسان النصارى المشهورين، ويدعونهم للمبارزة. فأمر الملك بمنع فرسانه من قبول التحدي ضنًا بهم، وخوفًا على حياتهم. وقد بلغت خسائر الإسبان حتى ذلك الوقت قرابة عشرين ألف رجل نتيجة الحرب والمرض. وأراد الملك أن يضعف عزيمة المسلمين، بإظهار تصميمه على مواصلة القتال، فأرسل إلى الملكة يدعوها إلى العودة إلى المعسكر، لتبقى مع جنودها، تثير فيهم النخوة والعزيمة، وترفع من معنوياتهم. فجاءته في 1489/11/5م وقد نجحت خدعة الملك إذ أدرك المسلمون، أنه مصمم على الحرب، وأن لن يتخلى عن مهمته في فصل الشتاء. كان يقود أعمال الدفاع شخص يدعى محمد حسن الشيخ، ويشرف على العمليات الأمير يحيى النير، مفوضًا من قبل عمه الزغل، فلما رأى المسلمون تصميم الإسبان، ذهب يحيى النير إلى معسكرهم، وقابل الملكة والملك، وتقول الروايات الإسبانية إن الملكة استعملت كل ما لديها من سحر وإغراء لاستمالة الأمير المسلم، وذكرته بأصل أمه الإسباني، وحملته بالعروض والإغراءات الكبيرة، على التنصر فتعمد سرًا، واتفق على أن يبقي تعمده سرًا ليستطيع تأدية مهمته على الوجه الأفضل. ولما عاد يحيى إلى بسطة، أقنع القائد محمد الشيخ بعدم جدوى المقاومة، وكتبا بذلك إلى الزغل في وادي آش، وأعطياه صورة غير صحيحة عن حال المقاومة المسلمة في بسطة، ففوض الأمر إليهما، فسارا

إلى المعسكر الإسباني، واتفقا مع الملكين على تسليم المدينة، لقاء السماح للحامية بالخروج بسلاحها، وأمتعتها إلى حيث تريد. أما السكان فيخيرون بين البقاء مع ضمان حرياتهم جميعًا، وبين الهجرة إلى حيث يشاؤون بأموالهم. وحينما استسلمت بسطة قدم قواد المواقع المحيطة بها خضوعهم على نفس الشروط التي عليها استسلام بسطة.

تابع النير مهمته الخسيسة، التي كلفته بها الملكة، وهي العمل على استسلام عمه الزغل، ووضع حد لمقاومته، فإذا تم ذلك تكون إسبانيا الإسلامية كلها قد خضعت للإسبان، لأن اتفاقية (لوشة) السرية مع أبي عبد الله الصغير، تلزمه بتسليم ما بيده فور الانتهاء من القضاء على الزغل. تمكن النير من خداع عمه (الزغل)، الذي شلت الأحداث تفكيره، فأقنعه بعدم جدوى المقاومة، وحمله على وضع سلاحه بين يدي أعدائه. ونتيجة لمسعى النير أمكن التوصل إلى الاتفاق التالي:

أ - يتعهد الزغل بأن يسلم ما بيده، وأن يحمل الحصون الخاضعة له على الاستسلام له، وهي حصون مقاطعة المرية، وموتريل ووادي آش. ب - يتنازل عن كل حق أو دعوى بملكية هذه الحصون. جـ - يتعهد الملكان لقاء ذلك، بتأمين السكان على أرواحهم وأموالهم، مع منحهم حق العيش في المملكة كمدجنين. د - يحتفظ الزغل بملكية أندرش وبملكية البشرات ووادي الكرين، ويتسمى باسم ملك أندرش. هـ - يحق للزغل الاحتفاظ بألف رجل من أتباعه.

وبعد أن وافق الطرفان على الشروط تم التوقيع على الاتفاق في 22 ديسمبر 1489م في خيمة الملك فرناندو أمام المرية. وتقول الرواية الإسبانية إن الملك قابل الزغل بالاحترام والإكرام، ولم يسمح له بتقبيل يده، ولام رجاله

الذين تركوا الزغل يترجل عن حصانه ليقدم احترامه للملك الإسباني. وقد أثرت هذه المعاملة الحسنة في الزغل، وجعلت منه نصيرًا متحمسًا لفرناندو.
لما تم الاتفاق بين الزغل وبين فرناندو أرسل الملكان رسالة إلى أبي عبد الله الصغير يطالبانه فيها بتنفيذ مضمون الاتفاق السري الموقع في لوشة، ورد الصغير بأنه على استعداد للتنفيذ، لكن الجماهير في البيازين والحمراء، انقلبت عليه منذ أن انتهى أمر عمه، وأصبحت تهدده وتهدد ملكه، وتجعل من العسير عليه الوفاء بما سبق أن قبل به. وفي الواقع إن نقمة الشعب تزايدت على الصغير، وأخذ الناس يشتمونه علنًا، وينعتونه بالمرتد والخائن، ويسمونه قاتل أبيه. ولولا متانة أسوار الحمراء، وجهود وزيره ابن كماشة، لفتكت به الجماهير.

قدر الصغير، في هذا الموقف الشديد الخطورة، أنه إذا ما حقق نصرًا على الإسبان، فإنه قد يستطيع استعادة ثقة الجماهير، ويتخلص من الضيق الذي يعانيه، ولاحت له الفرصة حينما قام الكونت دوتانديللا - القائد العام للحدود - بحملة شتوية على مرج غرناطة. وتقول الرواية الإسبانية إن الصغير هو الذي دفعه إلى القيام بها، فانقض الصغير عليه، وانتصر عليه، وعاد يحمل الغنائم ورءوس القتلى، ويسوق أمامه الأسرى، ودخل غرناطة دخول الظافرين فهلل له الشعب الذي دبت فيه الحماسة، وعاودته الشجاعة. وقد فوجئ فرناندو بهذه الحياة تدب من جديد في جسم حسبه ميتًا، وأدرك أن عليه أن يتسلم غرناطة حربًا. لكن الحرب كانت قد أرهقت إسبانيا واستنزفت معركة بسطة أموال الخزانة، حتى أصبحت الدولة تطلب دفع الضرائب كل عشرين يومًا، لذلك رأى فرناندو على كره منه، أن يؤجل مسألة غرناطة إلى وقت آخر وأرسل إلي غرناطة رسالتين:

1 - الأولى موجهة إلى الصغير، يحاول فيها إغراءه بالمنح والوعود والعطايا والإقطاعات ليتخلى عن فكرة المقاومة. 2 - والثانية موجهة إلى زعماء غرناطة، يعرض عليهم، وعلى الشعب، تقديم الضمانات والعروض السخية، ويعرض على الزعماء منحًا شخصية، إذا سمحوا له بأن يحتل بعض البيوت والأبراج في حي البيازين.

وحينما وصل رسول ملك إسبانيا إلى غرناطة كان الصغير خارجًا منها يريد الإغارة على حصن البذول، الذي يسيطر على وادي الكرين، الممنوح للزغل، وقد تمكن الصغير من الاستيلاء عليه، وعاد يجر الأسرى وراءه. وبعد أن حقق الصغير هذا النصر الصغير، رد على رسالة الملك ردًا غير مرض، فوصل الرد إلى الملك وهو في إشبيلية، في نفس الوقت الذي وصل إليه نبأ سقوط البذول، فاستبد به الغضب، وخرج من فوره إلى مرج غرناطة يعيث فيه ويقطع الأشجار. ووافاه الزغل ويحيى النير على رأس 350 فارسًا، وساعداه في عيثه في المنطقة، وقدم الزغل للملك حصن (همدان) التابع له ليضع فيه حامية قشتالية. كما قدم يحيى النير حصنًا استولى عليه بالحيلة ليستخدمه في مثل ذلك. وقد أساء هذا التصرف إلى الزغل إساءة بالغة، أنسى الشعب جميع حسناته، فأخذ شعب البشرات، الخاضع له يشتمه في المساجد. وزاد في نقمة الشعب على الزغل، أن الملكة إيزابيل نقضت شروط الاستسلام مع المرية ووادي آش، وحولت المساجد إلى كنائس، فكان لذلك أسوأ الأثر وأبعده في نفوس أتباع الزغل، فانفجرت الثورة في البشرات ووادي المرية، وانضم سكان جبال الثلج (سيرا نفادا) إلى الصغير وأصبح الصغير في نظرهم رمزًا للنضال الوطني. وتحرك الصغير يحاصر الحاميات الإسبانية الموجودة في الحصون الواقعة في المنطقة، وأصبحت المنطقة كلها نيرانًا تشتعل بالحقد والغضب على الزغل، وعلى ابن أخيه النير، وعلى

الإسبان. ولما رأى فرناندو تطور الأمر أسرع على رأس ثلاثين ألفًا إلى مرج غرناطة في أواخر يولية، وأرسل مفرزة إلى شلوبانية لتقطع طريق الرجعة على الصغير، فخاف هذا، وارتد مسرعًا إلى غرناطة، وانطلق النير إلى وادي المرية فأخضعه وأعاده إلى طاعة الملك الإسباني. وفتحت ثورات البشرات عيون الزغل على الدور الخسيس الذي يقوم به في معركة لمصير العربية في إسبانيا الإسلامية، وهو الذي كان يتمتع بحب شعبه واحترامه، فباع أملاكه إلى الملكة، وإلى يحيى النير، وعبر المضيق إلى المغرب، وهناك لاقى أسوأ معاملة، إذ قبض عليه سلطان فاس وسمل عينيه، وتركه يستجدي الناس ليعيش.

وبعد أن ارتحل الزغل إلى المغرب العربي أصبح سقوط غرناطة أمرًا محتومًا، ولكن المسألة مسألة وقت لا غير[1].

استسلام غرناطة:

سار فرناندو في أوائل عام 1491م، على رأس خمسين ألفًا، إلى مرج غرناطة، وأخذ في إحراق القرى والمزارع ولما وصل أمام غرناطة، أقام معسكره في المكان المعروف الآن بـ (سانتا فيه)، ثم حضرت الملكة، ليبث وجودها الحماسة والنخوة في رءوس القادة والفرسان. وكان فرسان غرناطة يخرجون لقتال أعدائهم، ويوقعون بهم خسائر كبيرة، وكادوا يأسرون الملكة يوم 18 يونية. ثم اهتدى الإسبان إلى المسالك التي تتمون عن طريقها غرناطة، فسدوها بالرجال، وضيقوا الخناق على المدينة في محاولة لإجبارها على الاستسلام. وبينما كان الحصار يسير سيره، ويفعل فعله، وقع حريق في المعسكر الإسباني وكان منشأ من الأخشاب، فقرر الملكان إقامة معسكر مبني

---

(1) د. أسعد حواميد، المرجع السابق، ص 145.

بالحجارة، مكان المعسكر المحترق، وسمياه سنتا فيه. أخذت غرناطة تعاني من نتائج الحصار، وتقل فيها الأقوات، فبدأت النفوس المريضة المرجفة، تحاول نقل مرضها إلى الشعب لإضعاف مقاومته، وإخماد جذوة خماسة. وأدرك الصغير ووزراؤه أن المقاومة لا جدوى منها، وأنه من الخير التفاهم مع الإسبان للحصول على افضل الشروط. وفي أكتوبر، وصلت إلى المعسكر الإسباني رسالة من الصغير، يطلب فيها وقف القتال، والدخول في مفاوضات، لبحث شروط الاستسلام. فسرَّ الملكان سرورًا كبيرًا من هذا العرض غير المتوقع، وأمرا بوقف إطلاق النار اعتبارًا من 1491/1/5م لمدة سبعين يومًا. ودارت المفاوضات بصورة سرية بين الجانبين، واستغرقت وقتًا طويلاً، وقد ضمن الصغير لنفسه الكثير من المنافع، وأدت المفاوضات إلى عقد معاهدة تحدد الشروط التي اتفق عليها الجانبان (1491/11/25م) كما تم اتفاق آخر خاص، حدد المنافع التي يحصل عليها الصغير وأهله نتيجة لهذا الاستسلام. وفي يوم 1492/1/2م، خرج أبو عبد الله الصغير مع عدد قليل من أتباعه، خارج غرناطة، ووقف على جسر نهر شنيل ينتظر قدوم الموكب الملكي، ثم تقدم من الملك وقبَّل ذراعه اليمنى، فسلم وزيره يوسف بن كماشة الإسبان مفاتيح الحمراء، والحصون الأخرى. وقبل أن يتوجه الصغير إلى وادي الكرين سلمته الملكة ابنه الذي كان رهينة لديها. وتوقف الصغير عند جبل الريحان ليلقي على غرناطة آخر نظرة وردد عبارة الله أكبر. ويسمي الإسبان المكان الآن (آخر زفرات العربي). وتذكر الروايات أن والدته عائشة سبقته ثم توقفت وسألت عنه فقيل لها أنه يبكي فقالت:

ابك مثل النساء ملكا مضاعا   لم تحافظ عليه مثل الرجال

ونقل الأستاذ عنان في كتابه نهاية الأندلس عن المؤرخ الإسباني كوندي قصة الاجتماع الذي تم في قصر الحمراء للتوقيع على وثيقة تسليم غرناطة:

وحينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا معاهدة التسليم لم يملك كثير من الزعماء أنفسهم من البكاء، والذي بقي وحده صامدًا قويًا هو القائد موسى بن أبي الغسان، فقال للحاضرين: اتركوا العويل للنساء والأطفال فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة، ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة، ذلك هو الموت المجيد المشرف فلنمت دفاعًا عن حريتنا، وانتقامًا لمصائب غرناطة، وسوف تحتضن الأرض أبناءها أحرارًا من أغلال الفاتح وعسفه، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يضم رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال أن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعًا عنها». وصمت موسى، ونظر أبو عبد الله في وجوه الحاضرين، فلم يجد فيها عزمًا، عندئذ صاح: الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا رادَّ لقضاء الله، تالله لقد كتب عليَّ أن أكون شقيًا، وأن يذهب الملك على يدي. وصاحت الجماعة الله أكبر ولا راد لقضاء الله، وأخذوا يوقعون وثيقة التسليم. فنهض موسى مغضبًا، وصاح في الجماعة: لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشاه، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك أعراض نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي الذميم، والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق... وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف، أما أنا فوالله لن أراه، وخرج مغضبًا. وتقول رواية إسبانية قديمة إن سريَّة من الفرسان النصارى تبلغ خمسة عشر فارسًا، التقت مساء ذلك اليوم على ضفة نهر شنيل بفارس مسلم قد تدجج بالسلاح، وقد أدنى خوذته على وجهه، وشهر رمحه، وكان جواده غارقًا مثله في

الحديد، فلما رأوه مقبلاً عليهم طلبوا إليه أن يقف ويُعرِّف بنفسه، فلم يجب الفارس المسلم، وانقض عليهم يَطعن ويُطعن حتى أثخنته الجراح وأثخنت حصانه، فسقطا على الأرض، فاستل خنجراً وأخذ يقاتل الفرسان الإسبان فلما رأى أن قواه ستخور وستخذله، ارتد إلى الوراء وألقى بنفسه في الماء، فغاص في النهر تحت ثقل السلاح. وتقول الرواية النصرانية إن هذا الفارس هو موسى بن أبي الغسان، وإن بعض المسلمين عرفوا جواده المقتول.

معاهدة تسليم غرناطة المعقودة بين أبي عبد الله الصغير وبين الملكين الإسبانيين بتاريخ 21 محرم 897هـ/ 25 يناير 1491م:

أورد الكونت دوسيركور، ترجمة كاملة لمعاهدة تسليم غرناطة إلى اللغة الفرنسية، كما نشر الأستاذ محمد عبد الله عنان، خلاصة لمحتويات هذه المعاهدة، منقولة عن الأصل الإسباني الرسمي، في كتابه نهاية الأندلس (ص 230 وما بعدها)، وفيما يلي ننقل محتويات هذه الخلاصة، كما أوردها الأستاذ عنان مع إضافة قليلة من ترجمة سيركور.

مادة 1: يتعهد ملك غرناطة، والقادة والفقهاء والعلماء وكافة الناس، سواء في غرناطة والبيازين وأرباضهما، بأن يسلموا طواعيةً واختياراً، في ظرف ستين يوماً من تاريخ هذه المعاهدة، قلاع الحمراء والحصن - حصن الحيزان - وأبواب وأبراج الحمراء والحيزان، وأبواب غرناطة والبيازين، إلى الملكين الكاثوليكيين أو إلى من يندبانه من رجالهما، على ألا يسمح لنصراني بأن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين، حتى لا يكشف أحوال المسلمين، وأن يعاقب الملكان من يفعل ذلك. وضماناً لسلامة هذا التسليم، يقدم الملك أبو عبد الله والقادة، إلى جلالتيهما، قبل تسليم الحمراء بيوم واحد، 500 شخص صحبة الوزير ابن كماشة، من أبناء زعماء غرناطة والبيازين وآخرين، ليكونوا رهائن في أيديهما لمدة عشرة أيام، تصلح خلالها

الحمراء. وفي نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحرارًا. وأن يقبل جلالتهما ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء، وسكان غرناطة والبشرات وغيرهما من الأراضي رعايا وأتباعًا تحت حمايتهما ورعايتهما. 2 - حينما يرسل جلالتهما رجالهما لتسلم الحمراء فعليهم أن يدخلوا من باب العشار، ومن باب نجدة ومن طريق الحقول الخارجية، ولا يسيروا إليها من داخل المدينة، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم. 3 - متى تم تسليم الحمراء والحصن، يرد الملكان إلى الملك أبي عبد الله ابنه المأخوذ رهينة لديهما، وكذلك ترد جميع الرهائن الذين معه، وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية. 4 - يتعهد جلالتهما وخلفاؤهما إلى الأبد، بأن يُترك الملكُ المذكور أبو عبد الله والقادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان، وسائر الشعب، تحت حكم شريعتهم، وألا يؤمروا بترك شيء من مساجدهم ومآذنهم، وتترك لهذه المساجد مواردها كما هي، ويقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم ويحتفظون بتقاليدهم وعاداتهم. 5 - لايؤخذ منهم خيلهم ولا سلاحهم الآن أو فيما بعد، سوى المدافع الكبيرة والصغيرة فإنها تسلم. 6 - يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما الذين يريدون العبور إلى المغرب، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاؤوا، وأنه يحق للملكين شراؤهما بمالهما الخاص. 7 - يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب، أو يذهبوا أحرارًا إلى أية ناحية أخرى، حاملين معهم أمتعتهم وسلعهم وحليهم من الذهب والفضة وغيرها. ويلتزم الملكان بأن يجهزا في بحر ستين يومًا من تاريخه عشر سفن في موانيهما، يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب، وأن يقدما خلال الأعوام الثلاثة التالية، السفن لمن شاء العبور، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه، ولا يقتضى منهم خلال هذه المدة أي أجر أو مغرم، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك، نظير دفع مبلغ دوبل واحد (دوبلا) عن كل شخص، وأنه يحق لمن لم يتمكن من بيع أملاكه أن

يوكل لإدارتها وأن يقتضي ريعهـا حيثما كان. 8 - لا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم الآن أو فيمـا بعد على تقلد شارة خاصة بهم. 9 - ينزل الملكان، للملك أبي عـبد الله، ولسكان غـرناطة والبـيازين وأرباضـهمـا، ولمدة ثلاث سنوات تبـدأ من تاريخـه، عن سائر الحـقـوق التي يجب عليـهم أداؤها عن دورهم ومـواشيـهم. 10 - يجب على الملك أبي عـبد الله وسكان غـرناطة والبيـازين وأرباضهما، والبـشرات وأراضيها، أن يـسلموا وقت تسليم المدينة طواعية، ودون أية فدية، سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيديهم. 11 - لا يسـمح الملكان، بأن تؤخذ من الملك أبي عـبد الله والأشـخاص المذكـورين، خدمهم وخيولهم ومواشيهم لتسـتخدم في أعمال السخرة، ويستثنى من ذلك ما يقـدمونه هم طواعيـة، وتدفع لهم أجور مناسبـة وعادلة. 12 - لا يسمح لنصراني بدخول مكان عبادة المسلمين إلا بإذن من الفقهاء ويعاقب من يخالف ذلك. 13 - لا يولي على المسلمين مباشر يهـودي، ولا يمنح أحد من اليهود أية سلطة وولاية عليـهم. 14 - يُعَـامَلُ الملكُ أبو عـبـد الله وسـائرُ السكان المسلمين برفق وكـرامـة، ويحتـفظون بعـاداتهم وتقاليـدهم ويؤدى للفـقـهـاء حقوقهم المأثورة وفقًا للقواعد المرعية. 15 - إذا قام نزاع بين المسلمين، فُصِلَ فيـه وفقًا لأحكام شـريعتهم، وتولى ذلك قـضاتهم. 16 - لا يكلفون بإيواء ضيف، ولا تؤخذ منهم ثياب أو دواجن أو أطعمـة أو ماشية، أو غيرها دون إرادتهم. 17 - إذا دخل نصراني منزل مـسلم قهرًا عنه، عـوقب على فعله. 18 - يحتفظ المسلمون بأنظمتهم في شـؤون الميراث، ويحتكمون إلى قضاتهم وفـقًـا لسنن المسلمين. 19 - يحق لسكان غـرناطة والبـشـرات، وغيـرهمـا الداخـلين في هذا العـهـد، الذين يعلنون الولاء لجلالـتيهـما في ظرف ثلاثين يومًا من التسليم، أن يتـمتعوا بالإعفاءات الممنوحـة، مدى السنوات الثلاث. 20 - يبقى دخل الجـوامع والهيئات الدينيـة أو أية أشياء أخرى موقـوفة على أوجه الخيـر، وكذلك دخل المدارس يبقى متـروكًا لنظر الفقهـاء، ولا يتدخل

جلالتهما بأية صورة، في أمر هذه الصدقات ولا يأمران بأخذها في أي وقت. 21 - لا يؤخذ أي مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر، فلا يؤخذ والد بذنب ولده، أو ولد بذنب والده، ولا يعاقب إلا من ارتكب الجرم. 22 - إذا كان مسلمًا أسيرًا وفر إلى مدينة غرناطة أو البيازين وأرباضهما أو غيرهما، فإنه يعتبر حرًا، ولا يسمح لأحد من ضباط العدلية أو مالكيه بإقامة الدعوى ضده إلا إذا كان أسود من جزر الكناري أو من بولوف أو من الجزائر. 23 - لا يدفع المسلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعون لملوك المسلمين. 24 - يحق لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرها، ممن عبروا إلى المغرب، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية، وأن يتمتعوا بكل ما يحويه هذا الاتفاق. 25 - يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيها، أن يتعاملوا في سلعهم آمنين، عابرين إلى المغرب وعائدين، كما يحق لهم دخول سائر النواحي التابعة لجلالتهما ولا يدفعون من الضرائب إلا ما يدفعه النصارى. 26 - إذا كان أحد النصارى - ذكرًا كان أم أنثى - اعتنق الإسلام، فلا يحق لإنسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة، ومن فعل ذلك يعاقب. 27 - إذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية، واعتنقت الإسلام، فلا ترغم على العودة إلى النصرانية، بل تسأل في ذلك أمام المسلمين والنصارى، ولا يرغم أولادها على التنصر سواء أكانوا ذكورًا أم إناثًا. 28 - لا يرغم مسلم أو مسلمة قط على اعتناق النصرانية. 29 - إذا شاءت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر، اعتناق النصرانية، بدافع الحب، فلا يقبل منها ذلك حتى تسأل وتوعظ وفقًا للقانون. وإذا كانت قد استولت خلسة على حلي أو غيرها من دار أهلها أو شيء آخر، فإنها ترد لصاحبها وتتخذ الإجراءات ضد المسؤول. 30 - لا يطلب الملكان، ولا يسمحان بأن يطلب، إلى الملك أبي عبد الله أو خدمه أو أحد من أهل غرناطة أو البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرها، من الداخلة في هذا العهد، بأن يردوا ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين، من

الخيل والماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أو غيرها، أو من الأشياء الموروثة، ولا يحق لأحد تعرف على شيء من ذلك أن يطالب به. 31 - لا يطلب إلى أي مسلم يكون قد هدد أو جرح أو قتل أسيراً أو أسيرة نصرانية ليس أو ليست في حوزته رده أو ردها الآن أو فيما بعد. 32 - لا يدفع عن الأملاك والأراضي السلطانية (الملكية)، بعد انتهاء السنوات الثلاث المعفاة من الضرائب إلا وفقًا لقيمتها، وعلى مثل الأراضي العادية. 33 - يطبق ذلك أيضًا على أملاك الفرسان والقادة المسلمين فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية. 34 - يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما، والأراضي التابعة لهما بما في هذا العهد من الامتيازات، ويسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر تبدأ من 18 ديسمبر. 35 - يكون الحكام والقواد والقضاة، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضي التابعة لهما، ممن يعاملون الناس بالحسنى، ويحافظون على الامتيازات الممنوحة، فإذا أخل أحدهم بالواجب، عوقب، وأُحل مكانه غيره يحسن معاملة المسلمين. 36 - لا يحق للملكين ولا لأعقابهما إلى الأبد أن يسألوا الملك أبا عبد الله أو أحدًا من المسلمين المذكورين في أية صورة عن أي شيء يكونون قد فعلوه حتى يوم تسليم الحمراء، أي بعد ستين يومًا من توقيع المعاهدة. 37 - لا يولي عليهم أحد من الفرسان والقادة أو الخدم الذين كانوا تابعين لملك وادي آش (مولاي الزغل). 38 - إذا وقع نزاع بين نصراني أو نصرانية ومسلم أو مسلمة فإن النزاع ينظر أمام قاضٍ نصراني وآخر مسلم لكيلا يتظلم أحد مما يقضى به. 39 - يقوم الملكان بالإفراج عن الأسرى المسلمين ذكورًا وإناثًا، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما، إفراجًا حرًا دون أية نفقة أو فدية أو غيرها، ويكون الإفراج عمن كان من هؤلاء الأسرى في الأندلس، في ظرف خمسة أشهر تلي المعاهدة. أما الأسرى الذين يكونون في قشتالة فيفرج عنهم خلال ثمانية أشهر. 40 - إذا دخلت أية محلة من نواحي البشرات في طاعة

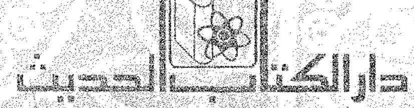
جلالتيهما فإنه يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصارى ذكورًا وإناثًا في ظرف خمسة عشر يومًا، من تاريخ الانضمام، وذلك دون أية نفقة. 41-تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الآن في موانئ مملكة غرناطة لتسافر في أمان، على ألا تكون حاملة أي أسير نصراني، ولا يحدث لها أي ضرر ولا إتلاف، ولا يؤخذ منها شيء. ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى نصارى. ويحق للملكين أن يرسلا من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض. 42 - لا يُدعى أحد من المسلمين إلى الحرب، ولا يؤخذ رغم إرادته، وإذا شاء الملكان استدعاء الفرسان الذين لهم خيول وسلاح للعمل في نواحي الأندلس فيجب أن يدفع لهم الأجر من يوم الرحيل حتى يوم العودة. 43 - يجب على من كان عليه دين أو تعهد، أن يؤديه لصاحب الحق، ولا يحق له التحرر من هذه الحقوق. 44 - يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون لمحاكم المسلمين، مسلمين الآن وإلى الأبد. 45 - يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين من المسلمين ولا يتولاها نصراني الآن ولا في أي وقت. 46 - في اليوم الذي تسلم فيه الحمراء وحصن الحيزان والأبواب يقوم الملكان بإصدار مراسيم الامتيازات، للملك أبي عبد الله، وللمدينة ممهورة بتوقيعهما، ومختومة بخاتمهما، وأن يصدق عليهما ولدهما الأمير، والكردينال دسبينا، ورؤساء الهيئات الدينية، والعظماء.. حتى تكون ثابتة وصحيحة الآن وفي كل وقت.

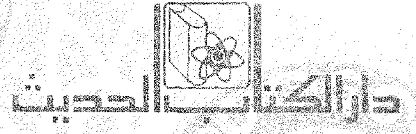
وقد ذيلت المعاهدة بحاشية خلاصتها أن ملكي قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص، ويوقعانه باسميهما، ويمهرانه بخاتميهما» (25 نوفمبر 1491م)[1].

* * *

(1) د. أسعد حوامد، المرجع السابق، ص 153.

الفهرس


دار الكتاب الحديث


دار الكتاب الحديث

لمحة عن إسبانيا الإسلامية - الغرب الأوروبي في عصر البعثة النبوية - إسبانيا قبل الفتح الإسلامي - فتح المغرب العربي - الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا - ولاة إسبانيا الإسلامية بعد موسى بن نصير - ولاة الأندلس على عهد خلفاء الأمويين - الحملات الإسلامية إلى بلاد (فرنسا) - معركة بلاط الشهداء - استبداد الحكام العرب وثورة البربر في المغرب - الدولة الأموية الإسبانية - عبد الرحمن الداخل - إسبانيا الإسلامية في عصر الطوائف - فتح المرابطين لإسبانيا الإسلامية - دول الطوائف - المرابطون والموحدون في إسبانيا الإسلامية - لمحة عن الجوانب الحضارية والإدارية - عودة ابن تاشفين - خروج إسبانيا الإسلامية من ملك الموحدين - بنو نصر أو بنو الأحمر في غرناطة .

البروفيسور الدكتور
محمد حسن العيدروس

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة .
- رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العيدروس التجارية .
- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير في التطورات السياسية في الإمارات العربية 1932 - 1971 والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية 1921 - 1971 .
- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديرا للعلاقات الثقافية بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة 1979 - 1984 ، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة 1984 - 1993 وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الظفرة الجوية في أبو ظبي ، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ثم في جامعة الكـ... في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا 2000 - 2002 ، ثم في القوات المسلحة لدولة الإمارات العربية... 2002 - 2006 : الأمين العام للجنة الإمارات للتاريخ العسكري ، ثم رئيس مؤسسة اسكاندافيـ... والتجاري في السويد من عام 2007 حتى الآن ، وهو عضو في العديد من الجمعيات العلمية الإقليمـ... الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب منذ عام 1991 وحتى الآن ورئيس تحرير مجلة دراسات روتر...
- صدر له أكثر من اثنى عشر كتابا وأكثر من أربعين بحثا معظمها في الخليج العربي والدراسا...
- نائب رئيس جمعية الناشرين الإماراتيين .

العصر الأندلسي

دول الطوائف

والأسر الحاكمة في الأندلس